تفسير

البحر المحيط

لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي

المتوفى سنة ٧٤٥هـ

دراسة وتحقيق وتعليق

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود | الشيخ علي محمد معوض

شارك في تحقيقه

الدكتور زكريا عبد المجيد النوقي
أستاذ اللغة العربية بجامعة الأزهر

الدكتور أحمد النجولي الجمل
أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

قرظه

الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن كلية أصول الدين - جامعة الأزهر

الجزء الثامن

المحتوى

أول الزخرف - آخر الناس

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

سورة الزخرف تسع وثمانون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

حم ۝ والكتب المبين ۝ إنا جعلنه قرءنا عربيا لعلكم تعقلون ۝ وإنه في أم الكتب
لدينا لعلي حكيم ۝ أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ۝ وكم
أرسلنا من نبي في الأولين ۝ وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزءون ۝ فأهلكنا أشد منهم
بطشا ومضى مثل الأولين ۝ ولئن سألتهم من خلق السموت والأرض ليقولن خلقهن العزيز
العليم ۝ الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ۝ والذي
نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون ۝ والذي خلق الأزواج كلها
وجعل لكم من الفلك والأنعم ما تركبون ۝ لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه
وتقولوا سبحن الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ۝ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ۝ وجعلوا له من
عباده جزءا إن الإنسن لكفور مبين ۝ أم اتخذ مما يخلق بنت وأصفكم بالبنين ۝ وإذا
بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم ۝ أومن ينشؤا في الحلية
وهو في الخصام غير مبين ۝ وجعلوا الملئكة الذين هم عبد الرحمن إنثا أشهدوا خلقهم
ستكتب شهدتهم ويسئلون ۝ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدنهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا
يخرصون ۝ أم ءاتينهم كتبا من قبله فهم به مستمسكون ۝ بل قالوا إنا وجدنا ءاباءنا على
أمة وإنا على ءاثرهم مهتدون ۝ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا
ءاباءنا على أمة وإنا على ءاثرهم مقتدون ۝ قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه ءاباءكم قالوا
إنا بما أرسلتم به كفرون ۝ فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عقبة المكذبين ۝ وإذ قال إبرهيم

لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ۝ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ۝ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ۝ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ۝ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا

وقيل : والكتاب أريد به الكتب المنزلة ، والضمير في جعلناه يعود على القرآن ، وإن لم يتقدم له صريح الذكر لدلالة المعنى عليه . وقال الزمخشري : جعلناه بمعنى : صيرناه معدى إلى مفعولين ، أو بمعنى خلقناه معدى إلى واحد كقوله : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ [الأنعام ١] ، و﴿ قرآناً عربياً ﴾ حال ، ولعل مستعار لمعنى الإرادة لتلاحظ معناها ومعنى الترجي أي : خلقناه عربياً غير عجمي إرادة أن تعقله العرب ، ولئلا يقولوا لولا فصلت آياته انتهى . وهو على طريقة الاعتزال في كون القرآن مخلوقاً ، وأم الكتاب اللوح المحفوظ ، لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب ، وهذا فيه تشريف للقرآن وترفيع بكونه لديه علياً على جميع الكتب ، وعالياً عن وجوه الفساد حكيماً . أي : حاكماً على سائر الكتب ، أو محكماً بكونه في غاية البلاغة والفصاحة وصحة المعاني . قال قتادة وعكرمة والسدي : اللوح المحفوظ(١) القرآن فيه بأجمعه منسوخ ، ومنه كان جبريل ينزل ، وقيل : أم الكتاب الآيات المحكمات لقوله ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ﴾ [آل عمران ٧] ومعناه أن سورة حم واقعة في الآيات المحكمات التي هي الأم . وقرأ الجمهور في أم بضم الهمزة ، والأخوان بكسرها ، وعزاها ابن عطية ليوسف بن عمر إلى العراقي ، ولم يعزها للأخوين غفلة منه . يقال : ضرب عن كذا ، وأضرب عنه إذا أعرض عنه . والذكر : قال الضحاك وأبو صالح : القرآن(٢) ، أي : أفنزيل عنكم القرآن ، وهو من ضرب الغرائب عن الحوض إذا أدارها ونحاها وقال الشاعر :

اضرب عنك الهموم طارقها ... ضربك بالسيف قونس الفرس(٣)

وقيل : الذكر الدعاء إلى الله ، والتخويف من عقابه . قال الزمخشري : والفاء للعطف على محذوف تقديره أنهملكم فنضرب عنكم الذكر ، إنكاراً لأن يكون الأمر على خلاف ما قدم من إنزاله الكتاب ، وخلقه قرآناً عربياً ليعقلوه ، وليعملوا بموجبه انتهى . وتقدم الكلام معه في تقديره فعلاً بين الهمزة والفاء في نحو ﴿ أفلم يسيروا ﴾ [محمد ١٠] ﴿ أفلا تعقلون ﴾ [البقرة ٤٤] وبينها وبين الواو في نحو ﴿ أولم يسيروا ﴾ [الروم ٩] كما وأن المذهب الصحيح قول سيبويه والنحويين أن الفاء والواو منوي بهما التقديم ، لعطف ما بعدهما على ما قبلهما ، وأن الهمزة تقدمت لكون الاستفهام له صدر الكلام ، ولا خلاف بين الهمزة والحرف ، وقد رددنا عليه قوله . وقال ابن عباس ومجاهد : المعنى أفنترك تذكيركم وتخويفكم عفواً عنكم ، وعفواً عن إجرامكم (أن كنتم) أو من أجل أن كنتم قوماً مسرفين ، أي : هذا لا يصلح وذهب قتادة إلى أن المعنى صفحاً أي : معفواً عنه أي : نتركه ثم لا تؤاخذون بقبوله ، ولا بتدبره ولا تنبهون عليه ، وهذا المعنى نظير قول الشاعر :

تمر الصبا صفحاً بساكن ذي الغضا ... ويصدع قلبي أن يهب هبوبها

وقول كثير :

صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلة ... فمن مل منها ذلك الوصل ملت

وقال ابن عباس : المعنى أفحسبتم أن نصفح عنكم ، ولما تفعلوا ما أمرتم به . وقال الكلبي : أن نترككم هملاً بلا أمر ولا نهي ، وقال مجاهد أيضاً : أن لا نعاقبكم بالتكذيب ، وقيل : أن نترك الإنزال للقرآن من أجل تكذيبكم . وقرأ حسان بن عبد الرحمن الضبعي ، والسميط بن عمير ، وشبيل بن عزرة : بضم الصاد والجمهور بفتحها ، وهما لغتان

---

(١) انظر الوسيط ٤/ ٦١ .

(٢) انظر الوسيط ٤/ ٦٢ .

(٣) قال أبو حاتم أنشد الأصمعي بيتاً مصنوعاً لطرفة مذكوراً انظر الرازي (٦٦٠) ، شرح المفصل لابن يعيش (٩/ ٤) ، الكشاف (٤/ ٢٣٧) ، روح المعاني (١٥/ ٦٣) ، اللسان (قنس) .

لابنه ، أي : من ينشأ يجعلونه لله . وقرأ الجمهور : ينشأ مبنياً للفاعل ، والجحدري في قول مبنياً للمفعول مخففاً . وابن عباس وزيد بن علي وحفص ومجاهد والجحدري في رواية والأخوان وحفص والمفضل وأبان وابن مقسم وهارون عن أبي عمرو مبنياً للمفعول مشدداً . والحسن في رواية يناشأ على وزن يفاعل مبنياً للمفعول ، والمناشأة بمعنى : الإنشاء ، كالمعالاة بمعنى الإعلاء . وفي الخصام متعلق بمحذوف تفسيره هو غير مبين ، أي : وهو لا يبين في الخصام ، ومن أجاز أن زيداً غير ضارب بإعمال المضاف إليه في غير أجاز أن يتعلق بمبين ، أجرى غير مجرى لا ، وبتقديم معمول ما بعد لا عليه وقد ذكر ذلك في النحو .

﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون ، وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ، أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ، بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ، فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ، وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ، بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ، ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ، وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمت ربك خير مما يجمعون﴾ .

لم يكفهم أن جعلوا لله ولداً وجعلوه إناثاً ، وجعلوهم من الملائكة ، وهذا من جهلهم بالله وصفاته ، واستخفافهم بالملائكة حيث نسبوا إليهم الأنوثة . وقرأ عمر بن الخطاب والحسن وأبو رجاء وقتادة وأبو جعفر وشيبة والأعرج والابنان ونافع (عند الرحمن) ظرفاً ، وهو أدل على رفع المنزلة وقرب المكانة ، لقوله : (إن الذين عند ربك) . وقرأ عبد الله وابن عباس وابن جبير وعلقمة وباقي السبعة عباد الرحمن جمع عبد لقوله : (بل عباد مكرمون) . وقرأ الأعمش : (عباد الرحمن) جمعاً ، وبالنصب حكاها ابن خالويه ، قال : وهي في مصحف ابن مسعود كذلك ، والنصب على إضمار فعل ، أي : الذين هم خلقوا عباد الرحمن ، وأنشؤوا عباد الرحمن إناثاً . وقرأ أبي : (عبد الرحمن) مفرداً ، ومعناه الجمع ، لأنه اسم جنس . وقرأ الجمهور : (أشهدوا) بهمزة الاستفهام داخلة على شهدوا ماضياً مبنياً للفاعل ، أي : أحضروا خلقهم ، وليس ذلك من شهادة تحمل المعاني التي تطلب أن تؤدى . وقيل : سألهم الرسول عليه السلام ما يدريكم أنهم إناث ؟ فقالوا : سمعنا ذلك من آبائنا ، ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا ، فقال الله تعالى : (ستكتب شهادتهم ويسألون) عنها ، أي : في الآخرة . وقرأ نافع بهمزة داخلة على أشهدوا رباعياً مبنياً للمفعول بلا مد بين الهمزتين ، والمسيبي عنه بمدة بينهما ، وعلي بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد وفي رواية أبي عمرو ونافع بتسهيل الثانية بلا مد وجماعة كذلك بمد بينهما ، وعن علي والمفضل عن عاصم تحقيقهما بلا مد والزهري وناس أشهدوا بغير استفهام مبنياً للمفعول رباعياً ، فقيل : المعنى على الاستفهام ، حذفت الهمزة لدلالة المعنى عليها ، وقيل : الجملة صفة للإناث ، أي : إناثاً مشهداً منهم خلقهم ، وهم لم يدعوا أنهم شهدوا خلقهم ، لكن لما ادعوا بجراءتهم أنهم إناث صاروا كأنهم ادعوا ذلك ، وإشهادهم خلقهم . وقرأ الجمهور : إناثاً ، وزيد بن علي أنثاً جمع الجمع قيل : ومعنى جعلوا سموا ، وقالوا : والأحسن أن يكون المعنى وصيروا اعتقادهم الملائكة إناثاً ، وهذا الاستفهام فيه تهكم بهم ، والمعنى إظهار فساد عقولهم ، وأن دعاويهم مجردة من الحجة ، وهذا نظير الآية الطاعنة على أهل التنجيم والطبائع : (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) . وقرأ

الجمهور «ستكتب» بالتاء من فوق مبنياً للمفعول «شهادتهم» بالرفع مفرداً، وقرأ الزهري كذلك إلا أنه بالياء، والحسن كذلك إلا أنه بالتاء، وجمع شهادتهم. وقرأ ابن عباس وزيد بن علي وأبو جعفر وأبو حيوة وابن أبي عبلة والجحدري والأعرج بالنون مبنياً للفاعل «شهادتهم» على الإفراد. وقرأت فرقة «سيكتب» بالياء مبنياً للفاعل، أي: الله «شهادتهم» بفتح التاء، والمعنى أنه سيكتب شهادتهم على الملائكة بأنوثتهم ويسألون، وهذا وعيد. ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ الضمير للملائكة، قال قتادة ومقاتل والكلبي، وقال مجاهد: الأوثان. علقوا انتفاء العبادة على المشيئة، لكن العبادة وجدت لما انتفت المشيئة، والمعنى: أنه لو شاء عدم عبادتنا لهم ما عبدناهم، وقد جعلوا إمهال الله لهم وإحسانه إليهم وهم يعبدون غيره دليلاً على أنه يرضى ذلك ديناً. وتقدم الكلام على مثل هذه الجملة في أواخر الأنعام، وفي الكلام حذف، أي: فنحن لا نؤاخذ بذلك إذ هو وفق مشيئة الله، ولهذا قال: ﴿ما لهم بذلك من علم﴾ أي: بما يترتب على عبادتهم من العقاب ﴿إن هم إلا يخرصون﴾ أي: يكذبون، وقيل: الإشارة بذلك إلى ادعائهم أن الملائكة إناث. وقال الزمخشري: هما كفرتان مضمومتان إلى الكفرات الثلاث، وهما عبادتهم الملائكة من دون الله، وزعمهم أن عبادتهم بمشيئته، كما يقول إخوانهم المجبرة. انتهى. فجعل أهل السنة أخوات للكفرة عباد الملائكة، ثم أورد سؤالاً وجواباً جارياً على ما اختاره من مذهب الاعتزال يوقف على ذلك في كتابه، وقد نفى عنهم علم ترك عقابهم على عبادة غير الله، أي: ليس يدل على ذلك عقل. ثم نفى أيضاً أن يدل على ذلك سمع، فقال: ﴿أم آتيناهم كتاباً﴾ من قبل نزول القرآن، أو من قبل إنذار الرسل يدل على تجويز عبادتهم غير الله، وأنه لا يترتب على ذلك، ثم أخبر تعالى أنهم في ذلك مقلدون لآبائهم، ولا دليل لهم من عقل ولا نقل، ومعنى على أمة: أي طريقة ودين وملة، فقد سلكنا مسلكهم، ونحن مهتدون في اتباع آثارهم، ومنه قول قيس بن الخطيم:

كنا على أمة آباءنا ... ويقتدي بالأول الآخر(١)

وقرأ الجمهور: أمة بضم الهمزة، وقال مجاهد وقطرب: على ملة، وقال الجوهري: والأمة: الطريقة، والدين، يقال: فلان لا أمة له، أي: لا دين ولا نحلة.

قال الشاعر:

وهل يستوي ذو أمة وكفور

وتقدم الكلام في أمة في قوله: ﴿وادكر بعد أمة﴾ [يوسف: ٤٥]. وقرأ عمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة والجحدري بكسر الهمزة، وهي الطريقة الحسنة لغة في الأمة بالضم، قاله الجوهري. وقرأ ابن عباس: أمة بفتح الهمزة، أي: على قصد، وحال، والخلاف في الحرف الثاني كهو في الأول. وحكى مقاتل أن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، وأبي سفيان، وأبي جهل، وعتبة، وشيبة ابني ربيعة، من قريش، أي: كما قال من قبلهم أيضاً يقال لرسول الله ﷺ بذلك، والمترف: المنعم، أبطرتهم النعمة، فآثروا الشهوات، وكرهوا مشاق التكاليف. وقرأ الجمهور قل على الأمر، وابن عامر وحفص قال على الخبر. وقرأ الجمهور: «جئتكم» بتاء المتكلم، وأبو جعفر وشيبة وابن مقسم والزعفراني وأبو شيخ الهنائي وخالد «جئناكم» بنون المتكلمين، والظاهر أن الضمير في قال، أو في قل للرسول، أي: قل يا محمد لقومك أتتبعون آباءكم، ولو جئتكم بدين أهدى من الدين الذي وجدتم عليه آباءكم، وهذا تجهيل لهم حيث يقلدون، ولا ينظرون في الدلائل. قالوا: إنا بما أرسلتم أنت، ومن أرسل قبلك غلب الخطاب على الغيبة، فانتقمنا منهم

(١) البيت من المتقارب وليس في ديوانه. انظر القرطبي (١٦/ ٥٠)، روح المعاني (٢٥/ ١٢٣).

بالقحط، والقتل، والسبي، والجلاء، فانظر كيف كان عاقبة من كذبك. وقال ابن عطية: في قال ضمير يعود على النذير، وباقي الآية يدل على أن قل في قراءة من قرأها ليست بأمر لمحمد ـ ﷺ ـ وإنما هي حكاية لما أمر به النذير، وقوله في هذا الموضع كأنها شرطية بمعنى أن كان معنى الآية وإن جئتكم بأهدى، وأوضح مما كان عليه آباؤكم يصحبكم لجاجكم، وتقليدكم فأصاب الكفار حينئذ من الأمم المكذبة بأنبيائها كما كذبت بمحمد ـ ﷺ ـ ولا يتعين ما قاله، بل الظاهر هو ما قدمناه. (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه) ذكر العرب بحال جدهم الأعلى، ونهيه عن عبادة غير الله، وإقراره بالتوحيد والعبادة منزواً لهم، ليكون لهم رجوع إلى دين جدهم إذ كان أشرف آبائهم، والمجمع على محبته وأنه ـ ﷺ ـ لم يقلد أباه في عبادة الأصنام، فينبغي أن تقتدوا به في ترك تقليد آبائكم الأقربين، وترجعوا إلى النظر واتباع الحق. وقرأ الجمهور براء مصدر، يستوي فيه المفرد والمذكر، ومقابلهما يقال: نحن البراء منك، وهي لغة العالية، وقرأ الزعفراني والقورصي عن أبي جعفر وابن المنذري عن نافع بضم الباء، والأعمش بريء، وهي لغة نجد وشبهته، ويجمع ويؤنث، وهذا نحو طويل وطوال وكريم وكرام. وقرأ الأعمش: إني بنون مشددة دون نون الوقاية، والجمهور إنني بنونين الأولى مشددة، والظاهر أن قوله: (إلا الذي فطرني) استثناء منقطع، إذ كانوا لا يعبدون الله مع أصنامهم، وقيل: كانوا يشركون أصنامهم معه تعالى في العبادة، فيكون استثناء متصلاً، وعلى الوجهين، فالذي في موضع نصب، وإذا كان استثناء متصلاً كانت شاملة من يعلم ومن لا يعلم، وأجاز الزمخشري أن يكون الذي مجروراً بدلاً من المجرور بمن، كأنه قال: إنني براء مما تعبدون إلا من الذي، وأن تكون إلا صفة بمعنى غير على أن ما في ما تعبدون نكرة موصوفة تقديره إنني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني، فهو نظير قوله. ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء ٢٢] انتهى. ووجه البدل لا يجوز، لأنه إنما يكون في غير الموجب من النفي والنهي والاستفهام، ألا ترى أنه يصلح ما بعد إلا لتفريغ العامل له، وإنني بريء جملة موجبة فلا يصلح أن يفرغ العامل فيها للذي هو بريء لما بعد إلا، وعن الزمخشري كون بريء فيه معنى الانتفاء، ومع ذلك فهو موجب لا يجوز أن يفرغ لما بعد إلا، وأما تقديره ما نكرة موصوفة فلم يبقها موصولة لاعتقاده أن إلا لا تكون صفة إلا لنكرة، وهذه المسألة فيها خلاف من النحويين من قال توصف بها النكرة والمعرفة فعلى هذا تبقى ما موصولة، ويكون إلا في موضع الصفة للمعرفة، وجملة فطرني في صلة الذي تنبيه على أنه لا يعبد، ولا يستحق العبادة إلا الخالق للعباد (فإنه سيهدين) أي يلهم هدايتي، وفي مكان آخر الذي خلقني فهو يهدين فهو هاديه في المستقبل والحال، والضمير في جعلها المرفوع عائد على إبراهيم، وقيل: على الله، والضمير المنصوب عائد على كلمة التوحيد التي تكلم بها، وهي قوله (إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني)، وقال قتادة ومجاهد والسدي: لا إله إلا الله، وإن لم يجر لها ذكر، لأن اللفظ يتضمنها. وقال ابن زيد: كلمة الإسلام لقوله: ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ [البقرة ١٢٨] ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت﴾ [البقرة ١٣١] ﴿هو سماكم المسلمين﴾ [الحج ٧٨]، وقرأ حميد بن قيس: (كلمة) بكسر الكاف، وسكون اللام، وقرئ في عقبه بسكون القاف، أي: في ذريته، وقرئ في عاقبه أي: من عقبه، أي: خلفه، فلا يزال فيهم من يوحد الله، ويدعو إلى توحيده لعلهم، أي: لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم، وقرأ الجمهور (بل متعت) بتاء المتكلم، والإشارة بهؤلاء لقريش، ومن كان من عقب إبراهيم عليه السلام من العرب لما قال في عقبه قال تعالى (لكن متعت هؤلاء) وأنعمت عليهم في كفرهم فليسوا ممن تعقب كلمة التوحيد فيهم. وقرأ قتادة والأعمش (بل متعت) بتاء الخطاب، ورواها يعقوب عن نافع. قال صاحب اللوامح: وهي من مناجاة إبراهيم عليه السلام ربه تعالى، والظاهر أنه من مناجاة محمد ـ ﷺ ـ أي: قال يا رب بل متعت، وقرأ الأعمش: (متعنا) بنون العظمة، وهي تعضد قراءة الجمهور (حتى جاءهم الحق) وهو القرآن (ورسول مبين) هو محمد ـ ﷺ ـ. وقال الزمخشري: (فإن قلت): فما وجه من قرأ بل متعت بفتح التاء (قلت:) كأن الله تعالى اعترض على ذاته في قوله: (وجعلها كلمة باقية في

ومن الدليل على القضاء وكونه ... بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق[1]

ورحمة ربك، قيل: النبوة[2]. وقيل: الهداية والإيمان. وقال قتادة والسدي: الجنة خير مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا. وفي هذا اللفظ تحقير الدنيا، وما جمع فيها من منافعها.

﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون. ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون. وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين. ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين. ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون. أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين. فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون. أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون. فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم. وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون. واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ لما بين تعالى أن منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيسة عند الله، أي: ولولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة، فيصيروا أمة واحدة في الكفر. قاله ابن عباس والحسن وقتادة والسدي. لأعطيناهم من زينة الدنيا كذا وكذا، ولكن تعالى اقتضت حكمته أن يغني ويفقر الكافر والمؤمن. قال ابن عطية: واللام في (لمن يكفر) لام الملك، وفي (لبيوتهم) لام تخصيص، كما تقول: هذا الكساء لزيد لدابته، أي: هو لدابته جلّ، ولزيد ملك، انتهى. ولا يصح ما قاله، لأن لبيوتهم بدل اشتمال أعيد معه العامل، فلا يمكن من حيث هو بدل أن تكون اللام الثانية إلا بمعنى اللام الأولى، أما أن يختلف المدلول فلا. واللام في كليهما للتخصيص. وقال الزمخشري: لبيوتهم بدل اشتمال من قوله (لمن يكفر)، ويجوز أن تكونا بمنزلة اللامين في قولك: وهبت له ثوباً لقميصه، انتهى. ولا أدري ما أراد بقوله: ويجوز إلى آخره. وقرأ الجمهور (سُقُفاً) بضمتين، وأبو رجاء بضم وسكون، وهما جمع سقف لغة تميم، كرهن ورهن. وابن كثير وأبو عمرو بفتح السين والسكون على الإفراد. وقال الفراء: جمع سقيفة. وقرئ بفتحتين كأنه لغة في سقف. وقرئ سقوفاً جمعاً على فعول، نحو كعب وكعوب. وقرأ الجمهور: (ومعارج) جمع معرج، وطلحة (ومعاريج) جمع معراج، وهي المصاعد إلى العلالي. (عليها) أي: على المعارج (يظهرون) أي: يعلون السطوح، كما قال (فما اسطاعوا أن يظهروه) الكهف ٩٧. وقرأ الجمهور (وسُرُراً) بضم السين، وقرئ بفتحها، وهي لغة لبعض تميم وبعض كلب، وذلك في جمع فعيل المضعف إذا كان اسماً باتفاق، وصفة نحو ثوب جديد وثياب جدد باختلاف بين النحاة. وهذه الأسماء معاطيف على قوله (سقفاً من فضة) فلا يتعين أن توصف المعاطيف بكونها من فضة. وقال الزمخشري: سقوفاً ومصاعد وأبواباً وسرراً كلها من فضة، انتهى. كأنه يرى اشتراك المعاطيف في وصف ما عطفت عليه. (وزخرفاً). قال الزمخشري: وجعلنا لهم زخرفاً، ويجوز أن يكون الأصل سقفاً من فضة وزخرف، يعني: بعضها من فضة، وبعضها من ذهب، فنصب عطفاً على محل من فضة، انتهى. والزخرف: الذهب هنا، قاله ابن عباس والحسن وقتادة والسدي. وفي الحديث: «إياكم والحمرة[3] فإنها من أحب الزينة إلى الشيطان». قال ابن عطية: الحسن أحمر، والشهوات تتبعه، انتهى. قال بعض شعرائنا:

---

(١) تقدم.

(٢) انظر البغوي ٤/١٣٩ والقرطبي ٦٦/١٩.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ١٨/١٤٨ والهيثمي في المجمع ٥/١٤٠ في كتاب اللباس باب ما جاء في الحمرة، وقال: رواه الطبراني من طريقين في أحدهما يعقوب بن خالد بن نجيح البكري العبدي ولم أعرفه وفي الآخر بكر بن محمد وروى عن سعيد بن ... وبقية رجالهما ثقات.

وَضَبَّتْ دَرْعِلْكَ مِنْ دِمَاءِ كُمَاتِهِمْ   لَمَّا رَأَيْتَ الْحُسْنَ يُلْبَسُ أَحْمَرَا[1]

وقال ابن زيد : الزخرف أثاث البيت ، وما يتخذ له من السرر والنمارق ، وقال الحسن : النقوش[1] ، وقيل : التزاويق كالنقش ، وقرأ الجمهور لما بفتح اللام وتخفيف الميم ، وهي مخففة من الثقيلة ، واللام الفارقة بين الإيجاب والنفي ، وما زائدة ومتاع خبر كل . وقرأ الحسن وطلحة والأعمش وعيسى وعاصم وحمزة لما بتشديد الميم ، وإن نافية ، ولما بمعنى إلا . وقرأ أبو رجاء وأبو حيوة لما بكسر اللام الفارقة بين الإيجاب والنفي ، وما زائدة ومتاع خبر كل . وقرأ الحسن وطلحة والأعمش وعيسى وعاصم وحمزة لما بتشديد الميم ، وإن نافية ، ولما بمعنى إلا . وقرأ أبو رجاء وأبو حيوة لما بكسر اللام وخرّجوه على أن ما موصولة ، والعائد محذوف تقديره للذي هو متاع كقوله : ﴿ تماماً على الذي هو أحسن ﴾ وإن في هذا التخريج هي المخففة من الثقيلة ، وكل مبتدأ وخبره في المجرور ، أي : وإن كل ذلك لكائن ، أو مستقر الذي هو متاع ، ومن حيث هي المخففة من الثقيلة ، كان الإتيان باللام هو الوجه ، فكان يكون التركيب لكما متاع ، لكنه قد تحذف هذه اللام إذا دل المعنى على أن إن هي المخففة من الثقيلة فلا تلتبس إلى ذكر اللام الفارقة ، ومن ذلك قول الشاعر :

وَنَحْنُ أُبَاةُ الضَّيْمِ مِنْ آلِ مَالِكٍ   وَإِنْ مَالِكٌ كَانَتْ كِرَامَ الْمَعَادِنِ[2]

يريد لكانت ، ولكنه حذف ، لأنه لا يتوهم في إن أن تكون نافية ، لأن صدر البيت يدل على المدح وتعين أن تكون المخففة من الثقيلة ، والآخرة عند ربك للمتقين ، أي : ونعيم الآخرة ، وفيه : تحريض على التقوى ، وقرأ ﴿ ومن يعش ﴾ بضم الشين ، أي يتعامى ويتجاهل عن ذكره ، وهو يعرف الحق ، وقيل : يقل نظره في شرح الله ويغضي جفونه عن النظر في ذكر الرحمن ، والذكر هنا يجوز أن يراد به القرآن . واحتمل أن يكون مصدراً أضيف إلى المفعول ، أي : يعش عن أن يذكر الرحمن . وقال ابن عطية : أي : فيما ذكر عباده ، فالمصدر مضاف إلى الفاعل انتهى . كأنه يريد بالذكر التذكير ، وقرأ يحيى بن سلام البصري : ﴿ ومن يعش ﴾ بفتح الشين أي : يعم عن ذكر الرحمن ، وهو القرآن كقوله : ﴿ صم بكم عمي ﴾ ، وقرأ زيد بن علي : يعشو بالواو . وقال الزمخشري على أن من موصولة غير مضمنة معنى الشرط ، وحق هذا القارئ أن يرفع نقيض انتهى . ولا يتعين ما قاله إذ تتخرج هذه القراءة على وجهين : أحدهما : أن تكون من شرطية ، ويعشو مجزوم بحذف الحركة تقديراً ، وقد ذكر الأخفش : أن ذلك لغة بعض العرب ، ويحذفون حروف العلة للجازم ، والمشهور عند النحاة أن ذلك يكون في الشعر لا في الكلام والوجه الثاني : أن تكون من موصولة ، والجزم بسببها للموصول باسم الشرط وإذا كان ذلك مسموعاً في الذي ، وهو لم يكن اسم شرط قط ، فالأولى أن يكون فيما استعمل موصولاً وشرطاً ، قال الشاعر :

وَلَا تَحْفِرَنْ بِئْراً تُرِيدُ أَخاً بِهَا   فَإِنَّكَ فِيهَا أَنْتَ مِنْ دُونِهِ تَقَعْ[4]

كَذَاكَ الَّذِي يَبْغِي عَلَى النَّاسِ ظَالِماً   تُصِبْهُ عَلَى رَغْمٍ عَوَاقِبُ مَا صَنَعْ

أنشدهما ابن الأعرابي ، وهو مذهب الكوفيين ، وله وجه من القياس ، وهو أنه كما شبه الموصول باسم الشرط فدخلت الفاء في خبره ، فكذلك يشبه به فيجزم الخبر إلا أن دخول الفاء منقاس إذا كان الخبر مسبباً عن الصلة بشروطه

---

(١) البيت في روح المعاني (٢٥ / ٨٠) .

(٢) انظر القرطبي ١٦ / ٩٠ .

(٣) انظر المصدر السابق .

(٤) البيتان من الطويل انظر روح المعاني (٢٥ / ٨٠) وتقدم البيت الثاني في سورة البقرة

يصلح لحقيقة كثير مما ساءلته الشعراء الديار والأطلال ، ومنه سل الأرض من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإنها إن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً . فالسؤال هنا مجاز عن النظر في أديانهم ، هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء . والذي يظهر أنه خطاب للسامع الذي يريد أن يفحص عن الديانات ، فقيل له : اسأل أيها الناظر أتباع الرسل ، أجاءت رسلهم بعبادة غير الله ، فإنهم يخبرونك أن ذلك لم يقع ، ولا يمكن أن يأتوا به . وأبعد من ذهب إلى أن المعنى واسألني عن من أرسلنا ، وعلق واسأل فارتفع من وهو اسم استفهام على الابتداء ، وأرسلنا خبره في موضع نصب واسأل بعد إسقاط الخافض ، كأن سؤاله من أرسلت يا رب قبلي من رسلك أجعلت في رسالته آلهة تعبد ، ثم ساق السؤال فحكى المعنى فرد الخطاب إلى محمد في قوله : ﴿ من قبلك ﴾ .

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين ، فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون . وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ، وقالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ، ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ، فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ، فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ .

مناسبة هذه الآية لما قبلها من وجهين :

أحدهما : أنه لما تقدم طعن قريش على الرسول واختيارهم أن ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أي : في الجاه والمال ، وذكر أن مثل ذلك سبقهم إليه فرعون في قوله ﴿ أليس لي ملك مصر ﴾ [الزخرف : ٥١] إلى آخر الآية أتبعه بالملك والمال ، ففرعون سلفهم في ذلك ، ومع ذلك فصار فرعون مقهوراً مع موسى منتقماً منه ، فكذلك قريش . والوجه الثاني أنه لما قال : ﴿ واسأل من أرسلنا ﴾ الآية ، ذكر قصة موسى وعيسى ، وهما أكثر أتباعاً ممن سبقهم من الأنبياء ، وكل جاء بالدعاء إلى الله وإفراده بالعبادة ، فلم يكن فيما جاء به إباحة اتخاذ آلهة من دون الله كما اتخذت قريش ، فناسب ذكر قصتيهما للآية التي قبلها . وآيات موسى هي المعجزات التي أتى بها ومعنى الملأ : الأشراف ، لأن غيرهم من الناس تبع لهم . فلما جاءهم بآياتنا قبله كلام محذوف تقديره : فطالبوه بما يدل على صحة دعواه الرسالة من الله . فلما جاءهم بآياتنا وهي انقلاب العصا ثعباناً ، وعودها عصاً ، وإخراج اليد البيضاء نيرة ، وعودها إلى لونها الأول إذا هم منها يضحكون . أي : فاجأهم الضحك بحيث لم يفكروا ، ولم يتأملوا ، بل بنفس ما رأوا ذلك ضحكوا سخرية واستهزاء كما كانت قريش تضحك . قال الزمخشري : (فإن قلت) كيف جاز أن يجاب لما بإذا المفاجأة . (قلت) : لأن فعل المفاجأة معها مقدر ، وهو عامل النصب في محلها ، كأنه قيل : فلما جاءهم بآياتنا فاجؤوا وقت ضحكهم انتهى . ولا نعلم نحوياً ذهب إلى ما ذهب إليه هذا الرجل من أن إذا الفجائية تكون منصوبة بفعل مقدر تقديره فاجأ ، بل المذاهب فيه ثلاثة مذاهب : إنها حرف فلا تحتاج إلى عامل . ومذهب أنها ظرف مكان ، فإن صرح بعد الاسم بعدها بخبر له كان ذلك الخبر عاملاً فيها ، نحو : خرجت فإذا زيد قائم ، فقائم ناصب لإذا ، كأن التقدير : خرجت ففي المكان الذي خرجت فيه زيد قائم .

ومذهب : أنها ظرف زمان ، والعامل فيه الخبر أيضاً ، كأنه قال : ففي الزمان الذي خرجت فيه زيد قائم ، وإن لم يذكر بعد الاسم خبر ، أو ذكر اسم منصوب على الحال كانت إذا خبراً للمبتدأ ، فإن كان المبتدأ جثة ، وقلنا إذا ظرف

فهلا ألقى رب موسى عليه أساورة من ذهب إن كان صادقاً، وكان ذلك دليلاً على إلقاء مقاليد الملك إليه لما وصف نفسه بالعزة والملك، ووازن بينه وبين موسى عليه السلام فوصفه بالضعف، وقلة الأعضاد، فاعترض فقال: إن كان صادقاً فهلا ملكه ربه، وسوّره، وجعل الملائكة أنصاره. وقرأ الضحاك: «فلولا ألقى» مبنياً للفاعل، أي: الله أسورة نصباً، والجمهور أساورة رفعاً. وأبي وعبد الله: أساوير، والمفرد أسوار بمعنى سوار، والهاء عوض من الياء، كهي في زنادقة هي عوض من ياء زناديق المقابلة لياء زنديق، وهذه مقابلة لألف أسوار. وقرأ الحسن وقتادة وأبو رجاء والأعرج ومجاهد وأبو حيوة وحفص: أسورة جمع سوار، نحو خمار وأخمرة، وقرأ الأعمش: أساور، ورويت عن أبي وعن أبي عمرو «أو جاء معه الملائكة مقترنين» أي: يحمونه ويقيمون حجته. قال ابن عباس: يعينونه على من خالفه. وقال السدي: يقارن بعضهم بعضاً(١). وقال مجاهد: يمشون معه. وقال قتادة: متتابعين. «فاستخف قومه» أي: استجهلهم لخفة أحلامهم، قاله ابن الأعرابي. وقال غيره: حملهم على أن يخفوا لما يريد منهم فأجابوه لفسقهم. «فلما آسفونا» منقول بهمزة من أسف إذا غضب، والمعنى: فلما عملوا الأعمال الخبيثة الموجبة لأن نغضب عليهم. وعن ابن عباس: أحزنوا أولياءنا المؤمنين، نحو السحرة وبني إسرائيل. وعنه أيضاً أغضبونا. وعن علي أسخطونا، وقيل: خالفونا. وقال القشيري وغيره: الغضب من الله إما إرادة العقوبة، فهو من صفات الذات، أو العقوبة فيكون من صفات الفعل. وقرأ الجمهور: سلفاً. قال ابن عباس وزيد بن أسلم وقتادة: أي متقدمين إلى النار، وهو مصدر سلف يسلف سلفاً، وسلف الرجل آباؤه المتقدمون. والجمع أسلاف وسلاف، وقيل: هو جمع سالف، كحارس وحرس، وحقيقته أنه اسم جمع، لأن فعلاً ليس من أبنية الجموع المكسرة. وقال طفيل يرثي قومه:

مضوا سلفاً قصد السبيل عليهم ... وصرف المنايا بالرجال تقلب(٢)

قال الفراء والزجاج: سلفاً ليتعظ بهم الكفار المعاصرون للرسول. وقرأ أبو عبد الله وأصحابه وسعيد بن عياض والأعمش وطلحة والأعرج وحمزة والكسائي: «وسُلُفاً» بضم السين واللام جمع سليف، وهو الفريق سمع القاسم بن معن العرب تقول: مضى سليف من الناس. وقرأ علي ومجاهد والأعرج أيضاً: «وسُلَفاً» بضم السين وفتح اللام جمع سلفة، وهي الأمة والقطيعة. والسلف في غير هذا: ولد الضبع، والجمع سلفان «ومثلاً للآخرين» أي: حديثاً عجيب الشأن سائراً مسير المثل، يحدث به الآخرون من الكفار، يقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون.

﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون، إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل، ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون، وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم، ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين، ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم، فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم، هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون، الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين، ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون، يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب

---

(١) انظر القشيري ٤/١٠٢ والوسيط ٤/٧٠ والقرطبي ١٦/٩٧.

(٢) البيت من الطويل انظر ديوانه (٥٠) اللسان (سلف).

وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾

لما ذكر تعالى طرفاً من قصة موسى ـ عليه السلام ـ ذكر طرفاً من قصة عيسى ـ عليه السلام ـ وعن ابن عباس وغيره لما نزل ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ [آل عمران ٥٩] ونزل كيف خلق من غير فحل ؟ قالت قريش : ما أراد محمد من ذكر عيسى إلا أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى[1] فهذا كان صدودهم عن ضرب به مثلاً وقيل ضرب المثل بعيسى هو ما جرى بين الزبعري وبين الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في القصة المحكية في قوله ﴿ إنكم وما تعبدون ﴾ وقد ذكرت في سورة الأنبياء في آخرها أن ابن الزبعري قال : فإذا كان هؤلاء أي : عيسى وأمه ، وعزير في النار ، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، وقيل : المثل هو أن الكفار لما سمعوا أن النصارى تعبد عيسى قالوا : آلهتنا خير من عيسى ، قال ذلك منهم من كان يعبد الملائكة ، وضرب مبني للمفعول ، فاحتمل أن يكون الفاعل ابن الزبعري إن صحت قصته ، وأن يكون الكفار ، وقرأ أبو جعفر والأعرج والنخعي وأبو رجاء وابن وثاب وعامر ونافع والكسائي ﴿ يصُدون ﴾ بضم الصاد ، أي : يعرضون عن الحق من أجل ضرب المثل ، وقرأ ابن عباس وابن جبير والحسن وعكرمة وباقي السبعة بكسرها ، أي : يصيحون ، ويرتفع لهم جلبة بضرب المثل ، وروى ضم الصاد عن علي ، وأنكرها ابن عباس ، ولا يكون إنكاره إلا قبل بلوغه تواترها ، وقال الكسائي والفراء هما لغتان بمعنى مثل يعرشون ويعرُشون . ﴿ وقالوا أآلهتنا خير أم هو ﴾ حقق الكوفيون الهمزتين ، وسهل باقي السبعة الثانية بين بين ، وقرأ ورش في رواية أبي الأزهر بهمزة واحدة على مثال الخبر ، فاحتمل أن تكون همزة الاستفهام محذوفة لدلالة أم عليها ، واحتمل أن يكون خبراً محضاً حكوا أن آلهتهم خير ، ثم عن لهم أن يستفهموا على سبيل التنزل من الخبر إلى الاستفهام المقصود به الإفحام ، وهذا الاستفهام يتضمن أن آلهتهم خير من عيسى ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً ﴾ أي : ما مثلوا هذا التمثيل إلا لأجل الجدل والغلبة والمغالطة ، لا لتمييز الحق واتباعه ، وانتصب جدلاً على أنه مفعول من أجله ، وقيل : مصدر في موضع الحال ، وقرأ ابن مقسم ﴿ إلا جدالاً ﴾ بكسر الجيم وألف ﴿ خصمون ﴾ شديدو الخصومة واللجاج وهي من أبنية المبالغة ، نحو هذي ، والظاهر أن الضمير في أم هو لعيسى لتناسق الضمائر في قوله : ﴿ إن هو إلا عبد ﴾ ، وقال قتادة : يريد محمداً النبي ـ ﷺ ـ ﴿ أنعمنا عليه ﴾ بالنبوة وشرفناه بالرسالة ﴿ وجعلناه مثلاً ﴾ أي : عبرة عجيبة ، كالمثل لبني إسرائيل إذ خلق من غير أب ، وجعل له من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص والأسقام كلها ما لم يجعل لغيره في زمانه ، وقيل : المنعم عليه هو محمد ـ ﷺ ـ ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض ﴾ قال بعض النحويين : من تكون للبدل ، أي : لجعلنا بدلكم ملائكة ، وجعل من ذلكم قوله تعالى : ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ [التوبة ٣٨] أي بدل الآخرة وقول الشاعر :

أخذوا المخاض من الفصيل غلية ... ظلماً ويكتب للأمير أفيلا[2]

أي : بدل الفصيل ، وأصحابنا لا يثبتون لمن معنى البدلية ، ويتأولون ما ورد ما يوهم ذلك ، قال ابن عطية : لجعلنا بدلاً منكم ، وقال الزمخشري : ولو نشاء لقدرتنا على عجائب الأمور ، وبدائع الفطر ﴿ لجعلنا منكم ﴾ لولدنا منكم يا رجال ملائكة يخلفونكم في الأرض ، كما يخلفكم أولادكم ، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل ، لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ، ولتعلموا أن الملائكة أجسام لا تتولد إلا من أجسام ، وذات القديم متعالية عن ذلك انتهى . وهو تخريج حسن .

---

(١) انظر القرطبي ١٦/ ٦٩ ، والبغوي ٤/ ١٤٤ .

(٢) البيت من الكامل للراعي النميري انظر ديوانه (٢٤٢) ابن يعيش (٦/ ٤٢) والمغني (٢/ ٤٦٢) .

ونحو من هذا التخريج قول من قال : لجعلنا من الإنس ملائكة ، وإن لم تجر العادة بذلك ، والجواهر جنس واحد ، والاختلاف بالأوصاف . يخلفون قال السدي : يكونون خلفاءكم ، وقال قتادة : يخلف بعضهم بعضاً ، وقال مجاهد : في عمارة الأرض وقيل : في الرسالة بدلاً من رسلكم ، والظاهر أن الضمير في ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ يعود على عيسى إذ الظاهر في الضمائر السابقة أنها عائدة عليه . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن والسدي والضحاك وابن زيد : أي : وإن خروجه لعلم للساعة يدل على قرب قيامها ، إذ خروجه شرط من أشراطها ، وهو نزوله من السماء في آخر الزمان . وقال الحسن وقتادة أيضاً وابن جبير : يعود على القرآن على معنى أنه يدل بإنزاله على قرب الساعة ، أو أنه به تعلم الساعة وأهوالها . وقالت فرقة : يعود على النبي - ﷺ - إذ هو آخر الأنبياء تميزت الساعة به نوعاً وقدراً من التعيين ، وبقي التحديد التام الذي انفرد الله تعالى بعلمه . وقرأ الجمهور ﴿ لعلم ﴾ مصدر علم . قال الزمخشري : أي : شرط من أشراطها تعلم به فسمي العلم شرطاً لحصول العلم به . وقرأ ابن عباس ، وأبو هريرة ، وأبو مالك الغفاري ، وزيد بن علي وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك ، ومالك بن دينار ، والأعمش ، والكلبي ، قال ابن عطية وأبو نضرة : ﴿ لعلم ﴾ بفتح العين واللام ، أي : لعلامة ، وقرأ عكرمة به . قال ابن خالويه وأبو نضرة : للعلم معرفاً بفتحتين ، ﴿ فلا تمترن بها ﴾ أي : لا تشكون فيها ﴿ واتبعون هذا ﴾ أي : هداي ، أو شرعي ، وقيل : أي : قل لهم يا محمد : واتبعوني هذا ، أي الذي أدعوكم له ، أو هذا القرآن إذا كان الضمير في قال للقرآن ، ثم حذر من إغواء الشيطان ونبه على عداوته بالبينات ، أي : بالمعجزات أو بآيات الإنجيل الواضحات بالحكمة ، أي : بما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع . قال السدي : بالحكمة النبوة . وقال أيضاً : قضايا يحكم بها العقل . وذكر القشيري والماوردي : الإنجيل . وقال الضحاك : الموعظة ﴿ ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ وهو أمر الديانات ، لأن اختلافهم يكون فيها وفي غيرها من الأمور التي لا تتعلق بالديانات ، فأمور الديانات بعض ما يختلفون فيه ، وبين لهم في غيره ما احتاجوا إليه . وقيل : بعض ما يختلفون فيه من أحكام التوراة . وقال أبو عبيدة : بعض بمعنى كل ، ورده الناس عليه . وقال مقاتل : هو كقوله : ﴿ ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ [آل عمران ٥٠] أي : في الإنجيل لحم الإبل ، والشحم من كل حيوان ، وصيد السمك يوم السبت ، وقال مجاهد : بعض الذي يختلفون فيه من تبديل التوراة . وقيل : مما سألتم من أحكام التوراة . وقال قتادة : ولأبين لكم اختلاف القرون الذين تحزبوا في أمر عيسى في قوله ﴿ قد جئتكم بالحكمة ﴾ وهم قومه المبعوث إليهم ، أي من تلقائهم ، ومن أنفسهم بأن شرهم ، ولم يدخل عليهم الاختلاف من غيرهم ، وتقدم الخلاف في اختلافهم في سورة مريم في قوله : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ [مريم ٣٧] ، هل ينظرون الضمير لقريش . وأن تأتيهم بدل من الساعة ، أي : إتيانها إياهم ، ﴿ الأخلاء يومئذ ﴾ قيل : نزلت في أبي بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، والتنوين في ﴿ يومئذ ﴾ عوض عن الجملة المحذوفة ، أي : يوم إذ تأتيهم الساعة ، و ﴿ يومئذ ﴾ منصوب ﴿ عدو ﴾ والمعنى : أنه ينقطع كل خلة ، وتنقلب إلا خلة المتقين ، فإنها لا تزداد إلا قوة . وقيل : إلا المتقين إلا المجتنبين أخلاء السوء ، وذلك أن أخلاء السوء كل منهم يرى أن الضرر دخل عليه من خليله ، كما أن المتقين يرى كل منهم النفع دخل عليه من خليله . وقرىء يا عبادي بالياء وهو الأصل ، ويا عباد بحذفها ، وهو الأكثر ، وكلاهما في السبعة ، وعن المعتمر بن سليمان سمع أن الناس حين يبعثون ليس منهم أحد إلا يفزع ، فينادي مناد ﴿ يا عبادي لا خوف عليكم ﴾ الآية فيرجوها الناس كلهم ، فيتبعها الذين آمنوا الآية قال : فييأس منها الكفار ، وقرأ الجمهور ﴿ لا خوف ﴾ مرفوع منون ، وابن محيصن بالرفع من غير تنوين ، والحسن والزهري وابن أبي إسحاق وعيسى وابن يعمر بفتحها من غير تنوين ، والذين آمنوا صفة ليا عبادي ، ﴿ تحبرون ﴾ تسرون سروراً يظهر حباره ، أي : أثره على وجوهكم ، لقوله تعالى : ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ [المطففين ٢٤] ، وقال الزجاج : يكرمون إكراماً يبالغ فيه ، والحبرة المبالغة فيما وصف بجميل ، وأنشد أبو الحرث عن الكسائي بصحاف ،

سورة الدخان تسع وخمسون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ
حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ
﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ
وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ
﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ
تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ
الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا
فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾
وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ
اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ
﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ
تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾
مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا
يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ

إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

الدخان معروف، وقال أبو عبيدة: والدخان الجدب. قال القتبي: سمي دخاناً ليبس الأرض منه، حتى يرتفع منها كالدخان. وقياس جمعه في القلة أدخنة، وفي الكثرة دخان، نحو غراب وأغربة وغربان، وشذوا في جمعه على فواعل، فقالوا: دواخن، كأنه جمع داخنة تقديراً كما شذوا في عثان قالوا عواثن. رها البحر يرهو رهواً سكن، ويقال جاءت الخيل رهواً أي: ساكنة. قال الشاعر:

وَالْخَيْلُ تَمْزَعُ رَهْواً فِي أَعِنَّتِهَا ... كَالطَّيْرِ تَنْجُو مِنَ الشُّؤْبُوبِ ذِي الْبَرَدِ[1]

ويقال افعل ذلك رهواً، أي: ساكناً على هينتك، وقال ابن الأعرابي: رها السير قال القطامي في نعت الركاب:

يَمْشِينَ رَهْواً فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ ... وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَتَّكِلُ[2]

وقال الليث: عيش راه وادع خافض، وقال غيره: الرهو والرهوة المكان المرتفع والمنخفض يجتمع فيه الماء، وهو من الأضداد، وتجمع رهاء، والرهو المرأة الواسعة الهن، حكاه النضر بن شميل، والرهو ضرب من الطير يقال هو الكركي. وقال أبو عبيدة: رها الرجل يرهو رهواً فتح بين رجليه. المهل دردي الزيت وعكره. عتله: ساقه بعنف ودفع وإهانة والعتل الجافي الغليظ.

﴿حم والكتاب المبين. إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين. فيها يفرق كل أمر حكيم. أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين. رحمة من ربك إنه هو السميع العليم. رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين. لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين. بل هم في شك يلعبون فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين. يغشى الناس هذا عذاب أليم. ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون. أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين. ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون.

---

(1) البيت للقطامي انظر ديوانه (٣٢) وروايته:

وَالْخَيْلُ تَمْزَعُ غَرْباً فِي أَعِنَّتِهَا ... . . .

انظر المفضليات (٢٩٩) القرطبي (١٦/٩٢) روح المعاني (٢٥/١٢٢).

(2) البيت من البسيط للقطامي انظر ديوانه (١) والكشاف (٤/٢٧٤) ونسبه للأعشى وقد تقدم والقرطبي (١٦/٩١) روح المعاني (٢٥/١٢٢).

إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون ، يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ، ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم ، أن أدوا إليّ عباد الله إني لكم رسول أمين ، وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين ، وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون ، وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ، فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ، فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون ، واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون ، كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ هذه السورة مكية ، قيل : إلا قوله : ﴿ إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ .

ومناسبة هذه السورة : أنه ذكر في أواخر ما قبلها ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ [الزخرف ٨٣] فذكر يوماً غير معين ، ولا موصوفاً ، فبين في أوائل هذه السورة ذلك اليوم بوصف وصفه ، فقال : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ وأن العذاب يأتيهم من قبلك ، ويحل بهم من الجدب والقحط ، ويكون العذاب في الدنيا ، وإن كان للعذاب في الآخرة فيكون يومهم الذي يوعدون يوم القيامة . والظاهر أن الكتاب المبين هو القرآن ، أقسم به تعالى ، ويكون الضمير في أنزلناه عائداً عليه ، قيل . ويجوز أن يراد به الكتب الإلهية المنزلة ، وأن يراد به اللوح المحفوظ ، وجواب القسم ، وقال الزمخشري وغيره : قوله إنا أنزلناه على أن الكتاب هو القرآن ، ويكون قد عظمه تعالى بالإقسام به . وقال ابن عطية : لا يحسن وقوع القسم عليه ، أي على أنا أنزلناه ، وهو اعتراض يتضمن تفخيم الكتاب ، ويكون الذي وقع عليه القسم إنا كنا منذرين انتهى . قال قتادة وابن زيد والحسن : الليلة المباركة ، ليلة القدر[1] ، وقالوا : كتب الله كلها إنما نزلت في رمضان التوراة في أوله ، والإنجيل في وسطه ، والزبور في نحو ذلك ، والقرآن في آخره في ليلة القدر ، ومعنى ابتداء نزوله كان في ليلة القدر ، وقيل : أنزل جملة ليلة القدر إلى البيت المعمور ، ومن هناك كان جبريل يتلقاه[2] . وقال عكرمة وغيره : هي ليلة النصف من شعبان ، وقد أوردوا فيها أحاديث . وقال الحافظ أبو بكر بن العربي : لا يصح فيها شيء ، ولا في نسخ الآجال فيها ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ أي : مخوفين . قال الزمخشري : ﴿ فإن قلت : ﴾ إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم ما موقع هاتين الجملتين ؟ قلت : هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان فسر بهما جواب القسم الذي هو قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ كأنه قيل : أنزلناه ، لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب ، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصاً ؛ لأن إنزال القرآن من الأمور المحكمة ، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم ، والمباركة الكثيرة الخير لما يتيح الله فيها من الأمور التي تتعلق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم ، ولو لم يوجد فيه إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة انتهى . وقرأ الحسن والأعرج والأعمش ﴿ يَفْرُق ﴾ بفتح الياء وضم الراء كل بالنصب أي : يفرق الله . وقرأ زيد بن علي فيما ذكر الزمخشري : ﴿ نفرق ﴾ بالنون كل بالنصب ، وفيها ذكر أبو علي الأهوازي عنه بفتح الياء وكسر الراء ، ونصب كل ، ورفع حكيم على أنه الفاعل بيفرق . وقرأ الحسن وزائدة عن الأعمش بالتشديد مبنياً للمفعول ، أو معنى يفرق يفصل من غيره ويلخص ، ووصف أمر بحكيم أي أمر ذي حكمة ، وقد أبهم تعالى هذا الأمر . وقال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد : في ليلة القدر يفصل كل ما في العام المقبل من الأقدار والأرزاق والآجال وغير ذلك ، ويكتب ذلك إلى مثلها من العام المقبل ، وقال هلال بن أساف كان يقال انتظروا القضاء في رمضان . وقال عكرمة : تفصل الملائكة في ليلة النصف من شعبان ، وجوزوا في ﴿ أمراً ﴾ أن يكون مفعولاً به بمنذرين لقوله : ﴿ لينذر بأساً شديداً ﴾ أو على الاختصاص ، جعل كل أمر حكيم جزلاً فخماً بأن وصفه بالحكيم ، ثم زاده جزالة

---

(١) انظر الوسيط ٤٠/٤ والبغوي ١٤٨/٤ والقرطبي ٨٥/١٦ .
(٢) انظر المراجع السابقة .

ومحذوفة عنه بأن قال: أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا كائناً من لدنا، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا، كذا قال الزمخشري. وقال: وفي قراءة زيد بن علي أمرٌ من عندنا على هو أمرٌ، وهي تنصب على الاختصاص، ومفعولاً له، والعامل أنزلنا أو منذرين، أو يفرق، ومصدراً من معنى يفرق، أي: فرقاً من عندنا، أو من أمرنا محذوفاً، وحالاً قيل: من كل والذي تلقيناه من أشياخنا أنه حال من أمر، لأنه وصف بحكيم، فحسنت الحال منه، إلا أن فيه الحال من المضاف إليه، وهو ليس في موضع رفع ولا نصب، ولا يجوز. وقيل: من ضمير الفاعل في أنزلناه، أي: آمرين، وقيل: من ضمير المفعول في أنزلناه، أي: في حال كونه أمراً من عندنا بما يجب أن يفعل، والظاهر أن من عندنا صفة لـ ﴿أمراً﴾، وقيل: بمعنى ﴿يفرق﴾، ﴿إنا كنا مرسلين﴾ لما ذكر إنزال القرآن ذكر المرسل أي: مرسلين الأنبياء بالكتب للعباد، والجملة المؤكدة مستأنفة، وقيل: يجوز أن يكون بدلاً من ﴿إنا كنا منذرين﴾، وجوزوا في رحمة أن يكون مصدراً، أي: رحمنا رحمة، وأن يكون مفعولاً له بـ ﴿أنزلناه﴾ أو لـ ﴿يفرق﴾ أو لـ ﴿أمراً﴾ من عندنا، وأن يكون مفعولاً بـ ﴿مرسلين﴾، والرحمة توصف بالإرسال، كما وصفت به في قوله: ﴿وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾ [فاطر: ٢] والمعنى: على هذا إنا نفصل في هذه الليلة كل أمر، أو تصدر الأوامر من عندنا، لأن من عادتنا أن نرسل رحمتنا. وقرأ زيد بن علي والحسن ﴿رحمةٌ﴾ بالرفع، أي: تلك رحمة ﴿من ربك﴾ التفاتاً من مضمر إلى ظاهر، إذ لو روعي ما قبله لكان رحمة منا لكنه وضع الظاهر موضع المضمر إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين. وقرأ ابن محيصن والأعمش وأبو حيوة والكوفيون: ﴿رب السموات﴾ بالخفض بدلاً من ربك، وباقي السبعة والأعرج وابن أبي إسحاق وأبو جعفر وشيبة بالرفع على القطع، أي: هو رب. وقرأ الجمهور: ﴿ربكم ورب﴾ برفعهما، وابن أبي إسحاق وابن محيصن وأبو حيوة والزعفراني وابن مقسم والحسن وأبو موسى عيسى بن سليمان وصالح الناقط كلاهم عن الكسائي بجرهما، وأحمد بن جبير الأنطاكي ﴿ربكم ورب﴾ بالنصب على المدح، وهم يخالفون بين الإعراب بالرفع والنصب إذا طالت النعوت. وقوله: ﴿إن كنتم موقنين﴾ تحريك لهم بأنكم تقرون بأنه تعالى خالق العالم وأنه أنزل الكتب، وأرسل رحمة منه، وأن ذلك منكم عن غير علم وإيقان، ولذلك جاء ﴿بل هم في شك يلعبون﴾ أي: في شك لا يرتابون فيه يلعبون، فإقرارهم ليس عن جد ولا تيقن، ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ قال علي بن أبي طالب وابن عمر وابن عباس وأبو سعيد الخدري وزيد بن علي والحسن: هو دخان يجيء يوم القيامة يصيب المؤمن منه مثل الزكام، وينضج رؤوس الكافرين والمنافقين، حتى تكون مصلقلة حنيذة[1]. وقال ابن مسعود وأبو العالية والنخعي: هو الدخان الذي رآه قريش، قيل لعبد الله: إن قاصاً عند أبواب كندة يقول: إنه دخان يأتي يوم القيامة، فيأخذ أنفاس الناس، فقال: من علم علماً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، ألا وسأحدثكم أن قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»، فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف والعلهز، والعلهز: الصوف تقع فيه القراد فيشوى الصوف بدم القراد ويؤكل، وفيه أيضاً حتى أكلوا العظام، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان، وكان يحدث الرجل فيسمع الكلام، ولا يرى المحدث من الدخان، فمشى إليه أبو سفيان ونفر معه وناشده الله والرحم وواعدوه إن دعا لهم، وكشف عنهم أن يؤمنوا، فلما كشف عنهم رجعوا إلى شركهم، وفيه فرحمهم النبي ﷺ وبعث إليهم بصدقة، ومال، وفيه فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله عز وجل ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا

---

(١) انظر القرطبي ١٦/٨٧، ٨٨، والوسيط للواحدي ٤/٩٩ - ١٠٠ والبخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الدخان، باب ﴿يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾ وسورة يوسف باب ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ وفي سورة الروم، وأخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب سورة الدخان والإمام أحمد في مسنده ١/٣٨٠ والترمذي في كتاب التفسير، سورة الدخان، باب حدثنا محمود بن غيلان ٥/٣٧٩، ٣٨٠ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح

نصبها وموضحة صدق دعوى. وقرأ الجمهور (إني): بكسر الهمزة على سبيل الإخبار، وفرقة: بفتح الهمزة،
والمعنى: لا تعلوا على الله من أجل أني آتيكم. فهددوه بالرجم، فقال: (وإني عذت) أي:
استجرت بربي وربكم أن ترجمون. كانوا قد توعدوه بالقتل، فاستعاذ من ذلك، وقرئ: عدت بالإدغام. قال قتادة
وغيره: الرجم هنا بالحجارة. وقال ابن عباس وأبو صالح: بالشتم، وقول قتادة أظهر، لأنه قد وقع مصرحاً به في حقه الغلظة
لا تناسب، وهذه المعاذة كانت قبل أن يخبره تعالى بقوله: ﴿فلا يصلون إليكما﴾ [القصص: ٣٥]. (وإن لم تؤمنوا لي)
أي: تصدقوا (فاعتزلون) أي: كونوا بمعزل مني، وهذه متاركة حسنة. (فدعا ربه) أي لما يئسوا دعاه (أن هؤلاء) لفظ
تعريض، وقرأ الجمهور: أن هؤلاء بفتح الهمزة، أي: بأن هؤلاء. وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والحسن في رواية وزيد بن
علي بكسرها. (فأسر بعبادي) في الكلام حذف، أي: فانتقم منهم، فقال له الله: أسر بعبادي، وهم بنو إسرائيل ومن
آمن به من القبط. وقال الزمخشري: فيه وجهان: إضمار القول بعد الفاء، فقال: أسر بعبادي، وأن يكون جواباً لشرط
محذوف، كأنه قيل: إن كان الأمر كما تقول فأسر بعبادي انتهى. وكثيراً ما يجيز هذا الرجل حذف الشرط، وإبقاء
جوابه، وهو لا يجوز إلا لدليل واضح كأن يتقدمه الأمر وما أشبهه مما ذكر في النحو على خلاف في ذلك. (إنكم متبعون) أي:
يتبعكم فرعون وجنوده، فتنجون ويغرق المتبعون. (واترك البحر رهواً) قال ابن عباس: ساكناً كما أجريته. وقال مجاهد
وعكرمة: يبساً من قوله: (فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً)، وقال الضحاك: دمثاً ليناً. وقال عكرمة: جدداً. وقال ابن
زيد: سهلاً. وقال مجاهد أيضاً: منفرداً. قال قتادة: أراد موسى أن يضرب البحر بعصاه لما قطعه حتى يلتئم، وخاف أن
يتبع فرعون، فقيل له هذا. (إنهم جند مغرقون) أي: فيه لأنهم إذا رأوه ساكناً على حالته حين دخل فيه موسى وبنو
إسرائيل، أو مفتوحاً طريقاً يبساً دخلوا فيه فيطبقه الله عليهم. (كم تركوا) أي: كثيراً تركوا: (من جنات وعيون) تقدم
تفسيرها في الشعراء. وقرأ الجمهور: (ومقام) بفتح الميم. قال ابن عباس ومجاهد وابن جبير: أراد المنابر، وقرأ ابن هرمز
وقتادة وابن السميفع ونافع في رواية خارجة: بضمها. قال قتادة: أراد المواضع الحسان من المجالس والمساكن وغيرها.
(ونعمة) بفتح النون: نضارة العيش ولذاذة الحياة. وقرأ أبو رجاء: (ونعمةً) بالنصب عطفاً على كم (كانوا فيه فاكهين) وقرأ
الجمهور بالألف: أي طيبي الأنفس وأصحاب فاكهة كلابن وتامر. وأبو رجاء والحسن: بغير ألف، والفكه يستعمل كثيراً في
المستخف المستهزئ، فكأنهم كانوا مستخفين بشكر النعمة التي كانوا فيها. وقال الجوهري: فكه الرجل بالكسر، فهو
فكه إذا كان مزاحاً والفكه أيضاً الأشر. وقال القشيري: فاكهين لاهين كذلك. وقال الزجاج: والمعنى الأمر كذلك
فيوقف على كذلك، والكاف في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف. وقيل: الكاف في موضع نصب، أي: يفعل فعلاً
كذلك لمن يريد إهلاكه. وقال الكلبي: كذلك أفعل بمن عصاني. وقال الحوفي: أهلكنا إهلاكاً وانتقمنا انتقاماً
كذلك. وقال الزمخشري: الكاف منصوبة على معنى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها، (وأورثناها قوماً آخرين) ليسوا
منهم، وهم بنو إسرائيل كانوا مستعبدين في يد القبط، فأهلك الله تعالى القبط على أيديهم، وأورثهم ملكهم. وقال قتادة
وقال الحسن: إن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون. وضعف قول قتادة بأنه لم يرو في مشهور التواريخ أن
بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في شيء من ذلك الزمان، ولا ملكوها قط إلا أن يريد قتادة أنهم ورثوا نوعها في بلاد الشام
انتهى. ولا اعتبار بالتواريخ، فالكذب فيها كثير، وكلام الله صادق، قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كذلك وأورثناها
بني إسرائيل﴾ [الشعراء: ٥٩] وقيل: قوماً آخرين ممن ملك مصر بعد القبط من غير بني إسرائيل. (فما بكت عليهم
السماء والأرض) استعارة لتحقير أمرهم، وأنه لم يتغير عن هلاكهم شيء، ويقال في التعظيم: بكت عليه السماء والأرض،
وبكته الريح، وأظلمت له الشمس. وقال زيد بن مفرغ:

الحشاء ، ومن فرعون بدل من العذاب على حذف مضاف ، أي : من عذاب فرعون ، أو لا حذف جعل فرعون نفسه هو العذاب مبالغة ، وقيل : يتعلق بمحذوف ، أي : كائناً وصادراً من فرعون . وقرأ ابن عباس : من فرعون ، من استفهام مبتدأ ، وفرعون خبره ، لما وصف فرعون بالشدة والفظاعة ، قال : من فرعون على معنى هل تعرفونه من هو في عتوه وشيطنته ، ثم عرف حاله في ذلك بقوله : ﴿ إنه كان عالياً من المسرفين ﴾ أي : مرتفعاً على العالم ، أو متكبراً مسرفاً من المسرفين ﴿ ولقد اخترناهم ﴾ أي : اصطفيناهم وشرفناهم على علم ، على علم مصدر لم يذكر فاعله ، فقيل : على علم منهم ، وفضل فيهم ، فاخترناهم للنبوات والرسالات ، وقيل : على علم منا ، أي : عالمين بمكان الخيرة ، وبأنهم أحقاء بأن يختاروا ، وقيل : على علم منا بما يصدر من العدل ، والإحسان ، والعلم والإيمان بأنهم يزيغون ، وتفرط منهم الفلتات في بعض الأحوال ، وقيل : اخترناهم بهذا الإنجاء ، وهذه النعم على سابق علم لنا فيهم ، وخصصناهم بذلك دون العالم . على العالمين أي : عالمي زمانهم ، لأن أمة محمد ـ ﷺ ـ مفضلة عليهم ، وقيل : على العالمين عام لكثرة الأنبياء فيهم ، وهذا خاص بهم ، ليس لغيرهم وكان الاختيار من هذه الجهة ، لأن أمة محمد أفضل ، وعلى في قوله (على علم) ليس معناها معنى على في قوله (على العالمين) ولذلك تعلقا بفعل واحد لما اختلف المدلول كقوله :

ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت ... عليّ وآلت حلفة لم تحلل

فعلى علم حال إما من الفاعل ، أو من المفعول ، وعلى ظهر حال من الفاعل في تعذرت ، والعامل في ذي الحال ، ﴿ وآتيناهم من الآيات ﴾ أي : المعجزات الظاهرة في قوم فرعون ، وما ابتلوا به ، وفي بني إسرائيل مما أنعم به عليهم من تظليل الغمام والمن والسلوى وغير ذلك ، مما لم يظهرها لغيرهم ﴿ ما فيه بلاء ﴾ أي : اختبار بالنعم ظاهراً والابتلاء بالنعم كقوله ﴿ ونبلوكم بالشر والخير ﴾ [الأنبياء ٣٥] ﴿ إن هؤلاء ﴾ يعني : قريشاً ، وفي اسم الإشارة تحقير لهم ﴿ ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى ﴾ أي : ما الموتة إلا محصورة في موتتنا الأولى ، وكان قد قال تعالى : ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ [البقرة ٢٨] فذكر موتتين أولى وثانية ، فأنكروا هم أن يكون لهم موتة ثانية ، والمعنى ما آخر أمرنا ومنتهى وجودنا إلا عند موتتنا ، فتضمن قولهم هذا إنكار البعث ، ثم صرحوا بما تضمنه قولهم فقالوا : ﴿ وما نحن بمنشرين ﴾ أي : بمبعوثين بحياة دائمة يقع فيها حساب وثواب وعقاب ، وكان قولهم ذلك في معنى قولهم ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ [الأنعام ٢٩] . ﴿ فأتوا بآبائنا ﴾ خطاب للرسول ـ ﷺ ـ وللمؤمنين الذين كانوا يعدونهم بالبعث ، أي : إن صدقتم فيما تقولون فأحيوا لنا من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ، حتى يكون ذلك دليلاً على البعث في الآخرة ، قيل : طلبوا من الرسول أن يدعو الله فيحيي لهم قصي بن كلاب ليشاوروه في صحة النبوة ، والبعث ، إذ كان كبيرهم ومشاورهم في النوازل . ﴿ أهم ﴾ أي : قريش ﴿ خير أم قوم تبع ﴾ الظاهر أن تبعاً هو شخص معروف وقع التفاضل بين قومه وقوم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإن كان لفظ تبع يطلق على كل من ملك العرب ، كما يطلق كسرى على من ملك الفرس ، وقيصر على من ملك الروم ، قيل واسمه : أسعد الحميري ، وكني أبا كرب ، وذكر أبو حاتم الرياشي أنه آمن بالنبي ـ ﷺ ـ قبل أن يبعث بسبعمائة سنة ، وروي أنه لما آمن بالمدينة كتب كتاباً ونظم شعراً أما الشعر فهو :

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ ... رَسُولٌ مِنَ اللهِ بَارِي النَّسَمْ[1]
فَلَوْ مُدَّ عُمْرِي إِلَى عُمْرِهِ ... لَكُنْتُ وَزِيراً لَهُ وَابْنَ عَمْ

وأما الكتاب فروى ابن إسحاق وغيره أنه كان فيه : أما بعد فإني آمنت بك ، وبكتابك الذي أنزل عليك ، وأنا على

---

(١) انظر البيت في القرطبي (١٦ / ٩٧) ، وروح المعاني (٢٥ / ١٢٩) .

وقال الحوفي: بدل. إنه هو العزيز الرحيم لا ينصر من عصاه الرحيم لمن أطاعه ومن عفا عنه. ﴿إن شجرة الزقوم﴾ قرئ بكسر الشين، وتقدم الكلام فيها في سورة الصافات. ﴿طعام الأثيم﴾ صفة مبالغة، وهو الكثير الآثام، ويقال له أثوم صفة مبالغة أيضاً، وفسر بالمشرك. وقال يحيى بن سلام: المكتسب للإثم. وعن ابن زيد: الأثيم هنا هو أبو جهل. وقيل: الوليد. ﴿كالمهل﴾ هو دردي الزيت، أو مذاب الفضة، أو مذاب النحاس، أو عكر القطران، أو الصديد، أولها لابن عمر وابن عباس، وآخرها لابن عباس. وقال الحسن: ﴿كالمهل﴾ بفتح الميم لغة فيه. وعن ابن مسعود وابن عباس أيضاً: المهل ما أذيب من ذهب أو فضة أو حديد أو رصاص. وقرأ مجاهد وقتادة والحسن والأعرج وحفص ﴿يغلي﴾ بالياء، أي: الطعام، وعمرو بن ميمون وأبو رزين والأعرج وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن وطلحة والحسن في رواية وباقي السبعة ﴿تغلي﴾ بالتاء، أي: الشجرة. ﴿كغلي الحميم﴾ وهو الماء المسخن الذي يتطاير من غليانه. ﴿خذوه فاعتلوه﴾ يقال للزبانية: خذوه فاعتلوه، أي: سوقوه بعنف وجذب. وقال الأعمش: معنى اعتلوه اقصفوه كما يقصف الحطب إلى سواء الجحيم. قال ابن عباس: وسطها. وقال الحسن: معظمها. وقرأ الجمهور فاعتلوه بكسر التاء، وزيد بن علي والابنان ونافع بضمها، والكلاب عن الحسن وقتادة والأعرج وأبي عمرو. ﴿ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم﴾ وفي الحج ﴿يصب من فوق رؤوسهم الحميم﴾، والمصبوب في الحقيقة هو الحميم، فتارة اعتبرت الحقيقة، وتارة اعتبرت الاستعارة، لأنه أذم من الحميم، فقد صب ما تولد عنه من الآلام والعذاب، فعبر بالمسبب عن السبب، لأن العذاب هو المسبب عن الحميم. ولفظة العذاب أهول وأهيب. ﴿ذق﴾ أي: العذاب. ﴿إنك أنت العزيز الكريم﴾ وهذا على سبيل التهكم والهزء، لمن كان يتعزز ويتكرم على قومه. وعن قتادة أنه لما نزلت ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ قال أبو جهل: أتهددني يا محمد، وإن ما بين لابتيها أعز مني ولا أكرم، فنزلت هذه الآية، وفي آخرها ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ أي: على قولك. وهذا كما قال جرير:

أَلَمْ تَكُنْ فِي وُسُومٍ قَدْ وُسِمْتَ بِهَا ... مَنْ كَانَ مَوْعِظَةً يَا زَهْرَةَ الْيَمَنِ (١)

يقولها لشاعر سمى نفسه به في قوله:

أَبْلِغْ كُلَيْباً وَأَبْلِغْ عَنْكَ شَاعِرَهَا ... أَنِّي الْأَعَزُّ وَأَنِّي زَهْرَةُ الْيَمَنِ (٢)

فجاء به جرير على جهة الهزء. وقرئ ﴿إنك﴾ بكسر الهمزة، وقرأ الحسن عن علي بن أبي طالب على المنبر والكسائي بفتحها. ﴿إن هذا﴾ أي: الأمر أو العذاب ﴿ما كنتم به تمترون﴾ أي: تشكون. ولما ذكر حال الكفار أعقبه بحال المؤمنين، فقال: ﴿إن المتقين في مقام أمين﴾ وقرأ عبد الله بن عمر وزيد بن علي وأبو جعفر وشيبة والأعرج والحسن وقتادة ونافع وابن عامر ﴿في مُقام﴾ بضم الميم، وأبو رجاء وعيسى ويحيى والأعمش وباقي السبعة بفتحها. ووصف المقام بالأمين، أي: يؤمن فيه من الغير، فكأنه فعيل بمعنى مفعول، أي: مأمون فيه، قاله ابن عطية. وقال الزمخشري: الأمين من قولك: أمن الرجل أمانة فهو أمين، وهو ضد الخائن، فوصف به المكان استعارة، لأن المكان المخيف كأنه يخون صاحبه بما يلقى فيه من مكارهه. وتقدم شرح السندس والإستبرق. وقرأ ابن محيصن واستبرق جعله فعلاً ماضياً. ﴿متقابلين﴾ وصف لمجالس أهل الجنة لا يستدبر بعضهم بعضاً في المجالس. ﴿كذلك﴾ أي: الأمر كذلك. وقرأ الجمهور ﴿بحور﴾ منوناً، وعكرمة بغير تنوين، لأن العين ينقسمن إلى حور وغير حور، فهؤلاء من حور العين لا من شهلهن مثلاً. ﴿يدعون فيها﴾ أي: الخدم.

---

(١) من البسيط، انظر ديوانه (٦٢٥)، الخصائص (٦/ ٤٩١).

(٢) قال ابن جني في خصائصه: وأنشد [illegible] على [illegible] جرير [illegible]، الخصائص (٢/ ٤٦١).

سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١) ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧)﴾

هذه السورة مكية، قال ابن عطية بلا خلاف. وذكر الماوردي إلا ﴿قل للذين آمنوا يغفروا﴾ الآية، فمدنية نزلت في عمر بن الخطاب(١)، قاله ابن عباس وقتادة. وقال النحاس والمهدوي عن ابن عباس: نزلت في عمر شتمه مشرك بمكة قبل الهجرة، فأراد أن يبطش به فنزلت(٢). ومناسبة أولها لآخر ما قبلها في غاية الوضوح، قال: ﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾ وقال: ﴿حم تنزيل الكتاب﴾ وتقدم الكلام على ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ أول الزمر. وقال أبو عبد الله

---

(١) انظر القرطبي ١٦/١٥٤.

(٢) انظر القرطبي ١٦/١٥٤.

الرازي . وقوله : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ يجوز جعله صفة لله فيكون ذلك حقيقة ، وإن جعلناه صفة للكتاب كان ذلك مجازاً ، والحقيقة أولى من المجاز مع أن زيادة القرب توجب الرجحان انتهى . وهذا الثاني يبعد في قوله وإن جعلناه صفة للكتاب لا يجوز لو كان صفة للكتاب لوليه ، فكان يكون التركيب تنزيل الكتاب العزيز الحكيم من الله ، لأن من الله إما أن يكون متعلقاً بتنزيل ، وتنزيل خبر لحم ، أو لمبتدأ محذوف فلا يجوز الفصل به بين الصفة والموصوف ، لا يجوز أعجبني ضرب زيد سوط الفاضل . أو في موضع الخبر ، وتنزيل مبتدأ فلا يجوز الفصل بين الصفة والموصوف ، أيضاً لا يجوز ضرب زيد شديد الفاضل . والتركيب الصحيح في نحو هذا أن يلي الصفة موصوفها ﴿ إن في السموات والأرض ﴾ يحتمل أن يريد في خلق السموات ، كقوله : ﴿ وفي خلقكم ﴾ والظاهر أنه لا يراد التخصيص بالخلق ، بل في السموات والأرض على الإطلاق والعموم ، أي : في أي شيء نظرت منهما من خلق وغيره من تسخير وتنوير وغيرهما ﴿ لآيات ﴾ لم تأت بالآيات مفصلة ، بل أتى بها مجملة إحالة على غوامض يثيرها الفكر ويخبر بكثير منها الشرع ، وجعلها للمؤمنين إذ في ضمن الإيمان العقل والتصديق . ﴿ وما يبث من دابة ﴾ أي : في غير جنسكم . وهو معطوف على ﴿ وفي خلقكم ﴾ ومن أجاز العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض أجاز في ﴿ وما يبث ﴾ أن يكون معطوفاً على الضمير في خلقكم ، وهو مذهب الكوفيين ويونس والأخفش وهو الصحيح ، واختاره الأستاذ أبو علي الشلوبين . وقال الزمخشري : يقبح العطف عليه ، وهذا تفريع على مذهب سيبويه وجمهور البصريين ، قال : وكذلك إن أكدوه كرهوا أن يقولوا مررت بك أنت وزيد انتهى . وهذا يجيزه الجرمي والزيادي في الكلام . وقال لقوم يوقنون وهم الذين لهم نظر يؤديهم إلى اليقين ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ تقدم الكلام على نظيره في سورة البقرة . وقرأ الجمهور آيات جمعاً بالرفع فيهما ، والأعمش والجحدري وحمزة والكسائي ويعقوب بالنصب فيهما ؛ وزيد بن علي برفعهما على التوحيد ، وقرأ أبي وعبد الله لآيات فيهما كالأولى ، فأما آيات لقوم يعقلون رفعاً ونصباً فاستدل به ، وشبهه مما جاء في كلام الأخفش ومن أخذ بمذهبه على عطف معمولي عاملين بالواو ، وهي مسألة فيها أربعة مذاهب ذكرناها في كتاب التذييل والتكميل لشرح التسهيل ، فأما من نصب الأخيرة فمن نصب آيات . بالواو وعطف واختلاف على المجرور بفي قبله ، وهو وفي خلقكم وما يبث وعطف آيات على آيات ، ومن رفع فكذلك ، والعاملان أولاهما إن وفي ، وثانيهما الابتداء وفي . وقال الزمخشري : أقيمت الواو مقامهما فعملت الجر ، واختلاف الليل والنهار والنصب في آيات . وإذا رفعت فالعاملان الابتداء ، وفي عملت الرفع للواو وليس بصحيح ، لأن الصحيح من المذاهب أن حرف العطف لا يعمل ، ومن منع العطف على مذهب الأخفش أضمر حرف الجر فقدر وفي اختلاف ، فالعمل للحرف مضمراً ، ونابت الواو مناب عامل واحد . ويدل على أن في مقدرة قراءة عبد الله : وفي اختلاف مصرحاً . وحسن حذف في تقدمها في قوله ﴿ وفي خلقكم ﴾ وخرج أيضاً النصب في آيات على التوكيد لآيات المتقدمة ، ولإضمار حرف في . وقرئ واختلاف بالرفع على خبر مبتدأ محذوف ، أي : هي آيات . ولإضمار حرف أيضاً . وقرأ واختلاف الليل والنهار آية بالرفع في اختلاف ، وفي آية موحدة ، وكذلك ﴿ وما يبث من دابة ﴾ . وقرأ زيد بن علي وطلحة وعيسى وتصريف الريح . وقال الزمخشري : والمعنى أن المنصفين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة ، وأنه لا بد لها من صانع فآمنوا بالله وأقروا . فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال ، وهيئة إلى هيئة ، وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيقاناً ، وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس . فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت كاختلاف الليل والنهار ، ونزول الأمطار وحياة الأرض بها بعد موتها ، وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً ، وقبولاً ودبوراً ، عقلوا واستحكم علمهم ، وخلص يقينهم . وقال أبو عبد الله الرازي : ذكر في البقرة ثمانية دلائل ، وهنا ستة لم يذكر الفلك والسحاب . والسبب في ذلك أن مدار الحركة للفلك والسحاب على الرياح المختلفة ، فذكر الرياح ، وهناك جعل مقطع الثمانية واحداً ، وهنا رتبها على مقاطع ثلاثة يؤمنون يوقنون يعقلون ،

قال : ونظم حسب هذا الترتيب إن كنتم مؤمنين ، فافهموا هذه الدلائل ، فإن لم تكونوا مؤمنين ولا موقنين فلا أقل أن تكونوا من العاقلين فاجتهدوا . وقال هناك ﴿ إن في خلق السموات ﴾ [البقرة ١٦٤] وهنا (في السموات) فدل على أن الخلق غير المخلوق ، وهو الصحيح عند أصحابنا ، ولا تفرق بين أن يقال في السموات ، وفي خلق السموات انتهى . وفيه تلخيص وتقديم وتأخير . (تلك آيات الله) أي : تلك الآيات وهي الدلائل المذكورة (نتلوها) أي : نسردها عليك ملتبسة بالحق ، ونتلوها في موضع الحال ، أي : متلوة ، قال الزمخشري : والعامل ما دل عليه تلك من معنى الإشارة ونحوه هذا زيد شيخاً[1] أو فاتي انتهى . وليس نحوه ، لأن في وهذا حرف تنبيه ، وقيل : العامل في الحال ما دل عليه حرف التنبيه ، أي تنبه ، وأما تلك فليس فيها حرف تنبيه عاملاً بما فيه من معنى التنبيه ، لأن الحرف قد يعمل في الحال تنبه لزيد في حال شيخه ، وفي حال قيامه ، وقيل : العامل في مثل هذا التركيب فعل محذوف يدل عليه المعنى ، أي : انظر إليه في حال شيخه فلا يكون اسم الإشارة عاملاً ، ولا حرف التنبيه إن كان هناك . وقال ابن عطية : نتلوها فيه حذف مضاف ، أي : نتلو شأنها وشرح العبرة بها ، ويحتمل أن يريد بآيات الله القرآن المنزل في هذه المعاني ، فلا يكون في نتلوها حذف مضاف انتهى . ويتلوها بمعنى يأمر الملك أن يتلوها . وقرىء يتلوها بياء الغيبة عائداً على الله . و (بالحق) بالصدق ، لأن صحتها معلومة بالدلائل العقلية . (فبأي حديث) الآية فيه تقريع وتوبيخ وتهديد . (بعد الله) أي : حديث الله وهو كتابه وكلامه ، كقوله : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً) وقال : (فبأي حديث بعده يؤمنون) أي : بعد حديث الله وكلامه . وقال الضحاك : بعد توحيد الله ، وقال الزمخشري : (بعد الله وآياته) أي : بعد آيات الله ، كقولهم : أعجبني زيد وكرمه ، يريدون أعجبني كرم زيد انتهى . وهذا ليس بشيء ، لأن فيه من حيث المعنى إقحام الأسماء من غير ضرورة . والعطف والمراد غير العطف من إخراجه إلى باب البدل ، لأن تقدير كرم زيد إنما يكون في أعجبني زيد كرمه بغير واو على البدل ، وهذا قلب لحقائق النحو ، وإنما المعنى في أعجبني زيد وكرمه أن ذات زيد أعجبته ، وأعجبه كرمه ، فهما إعجابان لا إعجاب واحد ، وقد رددنا عليه مثل قوله هذا فيما تقدم . وقرأ أبو جعفر والأعرج وشيبة وقتادة والحرميان وأبو عمرو وعاصم في رواية : (يؤمنون) بالياء من تحت ، والأعمش وباقي السبعة بتاء الخطاب ، وطلحة (توقنون) بالتاء من فوق ، والقاف من الإيقان . (ويل لكل أفاك أثيم) قيل : نزلت في أبي جهل ، وقيل : في النضر بن الحارث ، وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم ، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن ، والآية عامة فيمن كان مضاراً لدين الله ، وأفاك أثيم مبالغة ، وألفاظ هذه الآية تقدم الكلام عليها . وقرأ الجمهور : (علم) وقتادة ومطر الوراق بضم العين وشد اللام مبنياً للمفعول ، أي : عرف . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ما معنى ثم في قوله (ثم يصر مستكبراً) ؟ (قلت :) كمعناه في قول القائل :

يرى غمرات الموت ثم يزورها

وذلك بأن غمرات الموت حقيقة بأن ينجو رائيها بنفسه ، ويطلب الفرار منها ، وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها فأمر مستبعد ، فمعنى (ثم) الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعدما رآها وعاينها شيء يستبعد في العادة والطبع ، وكذلك آيات الله الواضحة القاطعة بالحق من تليت عليه وسمعها كان مستبعداً في العقول إصراره على الضلالة عندها ، واستكباره عن الإيمان بها . اتخذها هزواً ، ولم يقل اتخذه إشعاراً بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله على محمد ﷺ خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ، ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه . وقال الزمخشري : ويحتمل وإذا علم من آياتنا شيئاً يمكن أن يتشبث به المعاند ويجعله محملاً يتسلق به على الطعن والغميزة افترصه ، واتخذ آيات الله هزواً .

---

(١) كذا في ط والأصل وهذا بعلي شيخاً وما أثبت هو الموافق لما يأتي بعد

وذلك نحو اعتراض ابن الزبعرى قوله عز وجل ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ ومغالطته رسول الله ـ ﷺ ـ وقوله خصمتك . ويجوز أن يرجع الضمير إلى شيء ، لأنه في معنى الآية كقول أبي العتاهية .

نَفْسِي بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا مُعَلَّقَةٌ ... اللهُ وَالقَائِمُ المَهْدِيُّ يَكْفِيهَا[1]

حيث أراد عتبة انتهى . وعتبة جارية كان أبو العتاهية يهواها وينسب بها . والإشارة بأولئك إلى كل أفاك لشموله الأفاكين عاد أولاً على لفظ كل ، وأفرد على المعنى فجمع كقوله . ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [الجاثية ١٠] . ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ أي : من قدامهم والوراء ما توارى من خلف وأمام ، ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً من الأموال في متاجرهم ، ولا من اتخذوا من دون الله من الأوثان . ﴿ هذا ﴾ أي : القرآن ﴿ هدى ﴾ أي : بالغ في الهداية ، كقولك : هذا رجل ، أي : كامل في الرجولية . وقرأ طلحة وابن محيصن وأهل مكة وابن كثير وحفص ﴿ أليم ﴾ بالرفع نعتاً لعذاب والحسن وأبو جعفر وشيبة وعيسى والأعمش وباقي السبعة بالجر نعتاً لرجز . ﴿ الله الذي سخر ﴾ الآية آية اعتبار في تسخير هذا المخلوق العظيم ، والسفن الجارية فيه بهذا المخلوق الحقير وهو الإنسان بأمره ، أي بقدرته أناب الأمر مناب القدرة ، كأنه يأمر السفن أن تجري من فضله بالتجارة وبالغوص على اللؤلؤ والمرجان ، واستخراج اللحم الطري ما في السموات من الشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والهواء والأملاك الموكلة بهذا كله ، وما في الأرض من البهائم والمياه والجبال والنبات . وقرأ الجمهور ﴿ منه ﴾ وابن عباس بكسر الميم وشد النون ، ونصب التاء على المصدر ، قال أبو حاتم نسبة هذه القراءة إلى ابن عباس ظلم ، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس ، وعبد الله بن عمر ، والجحدري ، وعبد الله بن عبيد بن عمير ، وحكاها أيضاً عن هؤلاء الأربعة صاحب اللوامح ، وحكاها ابن خالويه عن ابن عباس وعبيد بن عمير . وقرأ مسلمة بن محارب كذلك إلا أنه ضم التاء أي : هو منه وعنه أيضاً فتح الميم وشد النون وهاء الكناية عائد على الله وهو فاعل سخر على الإسناد المجازي ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : ذلك أو هو منه ، والمعنى على قراءة الجمهور أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه ، وحاصلة عنده إذ هو موجدها بقدرته وحكمته ، ثم سخرها لخلقه ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون يعني منه خبر مبتدأ محذوف تقديره هي جميعاً منه ، وأن يكون وما في الأرض مبتدأ ، ومنه خبره انتهى . ولا يجوز هذان الوجهان إلا على قول الأخفش ، لأن جميعاً إذ ذاك حال ، والعامل فيها معنوي وهو الجار والمجرور فهو نظير زيد قائماً في الدار ، ولا يجوز على مذهب الجمهور . ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا ﴾ نزلت في صدر الإسلام أمر المؤمنين أن يتجاوزوا عن الكفار ، وأن لا يعاقبوهم بذنب ، بل يصبرون لهم ، قاله السدي ومحمد بن كعب ، قيل : وهي محكمة والأكثر على أنها منسوخة بآية السيف . يغفروا في جزمه أوجه للنحاة تقدمت في ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ [إبراهيم ٣١] في سورة إبراهيم ﴿ لا يرجون أيام الله ﴾ أي . وقائعه بأعدائه ونقمته منهم . وقال مجاهد . وقيل أيام إنعامه ونصره وتنعيمه في الجنة وغير ذلك . وقيل : لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز . قيل نزلت قبل آية القتال ، ثم نسخ حكمها ، وتقدم قول ابن عباس أنها نزلت في عمر بن الخطاب . قيل : سبه رجل من الكفار فهم أن يبطش به[2] . وقرأ الجمهور ﴿ ليجزي الله ﴾ وزيد بن علي وأبو عبد الرحمن والأعمش وأبو علية وابن عامر وحمزة والكسائي بالنون ، وشيبة وأبو جعفر بخلاف عنه بالياء مبنياً للمفعول ، وقد روي ذلك عن عاصم ، وفيه حجة لمن أجاز بناء الفعل للمفعول على أن يقام المجرور وهو بما ، وينصب المفعول به الصريح وهو قوماً ، ونظيره ضرب بسوط زيداً ، ولا يجيز ذلك الجمهور ، وخرجت هذه القراءة على أن يكون بني الفعل للمصدر ، أي : وليجزي الجزاء قوماً . وهذا أيضاً لا يجوز عند

---

(1) البيت في الكشاف (٤/٢٨٧) وروح المعاني (٢٥/١٤٣)

(2) انظر الدر المنثور ٦/١٨٩ والقرطبي ١٦/١٦٢ ـ ١٦٨ والوسيط ٥٥ ج

الجمهور ، لكن بتأويل على أن ينصب بفعل محذوف تقديره يجزي قوماً ، فيكون جملتان إحداهما ليجزي الجزاء قوماً ، والأخرى يجزيه قوماً . وقوماً هنا يعني به الغافرين ، ونكره على معنى التعظيم لشأنهم ، كأنه قيل : قوماً أي قوم من شأنهم التجاوز عن السيئات والصفح عن المؤذيات وتحمل الوحشة . وقيل : هم الذين لا يرجون أيام الله ، أي : بما كانوا يكسبون من الإثم ، كأنه قيل لم تكافئوهم أنتم حتى نكافئهم نحن . من عمل صالحاً كهؤلاء الغافرين ، ومن أساء كهؤلاء الكفار ، وأتى باللام في فلنفسه ، لأن المحاب والحظوظ تستعمل فيها على الدلالة على العلو والقهر ، كما تقول : الأمور لزيد متأتية ، وعلى عمرو مستصعبة ، والكتاب التوراة ، والحكم القضاء ، وفصل الأمور ، لأن الملك كان فيهم . قيل : والحكم الفقه ، ويقال : لم يتسع فقه الأحكام على نبي كما اتسع على لسان موسى من الطيبات المستلذات الحلال ، وبذلك تتم النعمة ، وذلك المن والسلوى ، وطيبات الشام إذ هي الأرض المباركة . (بينات) أي : دلائل واضحة من الأمر ، أي : من الوحي الذي فصلت به الأمور . وعن ابن عباس من الأمر أي : أمر النبي ﷺ ، وأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب . وقيل : معجزات موسى (فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم) تقدم تفسيره في الشورى .

ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝

لما ذكر تعالى إنعامه على بني إسرائيل ، واختلافهم بعد ذلك ، ذكر حال نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما منّ به عليه من اصطفائه ، فقال (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء) ، قال قتادة : الشريعة الأمر والنهي والحدود والفرائض . وقال مقاتل : البينة ، لأنها طريق إلى الحق . وقال الكلبي : السنة ، لأنه كان يستن بطريقة من قبله من الأنبياء . وقال ابن زيد : الدين ، لأنه طريق إلى النجاة . والشريعة في كلام العرب الموضع الذي يرد فيه الناس في الأنهار والمياه ، ومنه قول الشاعر :

وفي الشرائع من جيلان مقتنص ... رث الثياب خفي الشخص منسرب(1)

(1) من البسيط لم نجد لقائله وذكره [illegible] في البحر المحيط .

شريعة من ذلك من حيث يرد الناس أمر الله ورحمته ، والقرب منه من الأمور التي من دين الله الذي شرعه في عهده في الزمان المستأنف ، أو يكون مصدر أمر ، أي : من الأمر والنهي وسمي النهي أمراً . ﴿ أهواء الذين لا يعلمون ﴾ ، قيل : جهلة قريظة والنضير[1] ، وقيل : رؤساء قريش حين قالوا : ارجع إلى دين آبائك . ﴿ هذا بصائر ﴾ أي : هذا القرآن جعل ما فيه من معالم الدين بصائر للقلوب ، كما جعل روحاً وحياة ، وقرئ : هدى أي هذه . ﴿ أم حسب ﴾ أم منقطعة تتقدر ببل ، والهمزة وهو استفهام إنكار . وقال الكلبي : نزلت في علي ، وحمزة ، وعبيدة بن الحارث ، وفي عتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة ، قالوا للمؤمنين : والله ما أنتم على شيء ، ولئن كان ما تقولون حقاً لحالنا أفضل من حالكم في الآخرة ، كما هو أفضل في الدنيا[1] . واجترحوا : اكتسبوا ، والسيئات هنا سيئات الكفر ، ونجعلهم نصيرهم ، والمفعول الثاني هو كالذين وبه تمام المعنى . وقرأ الجمهور : ﴿ سواء ﴾ بالرفع ﴿ ومماتهم ﴾ بالرفع أيضاً ، وأعربوا سواء مبتدأ وخبره ما بعده ، ولا مسوغ لجواز الابتداء به ، بل هو خبر مقدم وما بعده المبتدأ ، والجملة خبر مستأنف . ويحتمل الضمير في محياهم ومماتهم أن يعود على الذين اجترحوا ، أخبر أن حالهم في الزمانين سواء ، وأن يعود على المجترحين والصالحين بمعنى أن محيا المؤمنين ومماتهم سواء في إهانتهم عند الله وعدم كرامتهم عليه ، ويكون اللفظ قد لف هذا المعنى وذهن السامع يفرقه إذ قد تقدم إبعاد الله أن يجعل هؤلاء كهؤلاء . وقال أبو الدرداء : يبعث الناس على ما ماتوا عليه . وقال مجاهد : المؤمن يموت مؤمناً ويبعث مؤمناً ، والكافر يموت كافراً ، ويبعث كافراً[2] . وقال ابن عطية : مقتضى هذا الكلام أنه لفظ الآية ، ويظهر لي أن قوله : ﴿ سواء محياهم ومماتهم ﴾ داخل في المحسبة المنكرة السيئة ، وهذا احتمال حسن ، والأول أيضاً جيد انتهى . ولم يبين كيفية تشبث الجملة بما قبلها حتى يدخل في المحسبة . وقال الزمخشري : والجملة التي هي سواء محياهم ومماتهم بدل من الكاف ، لأن الجملة تقع مفعولاً ثانياً ، فكانت في حكم المفرد ، ألا تراك لو قلت : أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم كان سديداً ، كما تقول : ظننت زيداً أبوه منطلق انتهى . وهذا الذي ذهب إليه الزمخشري من إبدال الجملة من المفرد قد أجازه أبو الفتح ، واختاره ابن مالك ، وأورد على ذلك شواهد على زعمه ، ولا يتعين فيها البدل . وقال بعض أصحابنا وهو الإمام العالم ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن علي الإشبيلي ويعرف بابن العلج ، وكان ممن أقام باليمن وصنف بها قال في كتابه البسيط في النحو : ولا يصح أن يكون جملة معمولة للأول في موضع البدل ، كما كان في النعت ، لأنها تقدر تقدير المشتق تقدير الجامد ، فيكون بدلاً ، فيجتمع فيه تجوزان . ولأن البدل يعمل فيه العامل الأول فيصح أن يكون فاعلاً ، والجملة لا تكون في موضع الفاعل بغير سابك ، لأنها لا تضمر ، وإن كانت غير معمولة فهل تكون جملة لا يبعد عندي جوازها كما جاء في العطف الجملة للجملة ، وتأكيد الجملة التأكيد اللفظي انتهى . ويتبين من كلام هذا الإمام أنه لا يجوز أن تكون الجملة بدلاً من المفرد . وأما تجويز الزمخشري أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم ، فيظهر لي أنه لا يجوز ، لأنها بمعنى التصيير ، لا تجوز صيرت زيداً أبوه قائم ، ولا صيرت زيداً غلامه منطلق ، لأن التصيير انتقال من ذات إلى ذات ، أو من وصف في الذات ، إلى وصف فيها ، وتلك الجملة الواقعة بعد مفعول صيرت المقدرة مفعولاً ثانياً ليس فيها انتقال مما ذكرنا ، فلا يجوز . والذي يظهر لي أنه إذا تشبث الجملة بما قبلها أن تكون الجملة في موضع الحال ، والتقدير أم حسب الكفار أن نصيرهم مثل المؤمنين في حال استواء محياهم ومماتهم ليسوا كذلك ، بل هم مفترقون أي : مفترق في الحالتين ، وتكون هذه الحال مبينة ما انبهم في المثلية الدال عليها الكاف التي هي في موضع المفعول الثاني . وقرأ زيد بن علي وحمزة والكسائي وحفص سواء بالنصب ، وما بعده مرفوع على إجرائه مجرى مستوياً كما قالوا مررت برجل سواء هو

---

(١) انظر الوسيط ٤/٩٦ والبغوي ٤/١٥١ والقرطبي ١٦/١٦٩
(٢) انظر الوسيط ٤/٩٦ والبغوي ٤/١٥١ والقرطبي ١٦/١٧٠
(٣) انظر الطبري ٢٥/٩٠ والوسيط ٤/٩٦ والبغوي ٤/١٥١

إني امرؤٌ سَمْحُ الخليقةِ ماجدٌ ... لا أُتبعُ النفسَ اللَّجوجَ هواها(١)

وقال أبو عمران موسى بن عمران الإشبيلي الزاهد رحمه الله تعالى:

فخالِفْ هواها واعْصِها إنَّ مَنْ يُطِعْ ... هوى نفسِه تَنْزِعْ به شرَّ مَنْزَعِ(٢)
ومَنْ يُطِعِ النفسَ اللَّجوجَ تَرُدُّه ... وترمِ به في مَصْرعٍ أيِّ مَصْرَعِ

﴿وأضله الله على علم﴾ أي: من الله تعالى سابق، أو على علم من هذا الضال بأن الحق هو الدين، ويعرض عنه عنادًا فيكون كقوله: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ [النمل: ١٤]. وقال الزمخشري: حرمه من الهداية واللطف وخذله عن علم عالمًا بأن ذلك لا يجدي عليه، وأنه ممن لا لطف له، أو مع علمه بوجوه الهداية وإحاطته بأنواع الألطاف المحصلة والمقربة انتهى. وهو على طريقة الاعتزال. وقرأ الجمهور ﴿غشاوة﴾ بكسر الغين. وعبد الله والأعمش بفتحها، وهي لغة ربيعة والحسن وعكرمة وعبد الله أيضًا بضمها، وهي لغة عكلية والأعمش وطلحة وأبو حيوة ومسعود بن صالح وحمزة والكسائي ﴿غَشْوة﴾ بفتح الغين وسكون الشين وابن مصرف والأعمش أيضًا كذلك إلا أنهما كسرا الغين، وتقدم تفسير هاتين في أول البقرة. وقرأ الجمهور ﴿تذَّكرون﴾ بشد الذال والجحدري بخفها والأعمش بتاءين. ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ هي مقالة بعض قريش [منكرة للبعث]، والظاهر أن قولهم ﴿نموت ونحيا﴾ حكم على النوع بجملته من غير اعتبار تقديم وتأخير، أي: تموت طائفة، وتحيا طائفة، وأن المراد بالموت مفارقة الروح للجسد. وقيل في الكلام تقديم وتأخير، أي: نحيا ونموت. وقيل: ﴿نموت﴾ عبارة عن كونهم لم يوجدوا ﴿ونحيا﴾ أي: في وقت وجودنا، وهذا قريب من الأول قبله ولا ذكر للموت الذي هو مفارقة الروح في هذين القولين. وقيل: نموت الآباء وتحيا الأبناء. وقرأ زيد بن علي ﴿ونُحيا﴾ بضم النون. ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾ أي: طول الزمان، لأن الآفات تستوي فيه كمالاتها. هذا إن كان قائلو هذا معترفين بالله، فنسبوا الآفات إلى الدهر بجهلهم أنها مقدرة من عند الله، وإن كانوا لا يعرفون الله ولا يقرون به، وهم الدهرية فنسبوا ذلك إلى الدهر. وقرأ عبد الله ﴿إلا دهر﴾ وتأويله إلا دهر يمر. كانوا يضيفون كل حادثة إلى الدهر، وأشعارهم ناطقة بشكوى الدهر، حتى يوجد ذلك في أشعار المسلمين، قال ابن دريد في مقصورته:

يا دهرُ إن لم تكُ عُتبى فاتّئدْ ... فإنَّ إرْوادَكَ والعُتبى سَوا

وما كان حجتهم ليست حجة حقيقية، أي: ما كان حجتهم عندهم أو لأنهم أدلوا بها كما يدلي المحتج بحجته، وساقوها مساقها فسميت حجة على سبيل التهكم، أو لأنه في حسبانهم، تحية بينهم ضرب وجيع، أي: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة، والمراد نفي أن يكون لهم حجة ألبتة. وقرأ الجمهور ﴿حجتَهم﴾ بالنصب، والحسن وعمرو بن عبيد وزيد بن علي وعبيد بن عمير وابن عامر فيما روى عنه عبد الحميد وعاصم فيما روى هارون وحسين عن أبي بكر عنه حجتُهم أي: ما تكون حجتهم، لأن إذا للاستقبال، وخالفت أدوات الشرط بأن جوابها إذا كان منفيًا بما لم تدخل الفاء، بخلاف أدوات الشرط فلا بد من الفاء، تقول: إن تزرنا فما جفوتنا، أي: فما تجفونا، وفي كون الجواب منفيًا بما دليل على ما اخترناه من أن جواب إذا لا يعمل فيها، لأن ما بعد ما النافية لا يعمل فيما قبلها. ﴿ائتوا﴾ يظهر أنه خطاب للرسول والمؤمنين، إذ هم قائلون بمقتضاه، أو هو خطاب له ولمن ساعده بالبعث، وهم الأنبياء وغلب الخطاب على الغيبة. ﴿قل الله

(١) انظر روح المعاني (٢٥/ ١٥٢).
(٢) انظر روح المعاني (٢٥/ ١٥٣).

أعمال ، وأفرد كتابها اكتفاء باسم الجنس ، لقوله ﴿ ووضع الكتاب ﴾ [الزمر ٦٩] ﴿ اليوم تجزون ﴾ [الجاثية ٢٨]
﴿ هذا كتابنا ﴾ [الجاثية ٢٩] هو الذي دعيت إليه كل أمة وصحت إضافته إليه تعالى ، لأنه مالكه الآمر بكتبه وإليهم ،
لأن أعمالهم مثبتة فيه ، والإضافة تكون بأدنى ملابسة ، فلذلك صحت ، إضافته إليهم ، وإليه تعالى ينطق عليكم يشهد
بالحق من غير زيادة ولا نقصان ﴿ إنا كنا نستنسخ ﴾ أي : الملائكة ، أي ، نجعلها تنسخ أي تكتب ، وحقيقة النسخ نقل
خط من أصل ينظر فيه فأعمال العباد كأنها الأصل . وقال الحسن : هو كتب الحفظة على بني آدم ، وعن ابن عباس يجعل
الله الحفظة تنسخ من اللوح المحفوظ كل ما يفعل العباد ، ثم يمسكونه عندهم ، فتأتي أفعال العباد على نحو ذلك فيتحد
أيضاً ، فذلك هو الاستنساخ ، وكان يقول ابن عباس : ألستم عرباً ، وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل ، ثم بين حال
المؤمن بأنه يدخله في رحمته ، وهو الثواب الذي أعده له ، وأن ذلك هو الفوز المبين ، وبين حال الكافر بأنه يوبخ ويقال له أفلم
تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم عن اتباعها ، والإيمان بها ، وكنتم أصحاب جرائم ، والفاء في أفلم يؤذن بها التقدير ،
وإذا قدمت الهمزة ، لأن الاستفهام له صدر الكلام ، والتقدير فيقال لهم . وقال الزمخشري : والمعنى ألم يأتكم رسلي فلم
تكن آياتي تتلى عليكم ، فحذف المعطوف عليه . انتهى . وقد تقدم الكلام معه في زعمه أن بين الفاء والواو إذا تقدمتها همزة
الاستفهام معطوفاً عليه محذوفاً ، ورددنا عليه ذلك . وقرأ الأعرج وعمرو بن فائد وإذا قيل إن وعد الله بفتح الهمزة ، وذلك
في لغة سليم ، والجمهور إن بكسرها . وقرأ الجمهور : والساعة بالرفع على الابتداء ، ومن زعم أن لاسم إن موضعاً
جوز العطف عليه هنا ، ومن زعم أن لإن واسمها موضعاً جوز العطف عليه ، والعطف على الموضع لأن واسمها هنا [illegible]
أبو علي ذكره في الحجة وتبعه الزمخشري فقال والرفع عطفاً على محل إن واسمها ، والصحيح المنع . وحمزة بالنصب عطفاً
على وعد الله ، وهي مروية عن الأعمش وأبي عمرو وعيسى وأبي حيوة والعبسي والمفضل إن نظن إلا ظناً ، تقول ضربت
ضرباً ، فإن نفيت لم تدخل إلا ، إذ لا يفرغ العامل للمصدر المؤكد ، فلا تقول ما ضربت إلا ضرباً ، ولا ما قمت إلا قياماً ، فأما
الآية فتأول على حذف وصف المصدر حتى يصير مختصاً لا مؤكداً ، وتقديره إلا ظناً ضعيفاً ، أو على تضمين نظن معنى
نعتقد ، ويكون ظناً مفعولاً به ، وقد تأول ذلك بعضهم على وضع إلا في غير موضعها ، وقال : التقدير إن نحن إلا نظن
ظناً ، وحكي هذا عن المبرد ، ونظيره ما حكاه أبو عمرو بن العلاء وسيبويه من قول العرب ليس الطيب إلا المسك ، قال
المبرد : ليس إلا الطيب المسك . انتهى . واحتاج إلى هذا التقدير كون المسك مرفوعاً بعد إلا ، وأنت إذا قلت ما كان زيد إلا
فاضلاً نصبت ، فلما وقع بعد إلا ما يظهر أنه خبر ليس احتاج أن يزحزح إلا عن موضعها ، ويجعل في ليس ضمير الشأن ،
ويرتفع إلا الطيب المسك على الابتداء ، والخبر ، فيصير كالملفوظ به في نحو ما كان إلا زيد قائم ، ولم يعرف المبرد أن ليس في
مثل هذا التركيب عاملها بنو تميم معاملة ما ، فلا يعملونها إلا منية مكانها ، وليس غير عاملة ، وليس في الأرض حجازي
إلا وهو ينصب في نحو : ليس الطيب إلا المسك ، ولا تميمي إلا وهو يرفع ، وفي ذلك حكاية جرت بين عيسى بن عمر وأبي
عمرو بن العلاء ذكرناها فيما كتبناه من علم النحو ، وتخريج إن نظن إلا ظناً ، قول الأعشى :

وَحَلَّ بِهِ الشَّيْبُ أَثْقَالَهُ ... وَمَا اغْتَرَّهُ الشَّيْبُ إِلَّا اغْتِرَارَا[1]

أي ، اغتراراً بيناً . وقال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى إن نظن إلا ظناً ؟ قلت : أصله نظن ظناً ، ومعناه
إثبات الظن مع نفي ما سواه ، وزيد نفي ما سوى الظن توكيداً بقوله : ﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾ انتهى . وهذا الكلام ممن لا

(١) البيت من المتقارب انظر الديوان (٧٣) ، ابن يعيش (٧/١٠٦) ، شرح الكافية للرضي (١/١٣١) ، خزانة (٣/٣٧٤) ، روح المعاني [٢٥/١٥٢] ، وروايته في الديوان :

أحل به الشيب أثقاله ... وما اغتره الشيب إلا اغترارا

شعور له بالقاعدة النحوية من أن التفريغ يكون في جميع المعمولات من فاعل ومفعول وغيره إلا المصدر المؤكد ، فإنه لا يكون فيه[1] ، وقدّره بعضهم إن نظن إلا أنكم تظنون ظناً ، قال : وإنما احتيج إلى هذا التقدير ، لأنه لا يجوز في الكلام ما ضربت إلا ضرباً ، فاهتدى إلى هذه القاعدة النحوية وأخطأ في التخريج ، وهو محكي عن المبرد ، ومثله لا يصح تفريغ .
﴿إن نظن﴾ دليل على أن الكفار قد أخبروا بأنهم ظنوا البعث واقعاً ، وقد قدم قبل قوله : ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ على أنهم منكرون البعث ، فهم والله أعلم فرقتان أو اضطربوا ، فتارة أنكروا وتارة ظنوا ، وقالوا : إن نظن إلا ظناً على سبيل الهزء .
﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا﴾ أي : قبائح أعمالهم أو عقوبات أعمالهم السيئات ، وأطلق على العقوبة سيئة كما قال : ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ [الشورى: ٤٠] ، ﴿وحاق بهم﴾ أي : أحاط ، ولا يستعمل حاق إلا في المكروه ، ﴿ننساكم﴾ نترككم في العذاب ، أو نجعلكم كالشيء المنسي الملقى غير المبالى به ﴿كما نسيتم لقاء يومكم﴾ أي : لقاء جزاء الله على أعمالكم ولم تخطروه على بال بعدما ذكرتم به ، وتقدم إنذاركم بوقوعه ، وأضاف اللقاء لليوم توسعاً كقوله : ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ [سبأ: ٣٣] وقرأ الجمهور : ﴿لا يُخرجون﴾ مبنياً للمفعول ، والحسن وابن وثاب وحمزة والكسائي مبنياً للفاعل منها ، أي : من النار ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي : يطلب مراجعة إلى عمل صالح ، وتقدم الكلام في الاستعتاب ، وقرأ الجمهور رب بالجر في الثلاثة على الصفة ، وابن محيصن بالرفع فيها على إضمار هو .

---

(1) والقصد في معنى التفريغ أن يحذف المستثنى منه ويكون بعد نفي أو شبهه ويعمل ما قبل المستثنى على حسب العوامل قبل (إلا) فيكون مفرغة للعمل في ما بعد (إلا) ولعدم استيفاء المستثنى ، والاستثناء المفرغ يكون في جميع المعمولات : الفاعل ونائبه والمفعول به والمصدر والظرف والمفعول له ، انظر شرح الكافية ١/ ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

بسم الله الرحمن الرحيم

حم ﴿١﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿٢﴾ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل
مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴿٣﴾ قل أرءيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض
أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴿٤﴾ ومن
أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ﴿٥﴾ وإذا حشر
الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴿٦﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما
جاءهم هذا سحر مبين ﴿٧﴾ أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون
فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم ﴿٨﴾ قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي
ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين ﴿٩﴾ قل أرءيتم إن كان من عند الله وكفرتم به
وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴿١٠﴾ وقال الذين
كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴿١١﴾
ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى
للمحسنين ﴿١٢﴾ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿١٣﴾ أولئك
أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ﴿١٤﴾ ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها
ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر
نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من
المسلمين ﴿١٥﴾ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق
الذي كانوا يوعدون ﴿١٦﴾ والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما

يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ۝ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝ ۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۝ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ۝

الأحقاف: رمال مستطيل مرتفع فيه اعوجاج وانحناء، وهو احقوقف الشيء اعوج. قال امرؤ القيس:

أمر أوس بالخروج إلى أرض قد رفعت ، ورأيتها يعني في منامه ذات نخل وشجر . وقال ابن عباس وأنس بن مالك وقتادة والحسن وعكرمة معناه في الآخرة ، وكان هذا في صدر الإسلام ، ثم بعد ذلك عرّفه الله تعالى أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأن المؤمنين لهم من الله فضل كبير وهو الجنة ، وبأن الكافرين في نار جهنم ، وهذا القول ليس بظاهر ، بل قد أعلم سبحانه من أول الرسالة حال الكافر وحال المؤمن ، وقيل : ما يفعل بي ولا بكم من الأوامر والنواهي وما يلزم الشريعة . وقيل : نزلت في أمر كان النبي ـ ﷺ ـ ينتظره من الله في غير الثواب والعقاب ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ﴾ استسلام وتبرؤ من علم المغيبات ووقوف مع النذارة ولا من عذاب الله . وقرأ الجمهور ﴿ ما يُفعل ﴾ بضم الياء مبنياً للمفعول ، وزيد بن علي ، وابن أبي عبلة بفتحها ، والظاهر أن ما استفهامية وأدري معلقة ، فجملة الاستفهام موصولة منصوبة انتهى . والفصيح المشهور إن درى يتعدى بالباء ، ولذلك حين عدي بهمزة النقل تعدى بحباه ، نحو قوله : ﴿ ولا أدراكم به ﴾ [يونس ١٦] فيحتمل ما استفهامية من الأول ، والأجود وكثيراً ما علقت في القرآن نحو ﴿ وإن أدري أقريب ﴾ [الجن ٢٥] ويفعل مثبت غير منفي لكنه قد انسحب عليه النفي لاشتماله على ما ، ويفعل فلذلك قال ولا بكم ، ولولا اعتبار النفي لكان التركيب ما يفعل بي وبكم ، ألا ترى زيادة من في قوله : ﴿ أن ينزل عليكم من خير ﴾ [البقرة ١٠٥] لانسحاب قوله : ﴿ ما يود الذين كفروا ﴾ على يود وعلى متعلق يود ، وهو أن ينزل فلذا انتفت زيادة التنزيل انتفى التنزيل . وقرأ ابن عمير ﴿ ما يوحي ﴾ بكسر الحاء ، أي الله عز وجل قل أرأيتم مفعولاً أرأيتم محذوفان لدلالة المعنى عليهما ، والتقدير : أرأيتم حالكم إن كان كذا ، ألستم ظالمين فالأول حالكم ، والثاني ألستم ظالمين وجواب الشرط محذوف ، أي : فقد ظلمتم ولذلك جاء فعل الشرط ماضياً . وقال الزمخشري : جواب الشرط محذوف تقديره إن كان هذا القرآن من عند الله ، وكفرتم به ألستم ظالمين ، ويدل على هذا المحذوف قوله : ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ انتهى . وجملة الاستفهام لا تكون جواباً للشرط إلا بالفاء ، فإن كانت الأداة الهمزة تقدمت الفاء نحو إن تزرنا أفما تحسن إلينا ، أو غيرها تقدمت الفاء نحو إن تزرنا فهل ترى إلا خيراً ، فقول الزمخشري : ألستم ظالمين بغير فاء لا يجوز أن يكون جواب الشرط . وقال ابن عطية : وأرأيتم يحتمل أن تكون منبهة ، فهي لفظ موضوع للسؤال لا يقتضي مفعولاً ، ويحتمل أن تكون الجملة كان ، وما عملت فيه تسد مسد مفعوليها انتهى . وهذا خلاف ما قرره محققو النحاة في أرأيتم . وقيل جواب الشرط فمن آمن واستكبرتم ، أي : فقد آمن محمد به ، أو الشاهد واستكبرتم أنتم عن الإيمان . وقال الحسن : تقديره فمن أضل منكم ، وقيل : فمن المحق منا ومنكم ومن المبطل وقيل : أتؤمنون ، والضمير في به عائد على ما عاد عليه اسم كان ، وهو القرآن . وقال الشعبي : يعود على الرسول ، والشاهد عبد الله بن سلام قاله الجمهور وابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة وابن سيرين ، والآية مدنية[1] . وعن عبد الله بن سلام نزلت في آيات من كتاب الله نزلت في ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ﴾[2] [الأحقاف ١٠] وقال مسروق : الشاهد موسى عليه السلام لا ابن سلام ، لأنه أسلم بالمدينة ، والسورة مكية ، والخطاب في وكفرتم به لقريش . وقال الشعبي : الشاهد من آمن من بني إسرائيل بموسى ، والتوراة لأن ابن سلام أسلم قبل وفاة النبي ـ ﷺ ـ بعامين ، والسورة مكية . وقال سعد بن أبي وقاص ومجاهد وفرقة الآية مكية ، والشاهد عبد الله بن سلام ، وهي من الآيات التي تضمنت غيباً أبرزه الوجود ، وعبد الله بن سلام مذكور في الصحيح ، وفيه بهت اليهود لعنهم الله ، ومن كذب اليهود وجهلهم بالتاريخ ما يعتقدونه في عبد الله بن سلام أنه ـ ﷺ ـ حين سافر إلى الشام في تجارة خديجة ـ رضي الله عنها ـ اجتمع بأحبار اليهود وقص

---

(١) انظر صحيح البخاري كتاب المناقب باب مناقب عبد الله بن سلام ، والترمذي كتاب التفسير باب من سورة الأحقاف ٥/٣٨٢ والطبري ٢٦/٥.

(٢) انظر المصادر السابقة .

وذلك بالهمزة ولعوا في الجارحة. وقيل النصب على إسقاط الخافض أي: بلسان عربي. وقرأ أبو رجاء وشيبة والأعرج وأبو جعفر وابن عامر ونافع وابن كثير لتنذر بتاء الخطاب للرسول. والأعمش وابن كثير أيضاً وباقي السبعة بياء الغيبة، أي: لينذر القرآن. والذين ظلموا الكفار عباد الأصنام حيث وضعوا العبادة في غير من يستحقها. (وبشرى) قيل: معطوف على مصدق فهو في موضع رفع، أو على إضمار هو، وقيل: منصوب بفعل محذوف معطوف على لينذر، أي: ويبشر بشرى، وقيل: منصوب على إسقاط الخافض، أي: وللبشرى. وقال الزمخشري: وتبعه أبو البقاء وبشرى في محل النصب معطوف على محل لينذر، لأنه مفعول له انتهى. وهذا لا يجوز على الصحيح من مذهب النحويين، لأنهم يشترطون في الحمل على المحل أن يكون المحل بحق الأصالة، وأن يكون للموضع محرز، والمحل هنا ليس بحق الأصالة[1]، لأن الأصل هو الجر في المفعول له، وإنما النصب ناشئ عن إسقاط الخافض، لكنه لما كثر بالشروط المذكورة في النحو وصل إليه الفعل فنصبه. ولما عبر عن الكفار بالذين ظلموا عبر عن المؤمنين بالمحسنين ليقابل لفظ الإحسان لفظ الظلم. (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) تقدم الكلام على نظير هذه الآية في سورة فصلت. ولما ذكر جزاء بما كانوا يعملون قال: (ووصينا) إذ كان بر الوالدين ثانياً أفضل الأعمال، إذ في الصحيح أي الأعمال أفضل: فقال الصلاة على ميقاتها، قال: ثم أي، قال: ثم بر الوالدين، وإن كان عقوقهما ثاني أكبر الكبائر إذ قال عليه الصلاة والسلام ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين. والتوكيد في برهما كثير. وقرأ الجمهور حسناً بضم الحاء وإسكان السين وعلي والسلمي وعيسى بفتحهما، وعن عيسى بضمهما والكوفيون إحساناً فقيل ضمن ووصينا معنى ألزمنا فيتعدى لاثنين فانتصب حسناً وإحساناً على المفعول الثاني لوصينا، وقيل: التقدير إيصاء ذا حسن، أو ذا إحسان، ويجوز أن يكون حسناً بمعنى إحساناً فيكون مفعولاً له، أي: ووصيناه به لإحساننا إليهما، فيكون الإحسان من الله تعالى، وقيل: النصب على المصدر على تضمين وصينا معنى أحسنا بالوصية للإنسان بوالديه إحساناً. وقال ابن عطية: ونصب هذا إحساناً على المصدر الصريح، والمفعول الثاني في المجرور، والباء متعلقة بوصينا أو بقوله إحساناً انتهى. ولا يصح أن يتعلق بإحساناً، لأنه مصدر بحرف مصدري، والفعل فلا يتقدم معموله عليه، ولأن أحسن لا يتعدى بالباء، إنما يتعدى باللام، تقول أحسنت لزيد ولا تقول أحسنت بزيد على معنى أن الإحسان يصل إليه. وتقدم الكلام على ووصينا الإنسان بوالديه حسناً في سورة العنكبوت، وانجر هنا بالكلام على ذلك مزيداً للفائدة. (حملته أمه كرهاً) ليس الكره في أول علوقها بل في ثاني استمرار الحمل، إذ لا تدبير لها في حمله، ولا تركه انتهى. ولا يلحقها كره إذ ذاك فهذا احتمال بعيد. وقال مجاهد والحسن وقتادة: المعنى حملته مشقة ووضعته مشقة. وقرأ الجمهور بضم الكاف، وشيبة وأبو جعفر والأعرج والحرميان وأبو عمرو بالفتح وبهما معاً أبو رجاء ومجاهد وعيسى والضم والفتح لغتان بمعنى واحد، كالعقر والعقر، وقالت فرقة بالضم المشقة، وبالفتح الغلبة والقهر، وضعفوا قراءة الفتح، وقال بعضهم: لو كان بالفتح لرمت به عن نفسها إذ معناه القهر والغلبة انتهى. وهذا ليس بشيء إذ قراءة الفتح في السبعة المتواترة. وقال أبو حاتم: القراءة بفتح الكاف لا تحسن، لأن الكره بالفتح النصب والغلبة انتهى. وكان أبو حاتم يطعن في بعض القرآن بما لا علم له به جسارة منه عفا الله

---

(1) يشترط أهل التحقيق من النحاة في صحة العطف على المحل أن يكون هذا المحل بحق الأصالة كما حكى المصنف، أي: أن يكون المحل هو الأصل نحو (ليس زيد بقائم ولا قاعداً) بنصب (قاعداً) عطفاً على موضع (قائم) لأن الأصل في خبر (ليس) النصب، ونحو (ما جاءني من رجل ولا امرأة) برفع (امرأة) عطفاً على موضع (من رجل) لأنه فاعل الأصل فيه الرفع، ومنعوا العطف على المحل الذي ليس بحق الأصالة، فمنعوا (هذا ضارب زيداً أو أخيه) بجر الأخ على أن يكون عطفاً على (زيداً) المنتصب بإضافة (ضارب) إليه باعتبار جواز الإضافة، وذلك أن الوصف المستوفي لشروط الإعمال الأصل فيه إعماله في ما بعده لالتحاقه بالفعل، وليس الأصل فيه الإضافة وقد تقدم هذا، وانظر تفصيل ذلك في حاشية الدسوقي ٢/ ١٩٠ المغني ٢/ ١٤٠ ابن يعيش ٤/ ٦٤ - ٥٣

عنه وانتصابهما على الحال من ضمير الفاعل ، أي : حملته ذات كره ، أو على أنه نعت لمصدر محذوف ، أي : حملاً ذا كره ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ أي : ومدة حمله وفصاله ، وهذا لا يكون إلا بأن يكون أحد الطرفين ناقصاً ، إما بأن تلد المرأة لستة أشهر ، وترضع عامين ، وإما أن تلد لتسعة أشهر على العرف ، وترضع عامين غير ربع عام ، فإن زادت مدة الحمل نقصت مدة الرضاع ، فمدة الرضاع عام وتسعة أشهر ، ويكمل العامين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وقد كشفت التجربة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر كنص القرآن . وقال جالينوس : كنت شديد الفحص عن مقدار زمن الحمل ، فرأيت امرأة ولدت لمائة وأربع وثمانين ليلة ، وزعم ابن سينا أنه شاهد ذلك ، وأما أكثر الحمل فليس في القرآن ما يدل عليه . قال ابن سينا في الشفاء : بلغني من جهة من أثق به كل الثقة أن امرأة وضعت بعد الرابع من سني الحمل ولدت ولداً نبتت أسنانه . ويحكى عن أرسطاطاليس : أنه قال : إن مدة الحمل لكل الحيوان مضبوطة سوى الإنسان ، فربما وضعت لسبعة أشهر وللثمانية ، وقل ما يعيش الولد في الثامن إلا في بلاد معينة مثل مصر انتهى . وعبر عن مدة الرضاع بالفصال لما كان الرضاع يلي الفصال ويلابسه ، لأنه ينتهي به ويتم سمي به . وقرأ الجمهور وفصاله وهو مصدر فاصل ، كأنه من اثنين فاصل أمه وفاصلته . وقرأ أبو رجاء والحسن وقتادة والجحدري : وفصله ، قيل : والفصل والفصال مصدران كالفطم والفطام . وهنا لطيفة ذكر تعالى الأم في ثلاثة مراتب في قوله ﴿ بوالديه ﴾ ﴿ وحمله ﴾ ﴿ وإرضاعه ﴾ المعبر عنه بالفصال ، وذكر الوالد في واحدة في قوله : ﴿ بوالديه ﴾ فناسب ما قال الرسول من جعل ثلاثة أرباع البر للأم والربع للأب في قول الرجل : يا رسول الله من أبر ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال أباك . حتى إذا بلغ أشده في الكلام حذف تكون معه غاية له تقديره فعاش بعد ذلك ، أو استمرت حياته ، ونحو ذلك ، وتقدم الكلام في بلوغ الأشد في سورة يوسف ، والظاهر ضعف قول من قال بلوغ الأشد أربعون ، لعطف وبلغ أربعين سنة ، والعطف يقتضي التغاير إلا إن ادعى أن ذلك توكيد لبلوغ الأشد فيمكن ، والتأسيس أولى من التأكيد ، وبلوغ الأربعين اكتمال العقل لظهور الفلاح ، قيل : ولم يبعث نبي إلا بعد الأربعين . وفي الحديث أن الشيطان يجر يده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب ، ويقول : بأبي وجه لا يفلح . ﴿ قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ وتقدم الكلام على هذا في سورة النمل . ﴿ وأصلح لي في ذريتي ﴾ سأل أن يجعل ذريته موقعاً للصلاح ومظنة له ، كأنه قال : هب لي الصلاح في ذريتي وأوقعه فيهم ، أو ضمن وأصلح لي معنى والطف بي في ذريتي ، لأن أصلح يتعدى بنفسه لقوله : ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ [الأنبياء : ٩٠] فلذلك احتيج قوله في ذريتي إلى التأويل ، قيل : نزلت في أبي بكر رضي الله عنه ، وتتناول من بعده وهو مشكل ، لأنها نزلت بمكة ، وأبوه أسلم عام الفتح ، ولقوله : ﴿ أولئك الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ﴾ فتم بعضه بذلك أبو بكر ولا غيره ، والمراد بالإنسان الجنس ، ولذلك أشار بقوله أولئك جمعاً . وقرأ الجمهور ﴿ يتقبل ﴾ مبنياً للمفعول أحسن رفعاً وكذا ويتجاوز ، وزيد بن علي وابن وثاب وطلحة وأبو جعفر والأعمش بخلاف عنه وحمزة والكسائي وحفص نتقبل أحسن نصباً ، ونتجاوز بالنون فيهما ، والحسن والأعمش وعيسى بالياء فيهما مفتوحة ، ونصب أحسن في أصحاب الجنة ، قيل : في بمعنى مع ، وقيل : هو نحو قولك أكرمني الأمير في ناس من أصحابه ، يريد في جملة من أكرم منهم ، ومحله النصب على الحال على معنى كائنين في أصحاب الجنة ، وانتصب وعد الصدق على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة ، لأن قوله ﴿ أولئك الذين نتقبل ﴾ وعد منه تعالى بالتقبل والتجاوز لما ذكر الإنسان البار بوالديه ، وما آل إليه من الخير ذكر العاق بوالديه ، وما آل إليه من الشر ، والمراد بالذي الجنس ، ولذلك جاء الخبر مجموعاً في قوله : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول ﴾ . وقال الحسن : هو الكافر العاق بوالديه ، المكذب بالبعث . وقول مروان بن الحكم واتبعه قتادة : أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قول خطأ ، تكذيبه عن عائشة حين دعا مروان وهو أمير المدينة إلى مبايعة يزيد ، فقال عبد الرحمن : جعلتموها هرقلية كلما مات هرقل ولي ابنه ، وكلما مات قيصر ولي ابنه ، فقال مروان : خذوه فدخل

وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

﴿ويوم يعرض﴾ ، أي : يعذب بالنار كما يقال عرض على السيف إذا قتل به . والعرض المباشرة كما تقول عرضت العود على النار أي : باشرت به النار . وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد عرض النار عليهم من قولهم عرضت الناقة على الحوض ، يريدون عرض الحوض عليها فقلبوا ، ويدل عليه تفسير ابن عباس يجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها انتهى . ولا ينبغي حمل القرآن على القلب إذ الصحيح في القلب أنه مما يضطر إليه في الشعر ، وإذا كان المعنى صحيحاً واضحاً مع عدم القلب فأي ضرورة تدعو إليه ؛ وليس في قولهم عرضت الناقة على الحوض ولا في تفسير ابن عباس ما يدل على القلب ، لأن عرض الناقة على الحوض وعرض الحوض على الناقة كل منهما صحيح إذ العرض أمر نسبي يصح إسناده لكل واحد من الناقة والحوض . وقرأ الجمهور أذهبتم على الخبر أي . فيقال لهم أذهبتم ، ولذلك حسنت الفاء في قوله : ﴿فاليوم تجزون﴾ ، وقرأ قتادة ومجاهد وابن وثاب وأبو جعفر والأعرج وابن كثير بهمزة بعدها مدة مطولة ، وابن عامر بهمزتين حققهما ابن ذكوان ، ولين الثانية هشام وابن كثير في رواية . وعن هشام الفصل بين المحققة والملينة بألف وهذا الاستفهام هو على معنى التوبيخ والتقرير فهو خبر في المعنى ، فلذلك حسنت الفاء ، ولو كان استفهاماً محضاً لما دخلت الفاء ، والطيبات هنا المستلذات من المآكل والمشارب والملابس والمفارش والمراكب والمواطئ وغير ذلك مما يتنعم به أهل الرفاهية ، وهذه الآية محرضة على التقلل من الدنيا وترك التنعم فيها والأخذ بالتقشف وما يجتزئ به رمق الحياة عن رسول الله في ذلك ما يقتضي التأسي به . وعن عمر في ذلك أخبار تدل على معرفته بأنواع الملاذ وعزة نفسه فتاركها عنها أتظنون أنا لا نعرف خفض العيش ، ولو شئت لجعلت أكباداً وصلاء وصلائق ، ولكن أستبقي حسناتي ، فإن الله عز وجل وصف أقواماً فقال : ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم﴾ والصلاء الشواء ، والصناب المتخذ من الخردل والزبيب والصلائق الخبز الرقيق العريض . قال ابن عطية : وهذا من باب الزهد[1] وإلا فالآية نزلت في كفار قريش ، والمعنى : أنه كانت تكون لكم طيبات الآخرة لو آمنتم لكنكم لم تؤمنوا فاستعجلتم طيباتكم في الحياة الدنيا ، فهذه كناية عن عدم الإيمان ، ولذلك ترتب عليه ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون﴾ ولو أريد الظاهر ، ولم يكن كناية عن ما ذكرنا لم يترتب عليه الجزاء بالعذاب . وقرئ الهوان وهو والهون بمعنى واحد ، ثم بين تلك الكناية بقوله بما كنتم تستكبرون ، أي : ترتفعون عن الإيمان ﴿وبما كنتم تفسقون﴾ أي : بمعاصي الجوارح ، وقدم ذنب القلب وهو الاستكبار على ذنب الجوارح إذ أعمال الجوارح ناشئة عن مراد القلب . ولما كان أهل مكة مستغرقين في لذات الدنيا معرضين عن الإيمان وما جاء به الرسول ذكرهم بما جرى للعرب الأولى ، وهم قوم عاد وكانوا أكثر أموالاً وأشد قوة ، وأعظم جاهاً فيهم ، فسلط عليهم العذاب بسبب كفرهم وضرب الأمثال ، وقصص من تقدم تعرف بقبح الشيء وتحسينه . فقال لرسوله : واذكر لقومك أهل مكة هوداً عليه السلام إذ أنذر قومه عاداً عذاب الله بالأحقاف . قال ابن عباس : واد بين عمان ومهرة ، وقال ابن إسحاق : من عمان إلى حضرموت وقال ابن زيد : رمال مشرفة بالشحر من اليمن . وقيل : بين مهرة وعدن ، وقال قتادة : بلاد الشحر المواصلة للبحر اليماني وقال ابن عباس : هي جبل الشام قال ابن عطية والصحيح أن بلاد عاد كانت باليمن ، ولهم كانت إرم ذات العماد ، وفي ذكر هذه القصة اعتبار لقريش وتسلية للرسول إذ كذبه قومه ، كما كذبت عاد هوداً عليه السلام ، والجملة من قوله ﴿وقد خلت النذر﴾ وهو جمع نذير ﴿من بين يديه ومن خلفه﴾ يحتمل أن تكون حالاً من الفاعل في أنذر من بين يديه ، وهم الرسل الذين تقدموا زمانه ﴿ومن خلفه﴾ الرسل الذين كانوا في زمانه ، ويكون على هذا معنى ﴿ومن خلفه﴾ أي : من بعد

---

(١) انظر البغوي ٤/١٦٩ وقرطبي ١٦/١٣٢ ، ١٣٣ .

إنذاره ، ويحتمل أن يكون اعتراضاً من إنذار قومه ، وأن لا تعبدوا ، والمعنى : وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك فاذكرهم . (قالوا أجئتنا) استفهام تقرير وتوبيخ وتعجيز له فيما أنذرهم به من العذاب العظيم على ترك إفراد الله بالعبادة . (لتأفكنا) : لتصرفنا قاله الضحاك ، أو لتزيلنا عن آلهتنا بالإفك ، وهو الكذب ، أي : عن عبادة آلهتنا . (فأتنا بما تعدنا) استعجال منهم بحلول ما وعدهم به من العذاب ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ﴾ [الأحقاف : ٢٤] (قال إنما العلم عند الله) أي : إنما علم وقت حلوله ، وليس تعيين وقته إليّ وإنما أنا مبلغ ما أرسلني به الله إليكم ، ولما تحقق عنده وعد الله وأنه حالٌّ بهم ، وهم في غفلة من ذلك وتكذيب ، قال : (ولكني أراكم قوماً تجهلون) أي : عاقبة أمركم لا شعور لكم بها ، وذلك واقع لا محالة ، وكانت عاد قد حبس الله عنها المطر أياماً فساق الله إليهم سحابة سوداء خرجت عليهم من واد يقال له : المغيث ، فاستبشروا ، والضمير في رأوه الظاهر أنه عائد على ما في قوله : (بما تعدنا) وهو العذاب . وانتصب عارضاً على الحال من المفعول . وقال ابن عطية : ويحتمل أن يعود على الشيء المرئي الطالع عليهم الذي فسره قوله : (عارضاً) وقال الزمخشري : فلما رأوه في الضمير وجهان : أن يرجع إلى ما تعدنا ، وأن يكون مبهماً ، قد وضح أمره بقوله : (عارضاً) إما تمييز ، وإما حال ، وهذا الوجه أعرب وأفصح انتهى . وهذا الذي ذكر أنه أعرب ، وأفصح ليس جارياً على ما ذكره النحاة ، لأن المبهم الذي يفسره ويوضحه التمييز لا يكون إلا في باب رب ، نحو : ربه رجلاً لقيته ، وفي باب نعم وبئس على مذهب البصريين ، نحو : نعم رجلاً زيد ، وبئس غلاماً عمرو ، وأما أن الحال يوضح المبهم ويفسره فلا نعلم أحداً ذهب إليه ، وقد حصر النحاة المضمر الذي يفسره ما بعده ، فلم يذكروا فيه مفعول رأى ، إذا كان ضميراً ولا أن الحال يفسر الضمير ويوضحه .

والعارض : المعترض في الجو من السحاب الممطر ، ومنه قول الشاعر :

يا من رأى عارضاً أرقت له ... بين ذراعي وجبهة الأسد(١)

وقال الأعشى :

يا من رأى عارضاً قد بت أرمقه ... كأنما البرق في حافاتها الشعل

(مستقبل أوديتهم) هو جمع واد ، وأفعلة في جمع فاعل الاسم شاذ نحو : ناد وأندية ، وجائز وأجوزة ، والجائز الخشبة الممتدة في أعلى السقف ، وإضافة مستقبل وممطر إضافة لا تعرف ، فلذلك نعت بهما النكرة (بل هو ما استعجلتم) أي : قال لهم هود هو العذاب الذي استعجلتم به أضرب عن قولهم عارض ممطرنا ، وأخبر بأنه عذاب فاجأهم ، ثم قال (ريح) أي : هي ريح بدل من هو ، وقرئ (ما استعجلتم) بضم التاء وكسر الجيم ، وتقدمت قصص في الريح فأغنى عن ذكرها هنا . (تدمر) أي : تهلك والدمار الهلاك وتقدم ذكره . وقرأ زيد بن علي (تدمر) بفتح التاء وسكون الدال وضم الميم ، وقرئ كذلك إلا أنه بالياء ، ورفع كل أي : تهلك كل شيء وكل شيء عام مخصوص ، أي : من نفوسهم وأموالهم ، أو من أمرت بتدميره ، وإضافة الرب إلى الريح دلالة على أنها وتصريفها مما يشهد بعظيم قدرته تعالى ، لأنها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده ، وذكر الأمر لكونها مأمورة من جهته تعالى . وقرأ الجمهور (لا ترى) بتاء الخطاب (إلا مساكنهم) بالنصب وعبد الله ومجاهد وزيد بن علي وقتادة وأبو حيوة وطلحة وعيسى والحسن وعمرو بن ميمون بخلاف عنهما ، وعاصم وحمزة (لا يرى) بالياء من تحت مضمومة (إلا مساكنهم) بالرفع ، وأبو رجاء ومالك بن دينار بخلاف

---

(١) البيت من المنسرح للفرزدق انظر ديوانه ١/٢١٥ الخزانة ١/٣٦٩ العيني ٣/٤٥١ ابن يعيش ٣/٢١ استشهد به على أن (عارضاً) بمعنى السحاب المعترض في الجو .

السمع فلما بعث الرسول حرست السماء ، ورمي الجن بالشهب ، قالوا : ما هذا إلا أمر حدث ، وطافوا الأرض فوافوا رسول الله ـ ﷺ ـ بوادي نخلة وهو قائم يصلي فاستمعوا لقراءته ، وهو لا يشعر ، فأنبأه الله باستماعهم ، والمرة الأخرى أن الله أمره أن ينذر الجن ويقرأ عليهم ، فقال : إني أمرت[1] أن أقرأ على الجن فمن يتبعني قالها ثلاثاً ، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود ، قال : لم يحضره أحد ليلة الجن غيري فانطلقنا حتى إذا كنا في شعب الحجون خط لي خطاً ، وقال : لا تخرج منه حتى أعود إليك ثم افتتح القرآن ، وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على رسول الله ـ ﷺ ـ وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ، ثم تقطعوا تقطع السحاب فقال لي هل رأيت شيئاً قلت : نعم ، رجالاً سوداً مستثفري ثياب بيض ، فقال : أولئك جن نصيبين وكانوا اثني عشر ألفاً ، والسورة التي قرأها عليهم اقرأ باسم ربك ، وفي آخر هذا الحديث قلت : يا رسول الله سمعت لهم لغطاً ، فقال : إنهم تدارؤوا في قتيل لهم فحكمت بالحق[2] . وقد روي عن ابن مسعود أنه لم يحضر أحد ليلة الجن ، والله أعلم بصحة ذلك . فلما حضروه أي : القرآن ، أي : كانوا بمسمع منه ، وقيل : حضروا الرسول وهو التفات من إليك إلى ضمير الغيبة ، قالوا : ﴿ أنصتوا ﴾ أي : اسكتوا للاستماع ، وفيه تأديب مع العلم وكيف يتعلم . وقرأ الجمهور ﴿ فلما قضي ﴾ مبنياً للمفعول ، وأبو مجلز وحبيب بن عبد الله بن الزبير قضى مبنياً للفاعل ، أي : قضى محمد ما قرأ ، أي : أتمه وفرغ منه ، وقال ابن عمر وجابر بن عبد الله قرأ عليهم سورة الرحمن ، فكان إذا قال فبأي آلاء ربكما تكذبان ، قالوا : لا شيء من آياتك ربنا نكذب ربنا لك الحمد . ﴿ ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ تفرقوا على البلاد ينذرون الجن . قال قتادة : ما أسرع ما عقل القوم انتهى . وعند ذلك وقعت قصة سواد بن قارب ، وخنافر وأمثالهما حين جاءهما رئياهما من الجن ، وكان سبب إسلامهما . من بعد موسى ، أي : من بعد كتاب موسى . قال عطاء : كانوا على ملة اليهود ، وعن ابن عباس : لم تسمع الجن بأمر عيسى ، وهذا لا يصح عن ابن عباس ، كيف لا تسمع بأمر عيسى وله أمة عظيمة لا تنحصر على ملته فيبعد عن الجن كونهم لم يسمعوا به ، ويجوز أن يكونوا قالوا من بعد موسى تنبيهاً لقومهم على اتباع الرسول إذ كان عليه الصلاة والسلام قد بشر به موسى ، فقالوا ذلك من حيث إن هذا الأمر مذكور في التوراة مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل والكتب الإلهية إذ كانت كلها مشتملة على التوحيد والنبوة والمعاد ، والأمر بتطهير الأخلاق . ﴿ يهدي إلى الحق ﴾ أي : إلى ما هو حق في نفسه صدق يعلم ذلك بصريح العقل ﴿ وإلى طريق مستقيم ﴾ غاير بين اللفظين ، والمعنى متقارب ، وربما استعمل أحدهما في موضع لا يستعمل الآخر فيه ، فجمع هنا بينهما وحسن التكرار ﴿ أجيبوا داعي الله ﴾ هو الرسول والواسطة المبلغة عنه ﴿ وآمنوا به ﴾ يعود على الله ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ من للتبعيض ، لأنه لا يغفر بالإيمان ذنوب المظالم ، قال معناه الزمخشري ، وقيل : من زائدة ، لأن الإسلام يجب ما قبله فلا يبقى معه تبعة ﴿ ويجركم من عذاب أليم ﴾ وهذا كله ، وظواهر القرآن تدل على الثواب ، وكذا قال ابن عباس لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون في الجنة ويزدحمون على أبوابها ، وقيل : لا ثواب لهم إلا النجاة من النار ، وإليه كان يذهب أبو حنيفة . ﴿ فليس بمعجز في الأرض ﴾ أي : بفائت من عقابه إذ لا منجا منه ، ولا مهرب كقوله ﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً ﴾ الجن ١٢ ، وروي عن ابن عامر وليس لهم بزيادة ميم . وقرأ الجمهور ﴿ ولم يعي ﴾ مضارع عيي على وزن فعل بكسر العين ، والحسن ﴿ ولم يعي ﴾ بكسر العين وسكون الياء ، ووجهه أنه في الماضي فتح عين الكلمة كما قالوا في بقي بقا ، وهي لغة لطيء . ولما بني الماضي على فعل بفتح العين بني مضارعه على يفعل بكسر العين ، فجاء يعي فلما دخل الجازم حذف الياء فبقي يعي بنقل حركة الياء إلى العين فسكنت الياء وبقي يعي . وقرأ الجمهور بقادر اسم فاعل والباء زائدة في خبر أن ، وحسن زيادتها كون ما قبلها في حيز النفي ، وقد أجاز الزجاج ما ظننت أن أحداً بقائم

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٠/١٨٧ والطبري في التفسير ٢/٩٦٣ .
(٢) انظر البغوي ٤/١٧٢ والقرطبي ١٦/١٤٩ ـ ٢١٣ والوسيط ٤/١١ ج .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا

لحنت له بفتح الحاء ألحن لحناً قلت له قولاً يفهمه عنك ويخفى عن غيره، ولحنه هو بالكسر فهمه وألحنه فهمه، وألحنته أنا إياه ولاحنت الناس فاطنتهم. وقال الشاعر:

منطق صائب وتلحن أحيا ... نا وخير الحديث ما كان لحناً(1)

وقال القتال الكلابي:

ولقد وحيت لكم لكيما تفهموا ... ولحنت لحناً ليس بالمرتاب(2)

وقيل: لحن القول الذهاب عن الصواب مأخوذ من اللحن في الإعراب. وتره نقصه مأخوذ من الذحل. وقيل: من الوتر، وهو الفرد. ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم. والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم * ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم * فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّاً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها * ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرفها لهم. يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم * ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم * أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾

هذه السورة مدنية عند الأكثر وقال الضحاك وابن جبير والسدي: مكية، وقال ابن عطية: مدنية بإجماع وليس كما قال، وعن ابن عباس وقتادة أنها مدنية إلا آية منها نزلت بعد حجه حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهي ﴿وكأين من قرية﴾ الآية. ومناسبة أولها لآخر ما قبلها واضحة جداً. ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾ أي: أعرضوا عن الدخول في الإسلام، أو صدوا غيرهم عنه، وهم أهل مكة الذين أخرجوا رسول الله ـ ﷺ ـ، قال ابن عباس: وهم المطعمون يوم بدر(3). وقال مقاتل: كانوا اثني عشر رجلاً من أهل الشرك يصدون الناس عن الإسلام، ويأمرونهم بالكفر، وقيل: هم أهل الكتاب صدوا من أراد منهم، ومن غيرهم أن يدخل في الإسلام. وقال الضحاك: عن سبيل الله عن بيت الله بمنع قاصديه وهو عام في كل من كفر وصد. ﴿أضل أعمالهم﴾ أي: أبطلها حيث لم ينشأ عنها خير ولا نفع، بل ضرر محض، وقيل: نزلت هذه الآية ببدر(4)، وأن الإشارة بقوله: ﴿أضل أعمالهم﴾ إلى الإنفاق الذي أنفقوه في سفرهم إلى بدر، وقيل: المراد بالأعمال أعمالهم الحسنة في الجاهلية من صلة رحم، وفك عان ونحو ذلك، واللفظ يعم جميع ذلك. والذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الأنصار. وقال مقاتل: ناس من قريش، وقيل: مؤمنو أهل الكتاب، وقيل: هو عام وعلى تقدير خصوص السبب في القبيلين، فاللفظ عام يتناول كل كافر، وكل مؤمن ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾ تخصيصه من بين ما يجب الإيمان به تعظيم لشأن الرسول، وإعلام بأنه لا يصح الإيمان، ولا يتم إلا به، وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي ﴿وهو الحق من ربهم﴾ وقيل: وهو الحق ناسخ لغيره، ولا يرد عليه النسخ. وقرأ الجمهور:

---

(1) البيت من الخفيف لمالك بن أسماء بن خارجة الفزاري، انظر اللسان (لحن)، الحيوان ١/ ١١، مجمع الأمثال ٣/ ٢٣٢، القرطبي ١٦/ ١٦٧.
(2) البيت من الكامل، انظر اللسان (لحن)، القرطبي ١٦/ ١٦٧، الأضداد (٢٤٠).
(3) انظر القرطبي ١٦/ ١٦٨.
(4) انظر القرطبي ١٦/ ١٦٨.

والتنوين، وفدى ثلث بالقصر، وفداء لك. والظاهر من قوله: ﴿فإما منّا﴾ المنّ بالإطلاق، كما منّ الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ على ثمامة، وعلى أبي عزة الجمحي. وفي كتاب الزمخشري كما منّ على أبي عروة الجمحي، وأثال الحنفي تغيير الكنية والاسم، ولعل ذلك من الناسخ لا في أصل التصنيف. وقيل: يجوز أن يراد بالمنّ أن يمنّ عليهم بترك القتل ويسترقوا، أو يمنّ عليهم فيخلوا لقبولهم الجزية، وكونهم من أهل الذمة. والظاهر أن قوله: ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ غاية لقوله: ﴿فشدوا الوثاق﴾ لأنه قد غيا ضرب الرقاب بشد الوثاق وقت الإثخان، فلا يكون أن يغيا بغاية أخرى لتدافع الغايتين إلا إن كانت الثانية مبنية للأولى ومؤكدة. فيجوز لأن شد الوثاق للأسرى لا يكون إلا حتى تضع الحرب أوزارها، إذا فسرنا ذلك بانتفاء شوكة الكفار الملتقين إذ ذاك، ويكون الحرب المراد بها التي تكون وقت لقاء المؤمنين للكفار. ويجوز أن يكون الغيا محذوفاً يدل عليه المعنى التقدير: الحكم ذلك حتى تضع الحرب أوزارها، أي: لا يبقى شوكة لهم، أو كما قال ابن عطية: إنه استعارة يعني إلى يوم القيامة، أي: استمروا ذلك دائماً. وقال الزمخشري: ﴿فإن قلت﴾ حتى بم تعلقت. ﴿قلت:﴾ لا تخلو من أن تتعلق إما بالضرب والشد، أو بالمنّ والفداء، فالمعنى على كلا المتعلقين عند الشافعي ـ رحمه الله ـ أنهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى أن يكون حرب مع المشركين، وذلك إذا لم يبق لهم شوكة. وقيل: إذا نزل عيسى ابن مريم. وعند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ إذا علق بالضرب والشد فالمعنى أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار، وذلك حتى لا يبقى شوكة للمشركين. وإذا علق بالمنّ والفداء فالمعنى أنه يمنّ عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها، إلى أن تتأول المنّ والفداء، يعني بتأويل المنّ بأن يتركوا عن القتل ويسترقوا، أي: فالتخلية بضرب الجزية بكونهم من أهل الذمة، وبالفداء أن يفادي بأسارى المشركين أسارى المسلمين، وقد رواه الطحاوي مذهباً لأبي حنيفة، والمشهور أنه لا يرى فداءهم بمال ولا غيره خيفة أن يعودوا حرباً للمسلمين. ﴿ذلك﴾ أي: الأمر ذلك إذا فعلوا ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾ أي: لانتقم منهم ببعض أسباب الهلاك من خسف، أو رجفة، أو حاصب أو غرق، أو موت جارف ﴿ولكن ليبلو﴾ أي: ولكن أمركم بالقتال ليبلو بعضكم، وهم المؤمنون أي: يختبرهم ببعض، وهم الكافرون بأن يجاهدوا ويصبروا، والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ما وجب لهم من العذاب. وقرأ الجمهور: ﴿قَتَلوا﴾ بفتح القاف والتاء بغير ألف، وقتادة والأعرج والأعمش وأبو عمرو وحفص قُتِلوا مبنياً للمفعول، والتاء خفيفة وزيد بن ثابت والحسن وأبو رجاء وعيسى والجحدري أيضاً كذلك. وقرأ علي ﴿فلن يضل﴾ مبنياً للمفعول ﴿أعمالهم﴾ رفع، وقرىء يضل بفتح الياء من ضل أعمالهم رفع. ﴿سيهديهم﴾ أي: إلى طريق الجنة. وقال مجاهد: يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون، لأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا لا يستدلون عليها. وروى عباس عن أبي عمرو ﴿ويدخلهم﴾ و﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾ [التغابن ٩] و﴿إنما نطعمكم﴾ [الإنسان ٩] بسكون لام الكلمة ﴿عرفها لهم﴾ عن مقاتل أن الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه الله. وقال أبو سعيد الخدري ومجاهد وقتادة: معناه بيّنها لهم، أي: جعلهم يعرفون منازلهم منها. وفي الحديث لأحدكم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزله في الدنيا. وقيل: سماها لهم ورسمها، كل منزل بصاحبه وهذا نحو من التعريف يقال عرف الدار وأرّفها، أي: حددها فجنة كل أحد مقررة عن غيرها، والعرف والأرف الحدود. وقيل: شرفها لهم ورفعها وعلاها، وهذا من الأعراف التي هي الجبال وما أشبهها. وقال مورج وغيره: طيبها مأخوذ من العرف، ومنه طعام معرف، أي: مطيب أي: وعرفت القدر طيبتها بالملح والتابل. ﴿إن تنصروا الله﴾ أي: دينه ﴿ينصركم﴾ أي: على أعدائكم ويخلق القوة فيكم وغير ذلك من المعاون ﴿ويثبت أقدامكم﴾ أي: في مواطن الحرب، أو على محجة الإسلام. وقرأ الجمهور: ﴿ويثبت﴾ مشدداً. والمفضل عن عاصم مخففاً. ﴿فتعساً لهم﴾ قال ابن عباس: بعداً لهم. وابن جريج والسدي حزناً لهم، والحسن شتماً، وابن زيد شقاء، والضحاك رغماً، وحكى النقاش قبحاً. ﴿والذين كفروا﴾ مبتدأ والفاء داخلة في

وقت أهلكناهم حملاً على المعنى انتهى . وظاهر هذا الكلام لا يصح ، لأن الضمير في أهلكناهم ليس عائداً على المضاف إلى القرية التي أسند إليها الإخراج ، بل إلى أهل القرية في قوله : ﴿ وكأين من قرية ﴾ وهو صحيح ، لكن ظاهر كونه حملاً على اللفظ ، وحملاً على المعنى أتى . أن يكون في مدلول واحد ، وكان يغني كأين مقلقاً عن عائد منه شيء إلا أن وقت إهلاكهم ، كأنه قال : فهم لا ينصرون إذ ذاك . وقال ابن عباس : لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة ، وقال : أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إليّ ، فلو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك ، فأعتى الأعداء من عتا على الله في حرمه أو قتل غير قاتله ، أو قتل بذحول الجاهلية ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وكأين من قرية ﴾ الآية . وقد تقدّم أول السورة عن ابن عباس خلاف هذا القول . ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ استفهام توقيف وتقرير على شيء متفق عليه ، وهي معادلة بين هذين الفريقين . قال قتادة : والإشارة إلى المؤمنين ، وإلى كفار قريش انتهى . واللفظ عام لأهل الصفتين ، ومعنى على بينة واضحة وهو القرآن المعجز ، وسائر المعجزات ﴿ كمن زين له سوء عمله ﴾ وهو الشرك والكفر بالله وعبادة غيره ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ أي : شهوات أنفسهم ، من لا يكون له بينة عبدوا غير خالقهم . والضمير في واتبعوا عائد على معنى من ، وقرىء أمن كان بغير فاء . ﴿ مثل الجنة ﴾ أي : صفة الجنة وهو مرفوع بالابتداء . قال الزمخشري : قال النضر بن شميل كأنه قال صفة الجنة ، وهو ما تسمعون انتهى . فما تسمعون الخبر . وفيها أنهار تفسير لتلك الصفة فهو استئناف إخبار عن تلك الصفة ، وقال سيبويه : فيما يتلى عليكم مثل الجنة ، وتقدم الخبر المحذوف مقدماً ، ثم فسر ذلك المثل بقوله . وقال ابن عطية : وفي الكلام حذف يقتضيه الظاهر ، كأنه قيل : مثل الجنة ظاهر في نفس من وعى هذه الأوصاف ، وكأن ابن عطية قد قال قبل هذا : ويظهر أن القصد بالتمثيل هو إلى الشيء الذي يتخيله المرء عند سماعه فيهما كنا ، فكأنه يتصور عند ذلك اتباعاً على هذه الصورة ، وذلك هو مثل الجنة ، قال . وعلى هذه التأويلات يعني قول النضر ، وقول سيبويه ، وما قاله هو يكون قبل قوله : ﴿ كمن هو خالد في النار ﴾ حذف تقديره أسكن ، أو أهؤلاء إشارة إلى المتقين ، قيل . ويحتمل عندي أن يكون الحذف في صدر هذه الآية كأنه قال . مثل أهل الجنة ، وهي بهذه الأوصاف ﴿ كمن هو خالد في النار ﴾ ويجيء قوله . ﴿ فيها أنهار ﴾ في موضع الحال على هذا التأويل انتهى . ولم يذكر الزمخشري غير هذا الوجه ، قال : ومثل الجنة صفة الجنة العجيبة الشأن ، وهو مبتدأ وخبره من هو خالد في النار ، وقوله : ﴿ فيها أنهار ﴾ في حكم الصلة كالتكرير لها ، ألا ترى إلى صحة قولك التي فيها أنهار ، ويجوز أن تكون خبر مبتدأ محذوف هي فيها أنهار ، كأن قائلاً قال : وما مثلها ، فقيل : فيها أنهار . وقال الزمخشري أيضاً ﴿ فإن قلت : ﴾ ما معنى قوله مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار ، قال . ﴿ كمن هو خالد في النار ﴾ ﴿ قلت : ﴾ هو كلام في صورة الإثبات ، ومعناه : النفي والإنكار لانطوائه تحت كلام مصدر بحرف الإنكار ، ودخوله في حيزه وانخراطه في سلكه ، وهو قوله ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله ﴾ فكأنه قيل : مثل الجنة كمن هو خالد في النار ، أي : كمثل جزاء من هو خالد في النار . ﴿ فإن قلت : ﴾ لم عري من حرف الإنكار ، وما فائدة التعرية . ﴿ قلت : ﴾ تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من سوى بين المتمسك بالبينة والتابع هواه ، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يسقى أهلها الحميم ونظيره قول القائل :

أفرح أن أرزأ الكرام وأن ... أورث ذوداً شصائصاً نبلاً(١)

هو كلام منكر للفرح برزية الكرام ، ووراثة الذود مع تعريه من حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم من قال أتفرح

(١) البيت من شعر لحضرمي بن عامر ، أمالي المرتضى ١/٢٤٣ ، اللسان (حرز) ، الكشاف ٤/٣٢١ . فالمعنى أتفرح أن أرزأ الكرام ، حيث حذف همزة الاستفهام على طريقة الإنكار بالفعل (أفرح) .

وشد التاء . قال صاحب اللوامح : وهي صفة وانتصابها على الحال لا نظير لها في المصادر ، ولا في الصفات ، بل في الأسماء نحو الحربة ، وهو اسم جماعة والسربة اسم مكان انتهى . وكذا قال أبو العباس بن الحاج من أصحاب الأستاذ أبي علي الشلوبين في كتاب المصادر على أبي عمر ، وأن يكون الصواب (بغتة) بفتح الغين من غير تشديد كقراءة الحسن فيما تقدم انتهى . وهذا على عادته في تغليط الرواية . (فقد جاء أشراطها) أي : علاماتها فينبغي الاستعداد لها . ومن أشراط الساعة : مبعث رسول الله ـ ﷺ ـ إذ هو خاتم الأنبياء . وروي عنه أنه قال : أنا من أشراط الساعة . وقال : بعثت أنا والساعة كهاتين ، وكفرسي رهان ، وقيل : منها الدخان وانشقاق القمر ، وعن الكلبي كثرة المال والتجارة ، وشهادة الزور وقطع الأرحام ، وقلة الكرام ، وكثرة اللئام ، (فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) الظاهر أن المعنى فكيف لهم الذكرى ، والعمل بها إذا جاءتهم الساعة أي . قد فاتها ذلك . قيل : ويحتمل أن يكون المبتدأ محذوفاً ، أي : فأنى لهم الخلاص إذا جاءتهم الذكرى بما كانوا يخبرون به ، ويكذبون به متواصله بالعذاب ، ثم أضرب عن ذكر المنافقين ، وقال : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) والمعنى : دم على علمك بتوحيد ، واستنبط بهذا من قال : أول الواجبات العلم والنظر قبل القول والإقرار ، وفي الآية ما يدل على التواضع ، وهضم النفس إذ أمره بالاستغفار ، ومع غيره بالاستغفار لهم . (متقلبكم) متصرفكم في حياتكم الدنيا (ومثواكم) إقامتكم في قبوركم ، وفي آخرتكم . وقال عكرمة : متقلبكم في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ، ومثواكم إقامتكم في الأرض . وقال الطبري وغيره : متقلبكم تصرفكم في يقظتكم ، ومثواكم منامكم . وقيل : متقلبكم في معايشكم ومتاجركم ، ومثواكم حيث تستقرون من منازلكم ، وقيل : متقلبكم بالنهار وابن عباس بالليل .

﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم * فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم * أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها * إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم * ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ .

كان المؤمنون حريصين على ظهور الإسلام وعلو كلمته ، وتمني قتل العدو ، وكانوا يستأنسون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأ ، والله تعالى قد جعل ذلك بأيام معلومة وأمد لا يتعدى ، فمدح تعالى المؤمنين بطلبهم إنزال سورة[1] ، والمعنى تتضمن أمرنا بمجاهدة العدو وفضح أمر المنافقين ، والظاهر أن قائل ذلك هم مخلص في إيمانهم ، ولذلك قال بعد (رأيت الذين في قلوبهم مرض) ، وقال الزمخشري : كانوا يدعون الحرص على الجهاد ، ويتمنونه بألسنتهم ، ويقولون : (لولا نزلت سورة) في معنى الجهاد ، فإذا أنزلت وأمروا فيها بما تمنوا وحرصوا عليه كاعوا وشق عليهم ، وسقطوا في أيديهم ، كقوله (فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس) النساء ٧٧ انتهى . وفيه تحريف لما يدل عليه لفظ القرآن . ولولا بمعنى هلا ، وعن أبي مالك لا زائدة ، والتقدير لو نزلت وهذا ليس بشيء ، وقرىء (فإذا نزلت) وقرأ زيد بن علي : (سورة محكمة) بنصبهما ومرفوع نزلت بضمير ، وسورة نصب على الحال ، وقرأ هو وابن عمير وذكر مبنياً للفاعل ، أي : الله فيها القتال . ونصب الجمهور ورفع سورة محكمة على أنه مفعول لم يسم فاعله ، وبناء وذكر للمفعول ، والقتال رفع به

---

(١) انظر الوسيط ٨٨ خ

وأحكامها كونها لا تنسخ . قال قتادة : كل سورة فيها القتال فهي محكمة من القرآن لا بخصوصية هذه الآية ، وذلك أن القتال نسخ ما كان من المهادنة والصلح ، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة[١] وقيل : محكمة بالحلال والحرام ، وقيل : محكمة أريدت مدلولات ألفاظها على الحقيقة دون المتشابه الذي أريد به المجاز ، نحو قوله : ﴿على العرش استوى﴾ طه ٥ في جنب الله فضرب الرقاب ﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك﴾ أي : تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً ﴿نظر المغشي عليه﴾ أي : نظراً كما ينظر من أصابته الغشية من أجل حلول الموت ، وقيل : يفعلون ذلك وهو شخوص البصر إلى الرسول من شدة العداوة ، وقيل : من خشية الفضيحة فإنهم إن تخلفوا عن القتال افتضحوا وبان نفاقهم ، وأولى لهم تقدم شرحه في المفردات . وقال قتادة : كأنه قال العقاب أولى لهم ، وقيل : وهو المكروه ، وأولى وزنه أفعل أو فعلى على الاختلاف ، لأن الاستعمال الذي ذكرناه في المفردات فعلى قول الجمهور أنه اسم يكون مبتدأ والخبر لهم ، وقيل : أولى مبتدأ ولهم من صلته ، وطاعة خبر ، وكون اللام بمعنى الباء ، كأنه قيل : فأولى بهم طاعة ، ولم يتعرض الزمخشري لإعرابه ، وإنما قال ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ، وعلى قول الأصمعي أنه فعل يكون فاعله مضمراً يدل عليه المعنى ، وأضمر لكثرة الاستعمال ، كأنه قال : قارب لهم هو أي الهلاك ، قال ابن عطية : والمشهور من استعمال العرب أولى لك فقط على جهة الحذف والاختصار لما معها من القوة ، فيقول على جهة الزجر والتوعد أولى لك يا فلان ، وهذه الآية من هذا الباب ، ومنه قوله ﴿أولى لك فأولى﴾ القيامة ٣٤ وقول الصديق للحسن ـ رضي الله عنهما ـ أولى لك انتهى ، والأكثرون على أن طاعة وقول معروف كلام مستقل محذوف منه أحد الجزأين إما الخبر ، وتقديره أمثل ، وهو قول مجاهد ومذهب سيبويه والخليل ، وإما المبتدأ وتقديره الأمر ، أو أمرنا طاعة أي : الأمر المرضي لله طاعة ، وقيل : هي حكاية قولهم أي : قالوا طاعة ويشهد له قراءة أبي يقولون طاعة وقول معروف وقولهم هذا على سبيل الهزء والخديعة . وقال قتادة : الواقف على فأولى لهم طاعة ابتداء ، وخبر والمعنى أن ذلك منهم على جهة الخديعة ، وقيل : طاعة صفة لسورة ، أي : فهي طاعة أي : مطاعة ، وهذا القول ليس بشيء لحيلولة الفصل الكثير بين الصفة والموصوف ﴿فإذا عزم الأمر﴾ (محمد٢١) أي : جد والعزم الجد وهو لأصحاب الأمر ، واستعير للأمر كما قال تعالى : ﴿من عزم الأمور﴾ وقال الشاعر :

قد جدت بهم الحرب فجدوا[٢]

والظاهر أن جواب إذا قوله : ﴿فلو صدقوا الله﴾ كما تقول إذا كان الشتاء فلو جئتني لكسوتك ، وقيل : الجواب محذوف تقديره فإذا عزم الأمر هو ، أو نحوه قاله قتادة ، ومن حمل طاعة وقول معروف على أنهم يقولون ذلك خديعة قدرنا عزم الأمر ، نافقوا وتقاعسوا ، وقدره أبو البقاء فاصدق ، فلو صدقوا الله فيما زعموا من حرصهم على الجهاد ، أو في إيمانهم وواطأت قلوبهم فيه ألسنتهم ، أو في قولهم طاعة وقول معروف . ﴿فهل عسيتم﴾ التفات للذين في قلوبهم مرض أقبل بالخطاب عليهم على سبيل التوبيخ ، وتوقيفهم على سوء مرتكبهم ، وعسى تقدم الخلاف في لغتها ، وفي القراءة فيها إذا اتصل بها ضمير الخطاب في سورة البقرة ، واتصال الضمير بها لغة الحجاز ، وبنو تميم لا يلحقون بها الضمير ، وقال أبو عبد الله الرازي وقد ذكر أن عسى يتصل به ضمير الرفع وضمير النصب ، وأنها لا يتصل بها ضمير ، قال : وأما قول من قال عسى أنت تقوم ، وعسى أنا أقوم فدون ما ذكرنا لك تطويل الذي فيه انتهى . ولا أعلم أحداً من نحاة العرب ذكر انفصال الضمير بعد عسى ، وفصل بين عسى وخبرها بالشرط ، وهو أن توليتم . وقرأ الجمهور : ﴿إن توليتم﴾ ومعناه إن

---

(١) انظر البغوي ٤/ ١٦٢ .

(٢) عجز بيت من الرجز لم نهتد لقائله . انظر الكامل ١/ ٢٩٤ وروى :

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا

أعرضتم عن الإسلام. وقال قتادة[1]: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، وقطعوا الأرحام، وعصوا الرحمن، يشير إلى ما جرى من الفتن بعد زمان الرسول. وقال كعب ومحمد بن كعب وأبو العالية والكلبي: ﴿إن توليتم﴾ أي: أمور الناس من الولاية[2]، ويشهد لها قراءة وليتم مبنياً للمفعول. وعلى هذا قيل نزلت في بني هاشم وبني أمية. وعن النبي -ﷺ- ﴿إن توليتم﴾ بضم التاء والواو وكسر اللام. وبها قرأ علي وأويس أي: إن وليتكم ولاة جور خرجتم إلى دنياهم دون إمام العدل. وعلى معنى إن توليتم بالتعذيب والتنكيل وأفعال العرب في جاهليتها وسيرها من الغارات والنهبات. فإن كان ثمرتها الإفساد في الأرض وقطيعة الرحم. وقيل: معناه إن تولاكم الناس ووكلكم الله إليهم. والأظهر أن ذلك خطاب للمنافقين في أمر القتال، وهو الذي سبقت الآيات فيه. أي: إن أعرضتم عن امتثال أمر الله في القتال، وأن تفسدوا في الأرض بعدم معونة أهل الإسلام، فإذا لم تعينوهم قطعتم ما بينكم وبينهم من صلة الرحم، ويدل على ذلك ﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ فالآيات كلها في المنافقين. وهذا الترجي الذي في عسى ليس مصروفاً إليه تعالى، لأنه عالم بما كان وما يكون. وإنما هو بالنسبة لمن عرف المنافقين، كأنه يقول لهم لنا علم من حيث ضعفهم، هل يتوقع منكم إذا أعرضتم عن القتال أن يكون كذا وكذا؟ وقرأ الجمهور: ﴿تقطعوا﴾ بالتشديد على التكثير. وأبو عمرو في رواية وسلام ويعقوب وأبان وعصمة بالتخفيف مضارع قطع. والحسن وتقطعوا بفتح التاء والقاف على إسقاط حرف الجر، أي: أرحامكم، لأن تقطع لازم. أولئك إشارة إلى المرضى القلوب، فأصمهم عن سماع الموعظة، وأعمى أبصارهم عن طريق الهدى. وقال الزمخشري: لعنهم الله لإفسادهم وقطعهم الأرحام فمنعهم ألطافه وخذلهم حتى صموا انتهى. وهو على طريق الاعتزال. وجاء التركيب فأصمهم ولم يأت فأصم آذانهم، وجاء وأعمى أبصارهم ولم يأت وأعماهم، قيل: لأن الأذن لو أصمت لا تسمع الأبصار، فالعين لها مدخل في الرؤية، والأذن لها مدخل في السمع انتهى. ولهذا جاوزوا على سمعهم وجعل لكم السمع، ولم يأت وعلى آذانهم ولا بقي وجعل لكم الأذان. وحيث ذكر الأذن نسب إليه الوقر، وهو دون الصمم كما قال ﴿وفي آذاننا وقر﴾ [فصلت: ٥]. ﴿أفلا يتدبرون﴾ أي: يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر، ووعيد العصاة وهو استفهام توبيخي وتوقيفي على مخازيهم. ﴿أم على قلوب أقفالها﴾ استعارة للقلوب عن الإيمان، وأم منقطعة بمعنى بل، والهمزة للتقرير ولا يستحيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يصل إليها ذكر، ولم يحتج إلى تعريف القلوب لأنه معلوم أنها قلوب من ذكر، ولا حاجة إلى تقدير صفة محذوف، أي: أم على قلوب أقفالها قاسية، وأضاف الأقفال إليها أي: الأقفال المختصة، أو هي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تفتح. وقرىء: ﴿إقفالها﴾ بكسر الهمزة وهو مصدر، وأقفالها بالجمع على أفعال. ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى﴾، قال قتادة: نزلت في قوم من اليهود وكانوا عرفوا أمر الرسول من التوراة، وتبين لهم بهذا الوجه، فلما باشروا أمره حسدوه فارتدوا عن ذلك القدر من الهدى. وقال ابن عباس وغيره: نزلت في منافقين كانوا أسلموا، ثم نافقت قلوبهم. والآية تتناول كل من دخل في ضمن لفظها. وتقدم الكلام على سول في سورة يوسف. قال الزمخشري: سول لهم ركوب العظائم من السول وهو الاسترخاء. وقد اشتقه من السؤل من لا علم بالتصريف والاشتقاق جميعاً انتهى. وقال أبو علي الفارسي: يعني ولا هم من السول وهو الاسترخاء والتدلي. وقال غيره: سوغهم رجاءهم. وقال ابن بحر: أعطاهم سؤلهم. وقول الزمخشري وقد اشتقه إلى آخره ليس بجيد، لأنه توهم أن السول أصله الهمزة. واختلفت المادتان أي هي سول والواو وعين السؤل همزة. والسول له مادتان إحداهما الهمز من سأل يسأل، والثانية الواو من سال يسال. فإذا كان

(١) انظر الوسيط ٦٩ م والطبري ٤/ ١٨٤
(٢) انظر الوسيط ٦٩ والطبري ٤/ ١٨٤

هكذا سول يجوز أن يكون من سؤال المرء. وقال صاحب اللوامح: والتسويل أصله من الإرخاء، ومنه ﴿ فدلاهما بغرور ﴾ [الأعراف ٢٢]، والسول: الاسترخاء والتدلي. وقرأ زيد بن علي: سول لهم، أي: كيده على تقدير حذف مضاف. وقرأ الجمهور: ﴿ وأملى لهم ﴾ مبنياً للفاعل، والظاهر أنه يعود على الشيطان، وقاله الحسن، وجعل وعده الكاذب بالبقاء كالإبقاء، والإملاء هو البقاء ملاوة من الدهر. يقال: ملا، أي: في الأمان والأماني. قيل: ويحتمل أن يكون فاعل أملى ضميراً يعود على الله، وهو الأرجح، لأن حقيقة الإملاء إنما هو من الله. وقرأ ابن سيرين والجحدري وشيبة وأبو عمرو وعيسى: وأملي مبنياً للمفعول، أي: أمهلوا ومدوا في عمرهم. وقرأ مجاهد وابن هرمز والأعمش وسلام ويعقوب: وأملي بهمزة المتكلم مضارع أملى، أي: وأنا أملي لهم كقوله: ﴿ إنما نملي لهم ﴾ [آل عمران ١٧٨]. وعن أبي عمرو: أن يكون ماضياً سكنت منه الياء، كما تقول في بقي: بقي بسكون الياء. ﴿ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله ﴾، روي أن قوماً من قريظة والنضير كانوا يعدون المنافقين في أمر الرسول والخلاف عليه بنصره ومؤازرته، وذلك قوله: ﴿ سنطيعكم في بعض الأمر ﴾. وقيل: القائلون المنافقون، والذين كرهوا ما نزل الله هم قريظة والنضير، وبعض الأمر قول المنافقين لهم ﴿ لئن أخرجتم لنخرجن معكم ﴾ [الحشر ١١]: قاله ابن عباس. وقيل: بعض الأمر التكذيب بالرسول أو بلا إله إلا الله، أو ترك القتال معه. وقيل: هو قول الفريقين اليهود والمنافقين للمشركين: سنطيعكم في التظافر على عداوة الرسول، والقعود عن الجهاد معه، وتوهين في بعض الأمر في بعض ما يأمرون به، أو في بعض الأمر الذي يهمكم. وقرأ الجمهور: ﴿ أسرارهم ﴾ بفتح الهمزة، وكانت أسرارهم كثيرة؛ وابن وثاب وطلحة والأعمش وحمزة والكسائي وحفص بكسرها، وهو مصدر، قالوا ذلك سراً فيما بينهم فأفشاه الله عليهم. وقال أبو عبد الله الرازي: الأظهر أن يقال: والله يعلم إسرارهم ما في قلوبهم من العلم بصدق محمد عليه السلام، فإنهم كانوا معاندين مكابرين، وكانوا يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم.

﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة ﴾ لما تقدم شرح الذين في قلوبهم مرض، ومطلبهم لأجل القتال، ونفاق فريق المرتابين ومنافقتهم في ذلك من مخالفتهم على موافقة الكافرين ما أنزل الله، وتقدم أن الله يعلم إسرارهم، فجاء هذا الاستفهام الذي معناه التوقيف عقب هذه الأشياء. يقول الطبري: فكيف علمه بها أي بأسرارهم إذا توفتهم الملائكة. وقيل: فكيف يكون حالهم مع الله فيما ارتكبوه من ذلك القول. وقرأ الأعمش: ﴿ توفاهم ﴾ بألف بدل التاء، أن يكون ماضياً ومضارعاً حذفت منه التاء. والظاهر أن وقت توفي هو عند الموت. وقال ابن عباس: لا يتوفى أحد على معصية إلا تضرب الملائكة في وجهه وفي دبره، والملائكة ملك الموت والمصرفون معه. وقيل: هو وقت القتال نصرة للرسول، يضرب وجوههم إن ثبتوا وأدبارهم إن هربوا، والملائكة ملائكة النصر، والظاهر أن يضربون حال من الملائكة. وجعل حالاً من الضمير في توفاهم وهو ضعيف. ﴿ ذلك ﴾ أي: ذلك الضرب للوجوه والأدبار ﴿ بأنهم اتبعوا ما أسخط الله ﴾ وهو الكفر أو كتمان بعث الرسول، أو تسويل الشيطان أقوال، واتبع الشيء هو مقبل بوجهه عليه، فناسب ضرب الملائكة وجهه ﴿ وكرهوا رضوانه ﴾ وهو الإيمان بالله واتباع دينه، والكاره للشيء معرض عنه، فناسب ضرب الملائكة دبره، ففي ذلك مقابلة أمرين بأمرين.

﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم • ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم • ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم • إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم • يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم • إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم • فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم • إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم • إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم • ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا

وعنه ، وكلاهما إذا عديا بعن ضمنا معنى الإمساك ، كأنه قيل : أمسك عنه بالبخل ﴿ والله الغني وأنتم الفقراء ﴾ أي : الغني مطلقاً المستغني عنه الحاجات ، وأنتم الفقراء مطلقاً لافتقاركم إلى ما تحتاجون إليه في الدنيا ، وإلى الثواب في الآخرة . ﴿ وإن تتولوا ﴾ عطف على ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا ﴾ أي : وإن تتولوا أي : عن الإيمان والتقوى ﴿ يستبدل قوماً غيركم ﴾ أي : يخلق قوماً غيركم راغبين في الإيمان والتقوى غير متولين عنهما ، كما قال : ﴿ ويأت بخلق جديد ﴾ [فاطر ١٦] وتعيين أولئك القوم وأنهم الأنصار أو التابعون ، أو أهل اليمن أو كندة والنخع أو العجم ، أو فارس والروم أو الملائكة أقوال ، والخطاب لقريش ، أو لأهل المدينة قولان . وروى أبو هريرة أنه ـ عليه السلام ـ سئل عن هذا ، وكان سلمان إلى جنبه فوضع يده على فخذه ، وقال : قوم هذا ، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس[1] . وإن صح هذا الحديث وجب المصير في تعيين ما انبهم من قوله قوماً غيركم إلى تعيين الرسول ﴿ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ أي : في الخلاف والتولي والبخل .

---

(1) والحديث أخرجه مسلم في الفضائل باب ٥٩ حديث (٢٣٠) والبخاري في التاريخ ٨/٢٩٨ وأحمد في المسند ٢/٣٠٨ والبغوي في المختصر ٤/١٨٧ ، ١٨٦/٣٠ وابن كثير ٧/٣١٦ وابن الجوزي في زاد المسير ٧/٤٠٦ والطحاوي في المشكل ٢/٣١٣ .

سورة الفتح تسع وعشرون آية مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا

تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ
وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) ۞ لَّقَدْ
رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ
فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً
تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا
(٢٠) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ
لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن
يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ
لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ
الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ
وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ
رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا
تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ
وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى
الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ
ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ
يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)

ظفر بالشيء : غلب عليه ، وأظفره عليه . المعرة : المكروه ، ومنه اللاصقة مأخوذة من العر ، والعرة ، وهو الجرب الصعب اللازم . قال الشاعر

كذي العر يكوى غيره وهو راتع (١)

---

(١) عجز بيت للنابغة وصدره

الشطء: الفراخ. أشطأ الزرع: أفرخ، والشجرة: أخرجت غصونها. آزر: ساوى طولاً، قال الشاعر:

بمحنية قد آزر الضال نبتها ... مجر جيوش غانمين وخيب[1]

أي ساوى نبتها الضال طولاً، وهو شجر. ووزنه أفعل لقولهم في المضارع يؤزر.

﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً. ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً. وينصرك الله نصراً عزيزاً. هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً. ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً. ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً. ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً. إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً. إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾

هذه السورة مدنية، وعن ابن عباس أنها نزلت بالمدينة، ولعل بعضها نزل بها، والصحيح أنها نزلت بطريق منصرفه ـ ﷺ ـ من الحديبية سنة ست من الهجرة[2]، فهي تعد في المدني. ومناسبتها لما قبلها أنه تقدم ﴿ وإن تتولوا ﴾ [محمد ٣٨] الآية، وهو خطاب لكفار قريش، أخبر رسوله بالفتح العظيم وأنه بهذا الفتح حصل الاستبدال، وأمن كل من كان بها، وصارت مكة دار إيمان. ولما قفل رسول الله ـ ﷺ ـ من صلح الحديبية تكلم المنافقون، وقالوا: لو كان محمد نبياً ودينه حقاً ما صد عن البيت، ولكان فتح مكة، فأكذبهم الله تعالى. وأضاف عز وجل الفتح إلى نفسه إشعاراً بأنه من عند الله لا بكثرة عَدد ولا عُدد، وأكده بالمصدر، ووصفه بأنه مبين مظهر لما تضمنه من النصر والتأييد. والظاهر أن هذا الفتح هو فتح مكة. وقال الكلبي وجماعة: وهو المناسب لآخر السورة التي قبل هذه لما قال: ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون ﴾ [محمد ٣٨] الآية، بين أنه فتح لهم مكة وغنموا وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا، ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك، فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم. وأيضاً لما قال: ﴿ وأنتم الأعلون والله معكم ﴾ [محمد ٣٥] بين برهانه بفتح مكة فإنهم كانوا هم الأعلين. وأيضاً لما قال: ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ﴾ [محمد ٣٥] كان فتح مكة حيث لم يلحقهم وهن ولا دعوا إلى صلح، بل أتى صناديد قريش مستأمنين مستسلمين مسلمين. وكانت هذه البشرى بلفظ الماضي، وإن كان لم يقع، لأن إخباره تعالى بذلك لا بد من وقوعه. وكون هذا الفتح هو فتح مكة بدأ به الزمخشري. وقال الجمهور: هو فتح الحديبية[3]، وقاله السدي والشعبي والزهري. قال ابن عطية: وهو الصحيح انتهى. ولم يكن فيه قتال شديد، ولكن ترام من القوم بحجارة وسهام. وعن ابن عباس: رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم. وعن الكلبي: ظهروا عليهم حتى

انظر ديوان الحماسة ١/٥٦، اللسان (ضيل)

(١) البيت لامرئ القيس، انظر ديوانه (٣٢) ... (أزر) ... (بحر) ... الكشاف، روح المعاني ٢٦/١٢٨، القرطبي ١٦/٢٩٤.

(٢) انظر البخاري كتاب التفسير باب سورة الفتح، وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة الفتح ٥/٣٨٥، والوسيط ٤/١٣٦ ... ٤/٢٨٧ ـ ١٣٩.

(٣) قال الحافظ ابن حجر في تخريجه على الكشاف ٤/٣٣٦ هكذا ذكره أبو ... موسى بن عقبة عن الزهري، وأخرجه البيهقي في الدلائل من طريقه، ومن طريق أبي الأسود، وذكره القرطبي في التفسير ١٦/٢٦٠.

سائر الصنائع . قال الشعبي : بلغ الهدي محله وظهرت الروم على فارس ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب على المجوس ، وأطعموا نخل خيبر . وقال الزهري : لم يكن فتح أعظم من فتح الحديبية اختلط المشركون بالمسلمين ، وسمعوا كلامهم وتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير ، وكثر بهم سواد الإسلام . قال القرطبي : فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة في عشرة آلاف . وقال موسى بن عقبة : قال رجل منصرفهم من الحديبية : ما هذا الفتح لقد صدونا عن البيت ، فقال رسول الله ﷺ : بل هو أعظم الفتوح ، قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح(١) ، ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم في الأمان ، ورأوا منكم ما كرهوا . وكان في فتحها آية عظيمة ، وذلك أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة ، فتمضمض رسول الله ﷺ ثم مجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه . وقيل : فجاش الماء حتى امتلأت ، ولم ينفد ماؤها بعد . وقال الزمخشري : (فإن قلت) كيف يكون فتحاً ، وقد أحصروا فنحروا وحلقوا بالحديبية ؟ (قلت) كان ذلك قبل الهدنة ، فلما طلبوها وتمت كان فتحاً مبيناً انتهى . وفي هذا الوقت اتفقت بيعة الرضوان ، وهو الفتح الأعظم ، قاله جابر بن عبد الله والبراء بن عازب . وبه استقل فتح خيبر وامتلأت أيدي المؤمنين خيراً ولم يفتحها إلا أهل الحديبية ، ولم يشركهم أحد من المتخلفين عن الحديبية . وقال مجاهد : هو فتح خيبر(٢) . وفي حديث مجمع بن جارية شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا إذا الناس يهزون الأباعر ، فقيل ما بال الناس ؟ قالوا : أوحي إلى النبي ﷺ قال : فخرجنا نرجف فوجدنا النبي ﷺ عند كراع الغميم فلما اجتمع الناس قرأ النبي ﷺ (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أو فتح هو يا رسول الله ؟ قال : نعم ، والذي نفسي بيده إنه لفتح ، فقسمت خيبر على أهل الحديبية ولم يدخل فيها أحد إلا من شهد الحديبية . وقال الضحاك : الفتح حصول المقصود بغير قتال ، وكان الصلح من الفتح ، وفتح مكة بغير قتال ، فتناول الفتحين الحديبية ومكة . وقيل : فتح الله تعالى له بالإسلام والنبوة والدعوة بالحجة ، والسيف ، ولا فتح أبين منه وأعظم ، وهو رأس الفتوح كلها إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ، ومتشعب منه . وقيل : فتحنا لك قضاء بيناً على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل ليطوفوا بالبيت من الفتاحة ، وهي الحكومة ، وكذا عن قتادة . قال الزمخشري : (فإن قلت) : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ (قلت) : لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدد من الأمور الأربعة ، وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل ، ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدو ، سبباً للغفران والثواب ، والفتح والظفر بالبلد عنوة ، أو صلحاً بحرب أو بغير حرب لأنه منغلق ما لم يظفر ، فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح انتهى . وقال ابن عطية : المراد هنا أن الله فتح لك لكي يجعل ذلك علامة لغفرانه لك ، فكأنها لام صيرورة ، ولهذا قال عليه السلام : لقد أنزلت علي الليلة سورة هي أحب إلي من الدنيا انتهى . ورد بأن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها ولو جاز هذا لجاز ليقوم زيد في معنى ليقومن زيد انتهى . أما الكسر فقد علل بأنه شبهت تشبيهاً بلام كي ، وأما النصب فمنه أن يقول ليس هذا نصباً لكنه الحركة التي تكون مع وجود النون بقيت بعد حذفها دلالة على الحذف ، وبعد هذا فهذا القول ليس بشيء إذ لا يحفظ من لسانهم ، والله ليقوم ، ولا بالله ليخرج زيد بكسر اللام ، وحذف النون وبقاء الفعل مفتوحاً ، (ويتم نعمته عليك) بإظهارك على عدوك ورضاه عنك وبفتح مكة والطائف وخيبر (نصراً عزيزاً) أي : بالظفر والتمكن من الأعداء بالغنيمة والأسر والقتل ، نصراً فيه عز ومنعة ، وأسند العزة إليه مجازاً ، والعزيز حقيقة هو المنصور ﷺ . وأعيد لفظ الله في (وينصرك الله نصراً) لما بعد عن ما عطف عليه إذ في الجملتين قبله

---

(١) والراح : جمع راحة وهي الكف ، والراح لا يجمع ، والظاهر هنا الثانية.

(٢) انظر الوسيط [illegible] والبحر [illegible]

لولئك الأعراب أنه يستقبل عدواً عظيماً من قريش ، وثقيف ، وكنانة والقبائل ، والمجاورين لمكة ، وهم الأحابيش ، ولم يكن الإيمان تمكن من قلوبهم ، فقعدوا عن النبي ـ ﷺ ـ ، وتخلفوا ، وقالوا : لن يرجع محمد ولا أصحابه من هذه السفرة ، ففضحهم الله عز وجل في هذه الآية ، وأعلم رسوله ـ ﷺ ـ بقولهم واعتذارهم ، قبل أن يصل إليهم ، فكان كذلك[1] (شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا) وهذا اعتلال منهم عن تخلفهم ، أي لم يكن لنا من يقوم بحفظ أموالنا وأهلينا غيرنا ، وبدؤوا بذكر الأموال ، لأن بها قوام العيش وعطفوا الأهل لأنهم كانوا يحافظون على حفظ الأهل أكثر من حفظ المال ، وقرئ (شغّلتنا) بتشديد الغين ، حكاه الكسائي ، وهي قراءة إبراهيم بن نوح بن باذان عن قتيبة ، ولما علموا أن ذلك التخلف عن الرسول كان معصية ، سألوا أن يستغفر لهم . (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم) الظاهر أنه راجع إلى الجملتين المقولتين ، من الشغل وطلب الاستغفار ، لأن قولهم (شغلتنا) كاذب وطلب الاستغفار خبث منهم وإظهار أنهم مؤمنون عاصون ، وقال الطبري : هو راجع إلى قولهم (فاستغفر لنا) ، يريد أنهم قالوا ذلك مصانعة من غير توبة ولا ندم ، (قل فمن يملك) أي من يمنعكم من قضاء الله (إن أراد بكم ضراً) من قتل أو هزيمة (أو أراد بكم نفعاً) من ظفر وغنيمة ، أي هو تعالى المتصرف فيكم وليس حفظكم لأموالكم وأهليكم بمانع من ضياعها إذا أراده الله تعالى وقرأ الجمهور (ضرّاً) بفتح الضاد ، والأخوان بضمها ، وهما لغتان ، ثم بين تعالى لهم العلة في تخلفهم ، وهي ظنهم أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه لا يرجعون إلى أهليهم ، وتقدم الكلام على (أهل) وكيف جمع بالواو والنون في قوله (ما تطعمون أهليكم) ، وقرأ عبد الله إلى (أهلهمْ) بغير ياء (وزين) قراءة الجمهور مبنياً للمفعول والفاعل هو الله تعالى ، وقيل غيره من نسب إليه التزيين مجازاً ، وقرئ (وزَيَّن) مبنياً للفاعل (وظننتم ظن السوء) احتمل أن يكون هو الظن السابق ، وهو ظنهم أن لا ينقلبوا ، ويكون قد ساءهم ذلك الظن وأحزنهم حيث أخلف ظنهم ، ويحتمل أن يكون غيره لأجل العطف ، أي ظننتم أنه تعالى يخلف وعده في نصر دينه وإعزاز رسوله ـ ﷺ ـ (بوراً) هلكى والظاهر أنه مصدر كالهلك ولذلك وصف به المفرد المذكر كقول ابن الزبعري

يا رسولَ المليكِ إنّ لساني ... راتِقٌ ما فتقتُ إذ أنا بُورُ[2]

والمؤنث حكى أبو عبيدة امرأة بور والمثنى والمجموع ، وقيل يجوز أن يكون جمع بائر كحائل وحول هذا في المعتل وبازل وبزل في الصحيح وفسر (بوراً) بفاسدين هالكين ، وقال ابن بحر : أشراراً . واحتمل (وكنتم) أن يكون بمعنى وصرتم بذلك الظن وأن يكون (وكنتم) على بابها ، أي وكنتم في الأصل قوماً فاسدين ، أي هالكين سابق لكم على ذلك الظن ولما أخبر تعالى أنهم قوم بور ذكر ما يدل على أنهم ليسوا مؤمنين فقال : (ومن لم يؤمن بالله ورسوله) فهو كافر جزاؤه السعير ولما كانوا ليسوا مجاهرين بالكفر ولذلك اعتذروا وطلبوا الاستغفار صرح بوعيدهم وتربيحهم ببعض الإمهال والترجية ، وقال الزمخشري : (ولله ملك السموات والأرض) يدبره تدبير قادر حكيم ، فيغفر ويعذب بمشيئته ، ومشيئته تابعة لحكمته ، وحكمته المغفرة للتائب وتعذيب المصر ، (وكان الله غفوراً رحيماً) رحمته سابقة لغضبه حيث يكفر السيئات باجتناب الكبائر بالتوبة انتهى ، وهو على مذهب الاعتزال (سيقول المخلفون) روي أن الله تعالى أمر نبيه ـ ﷺ ـ بغزو خيبر ، ووعده بفتحها ، وأعلمه أن المخلفين إذا رأوا مسيره إلى خيبر ـ وهم عدو مستضعف ـ طلبوا الكون معه رغبة في عرض الدنيا من الغنيمة وكان كذلك[3] ، (يريدون أن يبدلوا كلام الله) معناه : أن يغيروا وعده لأهل الحديبية بغنيمة

---

(١) انظر البغوي ٤ / ١٩١ والوسيط ٧٣ .

(٢) البيت من الخفيف انظر اللسان (بور) القرطبي ١٦ / ٢٦٩ الشاهد (إذ أنا بور) أي (بور) مصدر كالهلك عن عبيدة وقال ابن سيده : وكذلك الاثنان والجمع قال تعالى ﴿ وكنتم قوماً بوراً ﴾ .

(٣) انظر الوسيط ٧٣ خ .

قال بكير بن الأشج : يوم فتح مكة فقال نافع : كان الناس يأتون تلك الشجرة فيصلون عندها ، فبلغ عمر فأمر بقطعها ، وكانت هذه البيعة سببا من الهجرة ، وفي الحديث عنه ﷺ : « لا يدخل النار من شهد بيعة الرضوان » . ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ قال قتادة وابن جريج : من الرضا بأمر البيعة على أن لا يفروا . وقال الفراء : من الصدق والوفاء . وقال الطبري ومنذر بن سعيد : من الإيمان وصحته ، والحب في الدين ، والحرص عليه . وقيل من الهم والانصراف عن المشركين ، والأنفة من ذلك ، على نحو ما خاطب به عمر وغيره . وهذا قول حسن يترتب معه نزول السكينة ، والتمحيص بالفتح القريب والسكينة تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى ، وعلى الأقوال السابقة قيل : هذا القول لا يظهر احتياج إلى نزول السكينة إلا أن يجتزئ بالسكينة والفتح القريب والمغانم . وقال مقاتل : ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت فأنزل السكينة عليهم حتى بايعوا . قال ابن عطية : وهذا فيه مذمة للصحابة رضي الله تعالى عنهم انتهى . ﴿ وأثابهم فتحا قريبا ﴾ قال قتادة وابن أبي ليلى : فتح خيبر ، وكان عقب انصرافهم من مكة . وقال الحسن : فتح هجر ، وهو أجل فتح اتسعوا بتمرها زمنا طويلا . وقيل : فتح مكة . والقرب أمر نسبي ، لكن فتح خيبر كان أقرب . وقرأ الحسن ونوح القاري : ﴿ وآتاهم ﴾ أي أعطاهم . والجمهور ﴿ وأثابهم ﴾ من الثواب . ﴿ ومغانم كثيرة ﴾ أي مغانم خيبر ، وكانت أرضا ذات عقار وأموال فقسمها عليهم . وقيل : مغانم هجر . وقيل : مغانم فارس والروم . وقرأ الجمهور : ﴿ يأخذونها ﴾ بالياء على الغيبة في وأثابهم ، وما قبله من ضمير الغيبة . وقرأ الأعمش وطلحة ورويس عن يعقوب ودلبة عن يونس عن ورش وأبو دحية وسقلاب عن نافع والأنطاكي عن أبي جعفر بالتاء على الخطاب كما جاء بعد ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة ﴾ بالخطاب ، وهذه المغانم الموعود بها هي المغانم التي كانت بعد هذه ، وتكون إلى يوم القيامة . قاله ابن عباس ومجاهد وجمهور المفسرين . والآية تتضمن تعاقب الإسلام ، وفتح المسلمين فتوحا لا تحصى ، وغنموا مغانم لا تعد ، وذلك في شرق البلاد وغربها ، حتى في بلاد الهند وفي بلاد السودان في عصرنا هذا ، وقدم علينا حاج أحد ملوك غانة من بلاد التكرور ، وذكر عنه أنه استفتح أزيد من خمسة وعشرين مملكة من بلاد السودان ، وأسلموا ، وقدم علي بعض ملوكهم بعض منه . وقيل : الخطاب لأهل البيعة ، وأنهم سيغنمون مغانم كثيرة . وقال زيد بن أسلم وابنه : المغانم الكثيرة مغانم خيبر . ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ الإشارة بهذه إلى البيعة ، والتخلص من أمر قريش بالصلح ، قاله ابن عباس وزيد بن أسلم وابنه . وقال مجاهد : مغانم خيبر . ﴿ وكف أيدي الناس عنكم ﴾ أي أهل مكة بالصلح . وقال ابن عباس : عيينة بن حصن الفزاري ، وعوف بن مالك النضري ، ومن كان معهم إذ جاءوا لينصروا أهل خيبر والرسول عليه الصلاة والسلام محاصر لهم ، فجعل الله في قلوبهم الرعب ، وكفهم عن المسلمين . وعن ابن عباس أيضا : أسد وغطفان حلفاء خيبر . وقال الطبري : كف اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول ﷺ إلى الحديبية وإلى خيبر . ﴿ ولتكون ﴾ أي هذه الكفة آية للمؤمنين ، وعلامة يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان ، وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم . وقيل : رأى رسول الله ﷺ فتح مكة في منامه ، ورؤيا الأنبياء حق ، فتأخر ذلك إلى السنة القابلة ، فجعل فتح خيبر علامة وعنوانا لفتح مكة . فيكون الضمير في ﴿ ولتكون ﴾ عائدا على ﴿ هذه ﴾ وهي مغانم خيبر . والواو في ﴿ ولتكون ﴾ زائدة عند الكوفيين ، وعاطفة على محذوف عند غيرهم ، أي لتشكروا ﴿ ولتكون ﴾ أو وعد فعجل وكف لينفعكم بها ، ولتكون . وتأخر أو يقدر ما يتعلق به متأخرا ، أي فعل ذلك . ﴿ ويهديكم صراطا مستقيما ﴾ أي طريق التوكل ، وتفويض الأمور إليه . وقيل : بصيرة ويقينا . ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها ﴾ . قال ابن عباس والحسن ومقاتل : بلاد فارس والروم وما فتحه المسلمون . وقال الضحاك وابن زيد وابن إسحاق : خيبر . وقال قتادة والحسن : مكة ، وهذا القول يتسق معه المعنى ويتأيد . وفي قوله ﴿ لم تقدروا عليها ﴾ دلالة على تقدم محاولة لها . وفوات درك المطلوب في الحال كما كان في مكة ، وقال الزمخشري : هي مغانم هوازن في غزوة حنين ، وقال : لم تقدروا عليها لما كان فيها من الجولة ، وجوز الزمخشري في ﴿ وأخرى ﴾ أن تكون مجرورة

بإضمار رب ، وهذا فيه غرابة ، لأن رب لم تأت في القرآن جارة مع كثرة ورود ذلك في كلام العرب ، فكيف يؤتى بها مضمرة ؟ وإنما يظهر أن (وأخرى) مرفوع بالابتداء ، فقد وصفت بالجملة بعدها ، وقد أحاط هو الخبر ، ويجوز أن تكون في موضع نصب بمضمر يفسره معنى قد أحاط الله بها ، أي وقضى الله أخرى ، وقد ذكر الزمخشري هذين الوجهين . ومعنى (قد أحاط الله بها) بالقدرة والقهر لأهلها أي قد سبق في علمه ذلك ، وظهر فيها أنهم لم يقدروا عليها . (ولو قاتلكم الذين كفروا) هذا يبنى على الخلاف في قوله تعالى (وكف أيدي الناس عنكم) أهم مشركو مكة ، أو ناصر وأهل خيبر أو اليهود (لولوا الأدبار) أي لغلبوا وانهزموا . (سنة الله) في موضع المصدر المؤكد لمضمون الجملة قبله ، أي سن الله غلبة أنبيائه سنة وهو قوله ﴿ لأغلبن أنا ورسلي ﴾ [المجادلة : ٢١] (وهو الذي كف أيديهم) أي قضى بينكم المكافة والمحاجزة بعدما خولكم الظفر عليهم والغلبة ، وروي في سببها : أن قريشاً جمعت جماعة من فتيانها ، وجعلوهم مع عكرمة بن أبي جهل ، وخرجوا يطلبون غرة في عسكر رسول الله ﷺ ، فلما أحس بهم المسلمون بعث عليه الصلاة والسلام خالد بن الوليد ، وسماه حينئذ سيف الله في جملة من الناس ففروا أمامهم ، حتى أدخلوهم بيوت مكة ، وأسروا منهم جملة ، وسيقوا إلى الرسول ﷺ فمنّ عليهم وأطلقهم . وقال قتادة : كان ذلك بالحديبية عند معسكره وهو ببطن مكة ، وعن أنس : هبط ثمانون رجلاً من أهل مكة على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم مسلحين يريدون غرته فأخذناهم فاستحييناهم . وفي حديث عبد الله بن مغفل : أن رسول الله ﷺ دعا عليهم فأخذ الله أبصارهم فقال لهم : هل جئتم في عهد ، وهل جعل لكم أحد أماناً ؟ قالوا : اللهم لا ، فخلى سبيلهم . وقال الزمخشري : كان يعني هذا الكف يوم الفتح ، وبه استشهد أبو حنيفة على أن مكة فتحت عنوة لا صلحاً ، وقيل : كان ذلك في عمرة الحديبية لما روي أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة ، فبعث رسول الله ﷺ من هزمه وأدخله حيطان مكة . وعن ابن عباس : أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت انتهى . وقرأ الجمهور (بما تعملون) على الخطاب وأبو عمرو بالياء وهو تهديد للكفار (هم الذين كفروا) يعني أهل مكة ، قال ابن خالويه : يقال الهَدْي والهَدِيّ والهداء ثلاث لغات انتهى . وقرأ الجمهور (الهَدْي) بسكون الدال ، وهي لغة قريش وابن هرمز والحسن وعصمة عن عاصم واللؤلؤي وخارجة عن أبي عمرو (والهَدِيّ) بكسر الدال وتشديد الياء وهما لغتان ، وهو معطوف على الضمير في (صدوكم) (ومعكوفاً) حال ، أي محبوساً ، عكفت الرجل عن حاجته حبسته عنها ، وأنكر أبو علي تعدية عكف ، وحكاه ابن سيده والأزهري وغيرهما ، وهذا الحبس يجوز أن يكون من المشركين بصدهم ، أو من جهة المسلمين لترددهم ونظرهم في أمرهم . وقرأ الجعفي عن أبي عمرو : (والهَدْيِ) بالجر معطوفاً على المسجد الحرام أي وعن نحر الهدي ، ويقرأ بالرفع على إضمار وصد (الهَدْيُ) . وكان خرج عليه وسعه مائة بدنة قاله مقاتل ، وقيل : بسبعين ، وكان الناس سبعمائة رجل ، فكانت البدنة عن عشرة ، قاله المسور بن مخرمة ، وأتى من الحكم (أن يبلغ محله) قال الشافعي . الحرم . وبه استدل أبو حنيفة أن محل هدي المحصر الحرم لا حيث أحصر . وقال الفراء : حيث يحل نحره ، و (أن يبلغ) يحتمل أن يتعلق بالصد ، أي وصدوا الهدي ، وذلك على أن يكون بدل اشتمال ، أي وصدوا بلوغ الهدي محله ، أو على أنه مفعول من أجله ، أي كراهة أن يبلغ محله ، ويحتمل أن يتعلق بمعكوفاً ، أي محبوساً لأجل أن يبلغ محله ، فيكون مفعولاً من أجله ، ويكون الحبس من المسلمين ، أو محبوساً عن أن يبلغ محله ، فيكون الحبس من المشركين ، وكان بمكة قوم من المسلمين مختلطين بالمشركين ، غير متميزين عنهم ، ولا معروفي الأماكن ، فقال تعالى (ولولا) كراهة أن يهلكوا أناساً مؤمنين بين ظهراني المشركين ، وأنتم غير عارفين فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة ، ما كف أيديكم عنهم ، وحذف جواب لولا لدلالة الكلام عليه ، قال الزمخشري : ويجوز أن يكون (لو تزيلوا) كالتكرير لـ (لولا رجال مؤمنون) لمرجعهما إلى معنى واحد ، ويكون (لعذبنا) هو الجواب انتهى . وقوله لمرجعهما إلى معنى واحد ليس بصحيح ، لأن ما تعلق به لولا الأولى غير ما تعلق به الثانية ، فالمعنى في الأولى ولولا وطء قوم مؤمنين ، والمعنى في

ذلك عن النبي ﷺ ، وبه قال علي وابن عباس وابن عمر وعمرو بن ميمون وقتادة ومجاهد وعكرمة والضحاك وسلمة بن كهيل وعبيد بن عمير وطلحة بن مصرف والربيع والسدي وابن زيد ، وقال عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضاً : هي لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وقال علي بن أبي طالب وابن عمر رضي الله تعالى عنهما : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وقال أبو هريرة وعطاء الخراساني : لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ، وأضيفت الكلمة إلى التقوى لأنها سبب التقوى وأساسها ، وقيل : هو على حذف مضاف ، أي كلمة أهل التقوى ، وقال المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم : كلمة التقوى هنا هي بسم الله الرحمن الرحيم ، وهي التي أباها كفار قريش ، فألزمها الله المؤمنين وجعلهم أحق بها ، وقيل : قولهم سمعاً وطاعة ، والظاهر أن الضمير في (وكانوا) عائد على المؤمنين ، والمفضل عليهم محذوف ، أي أحق بها من كفار مكة ، لأن الله تعالى اختارهم لدينه ، وصحبة نبيه ﷺ ، وقيل : من اليهود والنصارى ، وهذه الأحقية هي في الدنيا ، وقيل : أحق بها في علم الله تعالى ، وقيل : وأهلها في الآخرة بالثواب ، وقيل : الضمير في (وكانوا) عائد على كفار مكة ، لأنهم أهل حرم الله ، ومنهم رسوله لولا ما سلبوا من التوفيق ، (وكان الله بكل شيء عليماً) إشارة إلى علمه تعالى بالمؤمنين ، وردع الكفار عنهم ، وإلى علمه بمصالح الكفار في الحديبية ، إذ كان سبباً لامتزاج العرب ، وإسلام كثير منهم ، وهي كلمة الإسلام ، وكانوا عام الحديبية ألفاً وأربعمائة ، وبعده بعامين ساروا إلى مكة بعشرة آلاف ، وقال أبو عبد الله الرازي : في هذه الآية لطائف معنوية ، وهو أنه تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن ، فبين بين الفاعلين إذ فاعل (جعل) هو الكفار ، وفاعل (أنزل) هو الله تعالى ، وبين المفعولين ، إذ تلك حمية وهذه سكينة ، وبين الإضافتين ، أضاف الحمية إلى الجاهلية ، وأضاف السكينة إلى الله تعالى ، وبين الفعلين (جعل) و (أنزل) فالحمية مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى ، والسكينة كالمحفوظة في خزانة الرحمة فأنزلها ، والحمية قبيحة مذمومة في نفسها ، وازدادت قبحاً بالإضافة إلى الجاهلية ، والسكينة حسنة في نفسها وازدادت حسناً بإضافتها إلى الله تعالى ، والعطف في (فأنزل) بالفاء لا بالواو يدل على المقابلة ، تقول : أكرمني زيد فأكرمته ، فدلت على المجازاة للمقابلة ، ولذلك جعل فأنزل ولما كان الرسول ﷺ هو الذي أجاب أولاً إلى الصلح وكان المؤمنون عازمين على القتال وأن لا يرجعوا إلى أهلهم إلا بعد فتح مكة أو النحر في المنحر ، وأبوا إلا أن يكتبوا محمد رسول الله ﷺ ، وباسم الله ، قال الله تعالى (على رسوله) ولما سكن هو ﷺ للصلح سكن المؤمنون فقال (وعلى المؤمنين) ولما كان المؤمنون عند الله تعالى ألزموا تلك الكلمة قال تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وفيه تلخيص وهو كلام حسن . قوله عز وجل :

﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً * محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾

رأى رسول الله ﷺ قبل خروجه إلى الحديبية ، وقال مجاهد : كانت الرؤيا بالحديبية أنه وأصحابه دخلوا مكة آمنين ، وقد حلقوا وقصروا ، فقص الرؤيا على أصحابه ، ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم ، وقالوا : إن رؤيا رسول الله ﷺ حق ، فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبي وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحارث : والله ما حلقنا ولا قصرنا ، ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت[1] ، وروي : أن رؤيته كانت أن ملكاً جاءه فقال له (لتدخلن) الآية ، ومعنى

---

(١) انظر تفسير مجاهد ٢/٦٠٣ والطبري ٢٦/٦٨ والنحوي ٤/٢٠٣ ـ ٢٠٤ وابن كثير ٤/٢٠٦ والوسيط ٣٦ ج والدر المنثور ٦/٨١

غُلامٌ رَماهُ اللهُ بالحُسْنِ يافِعاً ... لهُ سِيمياءُ لا تَشُقُّ على البَصَرْ[1]

وهذه السيما قال مالك بن أنس: كانت جباههم منيرة من كثرة السجود في التراب[2]. وقال ابن عباس وخالد الحنفي وعطية: وعدٌ لهم بأن يجعل لهم نوراً يوم القيامة من أثر السجود[3]. وقال ابن عباس أيضاً: السمت الحسن والخشوع يبدو على الوجه[4]. وقال الحسن وشمر بن عطية: بياض وصفرة وتهيج يعتري الوجه من السهر[5]. وقال عطاء والربيع بن أنس: حسن يعتري وجوه المصلين[6]. وقال منصور: سألت مجاهداً هذه السيما هي الأثر يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا، وقد تكون مثل ركبة البعير، وهي أقسى قلباً من الحجارة[7]. وقال ابن جبير: ذلك مما يتعلق بجباههم من الأرض عند السجود. وقال الزمخشري: المراد بها السمة التي تحدث في جبهة السجّاد من كثرة السجود، وقوله (من أثر السجود) يفسرها أي: من التأثير الذي يؤثره السجود، وكان كل من العليين علي بن الحسين زين العابدين، وعلي بن عبد الله بن العباس أبي الأملاك يقال له: ذو الثفنات لأن كثرة سجودهما أحدثت في مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير. انتهى. وقرأ ابن هرمز (إثْر) بكسر الهمزة وسكون الثاء، والجمهور بفتحهما، وقرأ قتادة من (آثار) السجود بالجمع (ذلك) أي ذلك الوصف من كونهم أشداء رحماء سيماهم في وجوههم صفتهم في التوراة. قال مجاهد والفراء: هو مثل واحد، أي: ذلك صفتهم في التوراة والإنجيل فيوقف على الإنجيل. وقال ابن عباس: هما مثلان فيوقف على ذلك في التوراة و(كزرع) خبر مبتدأ محذوف أي مثلهم كزرع، أو هم كزرع. وقال الضحاك: المعنى ذلك الوصف هو مثلهم في التوراة، وتم الكلام ثم ابتدأ (ومثلهم في الإنجيل كزرع) فعلى هذا يكون (كزرع) خبر (ومثلهم). وقال قتادة: مثل أصحاب النبي ﷺ في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من أمة محمد ﷺ قوم ينبتون نباتاً كالزرع يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. وقال الزمخشري: ويجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله (كزرع أخرج شطأه) كقوله ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء﴾ [الحجر ٦٦]. وقال ابن عطية: وقوله (كزرع) هو على كلا الأقوال وفي أي كتاب أنزل فرض مثل للنبي ﷺ وأصحابه، في أن النبي ﷺ بعث وحده، فكان كالزرع حبة واحدة، ثم كثر المسلمون فهم كالشطء، وهو فراخ السنبلة التي تنبت حول الأصل انتهى. وقال ابن زيد: شطأه فراخه وأولاده. وقال الزجاج: نباته. وقال قطرب: شوك السنبل يخرج من الحبة عشر سنبلات وتسع وثمان. قاله الفراء. وقال الكسائي والأخفش: طرفه. قال الشاعر:

أَخرَجَ الشَّطْءَ على وَجْهِ الثَّرى ... ومِنَ الأشجارِ أفنانُ الثَّمَرْ[8]

وقرأ الجمهور (شطأه) بإسكان الطاء، وابن كثير وابن ذكوان بفتحها، وكذلك قتادة وأبو حيوة وابن أبي عبلة وعيسى الكوفي. وبالألف بدل الهمزة زيد بن علي. فاحتمل أن يكون مقصوراً وأن يكون أصله الهمز فنقل الحركة

---

(١) البيت من الطويل لأسيد بن عنقاء الفزاري، انظر ديوان الحماسة ٢/٣٤٧ روح المعاني ٢٦/١١٤.
(٢) انظر جامع البيان ٢٦/١١١ والبغوي ٤/٢٠٦ والقرطبي ١٦/٢٩٣ وزاد المسير ٧/٤٤٦ وابن كثير ٤/٢٠٤ والوسيط ٤/١٤٠.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق.
(٧) المصادر السابقة.
(٨) البيت من الرمل لم أعثر على قائله، انظر القرطبي ١٦/٢٩٤ روح المعاني ٢٦/١٢٦ فتح القدير ٥/٥٦ والشاهد في استعمال الشطء في الحنطة والشعير وغيرهما.

سورة الحجرات ثماني عشرة آية مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

التنابز بالألقاب : التداعي بها تفاعل من نبزه ، رموه فلان يتنابزون ويتنابزون ، ويقال : النبز والنزب : لقب السوء ، اللقب : هو ما يدعى به الشخص من لفظ غير اسمه وغير كنيته ، وهو قسمان : قبيح : وهو ما يكرهه الشخص لكونه تقصيراً به وذماً ، وحسن : وهو بخلاف ذلك ، كالصديق لأبي بكر ، والفاروق لعمر ، وأسد الله لحمزة رضي الله تعالى عنهم . تجسس الأمر : تطلبه وبحث عن خفيه تفعل من الجس ، ومنه الجاسوس وهو الباحث عن العورات ليعلم بها ، ويقال لمشاعر الإنسان الحواس بالحاء والجيم . الشعب : الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي : الشعب ، والقبيلة ، والعمارة ، والبطن ، والفخذ ، والفصيلة ، فالشعب : يجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة : تجمع البطون ، والبطن : يجمع الأفخاذ ، والفخذ : يجمع الفصائل ، خزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصي بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة ، وسميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها ، وروي عن ابن عباس : الشعوب البطون هنا غير ما ذكره أهل اللغة ، ويأتي خلاف في ذلك عند قوله (وجعلناكم شعوبا) القبيلة : دون الشعب شبهت بقبائل الرأس لأنها قطع تقابلت . ألت يألت بفتح اللام وكسرها ألتاً ، ولات يليت ، وآلات يليت ، رباعي ثلاث لغات حكاها أبو عبيدة ، والمعنى : نقص ، وزنه وزنه .

وَلَيْلَةٍ ذَاتِ نَدًى سَرَيْتُ وَلَمْ يَلِتْنِي عَنْ سُرَاهَا لَيْتُ (١)

أي : لم يمنعني ولم يحبسني ، وقال الحطيئة :

أَبْلِغْ سَرَاةَ بَنِي سَعْدٍ مُغَلْغَلَةً جَهْدَ الرِّسَالَةِ لَا أَلْتًا وَلَا كَذِبَا (٢)

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم . يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم . إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم . يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴾

---

(١) البيت من الرجز ، انظر اللسان (ليت) والمحتسب ٢/٢٩٠ القرطبي ١٦/٣٤٧ فتح القدير ٥/٦٦٨ .
(٢) البيت من البسيط ، انظر ديوانه ص ١٣ ، المحتسب ٢/٢٩٠ ، اللسان (ألت) ، الشاهد : مغلغلة (ألتاً) : نقص النقص

إذا أبينا فلا يأبى لنا أحدٌ ... إنا كذلك عند الفخر نرتفعُ

فأمر النبي ـ ﷺ ـ فدعا حسان بن ثابت فقال له: أعد في قولك فأسمعه ، فأجابه :

إن الذوائب من فهرٍ وإخوتهم ... قد شرعوا سنةً للناس تُتَّبعُ
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكلَّ الخير يصطنعُ

ثم قال حسان في أبيات :

نصرنا رسول الله والدين عنوةً ... على رغم عاتٍ من معدٍّ وحاضرِ
بضربٍ كإيزاغ المخاض مشاشُهُ ... وطعنٍ كأفواه اللقاح الصوادرِ
وسل أُحُدًا يوم استقلت جموعهم ... بضربٍ لنا مثل الليوث الخوادرِ
ألسنا نخوض الموت في حومة الوغى ... إذا طاب وِردُ الموت بين العساكرِ
فنضرب هامًا بالذراعين ننتمي ... إلى حسبٍ من جذم غسان زاهرِ
فلولا حياء الله قلنا تكرُّمًا ... على الناس بالحقين هل من منافرِ
فأحياؤنا من خير من وطئ الحصى ... وأمواتنا من خير أهل المقابرِ

قال فقام الأقرع بن حابس فقال : إني والله لقد جئت لأمر وقد قلت شعرًا فاسمعه وقال :

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا ... إذا خالفونا عند ذكر المكارمِ
وإنا رؤوس الناس في كل غارةٍ ... تكون بنجدٍ أو بأرض التهائمِ
وإن لنا المرباع في كل معشرٍ ... وأن ليس في أرض الحجاز كدارمِ

فقال النبي ـ ﷺ ـ حسانًا قم فأجبه فقام ، وقال :

بني دارمٍ لا تفخروا إن فخركم ... يعود وبالًا عند ذكر المكارمِ
هبلتم علينا تفخرون وأنتم ... لنا خولٌ من بين ظئرٍ وخادمِ (١)

فقال النبي ـ ﷺ ـ «لقد كنت غنيًا يا أخا دارم(٢) أن يذكر منك ما ظننت أن الناس قد نسوه» فكان قوله عليه الصلاة والسلام أشد عليهم من جميع ما قاله حسان . ثم رجع حسان إلى شعره فقال :

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن تقسموا في المقاسمِ
فلا تجعلوا لله ندًّا وأسلموا ... ولا تفخروا عند النبي بدارمِ
وإلا وربِّ البيت مالت أكفُّنا ... على هامكم بالمرهفات الصوارمِ (٣)

---

(١) انظر ديوان حسان (٢٢٧) .
(٢) الحديث في جامع المسانيد ٢/٣٢٦ .
(٣) انظر ديوان حسان ١٣٧

أي: لشق عليكم. وقال مقاتل: لأثمتم. وقال الزمخشري: والجملة المصدرة بلو لا تكون كلاماً مستأنفاً لأدائه إلى تنافر النظم، ولكن متصلاً بما قبله، حالاً من أحد الضميرين في فيكم المستتر المرفوع أو البارز المجرور، وكلاهما مذهب سديد، والمعنى أن فيكم رسول الله، وأنتم على حالة يجب عليكم تغييرها، وهو أنكم تحاولون منه أن يعمل في الحوادث على مقتضى ما يعن لكم من رأي، واستصواب فعل المطواع لغيره، والتابع له فيما يرتئيه المحتذي على أمثلته، ولو فعل ذلك لعنتم، أي: لوقعتم في الجهد والهلاك. وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق، وتصديق قول الوليد، وأن نظائر ذلك من الهنات كانت تفرط منهم، وأن بعضهم كانوا يتصونون ويزعهم جدهم في التقوى، عن الجسارة على ذلك، وهم الذين استثناهم بقوله: ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان﴾ أي إلى بعضكم، ولكنه أغنت عن ذكر البعض صفتهم المفارقة لصفة غيرهم، وهذا من إيجازات القرآن، ولمحاته اللطيفة، التي لا يفطن إليها إلا الخواص، وعن بعض المفسرين: هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى انتهى. وفيه تكثير. ولا بعد أن تكون الجملة المصدرة بلو مستأنفة لا حالاً، فلا تعلق لها بما قبلها من جهة الإعراب. وتقديم خبر (أن) على اسمها قصد إلى توبيخ بعض المؤمنين، على ما استهجن من استتباعهم رأي الرسول ﷺ لآرائهم، فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه. وقيل: (يطيعكم) دون أطاعكم للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه، وأنه كلما عنّ لهم رأي في أمر كان معمولاً عليه، بدليل قوله (في كثير من الأمر) وشريطة (لكن) مفقودة من مخالفة ما بعدها لما قبلها من حيث اللفظ، حاصلة من حيث المعنى، لأن الذين حبب إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم صفة المتقدم ذكرهم، فوقعت (لكن) في حاق موقعها من الاستدراك انتهى. وهو ملتقط من كلام الزمخشري، وقال الزمخشري أيضاً: ومعنى تحبيب الله وتكريهه اللطف والإمداد بالتوفيق، وسبيله الكناية كما سبق، وكل ذي لب وراجع إلى بصيرة وذهن لا يغبى عليه أن الرجل لا يمدح بفعل غيره، وحمل الآية على ظاهرها يؤدي إلى أن يثني عليهم بفعل الله، وقد نفى الله هذا عن الذين أنزل فيهم ﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ [آل عمران: ١٨٨] انتهى. وهي على طريق الاعتزال. وعن الحسن: حبب الإيمان بما وصف من الثناء عليه، وكره الثلاثة بما وصف من العقاب انتهى. (أولئك هم الراشدون) التفات من الخطاب إلى الغيبة. (فضلاً من الله ونعمة)، قال ابن عطية: مصدر مؤكد لنفسه، لأن ما قبله هو بمعناه إذ التحبيب والتزيين هو نفس الفضل. وقال الحوفي: فضلاً نصب على الحال. انتهى. ولا يظهر هذا الذي قاله. وقال أبو البقاء: مفعول له، أو مصدر في معنى ما تقدم. وقال الزمخشري: (فضلاً) مفعول له، أو مصدر من غير فعله. (فإن قلت): من أين جاز وقوعه مفعولاً له، والرشد فعل القوم، والفضل فعل الله تعالى، والشرط أن يتحد الفاعل؟ قلت: لما وقع الرشد عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه مسندة إلى اسمه تقدست أسماؤه صار الرشد كأنه فعله، فجاز أن ينتصب عنه ولا ينتصب عن (الراشدون) ولكن عن الفعل المسند إلى اسم الله تعالى، والجملة التي هي (أولئك هم الراشدون) اعتراض، أو عن فعل مقدر، كأنه قيل: جرى ذلك، أو كان ذلك فضلاً من الله، وأما كونه مصدراً من غير فعله فأن يوضع موضع رشداً لأن رشدهم فضل من الله لكونهم موفقين فيه، والفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام. (والله عليم) بأحوال المؤمنين، وما بينهم من التمايز والتفاضل (حكيم) حين يفضل وينعم بالتوفيق على أفاضلهم انتهى. أما توجيهه كون (فضلاً) مفعولاً من أجله فهو على طريق الاعتزال. وأما تقديره: أو كان ذلك فضلاً، فليس من مواضع إضمار كان، ولذلك شرط مذكور في النحو.

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين. إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون. يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ

إلا على مذهب أبي الحسن في قوله : إن ركباً جمع راكب . وقال أيضاً الزمخشري : وأما قوله في قوم فرعون وقوم عاد هم الذكور والإناث فليس لفظ القوم بمتعاط للفريقين ، ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن . انتهى . وغيره يجعله من باب التغليب ، و (ليس) بعضاً بانتصابه عن (قوم) و (نساء) يفيد الخصوصية من حيث المعنى ، وإن كان ظاهر اللفظ ذلك ، ومن المعنى : لا يسخر أحد من أحد ، وإنما ذكر الجمع والمرأة بأن كل فرد فرد مما يتناوله عموم البدل ، فكأنه إذا سخر الواحد كان بمجلسه ناس يضحكون على قوله ، أو يلعب بسخريته ما يضحكوا فينقلب الحال إلى جماعة (عسى أن يكونوا) أي المسخور منهم (خيراً منهم) أي من الساخرين بهم ، وهذه الجملة مستأنفة وردت مورد جواب المستخبر عن العلة الموجبة لما جاء النهي عنه ، أي : ربما يكون المسخور منه عند الله خيراً من الساخر ، لأن العلم بخفيات الأمور إنما هو لله تعالى . وعن ابن مسعود : لو سخرت من كلب خشيت أن أحول كلباً ، (ولا نساء من نساء) ، روي أن عائشة وحفصة رضي الله تعالى عنهما رأتا أم سلمة ربطت حقويها بثوب أبيض وسدلت طرفه خلفها ، فقالت عائشة لحفصة : انظري إلى ما يجر خلفها كأنه لسان كلب . وعن عائشة : أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة . وعن أنس : كان نساء النبي ﷺ يعيرن أم سلمة بالقصر[1] . وقدمت صفية لرسول الله ﷺ : يعيرنني ويقلن : يا يهودية بنت يهوديين ، فقال لها : هلا قلت : إن أبي هارون وإن عمي موسى ، وإن زوجي محمد[2] . وقرأ عبد الله وأبي (عسوا أن يكونوا) و (عسين أن يكن) فعسى ناقصة ، والجمهور (عسى) فيهما تامة ، ومن تلك : الإضمار لغة تميم ، والترك لغة الحجاز ، (ولا تلمزوا أنفسكم) ضم الميم في (تلمزوا) الحسن والأعرج وعبيد عن أبي عمرو . وقال أبو عمرو : وهي عربية ، والجمهور بالكسر ، والنبز بالقول والإشارة ونحوها مما يفهمه آخر ، والهمز لا يكون إلا باللسان . والمعنى : لا يعب بعضكم بعضاً ، كما قال : (فاقتلوا أنفسكم) ، (فسلموا على أنفسكم) وكأن المؤمنين نفس واحدة ، إذ هم إخوة كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وكالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائره بالسهر والحمى . ومفهوم (أنفسكم) أن له أن يعيب غيره مما لا يدين بدينه ، ففي الحديث : اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس . وقيل : المعنى لا تفعلوا ما تلمزون به ، لأن من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه (ولا تنابزوا بالألقاب) اللقب إن دل على ما يكرهه المدعو به كان منهياً ، وأما إذا كان حسناً فلا ينهى عنه ، وما زالت الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير . وروي أن بني سلمة كانوا قد كثرت فيهم الألقاب ، فنزلت الآية بسبب ذلك . وفي الحديث : « كنوا أولادكم » . قال عطاء : مخافة الألقاب . وعن عمر : أشيعوا الكنى فإنها سنة ، ولا سيما إذا كانت الكنية غريبة لا يكاد يشترك مع صاحبها أحد ممن في عصره ، ومن يطير بها ذكره في الآفاق وتتهادى أخباره الرفاق ، كما جرى في كنيتي بأبي حيان ، واسمي محمد . فلو كانت كنيتي أبا عبد الله ، أو أبا بكر مما يقع فيه الاشتراك لم أشتهر تلك الشهرة ، وأهل بلادنا جزيرة الأندلس كثيراً ما يلقبون الألقاب حتى قال فيهم أبو مروان الطبني :

يا أهل أندلس ما عندكم أدب ... بالمشرق الأدب النفاح بالطيب
يدعى الشباب شيوخاً في مجالسهم ... والشيخ عندكم يدعى بتلقيب[3]

حتى علماء بلادنا وصالحيهم من يدعى بالوزعي وبابلقي ، ويدعى بابح ، وكل هذا يجري مجرى الذم . قيل : وليس من هذا قول المحدثين : سليمان الأعمش ، وواصل الأحدب ، ونحوه مما تدعو الضرورة إليه ، وليس فيه قصد استخفاف ولا

---

(١) انظر البغوي ٤/٢١٦ .

(٢) انظر البغوي ٤/٢١٦ .

(٣) انظر الدر المنثور ٦/٩٣ .

ذي ، فعلوا . وقد قال ابن مسعود لعلقمة . وتقول أنت ذلك يا أعور[1] . وقال ابن زيد : أي : لا يقول أحد لأحد يا يهودي بعد إسلامه ، ولا يا فاسق بعد توبته ونحو ذلك[2] ، وتلاحى ابن أبي حدرد وكعب بن مالك فقال له مالك : يا أعرابي يريد أن يخرجه من الهجرة ، فقال له الآخر : يا يهودي يريد المخالطة لليهود في يثرب[3] (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) أي : بئس اسم تسميته بعصيانكم نبزكم بالألقاب فتكونون فساقاً بالمعصية بعد إيمانكم ، أو بئس ما يقوله الرجل لأخيه . يا فاسق بعد إيمانه . وقال الرماني : هذه الآية تدل على أنه لا يجتمع الفسوق والإيمان انتهى . وقال الزمخشري . نحو قول الرماني فقال : استقباح الجمع بين الإيمان والفسق الذي يأباه الإيمان ، وهذه نزعة اعتزالية . وقال الزمخشري . الاسم هاهنا بمعنى الذكر من قولهم طار اسمه في الناس بالكرم ، أو باللؤم كما يقال طار ثناؤه وصيته ، وحقيقته ما سما من ذكره وارتفع بين الناس ، كأنه قيل : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائم أن تذكروا بالفسق . (ومن لم يتب) أي : عن هذه الأشياء (فأولئك هم الظالمون) لشدة ظلمهم من لم يتب . (اجتنبوا كثيراً من الظن) أي : لا تعملوا على حسبه ، وأمر تعالى باجتنابه لئلا يجترئ أحد على ظن إلا بعد نظر وتأمل وتمييز بين حقه وباطله ، والمأمور باجتنابه هو بعض الظن المحكوم عليه بأنه إثم ، وتمييز المجتنب من غيره أنه لا يعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر ، كمن يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث ، كالدخول والخروج إلى حانات الخمر وصحبة نساء المغاني وإدمان النظر إلى المرد ، فمثل هذا يقوي الظن فيه أنه ليس من أهل الصلاح ، ولا إثم فيه وإن كنا لا نراه يشرب الخمر ، ولا يزني ، ولا يعبث بالشبان ، بخلاف من ظاهره الصلاح فلا يظن به السوء ، فهذا هو المنهي عنه ، ويجب أن يزيله والإثم الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب ، وقال الزمخشري . والهمزة فيه بدل من الواو ، كأنه يثم الأعمال أي : يكسرها بإحباطه ، وهذا ليس بشيء ، لأن تصريف هذه الكلمة مستعمل فيه الهمز ، تقول : أثم يأثم فهو آثم ، والإثم ، والآثام ، فالهمزة أصل وليست بدلاً عن واو ، وأما يثم فأصله ـ يوثم ، وهو من مادة أخرى ، وقيل : الإثم متعلق بتكلم الظان أما إذا لم يتكلم فهو في فسحة ، لأنه لا يقدر على دفع الخواطر التي يبيحها قول النبي ـ ﷺ ـ « الحزم سوء الظن » ، وقرأ الجمهور (ولا تجسسوا) بالجيم ، وقرأ الحسن وأبو رجاء وابن سيرين بالحاء ، وهما متقاربان ، نهى عن تتبع عورات المسلمين ومعايبهم والاستكشاف عما ستروه ، وقيل : لابن مسعود ، هل لك في فلان تقطر لحيته خمراً ، فقال : إنا قد نهينا عن التجسس ، فإن ظهر لنا شيء أخذنا به ، وفي الحديث « إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم » وقد وقع عمر ـ رضي الله عنه ـ في حراسته على من كان في ظاهره ريبة ، ولكن دخل عليه هجماً ، فلما ذكر له نهي الله تعالى عن التجسس انصرف عمر ، (ولا يغتب بعضكم بعضاً) يقال ـ غابه واغتابه ، كغاله واغتاله ، والغيبة من الاغتياب ، كالغيلة من الاغتيال ، وهي ذكر الرجل بما يكره مما هو فيه ، وفي الحديث : سئل رسول الله ـ ﷺ ـ ما الغيبة ؟ فقال : « أن تذكر من المرء ما يكره أن يسمع ، فقال : يا رسول الله وإن كان حقاً . قال رسول الله ـ ﷺ ـ إذا قلت باطلاً فذلك البهتان »[4] وفي الصحيحين « فقد بهته »[5] ، وقال ابن عباس : الغيبة إدام كلاب الناس . وقالت عائشة عن امرأة : ما رأيت أجمل منها إلا أنها قصيرة ، فقال لها النبي ـ ﷺ ـ : اغتبتيها ، نظرت إلى أسوأ ما فيها فذكرتيه ، وحكى الزمخشري عن جابر عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : « الغيبة أشد من الزنا »[6] لأن الزاني يتوب الله عليه ، والذي يغتاب فلا يغفر له حتى يستحل ،

---

(١) انظر البغوي ٤/٢١٦

(٢) انظر البغوي ٤/٢١٦

(٣) انظر الطبري ٤/٢١٦

(٤) أخرجه مالك في الموطأ ٩٨٧ وابن عبد البر في غريبه التمهيد ص ٣٠٣ (٦٨٩)

(٥) أخرجه مسلم ٤/٢٠٠١ كتاب البر والصلة باب تحريم الغيبة ٧٠ ـ (٢٥٨٩) والبغوي في شرح السنة ١٣٩/١٣ (٣٥٦٠)

(٦) ذكره الهيثمي في المجمع ٨/٩٢ وعزاه للطبراني في الأوسط ، وقال : فيه عباد بن كثير الثقفي وهو متروك

وعرض المسلم مثل دمه في التحريم . وفي الحديث المستفيض : « فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم » . ولا يباح من هذا المعنى إلا ما تدعو الضرورة إليه ، من تجريح الشهود والرواة ، والمخاطب إذا استنصح من تخطب إليه من يعرفهم ، والعرب تشبه الغيبة بأكل اللحم ، وقال :

فإنْ أكلوا لحمي وفرتُ لحومهم

﴿ أيحب أحدكم ﴾ قال الزمخشري : تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه ، وفيه مبالغات شتى ، منها : الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها : جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة . ومنها : إسناد الفعل إلى أحدكم ، والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك ، ومنها : أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً ، ومنها : أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتاً . انتهى . وقال الرماني : كراهية هذا اللحم يدعو إليه الطبع ، وكراهية الغيبة يدعو إليها العقل ، وهو أحق أن يجاب ، لأنه بصير عالم والطبع أعمى جاهل . انتهى . وقال أبو زيد السهيلي : ضرب المثل لأخذه العرض بأكل اللحم ، لأن اللحم ستر على العظم ، والشاتم لأخيه كأنه يقشر ويكشف ما عليه من ستر . وقال تعالى : ﴿ ميتاً ﴾ ، لأن الميت لا يحس ، وكذلك الغائب لا يسمع ما يقول فيه المغتاب ، ثم هو في التحريم كأكل لحم الميت . انتهى . ويروى في الحديث : « ما صام من ظل يأكل لحوم الناس » . وقال أبو قلابة الرقاشي : سمعت أبا عاصم يقول : ما اغتبت أحداً منذ عرفت ما في الغيبة . وقيل لعمرو بن عبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك ، قال : إياه فارحموا . وقال رجل للحسن : بلغني أنك تغتابني ، فقال : لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي . ونصب ﴿ ميتاً ﴾ على الحال من لحم ، وأجاز الزمخشري أن ينتصب عن الأخ ، وهو ضعيف ، لأن المجرور بالإضافة لا يجيء الحال منه إلا إذا كان له موضع من الإعراب ، نحو : أعجبني ركوب الفرس مسرجاً ، وقيام زيد مسرعاً ، فالفرس في موضع نصب ، وزيد في موضع رفع ، وقد أجاز بعض أصحابنا أنه إذا كان الأول جزءاً أو كالجزء جاز انتصاب الحال من الثاني ، وقد رددنا عليه ذلك فيما كتبناه في علم النحو . ﴿ فكرهتموه ﴾ قال الفراء : أي فقد كرهتموه فلا تفعلوه . وقيل : لما وقفهم على التوبيخ بقوله : ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ﴾ فأجاب عن هذا : لأنهم في حكم من يقولها ، فخوطبوا على أنهم قالوا : لا ، فقيل لهم : ﴿ فكرهتموه ﴾ ، وبعد هذا يقدر : فلذلك فاكرهوا الغيبة التي هي نظير ذلك ، وعلى هذا التقدير يعطف قوله : ﴿ واتقوا الله ﴾ ، قاله أبو علي الفارسي ، وفيه عجرفة العجم . وقال الزمخشري : ولما قررهم عز وجل بأن أحداً منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله : ﴿ فكرهتموه ﴾ أي : فتحققت بوجوب الإقرار عليكم بأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره لإباء البشرية عليكم أن تجحدوا كراهتكم له وتقذركم منه ، فليتحقق أيضاً أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة والطعن في أعراض المسلمين . انتهى . وفيه أيضاً عجرفة العجم . والذي قدره الفراء أسهل وأقل تكلفاً وأجرى على قواعد العربية . ويظهر أن الكلام خبر معناه الأمر تقديره : فاكرهوه ، ولذلك عطف عليه ﴿ واتقوا الله ﴾ ، ووضع الماضي موضع الأمر في لسان العرب كثير ، ومنه : اتقى الله امرؤ فعل خيراً يُثَبْ عليه ، أي : ليتق الله ، ولذلك انجزم يثب على جواب الأمر . وما أحسن ما جاء الترتيب في هذه الآية ، جاء الأمر أولاً باجتناب الطريق التي لا تؤدي إلى العلم وهو الظن ، ثم نهي ثانياً عن طلب تحقق ذلك الظن فيصير علماً بقوله : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ ، ثم نهي ثالثاً عن ذكر ذلك إذا علم . فهذه أمور ثلاثة مترتبة : ظن ، فعلم بالتجسس ، فاغتياب . والضمير المنصوب في ﴿ فكرهتموه ﴾ الظاهر أنه عائد على الأكل . وقيل : على الميت . وقرأ أبو سعيد الخدري وأبو حيوة : ﴿ فكُرِّهتموه ﴾ بضم الكاف وتشديد الراء ، ورواها الخدري عن النبي ﷺ . والجمهور بفتح الكاف وتخفيف الراء ، وكره يتعدى إلى واحد ، فقياسه إذا ضعف أن يتعدى إلى اثنين كقراءة الخدري ومن معه ، أي : جعلتم تكرهونه ، وأما قوله : ﴿ وكره إليكم الكفر ﴾ [الحجرات : ٧] فعلى التضمين بمعنى بغض ، وهو يتعدى لواحد ، وبإلى إلى آخر ، وبغض منقول بالتضعيف من بغض الشيء إلى زيد .

والظاهر عطف ﴿ واتقوا الله ﴾ على ما قبله من الأمر والنهي . قوله عزّ وجلّ : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير . قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون . قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم . يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين . إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾ .

قيل : غضب الحرث بن هشام وعتاب بن أسيد حين أذّن بلال يوم فتح مكة على الكعبة فنزلت[1] . وعن ابن عباس : سببها قول ثابت بن قيس لرجل لم يفسح له عند النبي ﷺ : يا ابن فلانة ، فوبخه النبي ﷺ وقال له : إنك لا تفضل أحداً إلا في الدين والتقوى ، ونزل الأمر بالتفسح في ذلك أيضاً ﴿ من ذكر وأنثى ﴾ أي : من آدم وحواء ، أو كل أحد منكم من أب وأم . فكل واحد منكم مساوٍ للآخر في ذلك الوجه فلا وجه للتفاخر[2] . ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل ﴾ وتقدم الكلام على شيء من ذلك في المفردات . وقيل : الشعوب في العجم ، والقبائل في العرب ، والأسباط في بني إسرائيل . وقيل : الشعوب عرب اليمن من قحطان ، والقبائل ربيعة ومضر وسائر عدنان . وقال قتادة ومجاهد والضحاك : الشعب النسب الأبعد ، والقبيلة الأقرب . قال الشاعر :

قبائلُ من شُعوبٍ ليس فيهم ... كريمٌ قد يُعدّ ولا نجيبُ[3]

وقيل : الشعوب الموالي ، والقبائل العرب . وقال أبو روق : الشعوب الذين ينتسبون إلى المدائن والقرى ، والقبائل الذين ينتسبون إلى آبائهم انتهى . وواحد الشعوب شَعب بفتح الشين . وشَعب بطن من همدان ينسب إليه عامر الشعبي من سادات التابعين . والنسب إلى الشعوب شُعوبية بفتح الشين وهم الأمم التي ليست بعرب . وقيل : هم الذين يفضلون العجم على العرب . وكان أبو عبيدة خارجياً شعوبياً ، وله كتاب في مثالب العرب . ولابن غرسية رسالة فصيحة في تفضيل العجم على العرب ، وقد رد عليه علماء الأندلس برسائل عديدة . وقرأ الجمهور ﴿ لتعارفوا ﴾ مضارع تعارف محذوف التاء . والأعمش بتاءين ، ومجاهد وابن كثير في رواية وابن محيصن بإدغام التاء في التاء . وابن عباس وأبان عن عاصم ﴿ لتعرفوا ﴾ مضارع عرف . والمعنى : أنكم جعلكم الله تعالى ما ذكر كي يعرف بعضكم بعضاً في النسب ، فلا ينتمي إلى غير آبائه ، لا التفاخر بالآباء والأجداد ، ودعوى التفاضل وهي التقوى . وفي خطبته عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة « إنما الناس رجلان ، مؤمن تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله ، ثم قرأ الآية » وعنه ﷺ « من سره أن يكون أكرم[4] الناس فليتق الله » ، وما زال التفاخر بالأنساب في الجاهلية والإسلام وبالبلاد ، وبالمذاهب ، وبالعلوم ، وبالصنائع ، وأكثره بالأنساب :

وأضحتْ تُنمى إلى قبائلٍ ... تروحُ عن المنصب مُشتاجرة

---

(١) انظر البغوي ٤/٢١٧ .

(٢) انظر البغوي ٤/٢١٧ . سورة ق .

(٣) البيت من الطويل لم يعرف قائله . انظر القرطبي ١٦/٣٤٥ فتح القدير ٥/٦٧

(٤) ذكره العجلوني في كشف الخفا ٢/٣٦٣ وعزاه للبيهقي ، وأبي يعلى ، والطبراني ، وأبي نعيم ، والحاكم عن ابن عباس

إذا سُئِلوا مَا لَهُم مِن عُلًا ... أشاروا إلى أعظُمٍ ناخرة(١)

ومن ذلك افتخار أولاد مشايخ الزوايا الصوفية بآبائهم، واحترام الناس لهم بذلك وتعظيمهم لهم، وإن كان الأولاد بخلاف الآباء في الدين والصلاح. وقرأ الجمهور (إِنَّ) بكسر الهمزة، وابن عباس بفتحها، وكان قرأ (تعرفوا) مضارع عرف، فاحتمل أن تكون (أن) معمولة (لتعرفوا) وتكون اللام في (لتعرفوا) لام الأمر، وهو أجود من حيث المعنى، وأما إن كانت لام كي فلا يظهر المعنى: إن جعلهم شعوباً وقبائل، لأن تعرفوا أن الأكرم هو الأتقى، فإن جعلت مفعول (لتعرفوا) محذوفاً أي: لتعرفوا الحق، لأن أكرمكم عند الله أتقاكم ساغ في لام (لتعارفوا) أن تكون لام كي. (قالت الأعراب آمنا) قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن خزيمة، قبيلة تجاور المدينة، أظهروا الإسلام وقلوبهم دخلة، إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا. وقيل: مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار، قالوا: آمنا فاستحققنا الكرامة، فرد الله تعالى عليهم بقوله (قل لم تؤمنوا) أكذبهم الله في دعوى الإيمان، ولم يصرح بإكذابهم بلفظه، بل بما دل عليه من انتفاء إيمانهم، وهذا في أعراب مخصوصين، فقد قال الله تعالى ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة ٩٩] الآية. (ولكن قولوا أسلمنا) فهو اللفظ الصادق من أقوالكم، وهو الاستسلام والانقياد ظاهراً ولم يواطئ أقوالكم ما في قلوبكم، فلذلك قال (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) وجاء النفي بـ (لما) الدالة على انتفاء الشيء إلى زمان الإخبار، وتبين أن قوله (لم تؤمنوا) لا يراد به انتفاء الإيمان في الزمن الماضي، بل متصلاً بزمان الإخبار أيضاً، لأنك إذا نفيت بلم جاز أن يكون النفي قد انقطع، ولذلك يجوز أن تقول: لم يقم زيد وقد قام، وجاز أن يكون النفي متصلاً بزمن الإخبار، فإذا كان متصلاً بزمن الإخبار لم يجز أن تقول: وقد قام لتكاذب الخبرين، وأما لما فإنها تدل على نفي الشيء متصلاً بزمان الإخبار، ولذلك امتنع: لما يقم زيد وقد قام للتكاذب. والظاهر أن قوله (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) ليس له تعلق بما قبله من جهة الإعراب. وقال الزمخشري: (فإن قلت:) هو بعد قوله (قل لم تؤمنوا) يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجددة (قلت:) ليس كذلك، فإن فائدة قوله (لم تؤمنوا) هو تكذيب دعواهم وقوله (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) توقيت لما أمروا به أن يقولوه، كأنه قيل لهم: ولكن قولوا أسلمنا حين لم يثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم، لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في قوله (قولوا) انتهى. والذي يظهر أنهم أمروا أن يقولوا (قولوا أسلمنا) غير مقيد بحال، وأن (ولما يدخل الإيمان) إخبار غير قيد في قولهم. وقال الزمخشري: وما في (لما) من معنى التوقع دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد انتهى. ولا أدري من أي وجه يكون ما نفي بلما يقع بعد، ولما إنما تنفي ما كان متصلاً بزمان الإخبار، ولا تدل على ما ذكر، وهي جواب لقد فعل، وهب أن قد تدل على توقع الفعل، فإذا نفي ما دل على التوقع فكيف يتوهم أن يقع بعد؟ (وإن تطيعوا الله ورسوله) بالإيمان والأعمال، وهذا فتح لباب التوبة. وقرأ الجمهور (لا يَلِتْكم) من لات يليت، وهي لغة الحجاز، والحسن والأعرج وأبو عمرو (ولا يألِتْكُم) من ألت وهي لغة غطفان وأسد. (ثم لم يرتابوا) (ثم) تقتضي التراخي، وانتفاء الريبة يجب أن يقارن الإيمان، فقيل: من ترتيب الكلام لا من ترتيب الزمان، أي: ثم أقول لم يرتابوا. (وقيل) قد يخلص الإيمان ثم يعترضه ما يثلم إخلاصه فنفى ذلك، فتحصل التراخي، أو أريد انتفاء الريبة في الأزمان المتراخية المتطاولة، فحاله في ذلك كحاله في الزمان الأول الذي آمن فيه. (أولئك هم الصادقون) أي: في قولهم: آمنا حيث طابقت ألسنتهم عقائدهم، وظهرت ثمرة ذلك عليهم بالجهاد بالنفس والمال، و (في سبيل الله) يشمل جميع الطاعات البدنية والمالية، وليسوا كأعراب بني أسد في قولهم (آمنا) وهم كاذبون في ذلك. (قل أتعلمون الله بدينكم) هي منقولة من علمت به أي: شعرت به، ولذلك تعدت إلى واحد

---

(١) انظر روح المعاني ٢٦/١٦٦

بنفسها ، وأتى الآخر بحرف الجر لا تعلقه بالتضعيف ، وفي ذلك تجهيل لهم ، حيث ظنوا أن ذلك يخفى على الله تعالى ، ثم ذكر إحاطة علمه بما في السموات والأرض ، ويقال : منّ عليهم بيد أسداها إليه ، أي : أنعم عليه ، المنة : النعمة التي لا يطلب لها ثواب ، ثم يقال : منّ عليه صنعه إذا اعتده عليه منة وإنعاماً ، أي : يعتدون عليك (أن أسلموا) (بأن أسلموا) في موضع المفعول ، ولذلك تعدى إليه في قوله (قل لا تمنوا عليّ إسلامكم) ويجوز أن يكون (أسلموا) مفعولاً من أجله ، أي : يتفضلون عليك بإسلامهم (أن هداكم للإيمان) بزعمكم وتعليق المن بهدايتهم بشرط الصدق يدل على أنهم ليسوا مؤمنين ، إذ قد بين تعالى كذبهم في قولهم (آمنا) بقوله (قل لم تؤمنوا) وقرأ عبد الله وزيد بن عليّ (إذ هداكم) جعلا (إذ) مكان (أن) وكلاهما تعليل وجواب الشرط محذوف ، أي : (إن كنتم صادقين) فهو المانّ عليكم ، وقرأ ابن كثير وأبان عن عاصم (يعْمَلُونَ) بياء الغيبة ، والجمهور بتاء الخطاب .

سورة ق اربعون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا
تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾
وَالْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾
وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾
رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ
وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ
فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾
إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ
الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ
وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ
عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ
فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ
قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن
مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ
وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ

وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد﴾ هذه السورة مكية. قال ابن عطية: بإجماع من المتأولين. وقال صاحب التحرير: قال ابن عباس وقتادة: مكية إلا آية وهي قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض﴾ [ق ٣٨] الآية. ومناسبتها لآخر ما قبلها: أنه تعالى أخبر أن أولئك الذين قالوا (آمنا) لم يكن إيمانهم حقاً، وانتفاء إيمانهم دليل على إنكار نبوة الرسول ﷺ، فقال (بل عجبوا أن جاءهم منذر) وعدم الإيمان أيضاً يدل على إنكار البعث، فلذلك أعقبه به. و (ق) حرف هجاء، وقد اختلف المفسرون في مدلوله على أحد عشر قولاً متعارضة لا دليل على صحة شيء منها، فاطرحت نقلها في كتابي هذا. (والقرآن) مقسم به. و (المجيد) صفته، وهو الشريف على غيره من الكتب، والجواب محذوف يدل عليه ما بعده، وتقديره: إنك جئتهم منذراً بالبعث، فلم يقبلوا (بل عجبوا). وقيل: ما ردوا أمرك بحجة. وقال الأخفش والمبرد والزجاج تقديره: لتبعثن. وقيل: الجواب مذكور، فعن الأخفش (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) وعن ابن كيسان والأخفش (ما يلفظ من قول) وعن نحاة الكوفة (بل عجبوا) والمعنى: لقد عجبوا. وقيل: (إن في ذلك لذكرى) وهو اختيار محمد بن علي الترمذي. وقيل (ما يبدل القول لدي) وهذه كلها أقوال ضعيفة. وقرأ الجمهور: (قافْ) بسكون الفاء، وبفتحها عيسى، وبكسرها الحسن وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم، وبالضم هارون وابن السميفع والحسن أيضاً فيما نقل ابن خالويه. والأصل في حروف المعجم إذا لم تركب مع عامل أن تكون موقوفة، فمن فتح (قاف) عدل إلى أخف الحركات، ومن كسر فعلى أصل التقاء الساكنين، ومن ضم فكما ضم منذُ وحيثُ. (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن ينذرهم بالخوف رجل منهم قد عرفوا صدقه وأمانته ونصحه، فكان المناسب أن لا يعجبوا، وهذا مع اعترافهم بقدرة الله تعالى، فأي بعد في أن يبعث من يخوف وينذر بما يكون في المآل من البعث والجزاء؟ والضمير في (بل عجبوا) عائد على الكفار، ويكون قوله (فقال الكافرون) تنبيهاً على العلة الموجبة للعجب وهو أنهم قد جبلوا على الكفر، فلذلك عجبوا. وقيل الضمير عائد على الناس. قيل: لأن كل مفطور يعجب من بعثة بشر رسولاً من الله، لكن من وفق نظر فاهتدى وآمن، ومن خذل ضل وكفر وحاج بذلك التعجب. والإشارة بقولهم (هذا شيء عجيب) الظاهر أنها إلى مجيء منذر من البشر. وقيل: إلى ما تضمنه الإنذار، وهو الإخبار بالبعث. وقال الزمخشري: وهذا إشارة إلى الرجع انتهى. وفيه بعد. وقرأ الجمهور (أئذا) بالاستفهام، وهم على أصولهم في تحقيق الثانية وتسهيلها والفصل بينهما. وقرأ الأعرج وشيبة وأبو جعفر وابن وثاب والأعمش وابن عتبة عن ابن عامر (إذا) بهمزة واحدة على صورة الخبر، فجاز أن يكون استفهاماً حذفت منه الهمزة، وجاز أن يكونوا عدلوا إلى الخبر، وأضمر جواب (إذا) أي: إذا متنا وكنا تراباً رجعنا. وأجاز صاحب اللوامح أن يكون الجواب (رجع بعيد) على تقدير حذف الفاء، وقد أجاز بعضهم في جواب الشرط ذلك إذا كان جملة اسمية، وقصره أصحابنا على الشعر في الضرورة. وأما في قراءة الاستفهام فالظرف منصوب بمضمر أي: أنبعث إذا متنا. وإليه الإشارة بقوله (ذلك) أي: البعث (رجع بعيد) أي: مستبعد في الأوهام والفكر. وقال الزمخشري: و (إذا) منصوب بمضمر معناه: أحين نموت ونبلى نرجع انتهى. وأخذه من قول ابن جني. قال ابن جني: ويحتمل أن يكون المعنى: أئذا متنا بعد رجعنا، فدل (رجع بعيد) على هذا الفعل، ويحل محل الجواب لقولهم (أئذا). وقال الزمخشري: ويجوز أن يكون الرجع بمعنى المرجوع، وهو الجواب ويكون من كلام الله تعالى استبعاداً لإنكارهم ما أنذروا به من البعث، والوقف قبله على هذا التفسير حسن. فإن قلت: فما ناصب الظرف إذا كان الرجع بمعنى المرجوع؟ قلت: ما دل عليه المنذر من المنذر به وهو البعث انتهى. وكون (ذلك رجع بعيد) بمعنى مرجوع، وأنه من كلام الله تعالى لا من كلامهم على ما شرحه مفهوم عجيب ينبو عن إدراكه فهم العرب. (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أي: من لحومهم وعظامهم وآثارهم، قاله ابن عباس ومجاهد والجمهور، وهذا فيه رد لاستبعادهم الرجع، لأن من كان عالماً بذلك

كانوا قائلين برجعهم . وقال السدي : أي ما يحصل في بطن الأرض من موتاهم ، وهذا يتضمن الوعيد . ﴿ وعندنا كتاب حفيظ ﴾ أي : حافظ لما فيه ، جامع لا يفوت منه شيء ، أو محفوظ من البلى والتغير ، وقيل : هو عبارة عن العلم والإحصاء . وفي الخبر الثابت « إن الأرض تأكل ابن آدم إلا عجب الذنب ، وهو عظم كالخردلة ، منه يركب ابن آدم » ﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم ﴾ وقدروا قبل هذا الإضراب جملة يكون مضروباً عنها ، أي : ما أجادوا النظر ﴿ بل كذبوا ﴾ ، وقيل : لم يكذبوا المنذر ﴿ بل كذبوا ﴾ والغالب أن الإضراب يكون بعد جملة منفية ، وقال الزمخشري : ﴿ بل كذبوا ﴾ إضراب أتبع الإضراب الأول للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع من تعجبهم ، وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات انتهى . وكأن هذا الإضراب الثاني بدلاً من الأول ، وكلاهما بعد ذلك الجواب الذي قدرناه جواباً للقسم ، فلا يكون قبل الثانية ما قدروه من قولهم : ما أجادوا النظر ﴿ بل كذبوا بالحق ﴾ والحق القرآن ، أو البعث أو الرسول ـ ﷺ ـ أو الإسلام أقوال . وقرأ الجمهور ﴿ لما جاءهم ﴾ أي : لم يفكروا فيه ، بل بأول ما جاءهم كذبوا ، وقرأ الجحدري لِما جاءهم بكسر اللام وتخفيف الميم ، وما مصدرية واللام لام التوقيت كهي في قولهم : كتبته لخمس خلون ، أي : عند مجيئهم إياه ، ﴿ فهم في أمر مريج ﴾ قال الضحاك وابن زيد : مختلط مرة ساحر ، ومرة شاعر ، ومرة كاهن ، وقال قتادة : مختلف ، وقال الحسن : ملتبس وقال أبو هريرة : فاسد ، ومرجت أمانات الناس : فسدت ومرج الدين : اختلط ، قال أبو دؤاد :

وَمَرَجَ الدِّينُ فَأَعْدَدْتُ لَهُ ... مُشْرِفَ الْحَارِكِ مَحْبُوكَ الْكَتَدْ(1)

وقال ابن عباس : المريج : الأمر المنكر ، وعنه أيضاً : مختلط وقال الشاعر :

فَجَالَتْ وَالْتَمَسْتُ لَهَا حَشَاهَا ... فَخَرَّ كَأَنَّهُ خُوطٌ مَرِيجُ(2)

والأصل فيه الاضطراب والقلق ، مرج الخاتم في أصبعي إذا قلق من الهزال ، ويجوز أن يكون الأمر المريج باعتبار انتقال أفكارهم فيما جاء به المنذر فأولاً عدم قبولهم أول إنذاره إياهم ، ثم التعجب منهم ، ثم استبعاد البعث الذي أنذر به ، ثم التكذيب لما جاء به . ﴿ أفلم ينظروا ﴾ حين كفروا بالبعث وبما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ إلى آثار قدرة الله تعالى في العالم العلوي والسفلي ﴿ كيف بنيناها ﴾ مرتفعة من غير عمد ﴿ وزيناها ﴾ بالنيرين وبالنجوم ﴿ وما لها من فروج ﴾ أي : من شقوق وفتوق ، بل هي سليمة من كل خلل . ﴿ والأرض مددناها ﴾ بسطناها ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ أي : جبالاً ثوابت ، تمنعها من التكفؤ ﴿ من كل زوج ﴾ أي : نوع ﴿ بهيج ﴾ أي : حسن المنظر ، أي : يبهج من نظر إليه ، وقرأ الجمهور ﴿ تبصرة وذكرى ﴾ بالنصب ، وهما منصوبان بفعل مقدر من لفظهما ، أي : بصر وذكر ، وقيل : مفعول من أجله وقرأ زيد بن علي ﴿ تبصرة ﴾ بالرفع ﴿ وذكرى ﴾ معطوف عليه ، أي : ذلك الخلق على ذلك الوصف تبصرة ، والمعنى يتبصر بذلك ويتذكر كل عبد منيب ، أي : راجع إلى ربه متفكر في بدائع صنعه . ﴿ ماء مباركاً ﴾ أي : كثير المنفعة ﴿ وحب الحصيد ﴾ أي : الحب الحصيد ، فهو من حذف الموصوف ، وإقامة الصفة مقامه ، كما يقوله البصريون ، و﴿ الحصيد ﴾ كل ما يحصد مما له حب كالبر والشعير ، ﴿ باسقات ﴾ أي : طوالاً في السماء ، وهو منصوب على الحال ، وهي حال مقدرة ، لأنها حالة الإنبات لم تكن طوالاً ، و﴿ باسقات ﴾ جمع والنخل اسم جنس ، فيجوز أن يذكر نحو قوله ﴿ نخل منقعر ﴾ [القمر ٢٠] وأن يؤنث نحو قوله تعالى ﴿ نخل خاوية ﴾ [الحاقة ٧] وأن يجمع باعتبار أفراده ومنه ﴿ باسقات ﴾ وقوله ﴿ وينشئ السحاب الثقال ﴾ [الرعد ١٢] والجمهور ﴿ باسقات ﴾ بالسين . وروى قطبة بن مالك عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قرأ ﴿ باصقات ﴾ بالصاد ، وهي

(1) البيت من [illegible] ٦٦/٢ اللسان (حبك) .

(2) البيت من الوافر لعمرو بن الداخل الهذلي ، انظر ديوان الهذليين ٣/١٠٢ اللسان (مرج) القرطبي ١٧/٥ .

كما تقول : فلان حديد الذهن ، وقال مجاهد : هو بصر العين ، أي : أحدّ التفاته إلى ميزانه وغير ذلك من أهوال القيامة ، وعن زيد بن أسلم قول في هذه الآية يحرم نقله ، وهو في كتاب ابن عطية ، وكنى بالغطاء عن الغفلة ، كأنها غطت جميعه أو عينيه فهو لا يبصر ، فإذا كان في القيامة زالت عنه الغفلة ، فأبصر ما كان لم يبصره من الحق . ﴿ وقال قرينه ﴾ أي : من زبانية جهنم ﴿ هذا ﴾ العذاب الذي ﴿ لدي ﴾ لهذا الإنسان الكافر ﴿ عتيد ﴾ حاضر ، ويحسن هذا القول إطلاق ما على ما لا يعقل ، وقال قتادة ﴿ قرينه ﴾ الملك الموكل بسوقه[1] ، أي : هذا الكافر الذي أسوقه لديّ حاضر ، وقال الزهراوي : أي : ﴿ قرينه ﴾ شيطانه ، وهذا ضعيف ، وإنما وقع فيه أن القرين في قوله ﴿ ربنا ما أطغيته ﴾ هو شيطانه في الذنب بغير خلاف ، ولفظ القرين اسم جنسي ، فسائقه قرين ، وصاحبه من الزبانية قرين ، وماشي الإنسان في طريقه قرين ، وقيل : ﴿ قرينه ﴾ هنا عمله قلباً وجوارح ، وقال الزمخشري : ﴿ وقال قرينه ﴾ هو الشيطان الذي قيض له في قوله ﴿ نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ [الزخرف ٣٦] يشهد له قوله تعالى ﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته ﴾ ﴿ هذا ما لدي عتيد ﴾ هذا شيء لدي وفي ملكتي ﴿ عتيد ﴾ لجهنم ، والمعنى : أن ملكاً يسوقه ، وآخر يشهد عليه ، وشيطاناً مقروناً به يقول : قد أعتدته لجهنم ، وهيأته لها بإغوائي وإضلالي انتهى ، وهذا قول مجاهد ، وقال الحسن وقتادة أيضاً : الملك الشهيد عليه ، وقال الحسن أيضاً : هو كاتب سيئاته ، ﴿ ما ﴾ نكرة موصوفة بالظرف وبـ ﴿ عتيد ﴾ وموصولة والظرف صلتها ، و ﴿ عتيد ﴾ قال الزمخشري : بدل أو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف انتهى . وقرأ الجمهور ﴿ عتيد ﴾ بالرفع ، وعبد الله بالنصب على الحال ، والأولى إذ ذاك أن تكون ﴿ ما ﴾ موصولة ﴿ ألقيا في جهنم ﴾ : خطاب من الله للملكين السائق والشهيد ، وقيل للملكين من ملائكة العذاب ، فعلى هذا الألف ضمير الاثنين ، وقال مجاهد وجماعة : هو قول إما للسائق وإما للذي هو من الزبانية ، وعلى أنه خطاب للواحد ، وقال المبرد : معناه ألق ألق فثنى ، وقال الفراء : هو من خطاب الواحد بخطاب الاثنين ، وقيل : الألف بدل من النون الخفيفة ، أجرى الوصل مجرى الوقف ، وهذه أقوال مرغوب عنها ، ولا ضرورة تدعو إلى الخروج عن ظاهر اللفظ لقول مجاهد ، وقرأ الحسن ﴿ ألقينْ ﴾ بنون التوكيد الخفيفة ، وهي شاذة مخالفة لنقل التواتر بالألف ﴿ كل كفار ﴾ أي : يكفر النعمة والمنعم ، ﴿ عنيد ﴾ قال قتادة : منحرف عن الطاعة ، وقال الحسن : جاحد متمرد ، وقال السدي : المشاق من العناد ، وهو معظم يعرض في الخلق ، وقال ابن بحر : المعجب بما فيه ﴿ مناع للخير ﴾ قال قتادة ومجاهد وعكرمة : يعني الزكاة ، أي : بخيل ، أي : مانع بني أخيه من الإيمان ، كالوليد بن المغيرة ، كان يقول لهم : من دخل منكم فيه لم أنفعه بشيء ما عشت ، والأحسن عموم الخير في المال وغيره ، ﴿ مريب ﴾ قال الحسن : شاك في الله ، أو في البعث ، وقيل : متهم الذي جوزوا فيه أن يكونوا منصوباً بدلاً من ﴿ كل كفار ﴾ وأن يكون مجروراً بدلاً من ﴿ كفار ﴾ وأن يكون مرفوعاً بالابتداء مضمناً معنى الشرط ، ولذلك دخلت الفاء في خبره وهو ﴿ فألقياه ﴾ والظاهر تعلقه بما قبله على جهة البدل ويكون ﴿ فألقياه ﴾ توكيداً ، وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون صفة من حيث تخصص ﴿ كفار ﴾ بالأوصاف المذكورة ، فجاز وصفه بهذه المعرفة انتهى ، وهذا ليس بشيء ، لو وصفت النكرة بأوصاف كثيرة لم يجز أن توصف بالمعرفة ، ﴿ قال قرينه ﴾ لم تأت هذه الجملة بالواو ، بخلاف ﴿ وقال قرينه ﴾ قبله ، لأن هذه استؤنفت كما استؤنفت الجمل في حكاية التقاول في مقاولة موسى وفرعون ، فجرت مقاولة بين الكافر وقرينه ، فكأن الكافر قال : رب ، هو أطغاني ﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته ﴾ وأما ﴿ وقال قرينه ﴾ فعطف للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول ، أعني مجيء كل نفس مع الملكين وقول قرينه ما قال له ، ومعنى ﴿ ما أطغيته ﴾ تبرئة لنفسه من أنه أثر فيه ﴿ ولكن كان في ضلال بعيد ﴾ أي : من نفسه لا مني ، فهو الذي استحب العمى على الهدى ، كقوله ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن

---

(١) انظر تفسير البغوي ٤ / ٢٢٣ ، الوسيط ٤ / ...

صوتكم مستجمع لي) وكلف القرين ، قد أخفاه بوسوسته وتزيينه . (قال لا تختصموا لدي) استئناف أيضاً مثل : (قال قرينه) كأن قائلاً قال : ما قال الله تعالى ؟ فقيل : (لا تختصموا لدي) أي : في دار الجزاء وموقف الحساب ، (وقد قدمت إليكم بالوعيد) لمن عصاني ، فلم أترك لكم حجة . (ما يبدل القول لدي) أي : عندي مما أمضيه لا يمكن تبديله . وقال الفراء : ما يكذب لدي لعلمي بجميع الأمور . (وقدمت) يجوز أن يكون بمعنى تقدمت ، أي : قد تقدم قولي لكم ملتبساً بالوعيد ، أو يكون قدم المعدى ، و (بالوعيد) هو المفعول ، والباء زائدة والتقديم كان في الدنيا ، ونهيهم عن الاختصام في الآخرة ، فاختلف الزمانان ، فلا تكون الجملة من قوله (وقد قدمت) حالاً إلا على تأويل أي : وقد صح عندكم أني قدمت ، وصحة ذلك في الآخرة ، فاتفق زمان النهي عن الاختصام وصحة التقدم والحال على هذا التأويل مقارنة . (وما أنا بظلام للعبيد) تقدم شرح مثله في أواخر آل عمران . والمعنى : لا أعذب من لا يستحق العذاب . وقرأ (يوم يقول) بياء الأعرج وشيبة ونافع وأبو بكر والحسن وأبو رجاء وأبو جعفر والأعمش ، وباقي السبعة بالنون ، وعبد الله والحسن والأعمش أيضاً (يُقال) مبنياً للمفعول . وانتصاب (يوم) بـ (ظلام) أو باذكر ، أو بأنذر ، كذلك ؛ قاله الزمخشري . ويجوز أن ينتصب بـ (نُفخ) ، كأنه قيل : ونفخ في الصور يوم نقول . وعلى هذا يشار بذلك إلى يوم يقول ، انتهى . وهذا بعيد جداً قد فصل على هذا القول بين العامل والمعمول بجمل كثيرة ، فلا يناسب هذا القول فصاحة القرآن وبلاغته . (وهل امتلأت) تقرير وتوقيف ، لا سؤال استفهام حقيقة ، لأنه تعالى عالم بأحوال جهنم . قيل : وهذا السؤال والجواب منها حقيقة ، وقيل : هو على حذف مضاف ، أي : نقول لخزنة جهنم ، قاله الرماني . وقيل : السؤال والجواب من باب التصوير الذي يثبت المعنى ، أي : حالها حال من لو نطق بالجواب لسائله لقال كذا . وهذا القول يظهر أنها إذ ذاك لم تكن ملأى ، فقولها (هل من مزيد) سؤال ورغبة في الزيادة والاستكثار من الداخلين فيها . وقال الحسن وعمرو وواصل : كانت ملأى وقت السؤال ، فلا تزداد على امتلائها ، كما جاء في الحديث : وهل ترك لنا عقيل من دار ؟ أي : ما تركه . و (مزيد) يحتمل أن يكون مصدراً أو اسم مفعول . (غير بعيد) مكاناً غير بعيد ، وهو تأكيد لـ (أزلفت) ، رفع مجاز القرب بالوعد والإخبار ، فانتصاب (غير) على الظرف صفة قامت مقام مكاناً ، فأعربت بإعرابه . وأجاز الزمخشري أن ينتصب (غير بعيد) على الحال من الجنة ، قال : وتذكيره يعني (بعيد) لأنه على زنة المصدر ، كالزئير والصليل ، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث ، انتهى . وكونه على وزن المصدر لا يسوغ أن يكون المذكر صفة للمؤنث . وقال الزمخشري أيضاً : أو على حذف الموصوف ، أي : شيئاً غير بعيد ، انتهى . وكأنه يعني : إزلافاً غير بعيد . (هذا) إشارة للثواب . وقرأ الجمهور : (ما توعدون) خطاباً للمؤمنين ، وابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة ، أي : هذا القول هو الذي وقع الوعد به ، وهي جملة اعتراضية بين المبدل منه والبدل ، و (لكل أواب) هو البدل من المتقين . (من خشي) بدل بعد بدل تابع لـ (كل) ؛ قاله الزمخشري . وإنما جعله تابعاً لـ (كل) ، لا بدلاً من المتقين ، لأنه لا يتكرر الإبدال من مبدل منه واحد . قال : ويجوز أن يكون بدلاً من موصوف (أواب) و (حفيظ) ، ولا يجوز أن يكون في حكم (أواب) و (حفيظ) ، لأن من لا يوصف به ، ولا يوصف من بين سائر الموصولات إلا بالذي ، انتهى . يعني بقوله : في حكم (أواب) أن يجعل من صفته . وهذا الحكم صحيح . وأما قوله : ولا يوصف من بين الموصولات إلا بالذي فحصر ليس بصحيح ، قد وصفت العرب بما فيه أل ، وهو موصول نحو : القائم والمضروب ، ووصفت بذو الطائية وذات في المؤنث ، ومن كلامهم بالفضل ذو فضلكم الله به ، والكرامة ذات أكرمكم الله به ، يريد بالفضل الذي فضلكم ، والكرامة التي أكرمكم . ولا يريد الزمخشري خصوصية الذي ، بل فروعه من المؤنث والمثنى والمجموع على اختلاف لغات ذلك . ويجوز أن تكون (من) موصولة مبتدأ خبره القول المحذوف ، تقديره : يقال لهم ادخلوها ، لأن من في معنى الجمع ، وأن تكون شرطية ، والجواب الفعل المحذوف ، أي : فيقال ، وأن يكون منادى كقولهم : من لا يزال محسناً أحسن إليّ ، وحذف حرف النداء للتقريب . وقال

ابن عطية: يحتمل أن تكون من صفات المتقين، وهذا لا يجوز؛ لأن (من) لا ينعت بها. و(بالغيب) حال من الفاعل، أي: وهو غائب عنه، وإنما أدركه بالعلم الضروري، إذ كل مصنوع لا بد له من صانع. ويجوز أن تكون صفة لمصدر (خشي) أي: خشيه خشية ملتبسة بالغيب، حيث خشي عقابه وهو غائب، أو خشيه بسبب الغيب الذي أوعده به من عذابه. وقيل: في الخلوة حيث لا يراه أحد، فيكون حالاً من الفاعل. وقرن بالخشية الرحمن ثناء على الخاشي بحسب علمه أنه واسع الرحمة وهو مع ذلك يخشاه. (ادخلوها بسلام) أي: سالمين من العذاب، أو بسلام عليكم من الله وملائكته. (ذلك يوم الخلود) كقوله ﴿فادخلوها خالدين﴾ [الزمر ٧٣] أي: مقدرين الخلود، وهو مقابل لقوله في الكفار (ذلك يوم الوعيد). (لهم ما يشاؤون فيها) أي: ما تتعلق به مشيئاتهم من أنواع الملاذ والكرامات، كقوله تعالى ﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم﴾ [فصلت ٣١]. (ولدينا مزيد) زيادة، أي: شيء مزيد على ما تشاؤون وتحبون: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ [السجدة ١٧] وكما جاء في الحديث(١): أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ما أطلعتهم عليه. (ولدينا مزيد) منهم. وقيل: مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها. وقيل: أزواج من حور الجنة. وقيل: تجلي الله تعالى لهم حتى يرونه. قوله عز وجل ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص. إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب. فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسبحه وأدبار السجود. واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب. يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج. إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير. يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير. نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ أي: كثيراً (أهلكنا) قبل قريش (هم أشد منهم بطشاً) لكثرة قوتهم وأموالهم. وقرأ الجمهور (فنقبوا) بفتح القاف مشددة. والظاهر أن الضمير في (فنقبوا) عائد على (كم) أي: دخلوا البلاد من أنقابها، والمعنى: طافوا في البلاد. وقيل: نقبوا وبحثوا. والتنقيب التنقير والبحث. قال امرؤ القيس في معنى التطوف:

وقد نقبت في الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب(٢)

وروي: وقد طوفت. وقال الحارث بن حلزة:

نقبوا في البلاد من حذر المو ... ت وجالوا في الأرض كل مجال(٣)

و(فنقبوا) متسبب عن شدة بطشهم، فهي التي أقدرتهم على التنقيب وقوتهم عليه. ويجوز أن يعود الضمير في (فنقبوا) على قريش، أي: فنقبوا في أسفارهم في بلاد القرون، فهل رأوا محيصاً حتى يؤملوه لأنفسهم. ويدل على عود الضمير على أهل مكة قراءة ابن عباس وابن يعمر وأبي العالية ونصر بن سيار وأبي حيوة والأصمعي عن أبي عمرو بكسر القاف مشددة على الأمر لأهل مكة، أي: فسيحوا في البلاد وابحثوا. وقرئ بكسر القاف خفيفة، أي: نقبت أقدامهم وأخفاف إبلهم، أو حفيت لكثرة تطوافهم في البلاد، من نقب خف البعير إذا انتقب ودمي. ويحتمل أن يكون (هل من محيص) على إضمار القول، أي: يقولون: هل من محيص من الهلاك، ويحتمل أن لا يكون ثم قول، أي: لا محيص

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣١٣، ومسلم في صحيحه (٢٨٢٤)، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٢٦.
(٢) تقدم.
(٣) البيت من الوافر وهو للحارث بن حلزة، انظر تفسير القرطبي ١٧/٢٢، الكشاف ٤/٣٩٠.

سورة الذاريات ستون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ

ويطلق ويراد به الحظ والنصيب ، قال علقمة بن عبدة

وفي كلّ حيٍّ قد خبطتَ بنعمةٍ فحُقّ لشأسٍ من نداك ذَنوبُ[1]

ونسبه الزمخشري لعمرو بن شأس وهو وهمٌ وهو في ديوان علقمة ، وكان الحارث بن أبي شمر الغساني أسر شأساً أخا علقمة فدخل إليه علقمة فمدحه بالقصيدة التي فيها هذا البيت فلما وصل إلى هذا البيت في الإنشاد قال الحارث نعم وأذنبه ، وقال حسان :

لا يبعدن ربيعة بن مكدم وسقى الغوادي قبره بذنوب

وقال آخر :

لعمرك والمنايا طارقات لكل بني أب فيها ذنوب[2]

﴿ والذاريات ذرواً ، فالحاملات وقراً ، فالجاريات يسراً ، فالمقسمات أمراً ، إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع ، والسماء ذات الحبك ، إنكم لفي قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك ، قتل الخراصون ، الذين هم في غمرة ساهون ، يسألون أيان يوم الدين ، يوم هم على النار يفتنون ، ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون ، إن المتقين في جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ، وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ .

هذه السورة مكية ، ومناسبتها لآخر ما قبلها : أنه قال (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) ، وقال أول هذه بعد القسم (إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع) ، (والذاريات) الرياح ، (فالحاملات) : السحاب ، (فالجاريات) : الفلك ، (فالمقسمات) الملائكة ، هذا تفسير علي ـ كرم الله وجهه ـ على المنبر وقد سأله ابن الكواء قاله ابن عباس[3] ، وقال ابن عباس أيضاً (فالحاملات) هي السفن الموقرة بالناس وأمتاعهم[4] ، وقيل : الحوامل من جميع الحيوان[5] ، وقيل : (الجاريات) السحاب بالرياح ، وقيل : الجواري من الكواكب ، وأدغم أبو عمرو وحمزة (والذاريات) في ذال (ذرواً) وذروها تفريقها للمطر أو للتراب ، وقرئ بفتح الواو ، ونصبه للمحمول بالمصدر ، ومعنى (يسراً) جرياً ذا يسر ، أي : سهولة فـ (يسراً) مصدر وصف به على تقدير محذوف ، فهو على رأي سيبويه في موضع الحال (أمراً) تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها (أمراً) مفعول به ، وقيل : مصدر منصوب على الحال ، أي : مأمورة ، ومفعول المقسمات محذوف ، وقال مجاهد : يتولى أمر العباد جبريل للغلظة ، وميكائيل للرحمة ، وملك الموت لقبض الأرواح ، وإسرافيل للنفخ ، وجاء في الملائكة (فالمقسمات) على معنى الجماعات ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد الرياح لا غير ، لأنها تنشئ

---

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه (١٣٢) أمالي ابن الشجري ٢/ ٨١ ابن يعيش ٥/ ٤٨ شرح شواهد الشافية (٤٩٤) المقتضب ٢/ ٢٣٣ المفضليات (٣٩٦) اللسان ٧/ ٩٤٢ [illegible]

(٢) انظر البيت في الكشاف ٤/ [illegible] روح المعاني ٢٧/ ٢١ القرطبي ١٧/ ٣٩

(٣) انظر البغوي ٤/ ٢٣٩ .

(٤) انظر البغوي ٤/ ٢٣٩

(٥) انظر البغوي ٤/ ٢٣٩

السحاب ونقله وتصريفه وتجري في الجو جرياً سهلاً ، وتقسم الأمطار بتصريف الرياح انتهى . فإذا كان المدلول متغايراً ، فتكون أقساماً متعددة ، وإذا كان غير متغاير فهو قسم واحد . وهو من عطف الصفات ، أي ذرت أول هبوبها التراب والحصباء ، فأقلت السحاب ، فجرت في الجو باسطة للسحاب ، فقسمت المطر فهذا كقوله :

يا لهف زيّابة للحارث الصـ ـابح فالغانم فالآيب[1]

أي : الذي صبح العدو ، فغنم منهم ، فآب إلى قومه سالماً غانماً ، والجملة المقسم عليها وهي جواب القسم هي : ﴿إنما توعدون﴾ و ﴿ما﴾ موصولة بمعنى الذي ، والعائد محذوف ، أي : توعدونه ، ويحتمل أن تكون مصدرية ، أي : إن وعدكم ، أو وعيدكم ، إذ يحتمل ﴿توعدون﴾ الأمرين ، أن يكون مضارع وعد ومضارع أوعد ، ويناسب أن يكون مضارع أوعد لقوله ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ [ق: ٤٥] ولأن المقصود التخويف والتهويل ومعنى صدقه : تحقق وقوعه ، والمتصف بالصدق حقيقة هو المخبر . وقال تعالى ﴿ذلك وعد غير مكذوب﴾ أي : مصدوق فيه ، وقيل : ﴿لصادق﴾ ووضع اسم الفاعل موضع المصدر ، ولا حاجة إلى هذا التقدير . وقال مجاهد : الأظهر أن الآية في الكفار ، وأنه وعيد محض و ﴿إن الدين﴾ أي : الجزاء ﴿لواقع﴾ أي : صائر حقيقة على المكلفين من الإنس والجن . والظاهر في السماء أنه جنس أريد به جميع السموات . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : هي السماء السابعة ، أي : السحاب الذي يظل الأرض ﴿ذات الحبك﴾ أي : ذات الخلق المستوي الجيد[2] قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة والربيع ، وقال الحسن وسعيد بن جبير ﴿ذات الحبك﴾ أي : المزينة بالنجوم ، وقال الضحاك : ذات الطرائق يعني : من المجرة التي في السماء ، وقال ابن زيد : ذات الشدة لقوله ﴿سبعاً شداداً﴾ [النبأ: ١٢][3] ، وقيل : ذات الصفاقة ، وقرأ الجمهور ﴿الحُبُك﴾ بضمتين ، وابن عباس والحسن بخلاف عنه ، وأبو مالك الغفاري وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو السمال ونعيم عن أبي عمرو بإسكان الباء ، وعكرمة بفتحها جمع حبكة مثل طُرْفة وطُرَف ، وأبو مالك الغفاري والحسن بخلاف عنه بكسر الحاء والباء ، وأبو مالك الغفاري والحسن أيضاً وأبو حيوة بكسر الحاء وإسكان الباء ، وهو تخفيف فعل المكسور هما ، وهو اسم مفرد لا جمع ، لأن فِعِلاً ليس من أبنية الجموع ، فينبغي أن يعد مع إبل فيما جاء من الأسماء على فعل بكسر الفاء والعين ، وابن عباس أيضاً وأبو مالك بفتحهما ، قال أبو الفضل الرازي : فهو جمع حبكة مثل عقبة وعقب انتهى . والحسن أيضاً ﴿الحِبَك﴾ بكسر الحاء وفتح الباء ، وقرأ أيضاً كالجمهور فصارت قراءته خمساً ﴿الحُبْك﴾ ﴿الحِبِك﴾ ﴿الحِبْك﴾ ﴿الحِبَك﴾ ﴿الحُبُك﴾ ، وقرأ أبو مالك أيضاً ﴿الحِبُك﴾ بكسر الحاء وضم الباء ، وذكرها ابن عطية عن الحسن ، فتصير له ست قراءات ، وقال صاحب اللوامح : وهو عديم النظير في العربية في أبنيتها وأوزانها ، ولا أدري ما رواه انتهى . وقال ابن عطية : هي قراءة شاذة غير متوجهة ، وكأنه أراد كسرها ، ثم توهم الحبك قراءة الضم بعد أن كسر الحاء وضم الباء ، وهذا على تداخل اللغات ، وليس في كلام العرب هذا البناء انتهى . وعلى هذا تأول النحاة هذه القراءة ، والأحسن عندي أن تكون مما أتبع فيه حركة الحاء لحركة ذات في الكسرة ، ولم يعتد باللام الساكنة ، لأن الساكن حاجز غير حصين ، وجواب القسم ﴿إنكم لفي قول مختلف﴾ والظاهر أنه خطاب عام للمسلم والكافر ، كما أن جواب القسم السابق يشملهم ، واختلافهم ، كونهم مؤمناً بالرسول ﷺ وبكتابه وكافراً . وقال ابن زيد : خطاب للكفرة فيقولون : ساحر

---

(١) البيت من السريع لسلمة بن ذهل التيمي ، انظر الخزانة ١٠٧/٥ شرح شواهد المغني ٤٥٤/١ ، الشاهد فيه حيث وسط حرف العطف بين الصفات .

(٢) انظر الوسيط ١٨٨ ج والبغوي ٢٣٩/٤ .

(٣) انظر الوسيط ١٨٨ ج والبغوي ٢٣٩/٤ .

شاعر، كاهن، مجنون. وقال الضحاك: قول الكفرة لا يكون مستوياً، إنما يكون متناقضاً مختلفاً. وقيل: اختلافهم في الحشر، منهم من ينفيه، ومنهم من يشك فيه. وقيل: اختلافهم إقرارهم بأن الله تعالى خالقهم وعبادتهم غيره، والأقوال التي يقولونها في آلهتهم. ﴿ يؤفك ﴾ أي: يصرف. ﴿ عنه ﴾ أي: عن القرآن والرسول، قاله الحسن وقتادة. ﴿ من أفك ﴾ أي: من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه وأعظم، لقوله: لا يهلك على الله إلا هالك. وقيل: من صرف في سابق علم الله تعالى أنه مأفوك عن الحق لا يرعوي. وقال الزمخشري: ويجوز أن يكون الضمير ﴿ لما توعدون ﴾ أو للدين، أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه، فمنهم شاك، ومنهم جاحد، ثم قال: ﴿ يؤفك ﴾ عن الإقرار بأمر القيامة من هو المأفوك. ﴿ عنه ﴾ محذوف، وعن هنا للسبب، والضمير عائد على ﴿ قول مختلف ﴾ أي: يصرف بسببه من أراد الإسلام بأن يقول: هو سحر، هو كهانة، حكاه الزهراوي والزمخشري، وأورده على عادته في إبداء ما هو محكي عن غيره أنه مخترعه. وقال ابن عطية: ويحتمل أن يعود على ﴿ قول مختلف ﴾ والمعنى يصرف عنه بتوفيق الله إلى الإسلام من غلبت سعادته، وهذا على أن يكون في ﴿ قول مختلف ﴾ للكفار، إلا أن عرف الاستعمال في أفكه الصرف من خير إلى شر، فلذلك لا تجده إلا في المأفوكين انتهى. وفيه بعض تلخيص. وقرأ ابن جبير وقتادة ﴿ من أُفِك ﴾ مبنياً للفاعل، أي: من أفك الناس عنه وهم قريش. وقرأ زيد بن علي ﴿ يأفِك ﴾ من أفك، أي: يصرف الناس عنه من هو مأفوك في نفسه و﴿ عنه ﴾ أيضاً ﴿ يأفك عنه من أفك ﴾ أي: يصرف الناس عنه من هو أفاك كذاب. وقرىء ﴿ يؤفن عنه من أفن ﴾ بالنون فيهما، أي: يحرمه من حرم، من أفن الضرع إذا نهكه حلباً. ﴿ قتل الخراصون ﴾ أي: قتل الله الخراصين، وهم المقدرون ما لا يصح. ﴿ في غمرة ﴾ أي: جهل يغمرهم. ﴿ ساهون ﴾ غافلون عن ما أمروا به. ﴿ أيان يوم الدين ﴾ أي: متى وقت الجزاء، سؤال تكذيب واستهزاء، وتقدمت قراءة من كسر الهمزة في قوله ﴿ أيان مرساها ﴾ [الأعراف ١٨٧] و﴿ أيان يوم الدين ﴾ فيكون الظرف محلاً للمصدر، وانتصب ﴿ يوم هم ﴾ بمضمر تقديره: هو كائن، أي: الجزاء، قاله الزجاج. وجوزوا أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ﴿ يوم هم ﴾ والفتحة فتحة بناء لإضافته إلى غير متمكن، وهي الجملة الاسمية ويؤيده قراءة ابن أبي عبلة والزعفراني ﴿ يومُ هم ﴾ بالرفع. وإذا كان ظرفاً جاز أن تكون الحركة فيه حركة إعراب وحركة بناء، وتقدم الكلام على إضافة الظرف المستقبل إلى الجملة الاسمية في غافر في قوله تعالى ﴿ يوم هم بارزون ﴾ [غافر ١٦]. وقال بعض النحاة: ﴿ يوم هم ﴾ بدل من ﴿ يوم الدين ﴾ فيكون هنا حكاية من كلامهم على المعنى، ويقولون ذلك على سبيل الاستهزاء، ولو حكى لفظ قولهم لكان التركيب: يوم نحن على النار نفتنون. ﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ أي: يقال لهم: ذوقوا. ﴿ هذا الذي ﴾ مبتدأ وخبر. وقال الزمخشري: ويجوز أن يكون ﴿ هذا ﴾ بدلاً من ﴿ فتنتكم ﴾ أي: ذوقوا هذا العذاب انتهى. وفيه بعد، والاستقلال خير من البدل. ومعنى تفتنون تعذبون في النار. ولما ذكر حال الكفار ذكر حال المؤمنين وانتصب ﴿ آخذين ﴾ على الحال، أي: قابليه راضين به، وذلك في الجنة. وقال ابن عباس ﴿ آخذين ﴾ أي: في دنياهم ﴿ ما آتاهم ربهم ﴾ من أوامره ونواهيه وشرعه، فالحال محكية لتقدمها في الزمان على كونهم في الجنة. والظاهر أن ﴿ قليلاً ﴾ ظرف، وهو في الأصل صفة، أي: كانوا في قليل من الليل. وجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف، أي: كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً. و﴿ ما ﴾ زائدة في كلا الإعرابين وفسر أنس بن مالك ذلك فقال: كانوا يتنفلون بين المغرب والعشاء، ولا يدل لفظ الآية على الاقتصار على هذا التفسير. وقال الربيع بن خثيم: كانوا يصيبون من الليل حظاً. وقال مطرف ومجاهد وابن أبي نجيح: قل ليلة أتت عليهم هجعوها كلها. وقال الحسن: كلفوا قيام الليل، لا ينامون منه إلا قليلاً. وقال الضحاك: كانوا قليلاً، أي: في عددهم، وتم خبر كان، ثم ابتدأ ﴿ من الليل ما يهجعون ﴾ فما نافية، و﴿ قليلاً ﴾ وقف حسن، وهذا القول فيه تفكيك للكلام، وتقدم معمول العامل المنفي بما على عامله، وذلك لا يجوز عند البصريين ولو كان ظرفاً أو مجروراً، وقد أجاز ذلك بعضهم، وجاء في الشعر قوله:

إذا هي قامت حاسراً مشمعلة نخيب الفؤاد رأسها ما تقنع

تقنع ، ورأسها ، حتى : ما تقنع ، وهو متعين هنا ، وجوزوا أن تكون ما مصدرية في موضع رفع بـ (قليلاً) أي كانوا قليلاً هجوعهم ، وهو إعراب سهل حسن ، وأن تكون (ما) موصولة بمعنى الذي ، والعائد محذوف تقديره : كانوا قليلاً من الليل من الوقت الذي يهجعون فيه ، وفيه تكلف ، و (من الليل) يدل على أنهم مشغولون بالعبادة في أوقات الراحات وسكون الأنفس من مشاق النهار . (وبالأسحار هم يستغفرون) فيه ظهور على أن تهجدهم يتصل بالأسحار ، فيأخذون في الاستغفار عما يمكن أن يقع فيه تقصير ، وكأنهم أجرموا في تلك الليالي ، والأسحار مظنة الاستغفار ، وقال ابن عمر والضحاك (يستغفرون) يصلون[1] ، وقال الحسن : يدعون في طلب المغفرة[2] والظاهر أن قيام الليل ، وهذا الحق في المال هو من المندوبات ، وأكثر ما تقع زيادة الثواب بفعل المندوب . وقال القاضي منذر بن سعيد : هذا الحق هو الزكاة المفروضة ، وضعف بأن السورة مكية ، وفرض الزكاة بالمدينة ، وقيل : كان فرضاً ، ثم نسخ ، وضعف بأنه تعالى لم يشرع شيئاً بمكة قبل الهجرة من أخذ الأموال ، والسائل : الذي يستعطي ، والمحروم : لغة الممنوع من الشيء ، قال علقمة :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه أنى توجه والمحروم محروم[3]

وأما في الآية ، فالذي يحسب غنياً فيحرم الصدقة لتعففه ، وقيل : الذي تبعد عنه ممكنات الرزق بعد قربها منه ، فيناله الحرمان ، وقال ابن عباس : المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم مال[4] وقال زيد بن أسلم : هو الذي أجيحت ثمرته ، وقيل : الذي ماتت ماشيته ، وقال عمر بن عبد العزيز : هو الكلب ، وقيل : الذي لا ينمى له مال ، وقيل : المحارف الذي لا يكاد يكسب ، وقيل : غير ذلك ، وكل هذه الأقوال على سبيل التمثيل لا التعيين ، ويجمعها أنه الذي لا مال له لحرمان أصابه . (وفي الأرض آيات) تدل على الصانع وقدرته وتدبيره ، من حيث هي كالبساط لما فوقها ، وفيها الفجاج للسالك ، وهي متجزئة من سهل ووعر ، وبحر وبر ، وقطع متجاورات من صلبة ورخوة ، ومنبتة وسبخة ، وتلقح بأنواع النبات ، وفيها العيون والمعادن والدواب المنبثة في بحرها وبرها المختلفة الأشكال ، وقرأ قتادة (آية) على الإفراد (للموقنين) وهم الذين نظروا النظر الصحيح وأداهم ذلك إلى إيقان ما جاءت به الرسل ، فأيقنوا لم يدخلهم ريب . (وفي أنفسكم) حال ابتدائها وانتقالها من حال إلى حال ، وما أودع في شكل الإنسان من لطائف الحواس ، وما ترتب على العقل الذي أوتيه من بدائع العلوم وغريب الصنائع ، وغير ذلك مما لا ينحصر . (وفي السماء رزقكم) قال الضحاك ومجاهد وابن جبير : المطر والثلج لأنه سبب الأقوات ، وكل عين دائمة من الثلج ، وقال مجاهد أيضاً وواصل الأحدب : أراد القضاء والقدر ، أي : الرزق عند الله يأتي به كيف شاء (وما توعدون) الجنة ، أو هي النار ، أو أمر الساعة ، أو من خير وشر ، أو من ثواب وعقاب أقوال . المراد بها التمثيل لا التعيين ، وقرأ ابن محيصن (أرزاقكم) على الجمع ، والضمير في (إنه) عائد على القرآن ، أو إلى الدين الذي في قوله (وإن الدين لواقع) أو إلى اليوم المذكور في قوله (أيان يوم الدين) أو إلى الرزق ، أو إلى الله ، أو إلى النبي ﷺ أقوال منقولة ، والذي يظهر أنه عائد على الإخبار السابق من الله تعالى فيما تقدم في هذه السورة ، من صدق الموعود ، ووقوع الجزاء وكونهم في قول مختلف ، وقتل

---

(١) انظر البغوي ٢٣٠/٤ ، ٢٣١ والوسيط ٤٨٠ خ والطبري ١٢٣/٢٦ وابن كثير ٢٣٤/٤

(٢) انظر المصادر السابقة

(٣) تقدم

(٤) انظر البغوي ٢٣٠/٤ ، ٢٣١ والوسيط ٤٨٠ خ والطبري ١٢٦/٢٦ وابن كثير ٢٣٤/٤

العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم . وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين . فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾

(هل أتاك) تقرير لتجتمع نفس المخاطب ، كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدثه بعجيب ، فتقرره : هل سمع ذلك أم لا ؟ فكأنك تقتضي أن يقول لا ، ويستطعمك الحديث ، وفيه تفخيم للحديث وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله ـ ﷺ ـ ، وإنما عرفه بالوحي ، و (ضيف) الواحد والجماعة فيه سواء ، وبدأ بقصة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإن كانت متأخرة عن قصة عاد ، هزماً للعرب إذ كان أباهم الأعلى ، ولكون الرسل الذين وفدوا عليه جاؤوا بإهلاك قوم لوط إذ كذبوه ، ففيه وعيد للعرب وتهديد ، واتعاظ وتسلية للرسول ـ ﷺ ـ على ما يجري عليه من قومه ، ووصفهم بالمكرمين لكونهم عند الله تعالى ، كقوله تعالى في الملائكة ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ [الأنبياء ٢٦] قاله الحسن[1] ، فهي صفة سابقة فيهم ، أو لإكرام إبراهيم إياهم ، إذ خدمهم بنفسه وزوجته سارة ، وعجل لهم القِرى ، وقيل : لكونه رفع مجالسهم في صفة حادثة . وقرأ عكرمة : (المكرّمين) بالتشديد ، وأطلق عليهم (ضيف) لكونهم في صورة الضيف ، حيث أضافهم إبراهيم ، أو لحسبانه كذلك ، وتقدم ذكر عددهم في سورة هود ، و (إذ) معمولة للمكرمين إذا كانت صفة حادثة بفعل إبراهيم ، وإلا في (ضيف) من معنى الفعل ، أو بـ (حديث) أو بـ (أتاك) ، أو بإضمار اذكر ، وهذه أقوال منقولة ، وقرأ الجمهور (قالوا سلاماً) بالنصب على المصدر الساد مسد فعله المستغنى به . (قال سلام) بالرفع ، وهو مبتدأ محذوف الخبر تقديره : عليكم سلام ، قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه ، أخذاً بأدب الله تعالى ، إذ (سلاماً) دعاء ، وجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أي : أمري سلام ، و (سلام) جملة خبرية قد تحصل مضمونها ووقع . وقال ابن عطية : ويتجه أن يعمل في (سلاماً) (قالوا) على أن يجعل (سلاماً) في معنى قولاً ، ويكون المعنى حينئذ : أنهم قالوا تحية ، وقولاً معناه سلاماً ، وهذا قول مجاهد ، وقرأ ابن وثاب والنخعي وابن جبير وطلحة (قال سِلْم) بكسر السين وإسكان اللام ، والمعنى : نحن سِلْم ، أو أنتم سِلْم ، وقرئتا مرفوعين ، وقرىء (سلاماً قال سِلْماً) بنصبهما وكسر سين الثاني وسكون لامه . (قوم منكرون) قال أبو العالية : أنكر سلامهم في تلك الأرض ، وذلك الزمان ، وقيل : لأنه لم يعرفهم ولا عهد له بهم ، وقيل : كان هذا سؤالهم ، كأنه قال : أنتم قوم منكرون ، فعرفوني من أنتم و (قوم) خبر مبتدأ محذوف ، قدره : أنتم والذي يناسب حال إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه لا يخاطبهم بذلك ، إذ فيه من عدم الأنس ما لا يخفى ، بل يظهر أنه يكون التقدير : هؤلاء قوم منكرون ، وقال ذلك مع نفسه ، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه ، بحيث لا يسمع ذلك الأضياف ، (فراغ إلى أهله) أي : مضى أثناء حديثه مخفياً مضيه مستعجلاً ، (فجاء بعجل سمين) ومن أدب المضيف أن يخفي أمره ، وأن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف ، حذراً من أن يمنعه الضيف من المجيء بالضيافة ، وكونه عطف (فجاء) على (فراغ) يدل على سرعة مجيئه بالقرى ، وأنه كان معداً عنده لمن يرد عليه ، وقال في سورة هود ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ [هود ٦٩] وهذا يدل أيضاً على أنه كان العجل سابقاً شيه قبل مجيئهم ، وقال قتادة : كان غالب ماله البقر ، وفيه دليل على أنه يحضر للضيف أكثر مما يأكل ، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ مضيافاً ، وحسبك وقف للضيافة أوقافاً تمضيها الأمم على اختلاف أديانها وأجناسها . (فقربه إليهم) فيه أدب الضيف ، من تقريب القرى لمن يأكل ، وفيه العرض على الأكل ، فإن في ذلك تأنيساً للآكل ، بخلاف من قدم طعاماً ولم يحث على أكله ، وإذا الحاضر قد يتوهم أنه قدمه على سبيل التجمل ، عسى أن تمتنع الحاضر من الأكل ، وهذا موجود في طباع الناس ، حتى إن بعضهم إذا لج الحاضر وتمادى في الأكل أخذ من أحسن ما أحضر وأجزله ، فيعطيه لغلامه برسم رفعه لوقت آخر يختص هو بأكله ، وقيل : الهمزة في (ألا)

---

(١) انظر الوسيط ٤/ ح ١٨٩

للإنكار ، وكان ثمّ محذوف تقديره : فامتنعوا من الأكل ، فلما رأى عنهم ترك الأكل ، قال ﴿ ألا تأكلون ﴾ وفي الحديث : إنهم قالوا : إنا لا نأكل إلا ما أدينا ثمنه ، فقال لهم : وإن لا أبيعه لكم إلا بثمن ، قالوا وما هو ؟ قال : أن تسموا الله عزّ وجلّ عند الابتداء وتحمدوه عند الفراغ من الأكل ، فقال بعضهم لبعض : بحق اتخذه الله خليلاً . ﴿ فأوجس منهم خيفة ﴾ أي : فلما استمروا على الامتناع من الأكل أوجس منهم خيفة ، وذلك أن أكل الضيف أمنة ودليل على انبساط نفسه ، وللطعام حرمة وذمام ، والامتناع منه وحشة ، فخشي إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن امتناعهم من أكل طعامه إنما هو لشر يريدونه ، فقالوا ﴿ لا تخف ﴾ ، وعرفوه أنهم ملائكة . وعن ابن عباس : وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب . وعلمهم بما أضمر في نفسه من الخوف إنما يكون باطلاع الله ملائكته على ما في نفسه ، أو بظهور أماراته في الوجه ، فاستدلوا بذلك على الباطن ، وعن يحيى بن شداد : مسح جبريل ـ عليه السلام ـ بجناحه العجل ، فقام يدرج حتى لحق بأمه ، ﴿ بغلام عليم ﴾ أي : سيكون عليماً ، وفيه تبشير بحياته حتى يكون من العلماء ، وعن الحسن ﴿ عليم ﴾ نبي ، والجمهور على أن المبشر به هو إسحاق بن سارة ، وقال مجاهد : هو إسماعيل ، وقيل : علم أنهم ملائكة من حيث بشروه بغيب ، ووقعت البشارة بعد الثلاثة والخوف ، وكانت البشارة بذكر لأنه أسرّ للنفس وأبهج ، ووصفه بعليم لأنها الصفة التي يختص بها الإنسان الكامل إلا بالصورة الجميلة والقوة . ﴿ فأقبلت امرأته في صرة ﴾ أي : إلى بيتها ، وكانت في زاوية تنظر إليهم وتسمع كلامهم ، وقيل : ﴿ فأقبلت ﴾ أي : شرعت في الصياح ، قيل : وجدت حرارة الدم ، فلطمت وجهها من الحياء ، والصرة ، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وسفيان : الصيحة قال الشاعر :

فألحقنا بالهاديات ودونه جواحرها في صرة لم تزيل [1]

وقال قتادة وعكرمة : رنة ، وقيل : قالت : أوه ، بصيغة التعجب وقال ابن بحر : الجماعة ، أي : من النسوة تبادر وتنظر إلى الملائكة ، وقال الجوهري : الصرة الصيحة والجماعة والشدة ﴿ فصكت وجهها ﴾ أي : لطمته ، قاله ابن عباس ، وكذلك كما يفعله من يرد عليه أمر يستهوله ويتعجب منه ، وهو فعل النساء إذا تعجبن من شيء ، وقال السدي وسفيان : ضرب بكفها جبهتها ، وهذا مستعمل في الناس حتى الآن ﴿ وقالت عجوز عقيم ﴾ أي : إنها قد اجتمع فيها أنها عجوز ، وذلك مانع من الولادة ، وأنها عقيم ، وهي التي لم تلد قط ، فكيف ألد ؟ تعجبت من ذلك . ﴿ قالوا كذلك ﴾ أي : مثل القول الذي أخبرناك به ﴿ قال ربك ﴾ وهو القادر على إيجاد ما يستبعد ، وروي أن جبريل ـ عليه السلام ـ قال لها : انظري إلى سقف بيتك فنظرت ، فإذا جذوعه مورقة مثمرة ، ﴿ إنه هو الحكيم ﴾ أي : ذو الحكمة ﴿ العليم ﴾ بالمصالح . ولما علم إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنهم ملائكة ، وأنهم لا ينزلون إلا بإذن الله تعالى رسلاً ﴿ قال فما خطبكم ﴾ ﴿ إلى قوم مجرمين ﴾ أي : ذوي جرائم ، وهي كبار المعاصي من كفر وغيره . ﴿ لنرسل عليهم ﴾ أي : لنهلكهم بها ﴿ حجارة من طين ﴾ وهو السجيل ، طين يطبخ كما يطبخ الآجر حتى يصير في صلابة الحجارة . ﴿ مسومة ﴾ معلمة على كل واحد منها اسم صاحبه ، وقيل : معلمة أنها من حجارة العذاب ، وقيل : معلمة أنها ليست من حجارة الدنيا ﴿ للمسرفين ﴾ وهم المجاوزون الحد في الكفر . ﴿ فأخرجنا من كان فيها ﴾ أي القرية التي حل العذاب بأهلها ، ﴿ غير بيت ﴾ هو بيت لوط ـ عليه السلام ـ وهو لوط وابنتاه فقط ، وقيل : ثلاثة عشر نفساً ، وقال الرماني : الآية تدل على أن الإيمان هو الإسلام ، وكذا قال الزمخشري وهما معتزليان . ﴿ وتركنا فيها ﴾ أي : في القرية ﴿ آية ﴾ علامة ، قال ابن جريج : حجراً كبيراً جداً منضوداً ، وقيل : ماء أسود منتن ، ويجوز أن يكون ﴿ فيها ﴾ عائداً على الإهلاكة التي أهلكوها ، فإنها من أعاجيب الإهلاك

---

(١) البيت لامرئ القيس ، انظر ديوانه ٦٢ ، القرطبي ٤٧/١٧ .

بجعل أعاليها أسافلها وإمطار الحجارة. والظاهر أن قوله (وفي موسى) معطوف على (وتركنا فيها) أي : في قصة موسى. وقال الزمخشري وابن عطية (وفي موسى) يكون عطفاً على (وفي الأرض آيات للموقنين) (وفي موسى) وهذا بعيد جداً، ينزه القرآن عن مثله. وقال الزمخشري : أيضاً. أو على قوله (وتركنا فيها آية) على معنى وجعلنا في موسى آية كقوله :

علفتها تبناً وماءً بارداً

انتهى. ولا حاجة إلى إضمار : وتركنا، لأنه قد أمكن أن يكون العامل في المجرور : وتركنا. (فتولى بركنه) أي : ازور وأعرض، كما قال (ونأى بجانبه)، وقيل : بقوته وسلطانه، وقال ابن زيد (بركنه) بمجموعه، وقال قتادة : بقومه (وقال ساحر أو مجنون) ظن أحدهما، أو تعمد الكذب، وقد علم رسول الله ـ ﷺ ـ حقاً، وقال أبو عبيدة : أو بمعنى الواو، ويدل على ذلك أنه قد قالهما ﴿ قال إن هذا لساحر عليم ﴾ [الشعراء ٣٤] وقال (إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) الحجر ٦ واستشهد أبو عبيدة بقول جرير :

أثعلبة الفوارس أو رياحاً عدلت بهم طهية والخشابا

ولا ضرورة تدعو إلى جعل (أو) بمعنى الواو، إذ يكون قالهما وأبهم على السامع، فأو للإبهام (وهو مليم) أي : آت من المعاصي ما يلام عليه (العقيم) التي لا خير فيها من إنشاء مطر، أو إلقاح شجر، وفي الصحيح « نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور » فقول : من ذهب إلى أنها الصبا، أو الجنوب، أو النكباء، وهي ريح بين ريحين نكبت عن سمت القبلة، فسميت نكباء ليس بصحيح، لمعارضته للنص الثابت عن الرسول ـ ﷺ ـ أنها الدبور (ما تذر من شيء أتت عليه) وهو عام مخصوص، كقوله (تدمر كل شيء بأمر ربها) [الأحقاف ٢٥] أي : مما أراد تدميره وإهلاكه من ناس أو ديار أو شجر أو نبات، لأنها لم يرد الله بها إهلاك الجبال والآكام والصخور، ولا العالم الذي لم يكن من قوم عاد (إلا جعلته كالرميم) جملة حالية و (الرميم) تقدم تفسيره في يس، وهنا قال السدي : التراب، وقتادة : الهشيم، ومجاهد : البالي، وقطرب : الرماد، وابن عيسى : المنسحق الذي لا يرم، جعل الهمزة في أرم للسلب، وروي أن الريح كانت تمر بالناس فيهم الرجل من قوم عاد، فتنزعه من بينهم وتهلكه، (تمتعوا حتى حين) قال الحسن : هذا كان حين بعث إليهم صالح، أمروا بالإيمان بما جاء به والتمتع إلى أن تأتي آجالهم، ثم إنهم عتوا بعد ذلك، ولذلك جاء العطف بالفاء المقتضية تأخر العتو عن ما أمروا به، فهو مطابق لفظاً ووجوداً، وقال الفراء : هذا الأمر بالتمتع كان بعد عقر الناقة، والحين : ثلاثة أيام التي أوعدوا في تمامها بالعذاب، فالعتو كان قد تقدم قبل أن يقال لهم (تمتعوا) ولا ضرورة تدعو إلى قول الفراء، إذ هو غير مرتب في الوجود، وقرأ الجمهور (الصاعقة) وعمر وعثمان رضي الله عنهما والكسائي (الصَّعْقَة) وهي الصيحة هنا، وقرأ الحسن (الصاقعة) وزيد بن علي كقراءة الكسائي (وهم ينظرون) بعيونهم قاله الطبري، وكانت نهاراً، وقال مجاهد (وهم ينظرون) ينتظرون ذلك في تلك الأيام الثلاثة التي أعلموه فيها، ورأوا علاماته في تلونهم، وانتظار العذاب أشد من العذاب، (فما استطاعوا من قيام) لقوله ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ [العنكبوت ٣٧] ونفي الاستطاعة أبلغ من نفي القدرة (وما كانوا منتصرين) أبلغ من نفي الانتصار، أي : فما قدروا على الهرب، ولا كانوا ممن ينتصر لنفسه، فيدفع ما حل به، وقيل : (من قيام) هو من قولهم : ما يقوم به إذا عجز عن دفعه، فليس المعنى انتصاب القامة. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وقوم بالجر عطفاً على ما تقدم، أي : وفي قوم نوح وهي قراءة عبد الله، وقرأ باقي السبعة وأبو عمرو في رواية بالنصب، قيل : عطفاً على الضمير في (فأخذتهم)، وقيل : عطفاً على (فنبذناهم) لأن معنى كل منهما : فأهلكناهم، وقيل : منصوب بإضمار فعل تقديره. وأهلكنا قوم نوح، لدلالة معنى الكلام عليه.

سورة الطور مكية وهي تسع وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

والطور ۝ وكتاب مسطور ۝ في رق منشور ۝ والبيت المعمور ۝ والسقف المرفوع ۝ والبحر
المسجور ۝ إن عذاب ربك لواقع ۝ ما له من دافع ۝ يوم تمور السماء مورا ۝ وتسير الجبال سيرا
۝ فويل يومئذ للمكذبين ۝ الذين هم في خوض يلعبون ۝ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ۝ هذه
النار التي كنتم بها تكذبون ۝ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ۝ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا
سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ۝ إن المتقين في جنات ونعيم ۝ فاكهين بما آتاهم ربهم
ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ۝ كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون ۝ متكئين على سرر مصفوفة
وزوجناهم بحور عين ۝ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم
من شيء كل امرئ بما كسب رهين ۝ وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ۝ يتنازعون فيها كأسا لا لغو
فيها ولا تأثيم ۝ ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ۝ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون
۝ قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ۝ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ۝ إنا كنا
من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ۝ فذكر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون ۝ أم يقولون
شاعر نتربص به ريب المنون ۝ قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ۝ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم
قوم طاغون ۝ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ۝ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ۝ أم خلقوا
من غير شيء أم هم الخالقون ۝ أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون ۝ أم عندهم خزائن
ربك أم هم المصيطرون ۝ أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ۝ أم له البنات ولكم
البنون ۝ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ۝ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ۝ أم يريدون كيدا فالذين
كفروا هم المكيدون ۝ أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون ۝ وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا

فالإضافة إلى الرب وإضافته لكاف الخطاب أمان له ـ ﷺ ـ وأن العذاب لواقع هو في كلمة (لواقع) على الشدة، وهو أدل عليها من لكائن. ألا ترى إلى قوله ﴿إذا وقعت الواقعة﴾ [الواقعة: ١] وقوله ﴿وهو واقع بهم﴾ [الشورى: ٢٢] كأنه مهيأ في مكان مرتفع، فيقع على من حل به. وعن جبير بن مطعم: قدمت المدينة لأسأل رسول الله ـ ﷺ ـ في أسارى بدر، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب (والطور) إلى (إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع) فكأنما صدع قلبي، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب. وقرأ زيد بن علي (واقع) بغير لام. قال قتادة: يريد عذاب الآخرة للكفار، أي: لواقع بالكفار. ومن غريب ما يحكى: أن شخصاً رأى في النوم في كفه مكتوباً خمس واوات، فعبر له بخير، فسأل ابن سيرين فقال: تهيأ لما لا يسر، فقال له: من أين أخذت هذا؟ فقال: من قوله تعالى (والطور) إلى (إن عذاب ربك لواقع) فما مضى يومان أو ثلاثة حتى أحيط بذلك الشخص. وانتصب (يوم) بـ(دافع) قاله الحوفي. وقال مكي: لا يعمل فيه (واقع) ولم يذكر دليل المنع. وقيل: هو منصوب بقوله (لواقع) وينبغي أن يكون (ما له من دافع) على هذا جملة اعتراض بين العامل والمعمول. قال ابن عباس (تمور) تضطرب. وقال أيضاً: تشقق. وقال الضحاك: يموج بعضها في بعض. وقال مجاهد: تدور وتسير الجبال سيراً، هذا في أول الأمر، ثم تنسف حتى تصير آخراً كالعهن المنفوش. (فويل) عطف على جملة تتضمن ربط المعنى وتأكيده. والخوض: التخبط في الباطل، وغلب استعماله في الاندفاع في الباطل. (يوم يدعون) وذلك أن خزنة جهنم يغلون أيدي الكفار إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم، وزخاً في أقفيتهم. وقرأ علي وأبو رجاء والسلمي وزيد بن علي (يدعون) بسكون الدال وفتح العين من الدعاء، أي: يقال لهم: هلموا إلى النار، وادخلوها دعاً مدعوعين. يقال لهم (هذه النار) لما قيل لهم ذلك وقفوا بعد ذلك على الجهتين اللتين يمكن دخول الشك في أنها النار، وهي إما أن يكون سحر يلبس ذات المرئي، وإما أن يكون في نظر الناظر اختلال، فأمرهم بصليها على جهة التقريع، ثم قيل لهم على قطع رجائهم (فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم) عذابكم حتم، فسواء صبركم وجزعكم، لا بد من جزاء أعمالكم. قاله ابن عطية. وقال الزمخشري: (أفسحر هذا) يعني: كنتم تقولون للوحي: هذا سحر (أفسحر هذا) يريد: أهذا المصداق أيضاً سحر، ودخلت الفاء لهذا المعنى (أم أنتم لا تبصرون) كما كنتم لا تبصرون في الدنيا يعني: أم أنتم عمي عن المخبر عنه، كما كنتم عمياً عن الخبر، وهذا تقريع وتهكم (فإن قلت:) لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله (إنما تجزون ما كنتم تعملون)؟ (قلت:) لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع لنفعه في العاقبة، بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير، فأما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء، ولا عاقبة له ولا منفعة، فلا مزية له على الجزع انتهى. و(سحر) خبر مقدم و(هذا) مبتدأ، و(سواء) مبتدأ والخبر محذوف، أي: الصبر والجزع. وقال أبو البقاء: خبر مبتدأ محذوف، أي: صبركم وتركه سواء. ولما ذكر حال الكفار ذكر حال المؤمنين، ليقع الترهيب والترغيب، وهو إخبار عن ما يؤول إليه حال المؤمنين، أخبروا بذلك. ويجوز أن يكون من جملة القول للكفار، إذ ذلك زيادة في غمهم وتنكيد لهم، والأول أظهر. وقرأ الجمهور (فاكهين) نصباً على الحال، والخبر (في جنات ونعيم) وقرأ خالد بالرفع على أنه خبر (إن) و(في جنات) متعلق به. ومن أجاز تعداد الخبر أجاز أن يكونا خبرين. (ووقاهم) معطوف على (في جنات)، إذ المعنى استقروا في جنات، أو على (آتاهم) و(ما) مصدرية، أي: فاكهين بإيتائهم ربهم النعيم ووقايتهم عذاب الجحيم. ويجوز أن تكون الواو في (ووقاهم) واو الحال، ومن شرط قد في الماضي، قال: هي هنا مضمرة، أي: وقد وقاهم. وقرأ أبو حيوة (ووقّاهم) بتشديد القاف. (كلوا واشربوا) على إضمار القول، أي: يقال لهم (هنيئاً). قال الزمخشري: أكلاً وشرباً (هنيئاً) أو طعاماً وشراباً (هنيئاً) وهو الذي لا تنغيص فيه. ويجوز أن يكون مثله في قوله:

المحسن في المسيء ، ولفظة (ألحقنا) تقتضي أن للملحق بعض التقصير في الأعمال ، وقرأ أبو عمرو (وأتبعناهم) وباقي السبعة (واتبعتهم) وأبو عمرو و (ذرياتهم) جمعاً نصباً ، وابن عامر جمعاً رفعاً ، وباقي السبعة مفرداً وابن جبير (وأتبعناهم ذريتهم) بالمدّ والهمز . وقرأ الجمهور (ألتناهم) بفتح اللام من ألات ، والحسن وابن كثير بكسرها وابن هرمز (آلتناهم) بالمد من آلت على وزن أفعل ، وابن مسعود وأبيّ (لِتْناهُم) من لات ، وهي قراءة طلحة والأعمش ، ورويت عن شبل وابن كثير ، وعن طلحة والأعمش أيضاً (لتناهم) بفتح اللام ، قال سهل : لا يجوز فتح اللام من غير ألف بحال ، وأنكر (آلتناهم) بالمد وقال لا يروى عن أحد ، ولا يدل عليها تفسير ولا عربية ، وليس كما ذكر ، بل قد نقل أهل طلحة (آلت) بالمد ، كما قرأ ابن هرمز ، وقرىء (وما ولتناهم) ذكره ابن هارون . قال ابن خالويه : فيكون هذا الحرف من لات يليت ، وولت يلت وألت يألت ، وألات يليت ، ويؤلت ، وكلها بمعنى نقص ، ويقال ، ألت بمعنى غلظ ، وقام رجل إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ فوعظه فقال رجل : لا تألت أمير المؤمنين ، أي : لا تغلظ عليه ، والظاهر أن الضمير في (ألتناهم) عائد على المؤمنين ، والمعنى . أنه تعالى يلحق المقصر بالمحسن ، ولا ينقص المحسن من أجره شيئاً ، وهذا تأويل ابن عباس وابن جبير والجمهور ، وقال أبو زيد : الضمير عائد على الأبناء ، (من عملهم) أي : الحسن والقبيح ، ويحسن هذا الاحتمال قوله (كل امرىء بما كسب رهين) أي : مرتهن ، وقوله (وأمددناهم) أي : يسرنا لهم شيئاً فشيئاً حتى يكثر ولا ينقطع (يتنازعون فيها) أي : يتعاطون ، قال الأخطل :

نازعته طيِّبَ الرَّاحِ الشَّمولِ وَقَدْ   صاحَ الدَّجاجُ وحانَتْ وَقْعَةُ السَّاري[1]

أو (يتنازعون) يتجاذبون تجاذب ملاعبة ، إذ أهل الدنيا لهم في ذلك لذة ، وكذلك في الجنة ، وقرأ الجمهور (لا لغو فيها ولا تأثيم) برفعهما وابن كثير وأبو عمرو بفتحهما ، واللغو السقط من الكلام ، كما يجري بين شراب الخمر في الدنيا ، والتأثيم : الإثم الذي يلحق شارب الخمر في الدنيا ، (غلمان لهم) أي : مماليك ، (مكنون) أي : في الصدف لم تنله الأيدي قاله ابن جبير ، وهو إذ ذاك رطب ، فهو أحسن وأصفى ، ويجوز أن يراد بـ (مكنون) مخزون ، لأنه لا يخزن إلا الغالي الثمن ، والظاهر أن التساؤل هو في الجنة ، إذ هذه كلها ، معاطيف بعضها على بعض ، أي : يتساءلون عن أحوالهم ، وما نال كل واحد منهم ، ويدل عليه (فمنّ الله علينا) أي : بهذا النعيم الذي نحن فيه ، وقال ابن عباس : تساؤلهم إذا بعثوا في النفخة الثانية حكاه الطبري عنه ، (مشفقين) رقيقي القلوب خاشعين لله ، وقرأ أبو حيوة (ووقّانا) بتشديد القاف و (السموم) هنا النار ، وقال الحسن : اسم من أسماء جهنم ، (من قبل) أي : من قبل لقاء الله والمصير إليه ، (ندعوه) نعبده ونسأله الوقاية من عذابه (إنه هو البر) المحسن (الرحيم) الكثير الرحمة إذا عبد أثاب ، وإذا سئل أجاب ، أو (ندعوه) من الدعاء ، وقرأ الحسن وأبو جعفر ونافع والكسائي (أنه) بفتح الهمزة ، أي : لأنه وباقي السبعة (إنه) بكسر الهمزة ، وهي قراءة الأعرج وجماعة ، وفيها معنى التعليل ، قوله عزّ وجل :

﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ، قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ، أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ، أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ، أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن

---

(١) البيت من البسيط ، انظر جمهرة أشعار العرب (٧٦٥) وروايته هكذا :

سازعته طيباً راح مشمول وقد   صاح الدجاج وحانت وقعة الساري

انظر القرطبي ٦٦/١٧ وروح المعاني ٣٤/٢٧ .

رحمة ربك أم هم المسيطرون ، أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ، أم له البنات ولكم البنون ، أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ، أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون ، وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم ، فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ، يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون ، وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون ، واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ لما تقدم إقسام الله تعالى على وقوع العذاب ، وذكر أشياء من أحوال المعذبين والناجين ، أمره بالتذكير إنذاراً للكافر ، وتبشيراً للمؤمن ودعاء إلى الله تعالى بنشر رسالته ، ثم نفى عنه ما كان الكفار ينسبونه إليه من الكهانة والجنون إذ كانا طريقين إلى الإخبار ببعض المغيبات ، وكان للجن بهما ملابسة للإنس ، وممن كان ينسب إلى الكهانة شيبة بن ربيعة ، وممن كان ينسب إلى الجنون عقبة بن أبي معيط . وقال الزمخشري ﴿ فذكر ﴾ فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم ، ولا يثبطنك قولهم : كاهن أو مجنون ، ولا تبال به ، فإنه قول باطل متناقض ، فإن الكاهن يحتاج في كهانته إلى فطنة ودقة نظر ، والمجنون مغطى على عقله ، وما أنت بحمد الله تعالى وإنعامه عليك بصدق النبوة ورجاحة العقل أحد هذين انتهى . وقال الحوفي ﴿ بنعمة ربك ﴾ متعلق بما دل عليه الكلام ، وهو اعتراض بين اسم ما وخبرها ، والتقدير : ما أنت في حال إذكارك بنعمة ربك بكاهن . قال أبو البقاء الباء في موضع الحال ، والعامل فيه ﴿ بكاهن ﴾ أو ﴿ مجنون ﴾ والتقدير : ما أنت كاهناً ولا مجنوناً ملتبساً بنعمة ربك انتهى . وتكون حالاً لازمة لا منتقلة ، لأنه عليه الصلاة والسلام ما زال ملتبساً بنعمة ربه . وقيل ﴿ بنعمة ربك ﴾ مقسم بها ، كأنه قيل : ونعمة ربك ما أنت كاهن ولا مجنون ، فتوسط القسم بين الاسم والخبر ، كما تقول : ما زيد والله بقائم ، ولما نفى عنه الكهانة والجنون اللذين كان بعض الكفار ينسبونهما إليه ذكر نوعاً آخر مما كانوا يقولونه . روي أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة ، وكثرت آراؤهم فيه ﷺ حتى قال قائل منهم ـ وهم بنو عبد الدار ـ قاله الضحاك ﴿ تربصوا به ريب المنون ﴾ فإنه شاعر سيهلك ، كما هلك زهير والنابغة والأعشى . فافترقوا على هذه المقالة ، فنزلت الآية في ذلك ، وقول من قال ذلك هو من نقص الفطرة بحيث لا يدرك الشعر ، وهو الكلام الموزون على طريقة معروفة من النثر الذي ليس هو على ذلك المنهاج ، ولا شك أن بعضهم كان يدرك ذلك ، إذ كان منهم شعراء ولكنهم تمالؤوا مع أولئك الناقصي الفطرة على قولهم هو شاعر جحداً لآيات الله بعد استيقانها . وقرأ زيد بن علي ﴿ يُتَرَبَّصُ ﴾ بالياء مبنياً للمفعول ﴿ به ريبُ ﴾ مرفوع و ﴿ ريب المنون ﴾ حوادث الدهر ، فإنه لا يدوم على حال . قال الشاعر :

تَرَبَّصْ بِهَا رَيْبَ المَنُونِ لَعَلَّهَا ... تُطَلَّقُ يَوْماً أَوْ يَمُوتُ حَلِيلُهَا[1]

وقال الهذلي :

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ ... وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ[2]

﴿ قل تربصوا ﴾ هو أمر تهديد من المتربصين هلاككم ، كما تتربصون هلاكي . ﴿ أم تأمرهم أحلامهم ﴾ عقولهم بهذا أي : بقولهم : كاهن وشاعر ومجنون ، وهو قول متناقض ، وكانت قريش تدعى أهل الأحلام والنهى ، وقيل لعمرو بن العاصي : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله تعالى بالعقل ؟ فقال : تلك عقول كادها الله ، أي : لم يصحبها التوفيق . ﴿ أم تأمرهم ﴾ قيل : أم بمعنى الهمزة أي : أتأمرهم وقدرها مجاهد ـ بل ، والصحيح أنها تتقدر ببل والهمزة ﴿ أم

---

(١) تقدم .

(٢) تقدم .

سورة النجم مكية وهي اثنتان وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ
شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾
فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾
عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ
مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾
تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾
۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي
مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ
أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ
وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ
يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا
سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ

وقال آخر

لصاة أجلاد الصفا بلائم

الأجنة جمع جنين ، وهو الولد في البطن ، سمي بذلك لاستتاره والاجتنان الاستتار . أكدى : أصله من الكدية ، يقال لمن حفر بئراً ثم وصل إلى حجر لا يتهيأ له فيه حفر : قد أكدى ، ثم استعملته العرب لمن أعطى ولم يتمم ، ولمن طلب شيئاً فلم يبلغ آخره . قال الحطيئة :

فأعطى قليلاً ثم أكدى عطاءه ... ومن يبذل المعروف في الناس يحمد

وقال الكسائي وغيره : أكدى الحافر إذا بلغ كدية أو جبلاً ، ولا يمكنه أن يحفر ، وحفر فأكدى إذا وصل إلى الصلب ، ويقال : كديت أصابعه إذا كلت من الحفر ، وكدا النبت : قل ريعه ، وقال أبو زيد : أكدى الرجل قل خيره . أقنى : قال الجوهري : قني يقنى قنى ، كغني يغنى غنى ، ويتعدى بتغيير الحركة ، فتقول : قنيت المال أي كسبته نحو شترت عين الرجل وشترها الله ، ثم تعدى بعد ذلك بالهمزة أو التضعيف ، فتقول : أقناه الله مالاً ، وقناه الله مالاً ، وقال الشاعر :

كم من غني أصاب الدهر ثروته ... ومن فقير تقنى بعد إقلال[1]

أي : تقنى المال ، ويقال : أقناه الله مالاً وأرضاه من القنية ، قال أبو زيد : تقول العرب لمن أعطي مائة من المعز : أعطي القنى ، ومن أعطي مائة من الضأن : أعطي الغنى ، ومن أعطي مائة من الإبل : أعطي المنى . الشعرى : هو الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء ، وطلوعه في شدة الحر ، ويقال له : مرزم الجوزاء ، وهما الشعريان ، العبور التي في الجوزاء ، والشعرى الغميصاء التي في الذراع ، وتزعم العرب أنهما أختا سهيل ، قال الزمخشري : وتسمى كلب الجبار ، وهما شعريان : الغميصاء والعبور ، ومن كذب العرب : أن سهيلاً والشعرى كانا زوجين ، فانحدر سهيل وصار يمانياً ، فاتبعته الشعرى العبور فعبرت المجرة ، فسميت العبور ، وأقامت الغميصاء لأنها أخفى من الأخرى . أزف : قرب ، قال كعب بن زهير :

بان الشباب وهذا الشيب قد أزفا ... ولا أرى لشباب ذاهب خلفا[2]

وقال النابغة الذبياني :

أزف الترحل غير أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكأن قد[3]

ويروى : أفد الترحل . سمد : لهى ولعب قال الشاعر :

ألا أيها الإنسان إنك سامد ... كأنك لا تفنى ولا أنت هالك[4]

---

(١) البيت من البسيط لم نهتد لقائله ، ذكره السمين الحلبي في الدر المصون .

(٢) انظر ديوانه ٤٠ وروايته فيه :

بان الشباب وأمسى الشيب قد أزفا ... ولا أرى لشباب ذاهب خلفا

(٣) تقدم .

(٤) البيت من الطويل ذكره السمين الحلبي في الدر المصون .

وقال آخر:

قِيلَ قُمْ فانْظُرْ إليهم ... ثُمَّ دَعْ عنكَ السُّمودا(١)

وقال أبو عبيدة: السمود الغناء بلغة حمير، يقولون: يا جارية اسمدي لنا، أي: غني لنا.

﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى ، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، أم للإنسان ما تمنى ، فلله الآخرة والأولى ﴾

هذه السورة مكية، ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة، لأنه قال: ﴿ أم يقولون تقوله ﴾ أي: اختلق القرآن ونسبوه إلى الشعر، وقالوا هو كاهن ومجنون، فأقسم تعالى أنه ﷺ ما ضل، وأن ما يأتي به هو وحي من الله. وهي أول سورة أعلن رسول الله ﷺ بها في الحرم والمشركون يستمعون، وفيها سجدة وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس، غير أبي لهب فإنه رفع حفنة من تراب إلى جبهته، وقال: يكفي هذا، وسبب نزولها قول المشركين إن محمداً ﷺ يختلق القرآن. وأقسم تعالى بالنجم، فقال ابن عباس ومجاهد والفراء والقاضي منذر بن سعيد: هو الجملة من القرآن إذا نزلت، وقد نزل منجماً في عشرين سنة. وقال الحسن ومعمر بن المثنى: هو هنا اسم جنس، والمراد النجوم إذا هوت، أي: غربت. قال الشاعر:

فباتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ في مُسْتَحِيرِهِ ... سَرِيعٌ بأيدي الآكِلِينَ جُمُودُها(٢)

أي: تعد النجوم. وقال الحسن وأبو حمزة الثمالي: النجوم إذا انتثرت في القيامة. وقال ابن عباس أيضاً: هو انقضاض في إثر الشياطين. وهذا تساعده اللغة. وقال الأخفش: والنجم إذا طلع، وهويه سقوطه على الأرض. وقال أبو جعفر الصادق: هو النبي ﷺ، وهويه نزوله ليلة المعراج. وقيل: النجم معين، فقال مجاهد وسفيان: هو الثريا وهويها سقوطها مع الفجر، وهو علم عليها بالغلبة، ولا تقول العرب النجم مطلقاً إلا للثريا، ومنه قول العرب:

طَلَعَ النَّجْمُ عِشاءً ... فابتغى الرَّاعي كِساءً
طَلَعَ النَّجْمُ غُدَيَّهْ ... فابتغى الرَّاعي شُكَيَّهْ(٣)

وقيل: الشعرى وإليها الإشارة بقوله: ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾، والكهان والمنجمون يتكلمون على المغيبات عند طلوعها. وقيل: الزهرة وكانت تعبد. وقيل: ﴿ والنجم ﴾ هو الصحابة(٤). وقيل: العلماء مفرد أريد به الجمع. وهو في

---

(١) انظر لسان العرب (سمد).

(٢) البيت من الطويل للراعي النميري، انظر ديوانه ٩٣؛ الكشاف ٤/٢٧٧؛ البحر المحيط ... روح المعاني ٢٧/٤٤؛ القرطبي ١٧/٨٤.

(٣) البيت الأول تقوله العرب عند الشتاء والثاني عند الصيف، انظر الكشاف ٤/٤١٦.

(٤) انظر البسيط ٩٦ ح والتحرير ٢٠/٤.

لئن سخرت أخي جسني ونكرمني ... فقد مرّت أخا ما كان يخرمكا[1]

وعدّي بعلى على معنى التضمين، وكانت قريش حين أخبرهم ـ ﷺ ـ بأمره في الإسراء كذبوا واستخفوا حتى وصف لهم بيت المقدس وأمر عيرهم، وغير ذلك مما هو مستقصى في حديث الإسراء. وقرأ عبد الله فيما حكى ابن خالويه، والشعبي فيما ذكر شعبة بضم التاء وسكون الميم مضارع أمريت، قال أبو حاتم: وهو غلط. ﴿ولقد رآه﴾ الضمير المنصوب عائد على جبريل ـ عليه السلام ـ قال ابن مسعود وعائشة ومجاهد والربيع ﴿نزلة أخرى﴾ أي: مرة أخرى، أي نزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ مرة أخرى في صورة نفسه فرآه عليها، وذلك ليلة المعراج، والأخرى تقتضي نزلة سابقة، وهي المفهومة من قوله ﴿ثم دنا﴾ جبريل ﴿فتدلى﴾ وهو الهبوط والنزول من علو. وقال ابن عباس وكعب الأحبار: الضمير عائد على الله على ما سبق من قولهما إن رسول الله ـ ﷺ ـ رأى ربه مرتين. وانتصب ﴿نزلة﴾ قال الزمخشري: نصب الظرف الذي هو «مرة» لأن الفعلة اسم للمرة من الفعل. وقال الحوفي وابن عطية: مصدر في موضع الحال. وقال أبو البقاء: مصدر أي: مرة أخرى، أو رؤية أخرى ﴿عند سدرة المنتهى﴾ قيل: هي شجرة نبق في السماء السابعة[2]. وقيل: في السماء السادسة، ثمرها كقلال هجر، وورقها كآذان الفيلة تنبع من أصلها الأنهار التي ذكرها الله تعالى في كتابه، يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها[3]. والمنتهى موضع الانتهاء؛ لأنه ينتهي إليها علم كل عالم، ولا يعلم ما وراءها صعداً إلا الله تعالى عز وجل، أو ينتهي إليها كل من مات على الإيمان من كل جيل، أو ينتهي إليها ما يهبط من أمر الله تعالى ولا تتجاوزها ملائكة العلو، وما يصعد من الأرض، ولا تتجاوزها ملائكة السفل، أو تنتهي إليها أرواح الشهداء، أو لأنها في منتهى الجنة وآخرها، أو تنتهي إليها الملائكة والأنبياء ويقفون عندها، أو ينتهي إليها علم الأنبياء ويعزب علمهم عن ما وراءها، أو ينتهي إليها الأعمال، أو لانتهاء من رفع إليها في الكرامة أقوال تسعة. ﴿عندها جنة المأوى﴾ أي: عند السدرة، قيل: ويحتمل عند النزلة. قال الحسن: هي الجنة التي وعدها الله المؤمنين. وقال ابن عباس بخلاف عنه، وقتادة: هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء، وليست بالتي وعد المؤمن جنة النعيم. وقيل: جنة مأوى الملائكة. وقرأ علي وأبو الدرداء وأبو هريرة وابن الزبير وأنس وزر ومحمد بن كعب وقتادة ﴿جنّه﴾ بالهاء ضميراً، وجن فعل ماض، والهاء ضمير النبي ـ ﷺ ـ أي: عندها ستره إيواء الله تعالى وجميل صنعه. وقيل: المعنى ضمه المبيت والليل. وقيل: جنه بظلاله ودخل فيه. وردت عائشة وصحابة معها هذه القراءة وقالوا: أجن الله من قرأها، وإذا كانت قراءة قرأها أكابر من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فليس لأحد ردها. وقيل: إن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ أجازتها. وقراءة الجمهور ﴿جنة المأوى﴾ كقوله في آية أخرى ﴿فلهم جنات المأوى نزلا﴾ [السجدة ١٩]. ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ فيه إبهام الموصول وصلته تعظيم وتكثير للغاشي الذي يغشاها، إذ ذاك أشياء لا يعلم وصفها إلا الله تعالى. وقيل: يغشاها الجم الغفير من الملائكة، يعبدون الله عندها. وقيل: ﴿ما يغشى﴾ من قدرة الله تعالى وأنواع الصفات التي يخترعها له. وقال ابن مسعود وأنس ومسروق ومجاهد وإبراهيم: ذلك جراد من ذهب كان يغشاها. وقال مجاهد: ذلك تبدل أغصانها دراً وياقوتاً. وروي في الحديث: «رأيت على كل ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبح الله تعالى». وأيضاً يغشاها رفرف أخضر، وأيضاً تغشاها ألوان لا أدري ما هي. وعن أبي هريرة: يغشاها نور الخلائق. وعن الحسن: غشيها نور رب العزة.

---

(١) البيت من الخروج لربيعة بن مقروم، انظر الكشاف ٤/٢٠، وروح المعاني ٢٧/٤٩، ويروى (عجبت) بدل (سخرت) يقول لصاحبه، الكتاب ٤/٢٠، ٤٢٦.

(٢) انظر البغوي ٤/٢٤٨ والوسيط ٤/١٩٩ والرازي ٢٨/٢٤.

(٣) المصادر السابقة.

إذ كان من خلقه عليه الصلاة والسلام الحرص على إيمانهم، وفي ذلك وعيد للكفار ووعد للمؤمنين. ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض﴾ أخبر أنه من في العالم العلوي والعالم السفلي ملكه تعالى يتصرف فيهما بما شاء، واللام في ﴿ليجزي﴾ متعلقة بما دل عليه معنى الملك، أي: يضل ويهدي ليجزي. وقيل: بقوله ﴿بمن ضل﴾ و﴿بمن اهتدى﴾، واللام للصيرورة، والمعنى: إن عاقبة أمرهم جميعاً للجزاء بما عملوا أي: بعقاب ما عملوا. و﴿الحسنى﴾ الجنة، وقيل: التقدير بالأعمال الحسنى، وحين ذكر جزاء المسيء قال ﴿بما عملوا﴾ وحين ذكر جزاء المحسن أتى بالصفة التي تقتضي التفضيل وتدل على الكرم، والزيادة للمحسن، كقوله تعالى ﴿ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾ [العنكبوت ٧] والأحسن ثابت الحسنى. وقرأ زيد بن علي ﴿لنجزي﴾ ﴿ونجزي﴾ بالنون فيهما. وتقدم الكلام في الكبائر في قوله تعالى ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ [النساء ٣١] في سورة النساء. والذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر. ﴿والفواحش﴾ معطوف على كبائر، وهي ما فحش من الكبائر أفردها بالذكر لتدل على عظم مرتكبها. وقال الزمخشري: والكبائر الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة انتهى. وهو على طريقة الاعتزال. ﴿إلا اللمم﴾ استثناء منقطع، لأنه لم يدخل تحت ما قبله وهو صغائر الذنوب. أو صفة أي كبائر الإثم غير اللمم، كقوله ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله﴾ [الأنبياء ٢٢] أي: غير الله ﴿لفسدتا﴾، وقيل: يصح أن يكون استثناء متصلاً، وهذا يظهر عند تفسير اللمم ما هو. وقد اختلفوا فيه اختلافاً فقال الخدري: هو النظرة والغمزة والقبلة. وقال السدي: الخطرة من النفس[1]. وقال أبو هريرة وابن عباس والشعبي والكلبي: كل ذنب لم يذكر الله تعالى عليه حداً ولا عذاباً[2]. وقال ابن عباس أيضاً وابن زيد: ما ألموا به من الشرك والمعاصي في الجاهلية قبل الإسلام[3]. وعن ابن عباس وزيد بن ثابت وزيد بن أسلم وابنه: أن سبب الآية قول الكفار للمسلمين: قد كنتم بالأمس تعملون أعمالنا فنزلت[4]. وهي مثل قوله ﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾. وقيل: نزلت في نبهان التمار وحديثه مشهور. وقال ابن عباس وغيره: العلقة والسقطة دون دوام ثم يتوب منه. وقال الحسن: الزنا والسرقة والخمر ثم لا يعود. وقال ابن المسيب: ما خطر على القلب. وقال نفطويه: ما ليس بمعتاد. وقال الرماني: الهم بالذنب، وحديث النفس دون أن يواقع. وقيل: نظرة الفجأة. ﴿إن ربك واسع المغفرة﴾ حيث يكفر الصغائر باجتناب الكبائر، وقال الزمخشري: والكبائر بالتوبة انتهى. وفيه نزعة الاعتزال. ﴿هو أعلم بكم﴾ قيل نزلت في قوم من اليهود عظموا أنفسهم، وإذا مات طفل لهم قالوا: هذا صديق عند الله. وقيل: في قوم من المؤمنين فخروا بأعمالهم. والظاهر أنه خطاب عام، و﴿أعلم﴾ على بابها من التفضيل. وقال مكي: بمعنى عالم بكم، ولا ضرورة إلى إخراجها عن أصل موضوعها. كأن مكياً راعى عمل ﴿أعلم﴾ في الظرف الذي هو ﴿إذ أنشأكم من الأرض﴾ والظاهر أن المراد ﴿بأنشأكم﴾: أنشأ أصلكم وهو آدم. ويجوز أن يراد من نفسه الأغذية التي منشؤها من الأرض ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ أي: لا تنسبوها إلى زكاء الأعمال والطهارة عن المعاصي، ولا تثنوا عليها واهضموها، فقد علم الله منكم الزكي والتقي قبل إخراجكم من صلب آدم وقبل إخراجكم من بطون أمهاتكم. وكثيراً ما نرى من المتصلحين إذا حدثوا: كان وردنا البارحة كذا، وفاتنا من وردنا البارحة، أو فاتنا وردنا، يوهمون الناس أنهم يقومون بالليل، وترى لبعضهم في جبينه سواداً يوهم أنه من كثرة السجود، ولبعضهم استحضار النية حالة الإحرام فيحرك يديه مراراً ويصفق حتى يزعج من بجانبه، وكأنه يخطف شيئاً بيديه وقت التحريكة الأخيرة يوهم أنه يحافظ على تحقيق النية، وبعضهم يقول في

(١) انظر الوسيط (٤/ ٢٠١) والقرطبي ١٧ ـ ٢٩ والطبري ٤/ ١٥١ ـ ١٥٣
(٢) المصادر السابقة
(٣) المصادر السابقة
(٤) المصادر السابقة

بالإسماع ، ثم أكدى بالانقطاع . وقال الضحاك : أعطى قليلاً من ماله ثم منع . وقال مقاتل : أعطى قليلاً من الخير بلسانه ثم قطع . ﴿ أعنده علم الغيب ﴾ أي : أعلم من الغيب أن من تحمل ذنوب آخر فإن المتحمل عنه ينتفع بذلك ، فهو لهذا الذي علمه يرى الحق وله فيه بصيرة ، أم هو جاهل ؟ . وقال الزمخشري ﴿ فهو يرى ﴾ فهو يعلم أن ما قاله أخوه من احتمال أوزاره حق . وقيل : يعلم حاله في الآخرة . وقال الزجاج : يرى رفع مأثمه في الآخرة . وقيل ﴿ فهو يرى ﴾ أن ما سمعه من القرآن باطل . وقال الكلبي : أنزل عليه قرآن فرأى ما صنعه حق . وقيل ﴿ فهو يرى ﴾ أي : الإجزاء . واحتمل ﴿ يرى ﴾ أن تكون بصرية أي : فهو يبصر ما خفي عن غيره مما هو غيب . واحتمل أن يكون بمعنى يعلم أي : فهو يعلم الغيب مثل الشهادة . ﴿ أم لم ينبأ ﴾ أي : بل ألم يخبر بما في صحف موسى ، يعني التوراة ، وإبراهيم أي : وفي صحف إبراهيم التي أنزلت عليه . وخص هذين النبيين عليهما أفضل الصلاة والسلام ، قيل : لأنه ما بين نوح وإبراهيم كانوا يأخذون الرجل بأبيه وابنه وعمه وخاله ، والزوج بامرأته ، والعبد بسيده ، فأول من خالفهم إبراهيم ، ومن شريعة إبراهيم إلى شريعة موسى ـ عليهما السلام ـ كانوا لا يأخذون الرجل بجريرة غيره ﴿ الذي وفى ﴾ ، قرأ الجمهور ﴿ وفّى ﴾ بتشديد الفاء ، وقرأ أبو أمامة الباهلي وسعيد بن جبير وأبو مالك الغفاري وابن السميفع وزيد بن علي بتخفيفها ، ولم يذكر متعلق ﴿ وفّى ﴾ ليتناول كل ما يصلح أن يكون متعلقاً له ، كتبليغ الرسالة والاستقلال بأعباء الرسالة ، والصبر على ذبح ولده ، وعلى فراق إسماعيل وأمه ، وعلى نار نمروذ وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه ، وكان يمشي كل يوم فرسخاً يرتاد ضيفاً ، فإن وافقه أكرمه ، وإلا نوى الصوم . وعن الحسن : ما أمره الله بشيء إلا وفّى به . وعن عطاء بن السائب : عهد أن لا يسأل مخلوقاً . وقال ابن عباس والربيع ﴿ وفّى ﴾ طاعة الله في أمر ذبح ابنه . وقال الحسن وقتادة ﴿ وفّى ﴾ بتبليغ الرسالة ، والمجاهدة في ذات الله . وقال عكرمة ﴿ وفّى ﴾ هذه العشر الآيات ﴿ أن لا تزر ﴾ فما بعدها . وقال ابن عباس أيضاً وقتادة ﴿ وفّى ﴾ ما افترض عليه من الطاعة على وجهها ، وكملت له شعب الإيمان والإسلام ، فأعطاه الله براءته من النار . وقال ابن عباس أيضاً ﴿ وفّى ﴾ شرائع الإسلام ثلاثين سهماً ، يعني عشرة في براءة ﴿ التائبون ﴾ [براءة ١١٢] الخ ، وعشرة في ﴿ قد أفلح ﴾ [المؤمنون ١] وعشرة في الأحزاب ﴿ إن المسلمين ﴾ [الأحزاب ٣٥] . وقال أبو أمامة ورفعه إلى النبي ـ ﷺ ـ ﴿ وفّى ﴾ أربع صلوات في كل يوم . وقال أبو بكر الوراق : قام بشرط ما ادعى ، وذلك أن الله تعالى ﴿ قال له أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ فطالبه بصحة دعواه ، فابتلاه في ماله وولده ونفسه فوجده وافياً انتهى .

وللمفسرين أقوال غير هذه ، وينبغي أن تكون هذه الأقوال أمثلة لما وفّى ، لا على سبيل التعيين . و﴿ أن ﴾ هي المخففة من الثقيلة ، وهي بدل من ﴿ ما ﴾ في قوله ﴿ بما في صحف ﴾ أو في موضع رفع ، كأن قائلاً قال : ما في صحفهما ؟ فقيل : لا تزر وازرة وزر أخرى . وتقدم شرح ﴿ لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام ١٦٤] ، ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ الظاهر أن الإنسان يشمل المؤمن والكافر ، وأن الحصر في السعي فليس له سعي غيره . وقال عكرمة : كان هذا الحكم في قوم إبراهيم وموسى ، وأما هذه الأمة فلها سعي غيرها ، يدل عليه حديث سعد بن عبادة : هل لأمي إن تطوعت عنها ؟ قال : نعم . وقال الربيع : الإنسان هنا الكافر ، وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره . وسأل والي خراسان عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن هذه الآية مع قوله ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ [البقرة ٢٦١] فقال : ليس له بالعدل إلا ما سعى ، وله بالفضل ما شاء الله ، فقبل عبد الله رأس الحسين . وما روي عن ابن عباس أنها منسوخة لا يصح لأنه خبر لم يتضمن تكليفاً ، وعند الجمهور أنها محكمة . قال ابن عطية : والتحرير عندي في هذه الآية أن ملاك المعنى هو اللام من قوله ﴿ للإنسان ﴾ فإذا حققت الذي حق الإنسان أن يقول فيه لي كذا لم تجده إلا سعيه ، وما تم بعد من رحمة بشفاعة ، أو رعاية أب صالح ، أو ابن صالح ، أو تضعيف حسنات ، أو تغمد بفضل ورحمة دون هذا كله فليس هو للإنسان ، ولا يسعه أن يقول : لي كذا وكذا إلا على تجوز ، وإلحاق بما هو حقيقة . واحتج بهذه الآية من يرى أنه لا يعمل أحد عن أحد بعد موته

الثاني ، كقوله عزوجل : ﴿ أنا أحيي وأميت ﴾ احتيج إلى تأكيد في أن ذلك إنما هو لله لا غيره ، فهو الذي يضحك ويبكي ، وهو المميت المحيي ، والمغني والمقني حقيقة ، وإن ادعى ذلك أحد فلا حقيقة له ، وأما ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ فلأنها قد عبدت من دون الله تعالى ، فنص على أنه تعالى هو ربها وموجدها ، ولما كان خلق الزوجين والإنشاء الآخر وإهلاك عاد ومن ذكر لا يمكن أن يدعي ذلك أحد لم يحتج إلى تأكيد ولا تخصيص أنه تعالى هو فاعل ذلك ، وعاد الأولى : هم قوم هود ، وعاد الأخرى : إرم ، وقيل ﴿ الأولى ﴾ القدماء ، لأنهم أول الأمم هلاكاً بعد قوم نوح - عليه السلام - ، وقيل : ﴿ الأولى ﴾ المتقدمون في الدنيا الأشراف قاله الزمخشري . وقال ابن زيد والجمهور : لأنها في وجه الدهر وقديمه ، فهي أولى بالإضافة إلى الأمم المتأخرة ، وقال الطبري : وصفت بالأولى لأن عاداً الأخرى قبيلة كانت بمكة مع العماليق ، وهم بنو لقيم بن هزال ، وقال المبرد : عاد الأخيرة هي ثمود ، والدليل عليه قول زهير :

كأحمر عادٍ ثم تُرضع فتفطم

ذكره الزهراوي ، وقيل عاد الأخيرة الجبارون وقيل قيل الأولى لأنهم كانوا من قبل ثمود وقيل ثمود من قبل عاد .
وقيل : عاد الأولى هو عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح ، وعاد الثانية ، من ولد عاد الأولى ، وقرأ الجمهور ﴿ عاداً الأولى ﴾ بتنوين ﴿ عاداً ﴾ وكسره لالتقائه ساكناً مع سكون لام ﴿ الأولى ﴾ وتحقيق الهمزة بعد اللام . وقرأ قوم كذلك غير أنهم نقلوا حركة الهمزة إلى اللام وحذفوا الهمزة . وقرأ نافع وأبو عمرو بإدغام التنوين في اللام المنقول إليها حركة الهمزة المحذوفة ، و ﴿ عاد ﴾ هذه القراءة للمازني والمبرد ، وقالت العرب في الابتداء بعد النقل : الحمر ولحمر ، فهذه القراءة جاءت على لحمر ، فلا عيب فيها ، وهمز قالون عين ﴿ الأولى ﴾ بدل الواو الساكنة ، ولما لم يكن بين الضمة والواو حائل تخيل أن الضمة على الواو ، فهمزها كما قال :

أحب المؤقدين إلي مؤسى

وكما قرأ بعضهم ﴿ على سؤقه ﴾ وهو توجيه شذوذ ، وفي حرف أبي عاد غير مصروف جعله اسم قبيلة فمنعه الصرف للتأنيث والعلمية ، والدليل على التأنيث وصفه بـ ﴿ الأولى ﴾ ، وقرأ الجمهور ﴿ وثموداً ﴾ مصروفاً ، وقرأه غير مصروف الحسن وعاصم وعصمة ، ﴿ فما أبقى ﴾ الظاهر أن متعلق ﴿ أبقى ﴾ يرجع إلى ﴿ عاد ﴾ و ﴿ ثمود ﴾ معاً أي : فما أبقى عليهم ، أي : أخذهم بذنوبهم ، وقيل : ﴿ فما أبقى ﴾ أي . فما أبقى منهم عيناً تطرف ، وقال ذلك الحجاج بن يوسف حين قيل له : إن ثقيفاً من نسل ثمود ، فقال : قال الله تعالى ﴿ وثموداً فما أبقى ﴾ ، وهؤلاء يقولون : بقيت منهم بقية ، والظاهر القول الأول ، لأن ثمود كان قد آمن منهم جماعة بصالح - عليه السلام - فما أهلكهم الله مع الذين كفروا به . ﴿ وقوم نوح من قبل ﴾ أي : من قبل عاد وثمود ، وكانوا أول أمة كذبت من أهل الأرض ونوح - عليه السلام - أول الرسل ، والظاهر أن الضمير في ﴿ إنهم ﴾ عائد على قوم نوح ، وجعلهم ﴿ أظلم وأطغى ﴾ لأنهم كانوا في غاية العتو والإيذاء لنوح - عليه السلام - يضربونه حتى لا يكاد يتحرك ، ولا يتأثرون لشيء مما يدعوهم إليه ، وقال قتادة : دعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كلما هلك قرن نشأ قرن ، حتى كان الرجل يأخذ بيد ابنه يمشي به إليه يحذره منه ، ويقول : يا بني إن أبي مشى بي إلى هذا وأنا مثلك يومئذ فإياك أن تصدقه ، فيموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على وصية أبيه ، وقيل : الضمير في ﴿ إنهم ﴾ عائد على من تقدم ﴿ عاد ﴾ و ﴿ ثمود ﴾ ﴿ وقوم نوح ﴾ أي : كانوا أكفر من قريش ، وأطغى ، ففي ذلك تسلية لرسول الله - ﷺ - و ﴿ هم ﴾ ، يجوز أن يكون تأكيداً للضمير المنصوب ، ويجوز أن يكون فصلاً ، لأنه واقع بين معرفة وأفعل التفضيل ، وحذف المفضول بعد الواقع خبراً لكان ، لأنه جار مجرى خبر المبتدأ ، وحذفه فصيح فيه ،

منهم عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ ، ووردت به أحاديث صحاح[1] ، وليس يراها مالك هنا . وعن زيد بن ثابت : أنه قرأها عند رسول الله ـ ﷺ ـ فلم يسجد ، والله تعالى أعلم

---

(١) ذكر السيوطي في الدر حديث سجوده ـ ﷺ ـ ٦/١٢٢ وعزاه للبخاري ، والترمذي وهو موجود عن ابن عباس موقوف في البخاري ٨/٤٨٠ [٤٨٦٢]

سورة القمر مكية وهي خمس وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

اقتربت الساعة وانشق القمر (١) وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر (٢) وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر (٣) ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر (٤) حكمة بالغة فما تغن النذر (٥) فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر (٦) خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر (٧) مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر (٨) كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر (٩) فدعا ربه أني مغلوب فانتصر (١٠) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (١١) وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (١٢) وحملناه على ذات ألواح ودسر (١٣) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر (١٤) ولقد تركناها آية فهل من مدكر (١٥) فكيف كان عذابي ونذر (١٦) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (١٧) كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر (١٨) إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر (١٩) تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر (٢٠) فكيف كان عذابي ونذر (٢١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٢٢) كذبت ثمود بالنذر (٢٣) فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر (٢٤) أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر (٢٥) سيعلمون غدا من الكذاب الأشر (٢٦) إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر (٢٧) ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر (٢٨) فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (٢٩) فكيف كان عذابي ونذر (٣٠) إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر (٣١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٣٢) كذبت قوم لوط بالنذر (٣٣) إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر (٣٤) نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر (٣٥) ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر (٣٦) ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر (٣٧) ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر (٣٨) فذوقوا عذابي ونذر (٣٩)

وجه، يحكون لأمر معتاد، وقيل: (مستمر) يشبه بعضه بعضاً[1]، أي: استمرت أفعاله على هذا الوجه من التخييلات، وقيل: (مستمر) مارّ من الأرض إلى السماء، أي: بلغ من سحره أنه سحر القمر. (وكذبوا) أي: بالآيات وبما جاءهم، والمعنى: هذا سحر مستمر، سحرنا محمد. (واتبعوا أهواءهم) أي: شهوات أنفسهم وما يهوون. (وكل أمر مستقرٌ) بكسر القاف وضم الراء مبتدأ وخبر، قال مقاتل: أي: له غاية ينتهي إليها. وقال الكلبي: (مستقرٌ) له حقيقة، ما كان في الدنيا فسيظهر، وما كان في الآخرة فسيعرف[2]، وقال قتادة: معناه أن الخير مستقر بأهل الخير، والشر بأهل الشر[3]، وقيل: يستقر الحق ظاهراً ثابتاً، والباطل زاهقاً ذاهباً[4]، وقيل: كل أمر من أمرهم وأمره يستقر على خذلان أو نصرة في الدنيا وسعادة أو شقاوة في الآخرة[5]. وقرأ شيبة (مستقَر) بفتح القاف، ورويت عن نافع، قال أبو حاتم: لا وجه لفتح القاف انتهى. وتخرجت على حذف مضاف، أي: ذو استقرار، وزمان استقرار. وقرأ أبو جعفر ويزيد بن علي (مستقرٍ) بكسر القاف والراء صفة لأمر، وخرجه الزمخشري على أن يكون (وكل) عطفاً على (الساعة) أي: اقتربت الساعة واقترب كل أمر مستقر يستقر ويتبين حاله، وهذا بعيد لطول الفصل بجمل ثلاث، وبعيد أن يوجد مثل هذا التركيب في كلام العرب، نحو: أكلت خبزاً وضربت زيداً، وإن يجيء زيد أكرمه ورحل إلى بني فلان ولحماً، فيكون (ولحماً) عطفاً على خبزاً، بل لا يوجد مثله في كلام العرب. وخرجه صاحب اللوامح على أنه خبر لكل، فهو مرفوع في الأصل لكنه جر للمجاورة، وهذا ليس بجيد، لأن الخفض على الجوار في غاية الشذوذ، ولأنه لم يعهد في خبر المبتدأ، إنما عهد في الصفة على اختلاف النحاة في وجوده. والأولى أن يكون خبره مضمراً لدلالة المعنى عليه، والتقدير: وكل أمر مستقر بالغوه، لأن قبله (وكذبوا واتبعوا أهواءهم) أي: وكل أمر مستقر لهم في القدر من خير أو شر بالغوه هم، وقيل: الخبر (حكمة بالغة) أي: وكل أمر مستقر حكمة بالغة ويكون (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر) اعتراضاً بين المبتدأ وخبره. (ولقد جاءهم من الأنباء) أي: من الأخبار الواردة في القرآن في إهلاك من كذب من الأمم، وما يؤولون إليه في الآخرة (ما فيه مزدجر) أي: ازدجار ورادع لهم عن ما هم فيه، أو موضع ازدجار وارتداع، أي: ذلك موضع ازدجار أو مظنة له. وقرئ (مُزَّجر) بقلب تاء الافتعال زاياً وإدغام الزاي فيها. وقرأ زيد بن علي: (مُزْجِر) اسم فاعل من أزجر، أي: صار ذا زجر، كأعشب أي: صار ذا عشب. وقرأ الجمهور (حكمةٌ بالغةٌ) برفعهما. وجوزوا أن تكون (حكمة) بدلاً من (مزدجر) أو من (ما) أو خبر مبتدأ محذوف، وتقدم قول من جعله خبراً عن (كل) في قراءة من قرأ (مستقرٍ) بالجر. وقرأ اليماني (حكمةً بالغةً) بالنصب فيهما حالاً من (ما) سواء كانت (ما) موصولة أم موصوفة تخصصت بالصفة، ووصفت الحكمة بـ (بالغة) لأنها تبلغ غيرها. (فما تغن النذر) مع هؤلاء الكفرة، ثم سلى رسوله ـ ﷺ ـ فقال: (فتول عنهم) أي: أعرض عنهم، فإن الإنذار لا يجدي فيهم، ثم ذكر شيئاً من أحوال الآخرة، وما يؤولون إليه، وذلك متعلق باقتراب الساعة، فقال: (يوم يدع الداعي) والناصب لـ (يوم) اذكر مضمراً، قاله الرماني أو (يخرجون)، وقال الحسن: المعنى: فتول عنهم إلى يوم، وهذا ضعيف من جهة اللفظ، ومن جهة المعنى، أما من جهة اللفظ فحذف إلى، وأما من جهة المعنى فإن توليه عنهم ليس مغيا بـ (يوم يدع الداع). وجوزوا أن يكون منصوباً بقوله (فما تغني النذر) ويكون (فتول عنهم) اعتراضاً، وأن يكون منصوباً بقوله (يقول الكافرون).

---

(1) المصادر السابقة.

(2) انظر الوسيط ٤/٢٠٩ والبغوي ٤/٢٥٨ ومعاني القرآن للفراء ٣/١٠٤.

(3) المصادر السابقة.

(4) المصادر السابقة.

(5) المصادر السابقة.

تنازع أهل السنة والقدرية الاستدلال بهذه الآية ، فأهل السنة يقولون : كل شيء فهو مخلوق لله تعالى بقدرة ، دليله قراءة النصب ، لأنه لا يفسر في مثل هذا التركيب إلا ما يصح أن يكون خبراً لو وقع الأول على الابتداء ، وقالت القدرية القراءة برفع (كل) ، و (خلقناه) في موضع الصفة لـ (كل) أي : إن أمرنا أو شأننا كل شيء خلقناه ، فهو بقدر : أو بمقدار على حد ما في هيئته وزمنه ، وغير ذلك . وقال الزمخشري (كلَّ شيء) منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر ، وقرئ (كلُّ شيء) بالرفع ، والقدر والقدْر : هو التقدير ، وقرئ بهما ، أي : خلقنا كل شيء مقدراً ، محكماً مرتباً على حسب ما اقتضته الحكمة ، أو مقدراً مكتوباً في اللوح معلوماً قبل كونه قد علمنا حاله وزمانه انتهى . قيل : والقدر : فيه وجوه ، أحدها : أن يكون بمعنى المقدار في ذاته وصفاته ، والثاني : التقدير قال تعالى ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾ [المرسلات ٢٣] وقال الشاعر :

وما قدر الرحمن ما هو قادر[1]

أي : ما هو مقدور ، والثالث : القدر الذي يقال مع القضاء ، يقال : كان ذلك بقضاء الله وقدره ، والمعنى : إن القضاء ما في العلم والقدر ما في الإرادة ، فالمعنى في الآية (خلقناه بقدر) أي : بقدرة مع إرادة انتهى . (وما أمرنا إلا واحدة) أي : إلا كلمة واحدة ، وهي كن . (كلمح بالبصر) تشبيه لأعجل ما يحس ، وفي التشبيه أمر الله تعالى أوحى من ذلك ، والمعنى : أنه إذا أراد تكوين شيء لم يتأخر عن إرادته ، (ولقد أهلكنا أشياعكم) أي : الفرق المتشابهة في مذهب ونحو . (وكل شيء فعلوه) أي : فعلته الأمم المكذبة محفوظ عليهم إلى يوم القيامة . قاله ابن عباس والضحاك وقتادة وابن زيد ، ومعنى (في الزبر) : في دواوين الحفظة ، (وكل صغير وكبير) من الأعمال ، ومن كل ما هو كائن (مستطر) أي : مسطور في اللوح يقال : سطرت واستطرت بمعنى . وقرأ الأعمش وعمران بن حدير وعصمة عن أبي بكر بشد راء (مستطرّ) ، قال صاحب اللوامح : يجوز أن يكون من طر النبت والشارب إذا ظهر وثبت ، بمعنى : كل شيء ظاهر في اللوح مثبت فيه ، ويجوز أن يكون من الاستطار لكن شدد الراء للوقف على لغة من يقول : جعفرّ ونفعلّ بالتشديد وقفاً انتهى . ووزنه على التوجيه الأول استفعل ، وعلى الثاني افتعل . وقرأ الجمهور (ونهر) على الإفراد ، والهاء مفتوحة ، والأعرج ومجاهد وحميد وأبو السمال والفياض بن غزوان بسكونها ، والمراد به الجنس إن أريد به الأنهار ، أو يكون معنى (ونهر) وسعة في الأرزاق والمنازل ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

ملكتُ بها كفي فأنهرتُ فتقها ... يرى قائمٌ من دونها ما وراءها[2]

أي : أوسعت فتقها ، وقرأ زهير الفرقبي والأعمش وأبو نهيك وأبو مجلز واليماني بضم النون والهاء جمع نهر كرهن ورهن ، أو (نُهْر) كأسد وأُسْد ، وهو مناسب لجمع جنات ، وقيل (نهر) جمع نهار ، ولا ليل في الجنة وهو بعيد ، (في مقعد صدق) يجوز أن يكون ضد الكذب ، أي : في المقعد الذي صدقوا في الخبر به ، وأن يكون من قولك : رجل صدق ، أي : خير وجود وصلاح ، وقرأ الجمهور (في مقعد) على الإفراد يراد به اسم الجنس ، وعثمان البتي (في مقاعد) على الجمع ، و (عند) تدل على قرب المكانة من الله تعالى ، والله تعالى أعلم .

---

(١) يكون (خلقناه) صفة (لكل مخلوق) و (بقدر) خبر عن الخبر ، فيكون المعنى : كل من المخلوقات من أفعالنا فهو بقدر ، وليس هو المعنى المقصود ، انظر تفصيل ذلك في شرح الكتاب للرضي ٣/ ١٧١ ـ ١٧٥ وتصريح ١/ ٣٠٢ .

(٢) صدر بيت من الطويل لإياس بن مالك انظر ديوان الحماسة ١/ ١٤١ اللسان (قدر) .

(٣) تقدم .

سورة الرحمن مكية وهي ثمان وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝
وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا
الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ
الْأَكْمَامِ ۝ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن
صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ رَبُّ
الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ وَلَهُ الْجَوَارِ
الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ
وَالْإِكْرَامِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ
اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ۝ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فَإِذَا انشَقَّتِ
السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ
۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ۝ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ۝ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ

ولم يذكر المعلم ذكره بعد في قوله ﴿خلق الإنسان﴾ ليعلم أنه المقصود بالتعليم. ولما كان خلقه من أجل الدين وتعليمه القرآن كان كالسبب في خلقه، تقدّم على خلقه. ثم ذكر تعالى الوصف الذي يتميز به الإنسان من المنطق المفصح عن الضمير، والذي به يتمكن قبول التعليم، وهو البيان، ألا ترى أن الأخرس لا يمكن أن يتعلم شيئاً مما يدرك بالنطق. و﴿علّم﴾ متعدية إلى اثنين، حذف أولهما لدلالة المعنى عليه وهو جبريل، أو محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، أو الإنسان أقوال. وزعم أبو عبد الله الرازي أن المحذوف هو المفعول الثاني. قال: فإن قيل: لم ترك المفعول الثاني. وأجاب بأن النعمة في التعليم، لا في تعليم شخص دون شخص، كما يقال: فلان يطعم الطعام إشارة إلى كرمه، ولا يبين من يطعمه انتهى. والمفعول الأول هو الذي كان فاعلاً قبل النقل بالتضعيف، أو الهمزة في ﴿علم﴾ والأظهر. وأبعد من ذهب إلى أن معنى ﴿علم القرآن﴾: جعله علامة وآية يعتبر بها. وهذه جمل مترادفة أخبار كلها عن الرحمن، جعلت مستقلة لم تعطف، إذ هي تعداد لنعمه تعالى، كما تقول: زيد أحسن إليك، خوّلك، أشار بذكرك. و﴿الإنسان﴾ اسم جنس. وقال قتادة: ﴿الإنسان﴾ آدم ـ عليه السلام ـ[١]. وقال ابن كيسان: محمد ـ ﷺ ـ. وقال ابن زيد والجمهور: البيان المنطق والفهم والإبانة، وهو الذي فضل به الإنسان على سائر الحيوان[٢]. وقال قتادة: هو بيان الحلال والشرائع، وهذا جزء من البيان العام. وقال محمد بن كعب: ما يقول، وما يقال له. وقال الضحاك: الخير والشر. وقال ابن جريج: الهدى. وقال يمان: الكتابة. ومن قال: الإنسان آدم، فالبيان أسماء كل شيء. أو التكلم بلغات كثيرة أفصحها العربية. أو الكلام بعد أن خلقه. أو علم الدنيا والآخرة. أو الاسم الأعظم الذي علم به كل شيء. أقوال، آخرها منسوب لجعفر الصادق.

ولما ذكر تعالى ما أنعم به على الإنسان من تعليمه البيان، ذكر ما امتن به من وجود الشمس والقمر، وما فيهما من المنافع العظيمة للإنسان، إذ هما يجريان على حساب معلوم، وتقدير سوي في بروجهما ومنازلهما. والحسبان: مصدر كالغفران، وهو بمعنى الحساب، قاله قتادة. وقال الضحاك وأبو عبيدة: جمع حساب، كشهب وشهبان. قال ابن عباس وأبو مالك وقتادة: لهما في طلوعهما وغروبهما، وقطعهما البروج، وغير ذلك حسبانات شتى. وقال ابن زيد: لولا الليل والنهار لم يدر أحد كيف يحسب شيئاً، يريد من مقادير الزمان. وقال مجاهد: الحسبان الفلك المستدير، شبهه بحسبان الرحى، وهو العود المستدير الذي باستدارته تستدير المطحنة. وارتفع الشمس على الابتداء، وخبره ﴿بحسبان﴾ فإما على حذف، أي: جري الشمس والقمر كائن ﴿بحسبان﴾، وقيل: الخبر محذوف، أي: يجريان بحسبان. و﴿بحسبان﴾ متعلق بيجريان. وعلى قول مجاهد تكون الباء في ﴿بحسبان﴾ ظرفية، لأن الحسبان عنده الفلك. ولما ذكر تعالى ما أنعم به من منفعة الشمس والقمر، وكان ذلك من الآيات العلوية، ذكر في مقابلتهما من الآثار السفلية النجم، والشجر، إذ كانا رزقاً للإنسان. وأخبر أنهما جاريان على ما أراد الله بهما من تسخيرهما وكينونتهما على ما اقتضته حكمته تعالى. ولما ذكر ما به حياة الأرواح، من تعليم القرآن، ذكر ما به حياة الأشباح، من النبات الذي له ساق، وكان تقديم النجم وهو ما لا ساق له، لأنه أصل القوت، والذي له ساق ثمره يتفكه به غالباً. والظاهر أن النجم هو النبات الذي لا ساق له، ويدل عليه اقترانه بالشجر. وقال مجاهد وقتادة والحسن: النجم اسم الجنس، من نجوم السماء. وسجودهما، قال مجاهد والحسن: ذلك في النجم بالغروب، ونحوه، وفي الشجر بالظل واستدارته. وقال مجاهد أيضاً: والسجود تجوز، وهو عبارة عن الخضوع والتذلل. والجمل الأولى فيها ضمير يربطها بالمبتدأ، وأما في هاتين الجملتين فاكتفى بالوصل المعنوي عن الوصل اللفظي، إذ معلوم أن الحسبان هو حسبانه، وأن السجود له لا لغيره، فكأنه قيل: بحسبانه ويسجدان له. ولما أوردت هذه الجمل

---

(١) انظر الوسيط ١٠٨ ح والقرطبي ١٧/١٥٢.

(٢) انظر الوسيط ١٠٨ خ والقرطبي ١٧/١٥٣.

مورد تعديد النعم رد الكلام إلى العطف في وصل ما يناسب وصله ، والتناسب الذي بين هاتين الجملتين ظاهر ، لأن الشمس والقمر علويان ، والنجم والشجر سفليان . ﴿ والسماء رفعها ﴾ أي : خلقها مرفوعة ، حيث جعلها مصدر قضاياه ، ومسكن ملائكته الذين ينزلون بالوحي على أنبيائه ، ونبه بذلك على عظم شأنه وملكه . وقرأ الجمهور ﴿ والسماء ﴾ بالنصب على الاشتغال ، روعي مشاكلة الجملة التي تليه ، وهي ﴿ يسجدان ﴾ ، وقرأ أبو السمال : ﴿ والسماءُ ﴾ بالرفع ، راعى مشاكلة الجملة الابتدائية ، وقرأ الجمهور ﴿ ووضع الميزان ﴾ فعلاً ماضياً ناصباً ﴿ الميزانَ ﴾ أي أقره وأثبته ، وقرأ إبراهيم ﴿ ووَضْعِ الميزان ﴾ بالخفض وإسكان الضاد ، والظاهر أنه كل ما يوزن به الأشياء وتعرف مقاديرها ، وإن اختلفت الآلات ، قال معناه ابن عباس والحسن وقتادة ، جعله تعالى حاكماً بالسوية في الأخذ والإعطاء ، وقال مجاهد والطبري والأكثرون : الميزان العدل ، وتكون الآلات من بعض ما يندرج في العدل ، بدأ أولاً بالعلم ، فذكر ما هو أشرف أنواع العلوم ، وهو القرآن ثم ذكر ما به التعديل في الأمور وهو الميزان ، كقوله ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ﴾ [الحديد ٢٥] ليعلموا الكتاب ويفعلوا ما يأمرهم به الكتاب ، ﴿ ألا تطغوا في الميزان ﴾ أي : لأن لا تطغوا ، ﴿ تطغوا ﴾ منصوب بـ ﴿ أن ﴾ . وقال الزمخشري : أو هي ﴿ أن ﴾ المفسرة ، وقال ابن عطية : ويحتمل أن تكون ﴿ أن ﴾ مفسرة ، فيكون ﴿ تطغوا ﴾ جزماً بالنهي ، انتهى . ولا يجوز ما قالاه ، من أن ﴿ أنْ ﴾ مفسرة ، لأنه فات أحد شرطيها ، وهو أن يكون ما قبلها جملة فيها معنى القول ، ووضع الميزان جملة ليس فيها معنى القول ، والطغيان في الميزان هو أن يكون بالتعمد ، وأما ما لا يقدر عليه من التحرير بالميزان فمعفو عنه ، ولما كانت التسوية مطلوبة جداً أمر الله تعالى فقال ﴿ وأقيموا الوزن ﴾ ، وقرأ الجمهور ﴿ ولا تُخْسِرُوا ﴾ من أخسر أي : أفسد ونقص ، كقوله ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ [المطففين ٣] أي : ينقصون ، وبلال بن أبي بردة وزيد بن علي ﴿ تَخْسَرُوا ﴾ بفتح التاء يقال : خسر يخسر ، وأخسر يخسر ، بمعنى واحد ، كجبر وأجبر ، وحكى ابن جني وصاحب اللوامح عن بلال فتح التاء والسين مضارع خسر بكسر السين ، وخرجها الزمخشري على أن يكون التقدير ﴿ في الميزان ﴾ فحذف الجار ونصب ، ولا يحتاج إلى هذا التخريج ، ألا ترى أن خسر جاء متعدياً ، كقوله تعالى ﴿ خسروا أنفسهم ﴾ [الزمر ١٥] ، و ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ [الحج ١١] ، وقرىء أيضاً ﴿ تَخْسُروا ﴾ بفتح التاء وضم السين ، لما منع من الزيادة وهي الطغيان نهى عن الخسران الذي هو نقصان ، وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به ، وتقوية للأمر باستعماله ، والحث عليه ، ولما ذكر السماء ذكر مقابلتها ، فقال ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ أي : خفضها مدحوة على الماء لينتفع بها ، وقرأ الجمهور ﴿ والأرضَ ﴾ بالنصب ، وأبو السمال بالرفع ، والأنام ، قال ابن عباس : بنو آدم فقط ، وقال أيضاً هو وقتادة وابن زيد والشعبي : الحيوان كله ، وقال الحسن : الثقلان الجن والإنس ، ﴿ فيها فاكهة ﴾ ضروب مما يتفكه به ، وبدأ بقوله ﴿ فاكهة ﴾ إذ هو من باب الابتداء بالأدنى والترقي إلى الأعلى ، ونكر لفظها ، لأن الانتفاع بها دون الانتفاع بما يذكر بعدها ، ثم ثنى بالنخل فذكر الأصل ، ولم يذكر ثمرها وهو التمر لكثرة الانتفاع بها ، من ليف وسعف وجريد وجذوع وجمار وثمر ، ثم أتى ثالثاً بالحب الذي هو قوام عيش الإنسان في أكثر الأقاليم ، وهو البر والشعير وكل ما له سنبل ، وأوراق متشعبة على ساقه ، ووصفه بقوله ﴿ ذو العصف ﴾ تنبيهاً على إنعامه عليهم بما يقوتهم من الحب ، ويقوت بهائمهم من ورقه الذي هو التبن ، وبدأ بالفاكهة ، وختم بالمشموم ، وبينهما النخل والحب فيحصل ما به يتفكه ، وما به يتقوت وما به تقع اللذاذة من الرائحة الطيبة ، وذكر النخل باسمها والفاكهة دون شجرها لعظم النعمة بالنخل ، من جهات متعددة ، وشجرة الفاكهة بالنسبة إلى ثمرتها حقيرة ، فنص على ما يعظم به الانتفاع من شجرة النخل ، ومن الفاكهة دون شجرتها ، وقرأ الجمهور ﴿ والحبُّ ذو العصف والريحانُ ﴾ برفع الثلاثة عطفاً على المرفوع قبله ، وابن عامر وأبو حيوة وابن أبي عبلة بنصب الثلاثة ، أي : وخلق الحب ، وجوزوا أن يكون ﴿ والريحانَ ﴾ حالة الرفع ، وحالة النصب على

حذف مضاف ، أي : وذو الريحان حذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه ، وحمزة والكسائي والأصمعي عن أبي عمرو والريحان بالجر ، والمعنى : والحب ذو العصف الذي هو علف البهائم ، والريحان الذي هو مطعم الناس ، ويصح دخول المشموم في قراءة الجر . وريحان من ذوات الواو ، وأجاز أبو علي أن يكون اسماً ، ووضع موضع المصدر ، وأن يكون مصدراً على وزن فعلان كالليان ، وأبدلت الواو ياء كما أبدلوا الياء واواً في أشاوى ، أو مصدراً شاذاً في المعتل ، كما شذ كينونة وبينونة . فأصله ريوحان ، قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء ، فصار ريحان ، ثم حذفت عين الكلمة كما قالوا : ميت وهين . ولما عدد تعالى نعمه خاطب الثقلين بقوله (فبأي آلاء ربكما تكذبان) أي : إن نعمه كثيرة لا تحصى ، فبأيها تكذبان ، أي : من هذه نعمه لا يمكن أن يكذب بها ، وكان هذا الخطاب للثقلين ، لأنهما داخلان في الأنام على أصح الأقوال ، ولقوله (خلق الإنسان) و (خلق الجان) ولقوله (سنفرغ لكم أيها الثقلان) وقد أبعد من جعله خطاباً للذكر والأنثى من بني آدم ، وأبعد من هذا قول من قال : إنه خطاب على حد قوله (ألقيا في جهنم) ويا حرسيُّ اضربا عنقه ، يعني : إنه خطاب للواحد بصورة الاثنين (فبأيٍّ) منوناً في جميع السورة ، كأنه حذف منه المضاف إليه ، وأبدل منه (آلاء ربكما) بدل معرفة من نكرة ، و (آلاء) تقدم في الأعراف أنها النعم واحدها إلى وألي وألى . (خلق الإنسان) لما ذكر العالم الأكبر من السماء والأرض ، وما فيهما من بدائع ، ذكر مبدأ من خلقت له هذه النعم ، والإنسان هو آدم ، وهو قول الجمهور ، وقيل : للجنس ، وساغ ذلك لأن أباهم مخلوق من الصلصال . وإذا أريد بالإنسان آدم ، فقد جاءت غايات له مختلفة ، وذلك بتنقل أصله . فكان أولاً تراباً ، ثم طيناً ، ثم حمأ مسنوناً ، ثم صلصالاً ، فناسب أن ينسب خلقه لكل واحد منها . والجان هو أبو الجن ، وهو إبليس قاله الحسن ، وقال مجاهد : هو أبو الجن ، وليس بإبليس ، وقيل الجان اسم جنس . والمارج ما اختلط من أصفر وأحمر وأخضر ، أو اللهب ، أو الخالص ، أو الحمرة في طرف النار ، أو المختلط بسواد ، أو المضطرب بلا دخان أقوال ، و (من) الأولى لابتداء الغاية ، والثانية في (من نار) للتبعيض ، وقيل : للبيان ، والتكرار في هذه المواضع للتأكيد والتنبيه والتحريك ، وهي موجودة في مواضع من القرآن ، وذهب قوم منهم ابن قتيبة إلى أن هذا التكرار إنما هو لاختلاف النعم ، فكرر التوقيف في كل واحد منها ، وقرأ الجمهور (ربُّ) (ربُّ) بالرفع ، أي : هو رب ، وأبو حيوة وابن أبي عبلة بالخفض بدلاً من (ربكما) وثنى المضاف إليه ، لأنهما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباهما ، قاله مجاهد ، وقيل : مشرقا الشمس والقمر ومغرباهما ، وعن ابن عباس : للشمس مشرق في الصيف مصعد ، ومشرق في الشتاء منحدر ، تنتقل فيهما مصعدة ومنحدرة انتهى[1] . فالمشرقان والمغربان للشمس ، وقيل : المشرقان مطلع الفجر ومطلع الشمس ، والمغربان مغرب الشفق ومغرب الشمس ، ولسهل التستري كلام في المشرقين والمغربين ، شبيه بكلام الباطنية المحرفين مدلول كلام الله ضربنا عن ذكره صفحاً ، وكذلك ما وقفنا عليه من كلام الغلاة الذين ينسبون للصوفية ، لأنا لا نستحل نقل شيء منه ، وقد أولع صاحب كتاب « التحرير والتحبير » بحسب ما قاله هؤلاء الغلاة في كل آية آية . ويسمي ذلك الحقائق وأرباب القلوب ، وما ادعوا فهمه في القرآن فأغلوا فيه ، لم يفهمه عربي قط ، ولا أراده الله تعالى بتلك الألفاظ ، نعوذ بالله من ذلك . (مرج البحرين) تقدم الكلام على ذلك في الفرقان ، قال ابن عطية وذكر الثعلبي في (مرج البحرين) ألفاظاً وأقوالاً باطلة لا ألتفت إلى شيء منها انتهى . والظاهر التقاؤهما ، أي يتجاوزان ، فلا فصل بين الماءين في رؤية العين ، وقيل (يلتقيان) في كل سنة مرة ، وقيل : معدان للالتقاء ، فحقهما أن يلتقيا لولا البرزخ بينهما ، (برزخ) أي : حاجز من قدرة الله تعالى ، (لا يبغيان) لا يتجاوزان حدهما ، ولا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة ، وقيل : البرزخ أجرام الأرض ، قاله قتادة ، وقيل (لا يبغيان) أي : على الناس والعمران ، وعلى هذا والذي قبله يكون من البغي ، وقيل : هو من بغى أي : طلب ، فالمعنى : لا يبغيان حولاً غير المحل الذي حدّ لهما

(1) انظر الوسيط ٤ / ٢٠٦ .

قيل: أراد اللؤلؤة الكبيرة، وقرأ طلحة: اللؤلؤ بكسر اللام الثالثة، وهي لغة. وعبد الله: اللولي بقلب الهمزة المتطرفة ياء ساكنة بعد كسرة ما قبلها، وهي لغة قاله أبو الفضل الرازي. ﴿وله الجوار﴾ خص الجواري بأنها له، وهو تعالى له ملك السموات والأرض وما فيهن، لأنهم لما كانوا هم منشئيها أسندت تعالى إليه، إذ كان تمام منفعتها إنما هو منه تعالى فهو في الحقيقة مالكها. والجواري: السفن. وقرأ عبد الله والحسن وعبد الوارث عن أبي عمرو بضم الراء، كما قالوا في شاك: شاك. وقرأ الجمهور ﴿المنشآت﴾ بفتح الشين اسم مفعول، أي: أنشأها الله، أو الناس، أو المرفوعات الشراع. وقال مجاهد: ما له شراع من المنشآت، وما لم يرفع له شراع فليس من المنشآت. والشراع: القلع. والأعمش وحمزة وزيد بن علي وطلحة وأبو بكر بخلاف عنه بكسر الشين، أي: الرافعات الشراع، أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهن، أو التي تنشئ السير إقبالاً وإدباراً. وشدد الشين ابن أبي عبلة والحسن: ﴿المنشّأة﴾ وحد الصفة ودل على الجمع الموصوف، كقوله: ﴿أزواج مطهرة﴾. وقلب الهمزة ألفاً على حد قوله: إن السباع لتهدى في مرابضها، يريد: لتهدأ، والتاء لتأنيث الصفة، كتبت تاء على لفظها في الوصل. ﴿كالأعلام﴾: أي كالجبال والآكام، وهذا يدل على كبر السفن، حيث شبهها بالجبال، وإن كان المنشآت يطلق على السفينة الكبيرة والصغيرة. وعبر بمن في قوله: ﴿كل من عليها﴾ تغليباً لمن يعقل، والضمير في ﴿عليها﴾ قيل: عائد على الأرض في قوله: ﴿والأرض وضعها للأنام﴾ فعاد الضمير عليها، وإن كان بعد لفظها. والفناء عبارة عن إعدام جميع الموجودات من حيوان وغيره. والوجه يعبر به عن حقيقة الشيء، والجارحة مستحيلة على الله تعالى، ونحوه: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [القصص: ٨٨]. وتقول صعاليك مكة: أين وجه عربي كريم يجود علي؟ وقرأ الجمهور: ﴿ذو﴾ بالواو صفة للوجه، وأبي وعبد الله: ﴿ذي﴾ بالياء صفة للرب. والظاهر أن الخطاب في قوله: ﴿وجه ربك﴾ للرسول، وفيه تشريف عظيم له ﷺ. وقيل: الخطاب لكل سامع. ومعنى ذو الجلال: الذي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه وعن أفعالهم، أو الذي يتعجب من جلاله، أو الذي عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده. ﴿يسأله من في السموات والأرض﴾ أي: حوائجهم، وهو ما يتعلق بمن في السموات من أمر الدين، وما استعبدوا به، ومن في الأرض من أمر دينهم ودنياهم. وقال أبو صالح: من في السموات الرحمة، ومن في الأرض المغفرة والرزق. وقال ابن جريج: الملائكة الرزق لأهل الأرض، والمغفرة وأهل الأرض يسألونهما جميعاً. والظاهر أن قوله: ﴿يسأله﴾ استئناف إخبار. وقيل: حال من الوجه، والعامل فيه يبقى، أي: هو دائم في هذه الحال انتهى. وفيه بعد، ومن لا يسأل فحالة تقتضي السؤال، فيصح إسناد السؤال إلى الجميع باعتبار القدر المشترك، وهو الافتقار إليه تعالى. ﴿كل يوم﴾ أي: كل ساعة ولحظة. وذكر اليوم، لأن الساعات واللحظات في ضمنه. ﴿هو في شأن﴾ قال ابن عباس: في شأن يمضيه من الخلق والرزق والإحياء والإماتة. وقال عبيد بن عمير: يجيب داعياً، ويفك عانياً، ويتوب على قوم، ويغفر لقوم. وقال سويد بن غفلة: يعتق رقاباً، ويعطي رغاباً، ويقحم عقاباً. وقال ابن عيينة: الدهر عند الله يومان: أحدهما: اليوم الذي هو مدة الدنيا: فشأنه فيه الأمر والنهي والإماتة والإحياء. والثاني: الذي هو يوم القيامة، فشأنه فيه الجزاء والحساب. وعن مقاتل: نزلت في اليهود، قالوا: إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً. وقال الحسين بن الفضل وقد سأله عبد الله بن طاهر عن قوله: ﴿كل يوم هو في شأن﴾، وقد صح أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة فقال: شئون يبديها لا شئون يبتديها. وقال ابن بحر: هو في يوم الدنيا في الابتلاء، وفي يوم القيامة في الجزاء. وانتصب كل يوم على الظرف، والعامل فيه العامل في قوله في شأن، وهو مستقر المحذوف، نحو يوم الجمعة زيد قائم.

قوله عز وجل:

﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا

الآية من خطاب الله إياهم يوم القيامة يوم التناد ، وقيل : يقال لهم ذلك . قال الضحاك : يفرون في أقطار الأرض ، لما يرون من الهول ، فيجدون الملائكة قد أحاطت بالأرض ، فيرجعون من حيث جاؤوا ، فحينئذ يقال لهم ذلك(١) . وقيل هو خطاب في الدنيا(٢) ، والمعنى : إن استطعتم الفرار من الموت ، وقال ابن عباس : إن استطعتم بأذهانكم وفكركم أن تنفذوا فتعلموا علم أقطار أي : جهات السموات والأرض(٣) ، قال الزمخشري : يا معشر الجن والإنس ، كالترجمة لقوله أيها الثقلان : إن استطعتم أن تهربوا من قضائي ، وتخرجوا من ملكوتي ومن سمائي وأرضي ، فافعلوا ، ثم قال : لا تقدرون على النفوذ إلا بسلطان يعني : بقوة وقهر وغلبة ، وأنى لكم ذلك ، ونحوه : وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ، انتهى . فانفذوا أمر تعجيز ، وقال قتادة : السلطان هنا الملك وليس لهم ملك(٤) ، وقال الضحاك : أيضاً بينما الناس في أسواقهم انفتحت السماء ، ونزلت الملائكة ، فتهرب الجن والإنس فتحدق بهم الملائكة ، وقرأ زيد بن علي : إن استطعتما على خطاب تثنية الثقلين ، ومراعاة الجن والإنس ، والجمهور على خطاب الجماعة ، إن استطعتم ، لأن كلاً منهما تحته أفراد كثيرة ، كقوله وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، يرسل عليكما شواظ ، قال ابن عباس : إذا خرجوا من قبورهم ، ساقهم شواظ إلى المحشر(٥) ، والشواظ لهب النار ، وقال مجاهد : اللهب الأخضر المنقطع(٦) ، وقال الضحاك : الدخان الذي يخرج من اللهب وقرأ الجمهور : (شُوَاظٌ) بضم الشين ، وعيسى وابن كثير وشبل بكسرها ، والجمهور (ونحاسٌ) بالرفع وابن أبي إسحاق والنخعي وابن كثير وأبو عمرو بالجر ، والكلبي وطلحة ومجاهد بكسر نون نحاس والسين ، وقرأ ابن جبير (ونَحُس) كما تقول يوم نحس ، وقرأ عبد الرحمن بن أبي بكرة وابن أبي إسحاق أيضاً (ونحس) مضارعاً ، وماضيه حسه أي : قتله أي : ونحس بالعذاب ، وعن ابن أبي إسحاق أيضاً ونحس بالحركات الثلاث في الحاء مع التعيين ، وحنظلة بن نعمان ونحس بفتح النون وكسر السين ، والحسن وإسماعيل ونحس بضمتين والكسر ، وقرأ زيد بن علي : نرسل بالنون عليكما شواظاً بالنصب من نار ، ونحاساً بالنصب عطفاً على شواظاً ، قال ابن عباس وابن جبير والنحاس : الدخان(٧) ، وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد هو الصفر المعروف ، والمعنى : يعجز الجن والإنس أي : أنتما بحال من يرسل عليه هذا فلا يقدر على الامتناع مما يرسل عليه ، فإذا انشقت السماء ، جواب إذا محذوف ، أي : فما أعظم الهول ، وانشقاقها انفطارها يوم القيامة ، فكانت وردة أي : محمرة كالورد ، قال ابن عباس وأبو صالح : هي من لون الفرس الورد ، فأنث لكون السماء مؤنثة ، وقال قتادة : هي اليوم زرقاء ، ويومئذ تغلب عليها الحمرة ، كلون الورد ، وهي النوار المعروف ، قاله الزجاج ، ويريد : كلون الورد ، وقال الشاعر :

فلو كُنتُ وَرْداً لونُه لعَشِقْتني ... ولكنّ ربي شانني بسواديا(٨)

وقال أبو الجوزاء : وردة صفراء ، وقال : أما سمعت العرب تسمي الخيل الورد ، قال الفراء : أراد لون الفرس الورد يكون في الربيع إلى الصفرة ، وفي الشتاء إلى الحمرة ، وفي اشتداد البرد إلى الغبرة ، فشبه تلون السماء بتلون الوردة

---

(١) انظر الوسيط ١٩٠ ج والبغوي ٤/٢٧٦ .
(٢) انظر المصادر السابقة .
(٣) انظر المصادر السابقة .
(٤) انظر المصادر السابقة .
(٥) انظر البغوي ٤/٢٧٧ وتفسيره ١٠ خ والمنثور ٤/٢٧١ ، ٢٣٣ والقرطبي ٩/٣٤٣ وزاد المسير ٨/١١٦ .
(٦) انظر المصدر السابق .
(٧) انظر المصدر السابق .
(٨) البيت من الطويل لم يعد لقائله ، ذكره السمين الحلبي في الدر المصون .

من الخيل ، وهذا قول الكلبي ، كالدهان قال ابن عباس : كالأديم الأحمر ، ومنه قول الأعشى :

وأَجْرَدَ مِنْ كِرامِ النَّخْلِ طِرْفٍ كَأَنَّ عَلَى شَواكِلِهِ دِهانا[1]

وقال الشاعر :

كالدُّهْنِ المُخْتَلِفِ ،

لأنها تتلون ألواناً

وقال الضحاك : كالدهان خالصة جمع دهن ، كقرط وقراط ، وقيل : تصير حمراء من حرارة جهنم ، ومثل الدهن لذوبها ودورانها ، وقيل : شبهت بالدهان في لمعانها ، وقال الزمخشري : كالدهان كدهن الزيت كما قال : كالمهل وهو دردي الزيت ، وهو جمع دهن أو اسم ما يدهن به ، كالحزام والإدام قال الشاعر :

كَأَنَّهُما مَزادَتا مُتَعَجِّلٍ فَرِيّانِ لَمّا تُسْلَقا بِدِهانِ[2]

وقرأ عبيد بن عمير وردة بالرفع بمعنى فحصلت سماء وردة ، وهو من الكلام الذي يسمى التجريد كقوله :

فَلَئِنْ بَقيتُ لأَرْحَلَنَّ بِغَزْوَةٍ نَحْوَ الغَنائِمِ أَوْ يَمُوتَ كَرِيمُ[3]

انتهى (فيومئذ) التنوين فيه للعوض من الجملة المحذوفة ، والتقدير : فيوم إذ انشقت السماء ، والناصب ليومئذ لا يسأل ، ودل هذا على انتفاء السؤال ، و ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات ٢٤] وغيره من الآيات على وقوع السؤال ، فقال عكرمة وقتادة : هي مواطن يسأل في بعضها ، وقال ابن عباس : حيث ذكر السؤال فهو سؤال توبيخ وتقرير ، وحيث نفي فهو استخبار محض عن الذنب ، والله تعالى أعلم بكل شيء ، وقال قتادة أيضاً : كانت مسألة ثم ختم على الأفواه ، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يعملون ، وقال أبو العالية وقتادة : لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم ، وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد (ولا جأن) بالهمز فراراً من التقاء الساكنين ، وإن كان التقاؤهما على حدة ، وقرأ حماد بن أبي سليمان بسيماهم ، والجمهور بسيماهم ، وسيما المجرمين سواد الوجوه ، وزرقة العيون ، قاله الحسن ، ويجوز أن يكون غير هذا من التشويهات ، كالعمى والبكم والصمم ، فيؤخذ بالنواصي والأقدام ، قال ابن عباس : يؤخذ بناصيته وقدمه ، فيوطأ ويجمع كالحطب ويلقى كذلك في النار ، وقال الضحاك : يجمع بينهما في سلسلة من وراء ظهره ، وقيل : تسحبهم الملائكة ، تارة تأخذ بالنواصي وتارة بالأقدام ، وقيل : بعضهم سحباً بالناصية ، وبعضهم سحباً بالقدم ، ويؤخذ متعد إلى مفعول بنفسه ، وحذف هنا الفاعل والمفعول ، وأقيم الجار والمجرور مقام الفاعل ، مضمناً معنى ما يعدى بالباء ، أي : فيسحب بالنواصي والأقدام ، وأل فيهما على مذهب الكوفيين عوض من الضمير ، أي : بنواصيهم وأقدامهم ، وعلى مذهب البصريين الضمير محذوف ، أي بالنواصي والأقدام منهم ، هذه جهنم أي يقال لهم ذلك على طريق التوبيخ والتقريع ، يطوفون بينها أي : يترددون بين نارها وبين ما غلي فيها من مائع عذابها ، وقال قتادة : الحميم يغلي منذ خلق الله جهنم ، وآن أي : منتهى الحر والنضج ، فيعاقب بينهم بين تصلية النار وبين شرب الحميم ، وقيل : إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم ، وقيل : يغمسون في واد في جهنم ، يجتمع فيه صديد أهل النار فتنخلع أوصالهم ، ثم يخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً ، وقرأ علي والسلمي : (يُطافون) والأعمش وطلحة وابن

---

(1) البيت من الخفيف ، انظر ديوانه (٢٩٢) ، ملسان (دهن) وروح المعاني ٢٧ / ١١١ .

(2) البيت من الطويل لامرئ القيس ، انظر ديوانه ٨٨ ، الكشاف ٤ / ٣٥٨ .

(3) البيت من الكامل لقتادة بن مسلمة الحنفي ، من الشعراء الجاهليين ، انظر ديوان الحماسة ١ / ٣٢٧ ، الكشاف ٤ / ٤٩٥ .

مضعف يطوفون بضم الياء ، وفتح الطاء ، وكسر الواو مشددة ، وقرىء ﴿ يطّوفون ﴾ أي يتطوفون والجمهور ﴿ يطوفون ﴾ مضارع طاف . قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ قال ابن الزبير : نزلت في أبي بكر . مقام ربه مصدر فيحتمل أن يكون مضافاً إلى الفاعل ، أي : قيام ربه عليه ، وهو مروي عن مجاهد قال : من قوله ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ أي : حافظ مهيمن ، فالعبد يراقب ذلك فلا يجسر على المعصية ، وقيل : الإضافة تكون بأدنى ملابسة ، فالمعنى : أنه يخاف مقامه الذي يقف فيه العباد للحساب من قوله ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ وفي هذه الإضافة تنبيه على صعوبة الموقف ، وقيل : مقام مقحم ، والمعنى : ولمن خاف ربه كما تقول أخاف جانب فلان يعني فلاناً والظاهر : أن لكل فرد فرد من الخائفين جنتان ، قيل : إحداهما : منزله ، والأخرى : لأزواجه وخدمه ، وقال مقاتل : جنة عدن ، وجنة نعيم ، وقيل : منزلان ينتقل من أحدهما إلى الآخر لتتوفر دواعي لذته ، وتظهر ثمار كرامته ، وقيل : هما للخائفين ، والخطاب للثقلين فجنة للخائف الجني ، وجنة للخائف الإنسي ، وقال أبو موسى الأشعري : جنة من ذهب للسابقين ، وجنة من فضة للتابعين ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يقال : جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصي ، لأن التكليف دائر عليهما ، وأن يقال : جنة يثاب بها وأخرى تضم إليها على وجه التفضل لقوله وزيادة ، وخص الأفنان بالذكر جمع فنن ، وهي الغصون التي تتشعب من فروع الشجر ، لأنها التي تورق وتثمر ، ومنها تمتد الظلال ، ومنها تجنى الثمار ، وقيل : الأفنان جمع فن ، وهي ألوان النعم وأنواعها ، وهو قول ابن عباس ، والأول قال قريباً منه مجاهد وعكرمة ، وهو أولى ، لأن أفعالاً في فعل أكثر منه في فعل بسكون العين ، وفن يجمع على فنون . ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ قال ابن عباس : هما عينان مثل الدنيا أضعافاً مضاعفة ، وقال : تجريان بالزيادة والكرامة على أهل الجنة ، وقال الحسن : تجريان بالماء الزلال إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل ، وقال ابن عطية : إحداهما من ماء والأخرى من خمر ، وقيل : تجريان في الأعالي والأسافل من جبل من مسك . ﴿ زوجان ﴾ قال ابن عباس : ما في الدنيا من شجرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى شجر الحنظل إلا أنه حلو ، انتهى . ومعنى زوجان : رطب ويابس ، لا يقصر هذا عن ذاك في الطيب واللذة ، وقيل : صنفان ، صنف معروف ، وصنف غريب ، وجاء الفصل بين قوله ﴿ ذواتا أفنان ﴾ وبين قوله ﴿ فيهما من كل فاكهة ﴾ بقوله ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ والأفنان عليها الفواكه ، لأن الداخل إلى البستان لا يقدم إلا للتفرج بلذة ما فيه ، بالنظر إلى خضرة الشجر ، وجري الأنهار ، ثم بعد يأخذ في اجتناء الثمار للأكل ، وانتصب متكئين على الحال من قوله ﴿ ولمن خاف ﴾ وحمل جمعاً على معنى من ، وقيل : العامل محذوف ، أي : يتنعمون متكئين ، وقال الزمخشري : أي : نصب على المدح والاتكاء من صفات المتنعم الدالة على صحة الجسم وفراغ القلب ، والمعنى متكئين في منازلهم على فرش ، وقرأ الجمهور : ﴿ فرش ﴾ بضمتين ، وأبو حيوة بسكون الراء ، وفي الحديث : قيل لرسول الله ﷺ : هذه البطائن من إستبرق فكيف الظهائر ؟ قال : هي من نور يتلألأ ولو صح هذا لم يجز أن يفسر بغيره وقيل : من سندس ، قال الحسن والفراء : البطائن هي الظهائر ، وروي عن قتادة ، وقال الفراء : قد تكون البطانة الظهارة ، والظهارة البطانة ، لأن كلا منهما يكون وجهاً ، والعرب تقول هذا وجه السماء ، وهذا بطن السماء ، قوله عز وجل .

﴿ وجنى الجنتين دان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، ومن دونهما جنتان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، مدهامتان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما فاكهة ونخل ورمان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهن خيرات حسان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، حور مقصورات في الخيام ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأي آلاء

من شدة النعمة ، وزينت بالأفنان ، وكل جنة ذات أفنان ، ورجح الزمخشري هذا القول ، فقال : للمقربين جنتان ، ومن دونهم من أصحاب اليمين إدهامتا من شدة الخضرة ، ورجح غيره القول الأول بذكر جري العينين والنضخ دون الجري ، وبقوله (فيهما من كل فاكهة) وفي المتأخرتين (فيهما فاكهة) وبالاتكاء على ما بطائنه من ديباج وهو الفرش . وفي المتأخرتين الاتكاء على الرفرف وهو كسر الخباء والفرش المعدة للاتكاء أفضل ، و (العبقري) الوشي والديباج أعلى منه والمشبه بالياقوت والمرجان أفضل في الوصف من خيرات حسان ، والظاهر النضح بالماء .

وقال ابن جبير : بالمسك والعنبر والكافور ، في دور أهل الجنة ، كما ينضح رش المطر وعنه أيضاً بأنواع الفواكه والماء ، (ونخل ورمان) عطف على فاكهة فاقتضى العطف أن لا يندرجا في الفاكهة قاله بعضهم ، وقال يونس بن حبيب وغيره : كررهما من أفضل الفاكهة تشريفاً لها ، وإشادة بها كما قال تعالى : ﴿ وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ [البقرة ٩٨] ، وقيل لأن النخل ثمره فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء فلم يخلصا للتفكه .

(فيهن خيرات) جمع خيرة وصف بني على فعلة من الخير كما بنوا من الشر فقالوا أشرة ، وقيل مخفف من خيرة ، وبه قرأ بكر بن حبيب وأبو عثمان النهدي وابن مقسم ، أي بشد الياء ، وروي عن أبي عمرو بفتح الياء ، كأنه جمع خيرة جمع على فعلة ، وفسر الرسول ـ ﷺ ـ لأم سلمة ذلك فقال : « خيرات الأخلاق حسان الوجوه » .

(حور مقصورات) أي قصرن في أماكنهن والنساء تمدح بذلك إذ ملازمتهن البيوت تدل على صيانتهن كما قال قيس بن الأسلت :

وَتَكْسَلُ عَنْ جَارَاتِهَا فَيَزُرْنَهَا وَتَغْفَلُ عَنْ أَبْيَاتِهِنَّ فَتُعْذَرُ[1]

قال الحسن قصرن بطرافهن في الطرف ، وخيام الجنة بيوت اللؤلؤ ، وقال عمر بن الخطاب هي در مجوف ورواه عبد الله عن النبي ـ ﷺ ـ .

(لم يطمثهن إنس قبلهم) أي قبل أصحاب الجنتين ، ودل عليهم ذكر الجنتين .

(متكئين) قال الزمخشري : نصب على الاختصاص

(على رفرف) قال ابن عباس وغيره فضول المحابس والبسط[2] ، وقال ابن جبير : رياض الجنة من رف البيت تنعم وحسن[3] وقال ابن عيينة الزرابي ، وقال الحسن وابن كيسان المرافق ، وقرأ الفراء وابن قتيبة المجالس (وعبقري) قال الحسن : بسط حسان فيها صور ، وغير ذلك يصنع بعبقر ، وقال ابن عباس : الزرابي ، وقال مجاهد : الديباج الغليظ ، وقال ابن زيد الطنافس ، قال الفراء : الثخان منها ، وقرأ الجمهور : على رفرف ووصف بالجمع لأنه اسم جنس الواحد منها رفرفة ، واسم الجنس يجوز فيه أن يفرد نعته ، وأن يجمع لقوله (والنخل باسقات) وحسن جمعه هنا مقابلته لـ (حسان) الذي هو فاصلة ، وقال صاحب اللوامح : وقرأ عثمان بن عفان ونصر بن عاصم والجحدري ومالك بن دينار

---

(١) البيت من الطويل ، انظر ديوانه ٢ / ٤٩١ وروايته فيه :

وَيُكْرِمُهَا جَارَاتُهَا فَيَزُرْنَهَا وَتَعْتَلُّ عَنْ إِتْيَانِهِنَّ فَتُعْذَرُ

(٢) انظر الوسيط ٤ : ٢٢٣ وزاد المسير ٨ / ١٢٢ وفتح القدير ٥ / ١٤٣ ومجاز القرآن ٢ / ٢٤٦ .

(٣) انظر الوسيط ٤ : ٢٢٣ وزاد المسير ٨ / ١٢٢ .

وابن محيصن وزهير الفرقبي وغيره (رفارف) جمع لا ينصرف (خضر) بسكون الضاد وعباقري بكسر القاف وفتح الياء مشددة ، وعنهم أيضاً ضم الضاد ، وعنهم أيضاً فتح القاف ، قال فأما منع الصرف من عباقري وهي الثياب المنسوبة إلى عبقر ، وهو موضع تعمل فيه الثياب على قديم الأزمان ، فإن لم يكن بمجاورتها وإلا فلا تكون يمنع الصرف من يائي النسب وجه إلا في ضرورة الشعر انتهى

وقال ابن خالويه قرأ (على رفارف خضر ، وعباقري) النبي ـ ﷺ ـ والجحدري وابن محيصن ، وقد روي عمن ذكرنا على رفارف خضر وعباقري بالصرف ، وكذلك روي عن مالك بن دينار

وقرأ أبو محمد المروزي وكان نحوياً (على رفارف خضار) مبني على وزن فعال .

وقال صاحب الكامل (رفارف) جمع عن ابن محيصن وابن مقسم وابن محيصن ، واختاره شبل وأبو حيوة والجحدري والزعفراني وهو الاختيار لقوله (خضر) و (عباقري) بالجمع وبكسر القاف من غير تنوين ابن مقسم وابن محيصن وروي عنهما التنوين ، وقال ابن عطية . وقرأ زهير الفرقبي . (رفارف) بالجمع والصرف ، عباقري بفتح القاف والياء على أن اسم الموضع عباقر بفتح القاف ، والصحيح في اسم الموضع عبقر انتهى .

وقال الزمخشري : وروى أبو حاتم (عباقري) بفتح القاف ومنع الصرف ، وهذا لا وجه لصحته انتهى

وقد يقال : لما منع الصرف (رفارف) شاكله في (عباقري) كما قد ينون ما لا ينصرف للمشاكلة يمنع من الصرف للمشاكلة .

وقرأ ابن هرمز (خُضُر) بضم الضاد ، قال صاحب اللوامح وهي لغة قليلة انتهى . ومنه قول طرفة .

أيُّها الفِتْيانُ في مَجْلِسِنا ... جَرِّدُوا مِنْها وِراداً وشُقُر(١)

وقال آخر :

وما انْتَمَيْتُ إلى خورٍ ولا كُشُفٍ ... ولا لِئامٍ غَداةَ الرَّوْعِ أوْزاعِ(٢)

فشقر جمع أشقر وكشف جمع أكشف

وقرأ الجمهور (ذي الجلال) صفة لربك وابن عامر وأهل الشام : ذو ، صفة للاسم ، وفي حرف أبي عبد الله وأبيٍّ ذي الجلال كقراءتهما في الموضع الأول ، والمراد هنا بـ (الاسم) المسمى .

وقيل : (اسم) مقحم كالوجه في (ويبقى وجه ربك) يدل عليه إسناد تبارك لغير الاسم في مواضع كقوله ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون ١٤] ﴿ تبارك الذي إن شاء ﴾ [الفرقان ١٠] ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ [الملك ١] وقد صح الإسناد إلى (الاسم) لأنه بمعنى العلو فإذا علا الاسم فما ظنك بالمسمى . ولما ختم تعالى نعم الدنيا بقوله (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) ختم نعم الآخرة بقوله (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) ، وناسب

---

(١) البيت من الرمل لطرفة انظر ديوانه . المحتسب ٢/ ٣٠٤ روح المعاني ٢٧/ ١٢٥ .

(٢) البيت من الوافر لم أجد قائله ، انظر روح المعاني ٢٧/ ١٢٥ .

هنالك ذكر البقاء والديمومة له تعالى إذ ذكر فناء العالم، وناسب هنا ذكر ما اشتق من البركة وهي النمو والزيادة، إذ جاء ذلك عقب ما امتن به على المؤمنين، وما آتاهم في دار كرامته من الخير، وزيادته وديمومته وذا الجلال والإكرام من الصفات التي جاء في الحديث أن يدعى الله بها قال ـ ﷺ ـ «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٥) وأحمد في المسند ٤/١٧٧ والحاكم في المستدرك ١/٤٩٨، والطبراني في الكبير ٥/٦٠ والبخاري في التاريخ ٣/٢٨٠ وذكره السيوطي في الدر ٦/١٤٣ والهيثمي في المجمع ١٠/١٥٨.

سورة الواقعة مكية وهي ست وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا وقعت الواقعة ﴿١﴾ ليس لوقعتها كاذبة ﴿٢﴾ خافضة رافعة ﴿٣﴾ إذا رجت الأرض رجا ﴿٤﴾ وبست الجبال بسا ﴿٥﴾ فكانت هباء منبثا ﴿٦﴾ وكنتم أزواجا ثلاثة ﴿٧﴾ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴿٨﴾ وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ﴿٩﴾ والسابقون السابقون ﴿١٠﴾ أولئك المقربون ﴿١١﴾ في جنات النعيم ﴿١٢﴾ ثلة من الأولين ﴿١٣﴾ وقليل من الآخرين ﴿١٤﴾ على سرر موضونة ﴿١٥﴾ متكئين عليها متقابلين ﴿١٦﴾ يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴿١٧﴾ بأكواب وأباريق وكأس من معين ﴿١٨﴾ لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴿١٩﴾ وفاكهة مما يتخيرون ﴿٢٠﴾ ولحم طير مما يشتهون ﴿٢١﴾ وحور عين ﴿٢٢﴾ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴿٢٣﴾ جزاء بما كانوا يعملون ﴿٢٤﴾ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ﴿٢٥﴾ إلا قيلا سلاما سلاما ﴿٢٦﴾ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴿٢٧﴾ في سدر مخضود ﴿٢٨﴾ وطلح منضود ﴿٢٩﴾ وظل ممدود ﴿٣٠﴾ وماء مسكوب ﴿٣١﴾ وفاكهة كثيرة ﴿٣٢﴾ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴿٣٣﴾ وفرش مرفوعة ﴿٣٤﴾ إنا أنشأناهن إنشاء ﴿٣٥﴾ فجعلناهن أبكارا ﴿٣٦﴾ عربا أترابا ﴿٣٧﴾ لأصحاب اليمين ﴿٣٨﴾ ثلة من الأولين ﴿٣٩﴾ وثلة من الآخرين ﴿٤٠﴾ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴿٤١﴾ في سموم وحميم ﴿٤٢﴾ وظل من يحموم ﴿٤٣﴾ لا بارد ولا كريم ﴿٤٤﴾ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ﴿٤٥﴾ وكانوا يصرون على الحنث العظيم ﴿٤٦﴾ وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ﴿٤٧﴾ أوآباؤنا الأولون ﴿٤٨﴾ قل إن الأولين والآخرين ﴿٤٩﴾ لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴿٥٠﴾ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ﴿٥١﴾ لآكلون من شجر من زقوم ﴿٥٢﴾ فمالئون منها البطون ﴿٥٣﴾ فشاربون عليه من الحميم ﴿٥٤﴾ فشاربون شرب الهيم ﴿٥٥﴾ هذا نزلهم يوم الدين ﴿٥٦﴾ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ﴿٥٧﴾ أفرأيتم ما تمنون ﴿٥٨﴾ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴿٥٩﴾ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ﴿٦٠﴾ على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ﴿٦١﴾ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴿٦٢﴾ أفرأيتم ما تحرثون ﴿٦٣﴾ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴿٦٤﴾ لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم

كَأَنَّ إِبْرِيقَهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ ... مُفَدَّمٌ بِسَبَا الكَتَّانِ مَلْثُومُ(1)

وقال عدي بن زيد :

وَدَعَوْا إِلَى الصَّبَاحِ فَجَاءَتْ ... قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيقُ(2)

صدع القوم بالخمر لحقهم الصداع في رؤوسهم منها ، وقيل صدعوا فرقوا . (السدر) تقدم الكلام عليه في سورة سبأ (المخضود) المقطوع شوكه . قال أمية بن أبي الصلت :

إِنَّ الحَدَائِقَ فِي الجِنَانِ ظَلِيلَةٌ ... فِيهَا الكَوَاعِبُ سِدْرُهَا مَخْضُودُ(3)

(الطلح) شجر الموز ، وقيل : شجر من العضاة كثير الشوك ، (المسكوب) المصبوب ، العرب المتحببة إلى زوجها ، الترب : اللدة وهو من يولد هو وآخر في وقت واحد ، سميا بذلك لمسهما التراب في وقت واحد والله تعالى أعلم .

﴿ إذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ، إذا رجت الأرض رجاً ، وبست الجبال بساً ، فكانت هباء منبثاً ، وكنتم أزواجاً ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، في جنات النعيم ، ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً ، وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، في سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة ، إنا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكاراً ، عرباً أتراباً لأصحاب اليمين ، ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين ﴾ .

هذه السورة مكية ، ومناسبتها لما قبلها أن ما قبلها تضمن العذاب للمجرمين والنعيم للمؤمنين ، وفاضل بين جنتي بعض المؤمنين ، وجنتي بعض ، بقوله (ومن دونهما جنتان) فانقسم العالم بذلك إلى كافر ومؤمن مفضول ومؤمن فاضل ، وهكذا جاء ابتداء هذه السورة من كونهم أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة ، وسابق وهم المقربون ، وأصحاب اليمين والمكذبون المختتم بهم آخر هذه السورة .

وقال ابن عباس : (الواقعة) من أسماء القيامة كالصاخة والطامة والآزفة ، وهذه الأسماء تقتضي عظم شأنها(4) .

ومعنى (وقعت الواقعة) أي : وقعت التي لا بد من وقوعها ، كما تقول حدثت الحادثة ، وكانت الكائنة ، ووقوع الأمر نزوله ، يقال : وقع ما كنت أتوقعه ، أي نزل ما كنت أترقب نزوله ، وقال الضحاك (الواقعة) الصيحة وهي النفخة في الصور ، وقيل : (الواقعة) صخرة بيت المقدس تقع يوم القيامة .

---

(1) البيت من البسيط لعلقمة بن عبدة ، انظر ديوانه ١٤٣ المفضليات ٤١٨ اللسان (برق) .

(2) البيت من الخفيف لعدي بن زيد ، انظر اللسان (برق) .

(3) البيت من الكامل ، انظر ديوانه ٣٩ القرطبي ١٧/ ٢٠٩ مجاز القرآن ٢/ ٢٥٠ فتح القدير ٥/ ١٥٢

(4) انظر الطبري ٢٧/ ٩٦ وزاد المسير ٨/ ١٣٠ .

والعامل في إذا الفعل بعدها على ما تقرر في كتب النحو، فهو في موضع خفض بإضافة إذا إليه احتاج إلى تقدير عامل، إذ الظاهر أنه ليس ثم جواب ملفوظ به يعمل فيها. فقال الزمخشري: فإن قلت: بم انتصب إذا؟ قلت: بليس، كقولك: يوم الجمعة ليس لي شغل، أو بمحذوف، يعني: إذا وقعت كان كيت وكيت، أو بإضمار اذكر. انتهى. أما نصبها بليس فلا يذهب نحوي ولا من شدا شيئاً من صناعة الإعراب إلى مثل هذا، لأن ليس في النفي كما، وما لا تعمل فكذلك ليس. وذلك أن ليس مسلوبة الدلالة على الحدث والزمان، والقول بأنها فعل هو على سبيل المجاز، لأن حد الفعل لا ينطبق عليها. والعامل في الظرف إنما هو ما يقع فيه من الحدث، فإذا قلت: يوم الجمعة أقوم، فالقيام واقع في يوم الجمعة؛ وليس لا حدث لها، فكيف يكون لها عمل في الظرف؟ والمثال الذي شبه به، وهو يوم الجمعة ليس لي شغل، لا يدل على أن يوم الجمعة منصوب بليس، بل هو منصوب بالعامل في خبر ليس، وهو الجار والمجرور، فهو من تقديم معمول الخبر على ليس، وتقديم ذلك مبني على جواز تقديم الخبر الذي لليس عليها، وهو مختلف فيه، ولم يسمع من لسان العرب: قائماً ليس زيد. وليس إنما تدل على نفي الحكم الخبري عن المحكوم عليه فقط، فهي كما، ولكنه لما اتصلت بها ضمائر الرفع، جعلها ناس فعلاً، وهي في الحقيقة حرف نفي كما النافية. ويظهر من تمثيل الزمخشري إذا بقوله يوم الجمعة، أنه سلبها الدلالة على الشرط الذي هو غالب فيها، ولو كانت شرطاً، وكان الجواب الجملة المصدرة بليس، لزمت الفاء، إلا إن حذفت في شعر إذ ورد، ذلك فتقول: إذا أحسن إليك زيد فلست تترك مكافأته، ولا يجوز: لست بغير فاء إلا إن اضطر إلى ذلك. وأما تقديره: إذا وقعت كان كيت وكيت، فيدل على أن إذا عنده شرطية، ولذلك قدر لها جواباً عاملاً فيها. وأما قوله: بإضمار اذكر، فإنه سلبها الظرفية، وجعلها مفعولاً بها منصوبة باذكر. وكاذبة ظاهره أنه اسم فاعل من كذب، وهو صفة لمحذوف، فقدره الزمخشري: نفس كاذبة، أي لا تكون حين تقع نفس تكذب على الله، وتكذب في تكذيب الغيب، لأن كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات، كقوله تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾ [غافر ٨٤] ﴿لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾ [الشعراء ٢٠١] ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة﴾ واللام مثلها في قوله تعالى: ﴿يا ليتني قدمت لحياتي﴾ [الفجر ٢٤] إذ ليس لها نفس تكذبها، وتقول لها: لم تكوني، كما لها اليوم نفوس كثيرة يقلن لها: لم تكوني. أو هي من قولهم: كذبت فلاناً نفسه في الخطب العظيم، إذا شجعته على مباشرته، وقالت له: إنك تطيقه، وما فوقه فتعرض له، ولا تبال، على معنى أنها وقعة لا تطاق بشدة وفظاعة، وأن لا نفس حينئذ تحدث صاحبها بما تحدثه به عند عظائم الأمور، وتزين له احتمالها وإطاقتها، لأنهم يومئذ أضعف من ذلك وأذل، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿كالفراش المبثوث﴾ والفراش مثل في الضعف. انتهى. وهو تكثير وإسهاب. وقدر ابن عطية حال كاذبة، قال: ويحتمل الكلام على هذا معنيين: أحدهما كاذبة، أي مكذوب فيما أخبر به عنها، فسماها كاذبة لهذا، كما تقول: هذه قصة كاذبة، أي مكذوب فيها، والثاني: حال كاذبة، أي لا يمضي وقوعها، كما تقول: فلان إذا حمل لم يكذب. وقال قتادة والحسن: المعنى ليس لها تكذيب ولا رد، ولا مثنوية. وكاذبة على هذا مصدر، كالعاقبة والعافية وخائنة الأعين. والجملة من قوله ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ على ما قدره الزمخشري: من أن إذا معمولة لليس، يكون ابتداء السورة، وإلا إن اعتقد بها جواب لإذا، أو معمولة لاذكر، فلا تكون ابتداء كلام. وقال ابن عطية: في موضع الحال، والذي يظهر لي أنها جملة اعتراض بين الشرط وجوابه. وقرأ الجمهور: ﴿خافضة رافعة﴾ برفعهما على تقدير هي. وزيد بن علي والحسن وعيسى وأبو حيوة وابن أبي عبلة وابن مقسم والزعفراني واليزيدي في اختياره بنصبهما. قال ابن خالويه: قال الكسائي: لولا أن اليزيدي سبقني إليه لقرأت به، ونصبهما على الحال. قال ابن عطية: بعد الحال التي هي ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ ولك أن تتابع الأحوال، كما لك أن تتابع أخبار المبتدأ. والقراءة الأولى أشهر وأبدع معنى، وذلك أن موقع الحال من الكلام موقع ما لو لم يذكر لاستغني عنه، وموقع الجمل التي يجزم الخبر بها موقع ما

يتهم به انتهى . وهذا الذي قاله سبقه إليه أبو الفضل الرازي ، قال في كتاب اللوامح ، وبعد الظرف الواقعة والعامل وقعت ، ويجوز أن يكون (ليس لوقعتها كاذبة) حالاً أخرى من الواقعة ، بتقدير إذا رفعت صادقة واقعة فهذه ثلاثة أحوال من ذي حال ، وجازت أحوال مختلفة عن واحد ، كما جازت عنه نعوت متضادة ، وأخبار كثيرة عن مبتدأ واحد ، وإذا جعلت هذه كلها أحوالاً ، كان العامل في إذا وقعت محذوفاً ، يدل عليه الفحوى بتقدير يحاسبون ونحوه ، انتهى . وتعداد الأحوال والأخبار فيه خلاف وتفصيل ، ذكر في النحو ، فليس ذلك مما أجمع عليه النحاة . قال الجمهور : القيامة تنفطر له السماء والأرض والجبال ، وتنهد له هذه البنية برفع طائفة من الأجرام ، وبخفض أخرى ، فكأنها عبارة عن شدة الهول والاضطراب . وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك : الصيحة تخفض قوتها لتسمع الأدنى ، وترفعها لتسمع الأقصى . وقال قتادة وعثمان بن عبد الله بن سراقة : القيامة تخفض أقواماً إلى النار ، وترفع أقواماً إلى الجنة . وأخذ الزمخشري هذه الأقوال على عادته ، وكساها بعض ألفاظ رائعة ، فقال : ترفع أقواماً ، وتضع آخرين ، إما وصفاً لها بالشدة ، لأن الواقعات العظام ، كذلك يرتفع فيها ناس إلى مراتب ، ويتضع ناس ، وإما أن الأشقياء يحطون إلى الدركات ، والسعداء يحشرون إلى الدرجات ، وإما أنها تزلزل الأشياء عن مقارها لتخفض بعضاً ، وترفع بعضاً حيث تسقط السماء كسفاً ، وتنتثر الكواكب وتنكدر ، وتسير الجبال فتمر في الجو مر السحاب . انتهى (إذا رجت) قال ابن عباس : زلزلت وحركت بجذب . وقاله أيضاً مع عكرمة ومجاهد : بست فتتت ، وقيل سيرت ، وقرأ زيد بن علي : رجت وبست مبنياً للفاعل ، و (إذا رجت) بدل من إذا وقعت ، وجواب الشرط عندي ملفوظ به ، وهو قوله فأصحاب الميمنة ، والمعنى إذا كان كذا وكذا : فأصحاب الميمنة ما أسعدهم ، وما أعظم ما يجازون به ، أي إن سعادتهم وعظم رتبتهم عند الله ، تظهر في ذلك الوقت الشديد الصعب على العالم . وقال الزمخشري : ويجوز أن ينتصب بخافضة رافعة ، أي تخفض وترفع وقت رج الأرض وبس الجبال ، لأنه عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ، ويرتفع ما هو منخفض ، انتهى . ولا يجوز أن ينتصب بهما معاً ، بل بأحدهما ، لأنه لا يجوز أن يجتمع مؤثران على أثر واحد . وقال ابن جني وأبو الفضل الرازي : (إذا رجت) في موضع رفع ، على أنه خبر للمبتدأ الذي هو (إذا وقعت) وليست واحدة منهما شرطية ، بل جعلت بمعنى وقت ، وما بعد إذا أحوال ثلاثة ، والمعنى وقت وقوع الواقعة صادقة الوقوع ، خافضة قوم ، رافعة آخرين وقت رج الأرض ، وهكذا ادعى ابن مالك : أن إذا تكون مبتدأ ، واستدل بهذا ، وقد ذكرنا في شرح التسهيل ما تبقى به إذا على مدلولها من الشرط . وتقدم شرح الهباء في سورة الفرقان ، (منبثاً) منتشراً ، وقرأ النخعي : منبتاً بالتاء المثناة ، أي منقطعاً (وكنتم) خطاب للعالم ، (أزواجاً ثلاثة) أصنافاً ثلاثة ، وهذه رتب للناس يوم القيامة (فأصحاب الميمنة) قال الحسن والربيع : هم الميامين على أنفسهم ، وقيل الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم ، وقيل أصحاب المنزلة السنية ، كما تقول هو مني باليمين ، وقيل المأخوذ بهم ذات اليمين ، أو ميمنة آدم ، المذكورة في حديث الإسراء في الأسودة . (وأصحاب المشأمة) هم من قابل أصحاب الميمنة في هذه الأقوال ، فأصحاب مبتدأ ، وما مبتدأ ثان استفهام في معنى التعظيم ، وأصحاب الميمنة خبر عن ما ، وما بعده خبر عن أصحاب ، وربط الجملة هنا بالمبتدأ تكرار المبتدأ بلفظه ، وأكثر ما يكون ذلك في موضع التهويل والتعظيم ، وما تعجب من حال الفريقين في السعادة والشقاوة ، والمعنى أي شيء هم ؟ (والسابقون السابقون) جوزوا أن يكون مبتدأ وخبراً ، نحو قولهم أنت أنت ، وقوله : أنا أبو النجم ، وشعري شعري ، أي الذين انتهوا في السبق ، أي الطاعات وبرعوا فيها ، وعرفت حالهم ، وأن يكون السابقون تأكيداً لفظياً ، والخبر فيما بعد ذلك ، وأن يكون السابقون مبتدأ ، والخبر فيما بعده ، وتقف على قوله والسابقون ، وأن يكون متعلق السبق الأول مخالفاً للسبق الثاني ، والسابقون إلى الإيمان السابقون إلى الجنة ، فعلى هذا جوزوا أن يكون السابقون خبراً لقوله والسابقون ، وأن يكون صفة ، والخبر فيما بعده ، والوجه الأول . قال ابن عطية ومذهب سيبويه : أن معنى السابقون خبر الابتداء ، يعني خبر والسابقون ، وهذا كما

الياء وكسر الزاي ، أي لا يفنى لهم شراب (مما يتخيرون) يأخذون خيره وأفضله (مما يشتهون) أي يتمنون ، وقرأ الجمهور : (وحور عين) برفعهما ، وخرج على أن يكون معطوفاً على ولدان أو على الضمير المستكن في متكئين ، أو على مبتدأ محذوف هو وخبره ، تقديره لهم هذا كله (وحور عين) أو على حذف خبر فقط ، أي ولهم حور ، أو فيها حور ، وقرأ السلمي والحسن وعمرو بن عبيد وأبو جعفر وشيبة والأعمش وطلحة والمفضل وأبان ، وعصمة والكسائي بجرهما ، والنخعي وحير عين بقلب الواو ياء وجرهما ، والجر عطف على المجرور ، أي يطوف عليهم ولدان بكذا وكذا (وحور عين) وقيل هو على معنى وينعمون بهذا كله ، وبحور عين ، وقال الزمخشري : عطفاً على جنات النعيم ، كأنه قال هم في جنات وفاكهة ولحم وحور انتهى وهذا فيه بعد وتفكيك كلام مرتبط بعضه ببعض وهو فهم أعجمي ، وقرأ أبي وعبد الله (وحوراً عيناً) بنصبهما ، قالوا على معنى ويعطون هذا كله وحوراً عيناً ، وقرأ قتادة (وحور عين) بالرفع مضافاً إلى عين ، وابن مقسم بالنصب مضافاً إلى عين ، وعكرمة (وحوراء عيناء) على التوحيد اسم جنس ، وبفتح الهمزة فيهما ، فاحتمل أن يكون مجروراً عطفاً على المجرور السابق ، واحتمل أن يكون منصوباً كقراءة أبي وعبد الله (وحوراً عيناً) ووصف اللؤلؤ بالمكنون ، لأنه أصفى وأبعد من التغير ، وفي الحديث صفاؤهن كصفاء الدر الذي لا تمسه الأيدي ، وقال تعالى : (كأنهن بيض مكنون) وقال الشاعر : يصف امرأة بالصون وعدم الابتذال ، فشبهها بالدرة المكنونة في صدفتها فقال

قامتْ تراءى بين سجفي كلة ... كالشمس يوم طلوعها بالأسعد
أو درة صدفية غواصها ... بهج متى يرها يهل ويسجد(١)

(جزاء بما كانوا يعملون) روي أن المنازل والقسم في الجنة على قدر الأعمال ، ونفس دخول الجنة برحمة الله تعالى وفضله لا بعمل عامل ، وفيه النص الصحيح الصريح ، لا يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ، قال ولا أنا إلا أن يتغمدني بفضل منه ورحمة ، اللغو ، أسقط القول وفحشه (ولا تأثيماً) ما يؤثم أحداً ، والظاهر أن (إلا قيلاً سلاماً سلاماً) استثناء منقطع ، لأنه لم يندرج في اللغو ولا التأثيم ، ويبعد قول من قال استثناء متصل (وسلاماً) قال الزجاج : هو مصدر نصبه قيلاً ، أي يقول بعضهم لبعض سلاماً سلاماً ، وقيل ، نصب بفعل محذوف ، وهو معمول قيلاً ، أي قيلاً اسلموا سلاماً ، وقيل (سلاماً) بدل من قيلاً ، وقيل نعت لقيلاً بالمصدر ، كأنه قيل إلا قيلاً سالماً من هذه العيوب ، (في سدر) في الجنة ، شجر على خلقة له ثمر كقلال هجر طيب الطعم والريح (مخضود) عار من الشوك ، وقال مجاهد ، المخضود الموقر الذي تثني أغصانه كثرة حمله ، من خضد الغصن إذا ثناه ، وقرأ الجمهور (وطلح) بالحاء ، وعلي وجعفر بن محمد وعبد الله بالعين قرأها على المنبر ، وقال علي وابن عباس وعطاء ومجاهد : (الطلح) الموز ، وقال الحسن ليس بالموز ، ولكنه شجر ظله بارد رطب ، وقيل شجر أم غيلان ، وله نوار كثير طيب الرائحة ، وقال السدي : شجر يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل ، (والمنضود) الذي نضد من أسفله إلى أعلاه ، فليست له ساق تظهر (وظل ممدود) لا يتقلص بل منبسط لا ينسخه شيء ، قال مجاهد ، هذا الظل من سدرها وطلحها (وماء مسكوب) قال سفيان وغيره : جار في غير أخدود ، وقيل منساب لا يتعب فيه بسانية ولا رشاء (لا مقطوعة) أي هي دائمة لا تنقطع في بعض الأوقات ، كفاكهة الدنيا ، (ولا ممنوعة) أي لا يمنع من تناولها بوجه ، ولا يحظر عليها كالتي في الدنيا ، وقرئ (وفاكهة كثيرة) بالرفع ، أي وهناك فاكهة ، (وفرش) جمع فراش ، وقرأ الجمهور ، بضم الراء ، وأبو حيوة بسكونها مرفوعة ، نضدت حتى ارتفعت ، أو رفعت على الأسرة ، والظاهر أن الفرش ، هو ما يفترش للجلوس عليه والنوم ، وقال أبو عبيدة

---

(١) تقدم ، انظر روح المعاني ٢٧/١٣٨ ـ ١٣٩

وغيره : المراد بالفرش النساء ، لأن المرأة يكنى عنها بالفراش ، ورفعهن في الأقدار والمنازل . والضمير في (أنشأناهن) عائد على الفرش في قول أبي عبيدة إذ هن النساء عنده ، وعلى ما دل عليه الفرش ، إذا كان المراد بالفرش ظاهر ما يدل عليه من الملابس التي تفرش ويضطجع عليها ، أي ابتدأنا خلقهن ابتداء جديداً ، من غير ولادة ، والظاهر أن الإنشاء هو الاختراع الذي لم يسبق بخلق ، ويكون ذلك مخصوصاً بالحور اللاتي لسن من نسل آدم ، ويحتمل أن يريد إنشاء الإعادة ، فيكون ذلك لبنات آدم ، (فجعلناهن أبكاراً عرباً) والعرب ، قال ابن عباس : العروب المتحببة إلى زوجها ، وقاله الحسن وعبر ابن عباس أيضاً عنهن بالعواشق ، ومنه قول لبيد :

وفي الخدور عروب غير فاحشة ريا الروادف يعشى دونها البصر[1]

وقال ابن زيد : العروب المحسنة للكلام ، وقرأ حمزة وناس ، منهم شجاع وعباس والأصمعي ، عن أبي عمرو ، وناس منهم خارجة وكردم وأبو حليد ، عن نافع وناس منهم أبو بكر وحماد وأبان عن عاصم بسكون الراء ، وهي لغة تميم ، وباقي السبعة بضمها أتراباً في الشكل ، والقد وأبعد من ذهب إلى أن الضمير في (أنشأناهن) عائد على الحور العين المذكورة قبل ، لأن تلك قصة قد انقطعت ، وهي قصة السابقين ، وهذه قصة أصحاب اليمين ، واللام في لأصحاب متعلقاً بـ (أنشأناهن) (ثلة من الأولين) أي من الأمم الماضية ، (وثلة من الآخرين) أي من أمة محمد ـ ﷺ ـ ولا تنافي بين قوله (وثلة من الآخرين) وقوله قبل وقليل من الآخرين ، لأن قوله من الآخرين هو في السابقين ، وقوله (وثلة من الآخرين) هو في أصحاب اليمين . ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * في سموم وحميم * وظل من يحموم * لا بارد ولا كريم * إنهم كانوا قبل ذلك مترفين * وكانوا يصرون على الحنث العظيم * وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون * قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم * ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم * فمالئون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم * هذا نزلهم يوم الدين * نحن خلقناكم فلولا تصدقون * أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون * نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون * ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون * أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون * إنا لمغرمون * بل نحن محرومون * أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون * أفرأيتم النار التي تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين * فسبح باسم ربك العظيم * فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين * أفبهذا الحديث أنتم مدهنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون * فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين * فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم * إن هذا لهو حق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾ .

اليحموم الأسود البهيم ، الحنث قال الخطابي هو في كلام العرب العدل الثقيل شبه الإثم به ، الهيم جمع أهيم وهيماء

(١) البيت من البسيط للبيد بن ربيعة ، انظر روح المعاني ٢٧/١٤٠ فتح القدير ٥/١٥٣

والهيام داء معطش يصيب الإبل فتشرب حتى تموت أو تسقم سقماً شديداً قال :

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد ... صداها ولا يقضي عليها هيامها(١)

(والهيم) جمع هيام ، وهو الرمل بفتح الهاء وهو المشهور ، وقال ثعلب : بضمها قال : هو الرمل الذي لا يتماسك ، فالفتح كسحاب وسحب ، ثم خفف وفعل به ما فعل بجمع أبيض من قلب ضمه كسرة لتصح الياء ، أو بالضم يكون مثل جمع على فعل ، كقراد وقرد ، ثم سكنت ضمة الراء فصار فعلاً ، ثم فعل به ما فعل ببيض ، أمنى الرجل النطفة ، وما تقذفونها من الإحليل ، المزن السحاب ، قال الشاعر :

فلا مزنة ودقت ودقها ... ولا أرض أبقل إبقالها(٢)

أوريت النار من الزناد قدحتها ، وورى الزند نفسه ، والزناد حجريين ، أو من حجر وحديدة ومن شجر ، لا سيما في الشجر الرخو ، كالمرخ والعفار والكلخ ، والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما بالآخر ، ويسمون الأعلى الزند ، والأسفل الزندة ، شبهوهما بالفحل والطروقة ، أقوى الرجل دخل في الأرض القوا وهي القفر كأصحر دخل في الصحراء ، وأقوى من أقام أياماً لم يأكل شيئاً ، وأقوت الدار : صارت قفراء ، قال الشاعر :

يا دار مية بالعلياء فالسند ... أقوت وطال عليها سالف الأمد(٣)

يدهن لان ، وداهن فيما لا يجمل عند المداهن ، وقال الشاعر :

الحزم والقوة خير من الـ ... إدهان والفكهة والهاع(٤)

(الحلقوم) مجرى الطعام ، (الروح) الاستراحة ، (الريحان) تقدم في سورة الرحمن ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، في سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ، قل إن الأولين والآخرين ، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ، ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ، لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين ، نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ، أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون ، إنا لمغرمون ، بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذي تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ، أفرأيتم النار التي تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ، فسبح باسم ربك العظيم ﴾ لما ذكر حال السابقين ،

---

(١) البيت من الطويل لذي الرمة ، انظر ديوانه ٢١٦ ، الكشاف ٤/ ٤٦٣ ، روح المعاني ٢٧/ ١٤٦ .
(٢) تقدم .
(٣) تقدم .
(٤) البيت من مجزوء البسيط لأبي قيس بن الأسلت الأنصاري ، انظر المفضليات ٥٦٨ .

وأتبعهم بأصحاب اليمين، ذكر حال أصحاب المشأمة، فقال: ﴿وأصحاب الشمال﴾ وتقدم إعراب نحو هذه الجملة، وفي هذا الاستفهام تعظيم مصابهم. ﴿في سموم﴾ في أشد حر. ﴿وحميم﴾ ماء شديد السخونة. ﴿وظل من يحموم﴾ قال ابن عباس ومجاهد وأبو مالك وابن زيد والجمهور: دخان، وقال ابن عباس أيضاً هو سرادق النار المحيط بأهلها، يرتفع من كل ناحية حتى يظلهم. وقال ابن كيسان: اليحموم من أسماء جهنم. وقال ابن زيد أيضاً وابن بريدة: هو جبل في النار أسود، يفزع أهل النار إلى ذراه، فيجدونه أشد شيء. وأمر ﴿لا بارد ولا كريم﴾ صفتان للظل، نفيا سمي ظلاً، وإن كان ليس كالظلال. ونفى عنه برد الظل ونفعه لمن يأوي إليه. ولا كريم تتميم لنفي صفة المدح فيه، وتمحيق لما يتوهم في الظل من الاسترواح إليه عند شدة الحر، أو نفي لكرامة من يستروح إليه. ونسب إليه مجازاً، والمراد هم أي يستظلون إليه وهم مهانون. وقد يحصل المجلس الرديء لنيل الكرامة. وبدىء أولاً بالوصف الأصلي الذي هو الظل، وهو كونه من يحموم فهو بعض اليحموم، ثم نفى عنه الوصف الذي يبغي له الظل، وهو كونه لا بارداً ولا كريماً. وقد يجوز أن يكون ﴿لا بارد ولا كريم﴾ صفة ليحموم، ويلزم منه أن يكون الظل موصوفاً بذلك. وقرأ الجمهور ﴿لا بارد ولا كريم﴾ بجرهما، وابن أبي عبلة برفعهما، أي لا هو بارد ولا كريم على حد قوله، فأبيت لا حرج ولا محروم، أي لا أنا حرج.

﴿إنهم كانوا قبل ذلك﴾ أي في الدنيا مترفين، فيه ذم الترف والتنعم في الدنيا، والترف طريق إلى البطالة، وترك التفكر في العاقبة. ﴿وكانوا يصرون﴾ أي يداومون ويواظبون على الحنث العظيم. قال قتادة والضحاك وابن زيد: الشرك، وهو الظاهر. وقيل ما تضمنه قوله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ الآية من التكذيب بالبعث. ويبعده وكانوا يقولون، فإنه معطوف على ما قبله، والعطف يقتضي التغاير، فالحنث العظيم الشرك، فقولهم ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون﴾ تقدم الكلام عليه في والصافات. وكرر الزمخشري هنا وهمه فقال: (فإن قلت): كيف حسن العطف على المضمر في لمبعوثون من غير تأكيد بنحن؟ (قلت): حسن للفاصل الذي هو الهمزة، كما حسن في قوله ﴿ما أشركنا ولا آباؤنا﴾ لفصل لا المؤكدة للنفي. انتهى. ورددنا عليه هنا، وهناك إلى مذهب الجماعة في أنهم لا يقدرون بين همزة الاستفهام وحرف العطف فعلاً، في نحو ﴿أفلم يسيروا﴾ ولا سيما في نحو ﴿أو آباؤنا﴾ بل الواو والفاء لعطف ما بعدها على ما قبلها، والهمزة في التقدير متأخرة عن حرف العطف، لكنه لما كان الاستفهام له صدر الكلام قدمت. ولما ذكر تعالى استفهامهم عن البعث على طريق الاستبعاد والإنكار، أمر تعالى نبيه ﷺ أن يخبرهم ببعث العالم أولهم وآخرهم للحساب، وما يصل إليه المكذبون للبعث من العذاب. ﴿إلى ميقات﴾ ما وقت به الشيء، أي حد. أي إلى ما وقتت به الدنيا من يوم معلوم. والإضافة بمعنى من كخاتم حديد. ﴿ثم إنكم﴾ خطاب لكفار قريش، أيها الضالون عن الهدى، المكذبون للبعث، ويخاطب أيضاً من جرى مجراهم في ذلك. ﴿لآكلون من شجر من زقوم﴾ من الأولى لابتداء الغاية، أو للتبعيض، والثانية إن كان من زقوم بدلاً، فمن تحتمل الوجهين، وإن لم يكن بدلاً، فهي لبيان الجنس، أي من شجر الذي هو زقوم. وقرأ الجمهور ﴿من شجر﴾ وعبد الله ﴿من شجرة﴾. ﴿فمالئون منها﴾ الضمير في منها عائد على شجر، إذ هو اسم جنس يؤنث ويذكر، وعلى قراءة عبد الله فهو واضح. ﴿فشاربون عليه﴾ قال الزمخشري: ذكر على لفظ الشجر كما أنث على المعنى في منها. قال: ومن قرأ ﴿من شجرة من زقوم﴾ فقد جعل الضميرين للشجرة، وإنما ذكر الثاني على تأويل الزقوم، لأنه يفسرها وهي في معناه. وقال ابن عطية: والضمير في عليه عائد على المأكول، أو على الأكل. انتهى. فلم يجعله عائداً على شجر. وقرأ نافع وعاصم وحمزة ﴿شُرب﴾ بضم الشين وهو مصدر، وقيل اسم لما يشرب. ومجاهد وأبو عثمان النهدي بكسرها، وهو بمعنى المشروب اسم لا مصدر، كالطحن والرعي. والأعرج وابن المسيب وشعيب بن الحبحاب ومالك بن دينار وابن جريج وباقي السبعة بفتحها، وهو مصدر مقيس. ﴿الهيم﴾ قال ابن عباس ومجاهد

على الشيء : أعجزته عنه وغلبته عليه ولم أمكنه منه ، فمعنى { وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم } أي نحن قادرون على ذلك لا تغلبوننا عليه إن أردنا ذلك ، وقال الطبري : المعنى نحن قادرون قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم ، أي نميت طائفة ونبدلها بطائفة ، هكذا قرناً بعد قرن ، انتهى ، فعلى أن نبدل متعلق بقوله { نحن قدرنا } وعلى القول الأول متعلق بمسبوقين ، أي لا يسبقنا أحد على أن نبدل أمثالكم ، وأمثالكم جمع مثل . { وننشئكم فيما لا تعلمون } من الصفات ، أي نحن قادرون على أن نعدمكم ، وننشئ أمثالكم وعلى تغيير أوصافكم مما لا يحيط به فكركم ، وقال الحسن : من كونكم قردة وخنازير في ذلك ، لأن الآية تنحو إلى الوعيد ، ويجوز أن يكون أمثالكم جمع مثل ، يعني الصفة ، أي نحن قادرون على أن نغير صفاتكم التي أنتم عليها خلقاً وخلقاً ، وننشئكم في صفات لا تعرفونها . { ولقد علمتم النشأة الأولى } أي علمتم أنه هو الذي أنشأكم أولاً إنشاءً ، وقيل : نشأة آدم ، وأنه خلق من طين ولا ينكرها أحد من ولده . { فلولا تذكرون } حض على التذكير المؤدي إلى الإيمان والإقرار بالنشأة الآخرة ، وقرأ الجمهور { تذكرون } بشد الذال ، وطلحة بتخفيفها وضم الكاف ، قالوا : وهذه الآية دالة على استعمال القياس والحض عليه انتهى ، ولا تدل إلا على قياس الأولى ، لا على جميع أنواع القياس . { أفرأيتم ما تحرثون } من الحرث في الأرض وتبذرونه { أأنتم تزرعونه } أي تجعلونه زرعاً وينبت حتى ينتفع به ، والحطام اليابس المتفتت الذي لم يكن فيه حب ينتفع به . { فظلتم تفكهون } قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : تعجبون ، وقال عكرمة : تلاومون ، وقال الحسن : تندمون ، وقال ابن زيد : تتفجعون ، وهذا كله تفسير باللازم ، ومعنى تفكهون : تطرحون الفكاهة عن أنفسكم وهي المسرة ، ورجل فكه منبسط النفس غير مكترث بشيء ، وتفكه من أخوات تحرج وتحوب ، وقرأ الجمهور { فظلتم } بفتح الظاء ولام واحدة ، وأبو حيوة وأبو بكر في رواية العتكي عنه بكسرها ، كما قالوا مست بفتح الميم وكسرها ، وحكاها الثوري عن ابن مسعود ، وجماعة عن الأعمش ، وقرأ عبد الله والجحدري { فظللتم } على الأصل بكسر اللام ، وقرأ الجحدري أيضاً بفتحها ، والمشهور ظللت بالكسر ، وقرأ الجمهور { تفكهون } وأبو حرام بالنون بدل الهاء ، قال ابن خالويه تفكه : تعجب وتفكن تندم . { إنا لمغرمون } قبله محذوف ، أي : يقولون ، وقرأ الجمهور { إنا } والأعمش والجحدري وأبو بكر { أئنا } بهمزتين { لمغرمون } أي : معذبون من الغرام ، وهو أشد العذاب قال :

إن يعذب يكن غراماً وإن يعـ ... ـط جزيلاً فإنه لا يبالي[1]

أو لمحملون الغرم في النفقة ، إذ ذهب عنا غرم الحرث والغرمة . { بل نحن محرومون } محدودون لا حظ لنا في الخير . { الماء الذي تشربون } هذا الوصف يغني عن وصفه بالعذاب ، ألا ترى مقابله وهو الأجاج ، ودخلت اللام في { لجعلناه حطاماً } وسقطت في قوله { جعلناه أجاجاً } وكلاهما فصيح ، وطول الزمخشري في مسوغ ذلك ، وملخصه أن الحرف إذا كان في مكان وعرف واشتهر في ذلك المكان جاز حذفه لشهرة أمره ، فإن اللام علم لارتباط الجملة الثانية بالأولى فجاز حذفه استغناء بمعرفة السامع ، وذكر في كلامه أن الثاني امتنع لامتناع الأول ، وليس كما ذكر ، إنما هذا قول ضعفاء المعربين ، والذي ذكره سيبويه أنها حرف لما كان سيقع لوقوع الأول ، ويفسد قول أولئك الضعفاء قولهم : لو كان إنساناً لكان حيواناً ، فالحيوانية لا تمتنع لامتناع الإنسانية ، ثم قال : ويجوز أن يقال : إن هذه اللام مفيدة معنى التوكيد لا محالة ، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب للدلالة على أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب ، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم ، ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب ، والظاهر أن { شجرتها } المراد به الشجر الذي يقدح منه النار ، وقيل : المراد بالشجرة نفس النار ، كأنه يقول نوعها أو جنسها ،

---

(١) البيت من الخفيف للأعشى ، انظر ديوانه ١٦٧ وروح المعاني ٢٧/١٤٩ .

باستعمال الشجرة لذلك، وهذا قول متكلف. ﴿نحن جعلناها تذكرة﴾ أي: لنار جهنم ﴿ومتاعاً للمقوين﴾ أي: النازلين الأرض القفر، وهي القواء[1]، وقيل: للمسافرين[2] وهو قريب مما قبله، وقول ابن زيد للجائعين ضعيف جداً، وقدم من فوائد النار ما هو أهم وآكد من تذكيرها بنار جهنم، ثم أتبعه بمنفعتها في الدنيا، وهذه الأربعة التي ذكرها الله تعالى ووقفهم عليها من أمر خلقهم وما به قوام عيشتهم من المطعوم والمشروب، والنار من أعظم الدلائل على البعث، وفيها انتقال من شيء إلى شيء، وإحداث شيء من شيء، ولذلك أمر في آخرها بتنزيهه تعالى عما يقول الكافرون، ووصف تعالى نفسه بالعظيم، إذ من هذه أفعاله تدل على عظمته وكبريائه وانفراده بالخلق والإنشاء، قوله عز وجل.

﴿فلا أقسم بمواقع النجوم ● وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ● إنه لقرآن كريم ● في كتاب مكنون ● لا يمسه إلا المطهرون ● تنزيل من رب العالمين ● أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ● وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ● فلولا إذا بلغت الحلقوم ● وأنتم حينئذ تنظرون ● ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ● فلولا إن كنتم غير مدينين ● ترجعونها إن كنتم صادقين ● فأما إن كان من المقربين ● فروح وريحان وجنة نعيم ● وأما إن كان من أصحاب اليمين ● فسلام لك من أصحاب اليمين ● وأما إن كان من المكذبين الضالين ● فنزل من حميم ● وتصلية جحيم ● إن هذا لهو حق اليقين ● فسبح باسم ربك العظيم﴾ قرأ الجمهور ﴿فلا أقسم﴾ فقيل: لا زائدة مؤكدة مثلها في قوله ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ [الحديد ٢٩] والمعنى: فأقسم، وقيل: المنفي المحذوف، أي: فلا صحة لما يقول الكفار، ثم ابتدأ أقسم، قاله سعيد بن جبير وبعض النحاة، ولا يجوز، لأن في ذلك حذف اسم لا وخبرها، وليس جواباً لسائل سأل، فيحتمل ذلك نحو قوله: لا، لمن قال هل من رجل في الدار؟ وقيل: توكيد مبالغة ما وهي كاستفتاح كلام شبهه في القسم إلا في شائع الكلام القسم وغيره ومنه:

فلا وأبي أعدائها لا أخونها[3]

والأولى عندي أنها لام أشبعت فتحتها فتولدت منها ألف كقوله:

أعوذ بالله من العقراب[4]

وهذا وإن كان قليلاً فقد جاء نظيره في قوله ﴿فاجعل أفئدة من الناس﴾ [إبراهيم ٣٧] بياء بعد الهمزة، وذلك في قراءة هشام، فالمعنى ﴿فلأقسم﴾ كقراءة الحسن وعيسى، وخرج قراءة الحسن أبو الفتح على تقدير مبتدأ محذوف، أي: فلأنا أقسم، ونبه على ذلك الزمخشري، وإنما ذهب إلى ذلك لأنه فعل حال، وفي القسم عليه خلاف، فالذي اختاره ابن عصفور وغيره أن فعل الحال لا يجوز أن يقسم عليه، فاحتاجوا إلى أن يصيروه الفعل خبر المبتدأ محذوف، فتصير الجملة اسمية، فيقسم عليها، وذهب بعض النحويين إلى أن جواز القسم على فعل الحال وهذا الذي اختاره، فتقول: والله ليخرج زيد وعليه قول الشاعر

---

(١) انظر الوسيط ٤/٢٣٤ والبغوي ٤/٢٨٩ وفتح القدير ٥/١٥٨.

(٢) انظر المصادر السابقة.

(٣) صدر بيت من الطويل لم نجد قائله، ذكره السمين الحلبي في الدر المصون.

(٤) صدر بيت من الرجز لم نجد قائله، وعجزه:

. . . . . . الشائلات عقد الأذناب

انظر السمين ٦/٣٢.

وذلك أنه إذا كان خبراً فهو في موضع الصفة، وقوله بعد ذلك (تنزيل) صفة، فإذا جعلناه نهياً جاء معناه أجنبياً معترضاً بين الصفات، وذلك لا يحسن في رصف الكلام فتدبره، وفي حرف ابن مسعود (ما يمسه) وهذا يقوي ما رجحته من الخبر الذي معناه حقه وقدره أن لا يمسه إلا طاهراً انتهى، ولا يتعين أن يكون (تنزيل) صفة، بل يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، فيحسن إذ ذاك أن يكون (لا يمسه) نهياً، وذكروا هنا حكم مس المصحف، وذلك مذكور في الفقه، وليس في الآية دليل على منع ذلك، وقرأ الجمهور (المُطَهَّرُونَ) اسم مفعول من طهر مشدداً، وعيسى كذلك مخففاً من أطهر، ورويت عن نافع وأبي عمرو، وقرأ سلمان الفارسي المُطْهِرُونَ بخف الطاء وشد الهاء وكسرها اسم فاعل من طهر، أي: المطهرين أنفسهم، وعنه أيضاً (المُطَّهِّرُونَ) بشدهما أصله المتطهرون، فأدغم التاء في الطاء، ورويت عن الحسن وعبد الله بن عوف، وقرىء (المتطهرون)، وقرىء (تنزيلاً) بالنصب أي: نزل تنزيلاً، والإشارة في (أفبهذا الحديث) للقرآن و(أنتم) خطاب للكفار (مدهنون)، قال ابن عباس: مهاودون فيما لا يحل، وقال أيضاً: مكذبون (وتجعلون رزقكم) أي: شكر ما رزقكم الله من إنزال القرآن عليكم تكذيبكم به، أي: تضعون مكان الشكر التكذيب ومن هذا المعنى قول الراجز:

وكان شكر القوم عند المنن كيّ الصحيحات وفقء الأعين(١)

وقرأ علي وابن عباس (وتجعلون شكركم) وذلك على سبيل التفسير لمخالفته السواد، وحكى الهيثم بن عدي أن من لغة أزد شنوءة: ما رزق فلان فلاناً بمعنى ما شكره، وقيل: نزلت في الأنواء ونسبة السقيا إليها والرزق المطر فالمعنى: ما يرزقكم الله من الغيث، وقال ابن عطية: أجمع المفسرون على أن الآية توبيخ للقائلين في المطر: هذا بنوء كذا وكذا، وهذا بنوء الأسد، وهذا بنوء الجوزاء، وغير ذلك، وقرأ الجمهور (تكذبون) من التكذيب، وعلي والمفضل عن عاصم من الكذب، فالمعنى من التكذيب إنه ليس من عند الله، أي: القرآن أو المطر حيث ينسبون ذلك إلى النجوم، ومن الكذب قولهم في القرآن: سحر وافتراء، وفي المطر: من الأنواء، (فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون)، قال الزمخشري: ترتيب الآية، فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين، فلولا الثانية مكررة للتوكيد والضمير في (ترجعونها) للنفس، وقال ابن عطية: توقيف على موضع عجز يقتضي النظر فيه أن الله مالك كل شيء، و(أنتم) إشارة إلى جميع البشر (حينئذ) حين إذ بلغت الحلقوم (تنظرون) أي: إلى النازع في الموت، وقرأ عيسى (حينئذٍ) بكسر النون اتباعاً لحركة الهمزة في إذ (ونحن أقرب إليه منكم) بالعلم والقدرة، (ولكن لا تبصرون) من البصيرة بالقلب، أو أقرب، أي: ملائكتنا ورسلنا (ولكن لا تبصرون) من البصر بالعين، ثم عاد التوقيف والتقرير ثانية بلفظ التحضيض، والمدين: المملوك، قال الأخطل:

ربت وربا في حجرها ابن مدينة

قيل: ابن مملوكة يصف عبداً ابن أمة وآخر البيت:

تراه على مسحاته يتركل

والمعنى: فلولا ترجعون النفس البالغة إلى الحلقوم إن كنتم غير مملوكين وغير مقهورين، إذ كنتم صادقين في تعطيلكم، وكفركم بالمحيي المميت المبدىء المعيد، إذ كنتم فيما ذهبتم إليه من أن القرآن سحر وافتراء وأن ما نزل من المطر

---

(١) البيت من الرجز، ذكره السمين في الدر المصون.

هو بموته كذا ، تعطيل للصانع وتعجيز له . وقال ابن عطية : وقوله (ترجعونها) سد مسد جوابها ، والبيانات التي تقتضيها التحضيضات ، و (إذا) من قوله (فلولا إذا) وإن المتكررة ، وحمل بعض القول بعضاً إيجازاً واقتصاراً انتهى . وتقول : إنها ليست شرطية ، فقوله (ترجعونها) سد مسد جوابها ، بل هي ظرف عن شرط معمول لـ (ترجعونها) المحذوف بعد (فلولا) لدلالة (ترجعونها) في التحضيض الثاني عليه ، فجاء التحضيض الأول مقيداً بوقت بلوغ الحلقوم ، وجاء التحضيض الثاني معلقاً على انتفاء مربوبيتهم ، وهم لا يقدرون على رجوعها ، إذ مربوبيتهم موجودة ، فهم مقهورون لا قدرة لهم (فأما إن كان) أي : المتوفى (من المقربين) وهم السابقون . وقرأ الجمهور (فَرَوْحٌ) بفتح الراء ، وقرأت عائشة عن النبي - ﷺ - وابن عباس والحسن وقتادة ونوح القارىء ، والضحاك ، والأشهب ، وشعيب بن الحبحاب ، وسليمان التيمي ، والربيع بن خثيم ، ومحمد بن علي ، وأبو عمران الجوني ، والكلبي ، وفياض ، وعبيد ، وعبد الوارث عن أبي عمرو ، ويعقوب بن حسان ، وزيد ، ورويس عنه بضمها ، قال الحسن : الروح : الرحمة ، لأنها كالحياة للمرحوم . وقال أيضاً : روحه تخرج في ريحان ، وقيل : الروح البقاء ، أي : فهذان له معاً ، وهو الخلود مع الرزق ، وقال مجاهد الريحان الرزق ، وقال الضحاك : الاستراحة ، وقال أبو العالية وقتادة والحسن أيضاً : الريحان هذا الشجر المعروف في الدنيا ، يلقى المقرب ريحاناً من الجنة ، وقال الخليل : هو طرف كل بقلة طيبة فيها أوائل النور ، وقال - ﷺ - في الحسن والحسين - رضي الله تعالى عنهما - : « هما ريحانتاي من الدنيا » ، وقال ابن عطية : الريحان ما تنبسط به النفوس (فروح) فسلام (فنزل) الفاء جواب ، أما تقدم (أما) وهي في تقدير الشرط ، وإن كان من المقربين ، وإن كان من أصحاب اليمين ، وإن كان من المكذبين الضالين ، شرط ، وإذا اجتمع شرطان كان الجواب للسابق منهما ، وجواب الثاني محذوف ، ولذلك كان فعل الشرط ماضي اللفظ ، أو مصحوباً بلم ، وأغنى عنه جواب (أما) هذا مذهب سيبويه ، وذهب أبو علي الفارسي إلى أن الفاء جواب (إن) ، وجواب (أما) محذوف ، وله قول موافق لمذهب سيبويه ، وذهب الأخفش إلى أن الفاء جواب (لأما) والشرط معاً ، وقد أبطلنا هذين المذهبين في كتابنا المسمى « بالتذييل والتكميل في شرح التسهيل » ، والخطاب في ذلك للرسول - ﷺ - أي : لا ترى فيهم يا محمد إلا السلامة من العذاب ، ثم لكل معتبر من أمته - ﷺ - قيل : لمن يخاطبه من أصحاب اليمين ، فقال الطبري : المعنى فسلام لك أنت من أصحاب اليمين ، وقال قوم : المعنى : فيقال لهم مسلم لك إنك من أصحاب اليمين ، وقيل : (فسلام لك) يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين ، أي : يسلمون عليك ، كقوله (إلا قيلاً سلاماً سلاماً) والمكذبون الضالون ، هم أصحاب المشأمة أصحاب الشمال ، وقرأ الجمهور (وتصلية) رفعاً عطفاً على (فنزل) وأحمد بن موسى والمنقري واللؤلؤي عن أبي عمرو بجر التاء عطفاً على (من حميم) ولما انقضى الإخبار بتقسيم أحوالهم ، وما آل إليه كل قسم منهم أكد ذلك بقوله (إن هذا) أي : إن هذا الخبر المذكور في هذه السورة هو حق اليقين ، فقيل : هو من إضافة المترادفين على سبيل المبالغة ، كما تقول : هذا يقين اليقين ، وصواب الصواب بمعنى : أنه نهاية في ذلك ، فهما بمعنى واحد ، أضيف على سبيل المبالغة ، وقيل : هو من إضافة الموصوف إلى صفته جعل الحق مبايناً لليقين ، أي : الثابت المتيقن ، ولما تقدم ذكر الأقسام الثلاثة مسهباً الكلام فيهم أمره تعالى بتنزيهه عن ما لا يليق به من الصفات ، ولما أعاد التقسيم موجزاً الكلام فيه أمره أيضاً بتنزيهه وتسبيحه ، والإقبال على عبادة ربه ، والإعراض عن أقوال الكفرة المنكرين للبعث والحساب والجزاء ، والظاهر أن سبح يتعدى تارة بنفسه ، كقوله ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ [الأعلى ١] ﴿ وتسبحوه ﴾ [الفتح ٩] وتارة بحرف الجر ، كقوله (فسبح باسم ربك العظيم) و (العظيم) يجوز أن يكون صفة للاسم ، ويجوز أن يكون صفة لـ (ربك) .

الأولية والآخرية، والثانية مثل أنه الجامع بين الظهور والخفاء، وأما الوصف فمعنى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين، ومجموع الصفتين الأخريين، فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية، وهو في جميعها ظاهر وباطن جامع الظهور بالأدلة والخفاء، فلا يدرك بالحواس. وفي هذا حجة على من جوز إدراكه في الآخرة بالحاسة. انتهى. وفيه دسيسة الاعتزال. ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾ من المطر والأموات وغير ذلك ﴿وما يخرج منها﴾ من النبات والمعادن وغيرها، ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الملائكة والرحمة والعذاب وغيره ﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة وصالح الأعمال وسيئها ﴿وهو معكم أين ما كنتم﴾ أي: بالعلم والقدرة. قال الثوري: المعنى علمه معكم. وهذه آية أجمعت الأمة على هذا التأويل فيها، وأنها لا تحمل على ظاهرها من المعية بالذات، وهي حجة على من منع التأويل في غيرها، مما يجري مجراها من استحالة الحمل على ظاهرها. وقال بعض العلماء: فيمن يمتنع من تأويل ما لا يمكن حمله على ظاهره، وقد تأول هذه الآية، وتأول «الحجر الأسود يمين الله في الأرض»: لو اتسع عقله لتأول غير هذا مما هو في معناه. وقرأ الجمهور ﴿ترجع﴾ مبنياً للمفعول، والحسن وابن أبي إسحاق والأعرج مبنياً للفاعل. و﴿الأمور﴾ عام في جميع الموجودات أعراضها وجواهرها، وتقدم شرح ما قبل هذا وما بعده فأغنى عن إعادته.

ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

لما ذكر تعالى تسبيح العالم له، وما احتوى عليه من الملك والتصرف، وما وصف به نفسه من الصفات العلا، وختمها بالعلم بخفيات الصدور، أمر تعالى عباده المؤمنين بالثبات على الإيمان ودوامه والنفقة في سبيل الله تعالى. قال الضحاك: نزلت في غزوة تبوك. ﴿مستخلفين فيه﴾ أي: ليست لكم بالحقيقة، وإنما انتقلت إليكم من غيركم، وكما وصلت إليكم تتركونها لغيركم. وفيه تزهيد فيما بيد الناس، إذ مصيره إلى غيره، وليس له منه إلا ما جاء في الحديث: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت». وقيل لأعرابي: لمن هذه الإبل؟ فقال: هي لله تعالى عندي. أو يكون المعنى: أنه تعالى أنشأ هذه الأموال فمتعكم بها، وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فأنتم فيها بمنزلة الوكلاء، فأنفقوا منها في حقوق الله تعالى. ثم ذكر تعالى ما للمؤمن المنفق من الأجر، ووصفه بالكبر يحصره في أنواع الثواب. قيل: وفيه إشارة إلى عثمان بن عفان، حيث بذل تلك النفقة العظيمة في جيش العسرة. ثم قال: ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله﴾ وهو استفهام على سبيل التأنيب والإنكار، أي: كيف لا تثبتون على الإيمان ودواعي ذلك موجودة، وذلك ركزه فيكم من دلائل العقل، وموجب ذلك من السمع في قوله ﴿والرسول يدعوكم﴾ بهذا الوصف الجليل، وقد تقدم أخذ الميثاق عليكم بالإيمان، فدواعي الإيمان موجودة، وأسبابه حاصلة، فلا مانع منه، ولا عذر في تركه. و﴿لا تؤمنون﴾ حال كما تقول: مالك لا تقوم، تنكر عليه انتفاء قيامه

﴿ والرسول ﴾ الواو واو الحال، فالجملة بعده حال ﴿ وقد أخذ ﴾ حال ثالثة، وهذا الميثاق قيل: هو الذي أخذ عليهم حين الإخراج من ظهر آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقيل: ما نصب من الأدلة وركز في العقول من النظر فيها، ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ شرط وجوابه محذوف، أي: إن كنتم مؤمنين لموجب ما، فهذا هو الموجب لإيمانكم، أو إن كنتم ممن يؤمن فما لكم لا تؤمنون والحالة هذه، وهي دعاء الرسول وأخذ الميثاق، وقال الطبري: إن كنتم مؤمنين في حال من الأحوال فالآن، وقرأ الجمهور ﴿ وقد أَخَذَ ﴾ مبنياً للفاعل ﴿ ميثاقَكم ﴾ بالنصب، وأبو عمرو مبنياً للمفعول ﴿ ميثاقُكم ﴾ رفعاً، وقال ابن عطية في قوله إن كنتم مؤمنين وإنما المعنى أن قوله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين يقتضي أن يقدر بإثره، فأنتم في رتب شريفة وأقدار رفيعة ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي: إن دمتم على ما بدأتم به، ولما ذكر توطئة ما يوجب الإيمان دعاء الرسول إياهم للإيمان، ذكر أنه تعالى هو المنزل على رسوله ـ ﷺ ـ ما دعا به إلى الإيمان، وتلك الآيات البينات المعجزات، ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، أي: الله تعالى، إذ هو المحدث عنه أو الرسول ـ ﷺ ـ لأنه أقرب، وقرىء في السبعة ﴿ ينزل ﴾ مضارعاً مخففاً مثقلاً، ومخففاً حفص، وقراءة الحسن بالوجهين، وزيد بن علي والأعمش ﴿ أنزل ﴾ ماضياً، ووصف نفسه تعالى بالرأفة والرحمة، تأنيساً لهم ولما كان قد أمرهم بالإيمان والإنفاق، ثم ترك تأنيبهم على ترك الإيمان مع حصول موجبه، أنبهم على ترك الإنفاق في سبيل الله مع قيام الداعي لذلك، وهو أنهم يموتون فيخلفونه، ونبه على هذا الموجب بقوله ﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾ وهذا من أبلغ البعث على الإنفاق و﴿ أن لا تنفقوا ﴾ تقديره: في أن لا تنفقوا، فموضعه جر، أو نصب على الخلاف، وأن ليست زائدة، بل مصدرية، وقال الأخفش في قوله ﴿ وما لنا أن لا نقاتل ﴾ [البقرة ٢٤٦] إن زائدة عاملة تقديره عنده: وما لنا لا نقاتل فكذلك على مذهبه في هذه تكون أن زائدة وتقديره: وما لكم لا تنفقون، وقد رد مذهبه في كتب النحو ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾، قيل: نزلت في أبي بكر ـ رضي الله تعالى عنه إذ كان أول من أسلم وهاجر وأنفق ـ رضي الله تعالى عنه ـ وكذا من تابعه في السبق في ذلك[١]، ولذلك قال ﴿ أولئك أعظم درجة ﴾ وقيل: نزلت بسبب أن ناساً من الصحابة أنفقوا نفقات جليلة، حتى قيل: إن هؤلاء أعظم أجراً من كل من أنفق[٢] وهذه الجملة تضمنت تبيين ما بين المنفقين، وقرأ الجمهور ﴿ من قبل الفتح ﴾ وزيد بن علي قبل: بغير ﴿ من ﴾ والفتح: فتح مكة، وهو المشهور، وقول قتادة وزيد بن أسلم ومجاهد، وقال أبو سعيد الخدري والشعبي: هو فتح الحديبية، وقد تقدم في أول سورة الفتح كونه فتحاً ورفعه أبو سعيد إلى النبي ـ ﷺ ـ: إن أفضل ما بين الهجرتين فتح الحديبية، والظاهر أن ﴿ من ﴾ فاعل ﴿ لا يستوي ﴾ وحذف مقابله، وهو: ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، لوضوح المعنى، ﴿ أولئك ﴾ أي: الذين أنفقوا قبل الفتح، وقبل انتشار الإسلام وفشوه واستيلاء المسلمين على أم القرى، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين جاء في حقهم قوله ـ ﷺ ـ: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[٣] وأبعد من ذهب إلى أن الفاعل بـ ﴿ لا يستوي ﴾ ضمير يعود على الإنفاق، أي: لا يستوي هو الإنفاق، أي: جنسه إذ منه ما هو قبل الفتح وبعده، و﴿ من أنفق ﴾ مبتدأ، و﴿ أولئك ﴾ مبتدأ خبره ما بعده، والجملة في موضع خبر ﴿ من ﴾ وفيه تفكيك للكلام، وخروج عن الظاهر لغير موجب وحذف المعطوف لدلالة المقابل كثير، فأنفق لا بد له من المعطوف الذي يقتضيه وضع الفعل وهو ﴿ يستوي ﴾ وقرأ الجمهور ﴿ وكلاً ﴾ بالنصب وهو المفعول الأول لـ ﴿ وعد ﴾ وقرأ ابن عامر وعبد الوارث من طريق المادراي[١] ﴿ وكلٌ ﴾ بالرفع والظاهر أنه مبتدأ، والجملة بعده في موضع الخبر، وقد أجاز ذلك الفراء وهشام، ويرد في

---

(١) انظر الوسيط ٤/٢٤٠ والرازي ٢٩/١٩٥ والخازن ٧/٢٤ وابن كثير ٤/٣٠٧.

(٢) انظر المصادر السابقة.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣/١١ وابن أبي عاصم في السنة ٢/٤٧٨ وذكره الهيثمي في المجمع ١٠/١٨ وعزاه لأحمد وقال: فيه ابن لهيعة.

السبعة فوجب قبوله، وإن كان غيرهما من النحاة قد خص حذف الضمير الذي حذف من مثل (وعد) بالضرورة. وقال الشاعر :

وَخَالِدٌ نَحْمَدُ سَادَاتُنَا   بِالْحَقِّ لَا نَحْمَدُ بِالْبَاطِلِ[1]

يريد نحمده ساداتنا، وفر بعضهم من جعل (وعد) خبراً فقال : كل خبر مبتدأ تقديره : وأولئك كل و (وعد) صفة، وحذف الضمير المنصوب من الجملة الواقعة صفة أكثر من حذفه منها إذا كانت خبراً نحو قوله :

وَمَا أَدْرِي أَغَيَّرَهُمْ تَنَاءٍ   وَطُولُ الْعَهْدِ أَمْ مَالٌ أَصَابُوا[2]

يريد : أصابوه، فأصابوه صفة المال، وقد حذف الضمير العائد على الموصوف، و (الحسنى) تأنيث الأحسن، وفسره مجاهد وقتادة بالجنة، والوعد يتضمن ذلك في الآخرة، والنصر والغنيمة في الدنيا (والله بما تعملون خبير) فيه وعد ووعيد، وتقدم الكلام على مثل قوله ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ﴾ [البقرة ٢٤٥] إعراباً وتفسيراً في سورة البقرة، وقال ابن عطية : هذا الرفع يعني في (يضاعفه) على العطف، أو على القطع والاستئناف، وقرأ عاصم (فيضاعفه) بالنصب بالفاء على جواب الاستفهام، وفي ذلك قلق. قال أبو علي يعني الفارسي : لأن السؤال لم يقع على القرض، وإنما وقع السؤال على فاعل القرض وإنما تنصب الفاء فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه، لكن هذه الفرقة - يعني من القراء - حملت ذلك على المعنى، كأن قوله (من ذا الذي يقرض) بمنزلة أن لو قال : أيقرض الله أحد فيضاعفه انتهى، وهذا الذي ذهب إليه أبو علي من أنه إنما تنصب الفاء فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه ليس بصحيح، بل يجوز إذا كان الاستفهام بأدواته الإسمية نحو : من يدعوني فأستجيب له، وأين بيتك فأزورك، ومتى تسير فأرافقك، وكيف تكون فأصحبك، فالاستفهام هنا وقع عن ذات الداعي، وعن ظرف المكان وظرف الزمان، والحال لا عن الفعل، وحكى ابن كيسان عن العرب : أين ذهب زيد فنتبعه ؟ وكذلك كم مالك فنعرفه ؟ ومن أبوك فنكرمه ؟ بالنصب بعد الفاء، وقراءة (فيضاعفه) بالنصب قراءة متواترة، والفعل وقع صلة للذي، والذي صفة لذا، وذا خبر لمن، وإذا جاز النصب في نحو هذا فجوازه في المثل السابقة أحرى، مع أن سماع ابن كيسان ذلك محكياً عن العرب، ويؤيد ذلك، والظاهر أن قوله (وله أجر كريم) هو زيادة على التضعيف المترتب على القرض، أي : وله مع التضعيف أجر كريم قوله عز وجل :

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ

= وحديث حسن، ورجاله رجال الصحيح وقد صحح حديثه الشيخ شاكر - رحمه الله -.

(١) انظر البيت في المغني رقم (٨٤٤) وروح المعاني ١٦٦/١٧

(٢) البيت من السريع لم نهتد لقائله، حاشية الدسوقي على المغني ٢٤٣/٢

وقيل : حاجز عمرو ، وقرأ الجمهور (فضرب) مبنياً للمفعول ، وقرأ زيد بن علي وعبيد بن عمير مبنياً للفاعل ، أي : الله ويبعد قول من قال : إن هذا السور هو الجدار الشرقي من مسجد بيت المقدس ، وهو مروي عن عبادة بن الصامت ، وابن عباس وعبد الله بن عمرو وكعب الأحبار ، ولعله لا يصح عنهم ، والسور هو الحاجز الذي في المدينة للحفظ من عدو ، والظاهر في باطنه أنه يعد الصحيح منه من الباب لقربه ، وقيل : على السور ، وباطنه الشق الذي لأهل الجنة ، وظاهره ما يلي من قبله من جهة العذاب ، (ينادونهم) استئناف إخبار أي : ينادي المنافقون المؤمنين (ألم نكن معكم) أي : في الظاهر (قالوا بلى) أي : كنتم معنا في الظاهر (ولكنكم فتنتم أنفسكم) أي : عرضتموها للفتنة بنفاقكم (وتربصتم) أي : بالمؤمنين حتى وابيتم على الكفر ، أو (تربصتم) بالمؤمنين الدوائر ، فيه نقدد (وارتبتم) شككتم في أمر الدين (وغرتكم الأماني) وهي الأطماع مثل قولهم : سيهلك محمد هذا العام ، تهزمه قبيلة قريش ستأخذه الأعراب إلى غير ذلك ، أو طول الآمال في امتداد الأعمار (حتى جاء أمر الله) وهو الموت على النفاق ، و (الغرور) الشيطان بإجماع ، وقرأ سماك بن حرب (الغرور) وتقدم ذلك . (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية) أيها المنافقون والناصب لليوم معنى النفي مثلاً ، وفيه حجة على من منع ذلك (ولا من الذين كفروا) وفي الحديث : « إن الله تعالى يقول للكافر يوم يبعث له : أرأيت لو كان لك أضعاف الدنيا أكنت تفتدي بجميع ذلك من عذاب النار ؟ فيقول : نعم يا رب ، فيقول الله تبارك وتعالى : قد سألتك ما هو أيسر من ذلك ، وأنت في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك » ، وقرأ الجمهور (لا يؤخذ) وأبو جعفر والحسن وابن أبي إسحاق والأعرج وابن عامر وهارون عن أبي عمرو بالتاء لتأنيث الفدية . (هي مولاكم) قيل : أولى بكم ، وهذا تفسير معنى ، وكانت مولاهم من حيث إنها تضمهم وتباشرهم ، وهي تكون لكم مكان المولى ونحوه قوله :

تحية بينهم ضرب وجيع

وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد هي ناصركم ، أي : لا ناصر لكم غيرها ، والمراد نفي الناصر على البتات ، ونحوه قولهم : أصيب فلان بكذا ، فاستنصر الجزع ، ومنه قوله تعالى ﴿ يغاثوا بماء كالمهل ﴾ [الكهف ٢٩] وقيل : تتولاكم كما توليتم في الدنيا أعمال أهل النار ، قوله عز وجل

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۝ ﴾

الإحرام مع الإمام . وقال علي : كن أول داخل في المسجد ، وآخر خارج ، واستدل بهذا السبق على أن أول أوقات الصلوات أفضل ، وجاء لفظ سابقوا كأنهم في مضمار يجرون إلى غاية مسابقين إليها . ﴿ عرضها ﴾ أي : مساحتها في السعة كما قال : ﴿ فذو دعاء عريض ﴾ [فصلت : ٥١] أو العرض خلاف الطول ، فإذا وصف العرض بالبسطة عرف أن الطول أبسط وأمد . ﴿ أعدت ﴾ يدل على أنها مخلوقة ، وتكرر ذلك في القرآن يقوي ذلك ، والسنة ناصة على ذلك ، وذلك يرد على المعتزلة في قولهم : إنها الآن غير مخلوقة وستخلق . ﴿ ذلك ﴾ أي : الموعود من المغفرة والجنة ﴿ فضل الله ﴾ عطاؤه ﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ وهم المؤمنون . ﴿ ما أصاب من مصيبة ﴾ أي : مصيبة ، وذكر فعلها وهو جائز التذكير والتأنيث ، ومن التأنيث ﴿ ما تسبق من أمة أجلها ﴾ [الحجر ٥] ولفظ مصيبة يدل على الشر ، لأن عرفها ذلك . قال ابن عباس ما معناه : أنه أراد عرف المصيبة ، وهو استعمالها في الشر ، وخصصها بالذكر لأنها أهم على البشر ، والمصيبة في الأرض مثل القحط ، والزلزلة ، وعاهة الزرع ، وفي الأنفس الأسقام والموت ، وقيل : المراد بالمصيبة الحوادث كلها من خير وشر ﴿ إلا في كتاب ﴾ هو اللوح المحفوظ ، أي : مكتوبة فيه ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ أي : نخلقها ، برأ : خلق ، والضمير في نبرأها الظاهر أنه يعود على المصيبة ، لأنها هي المحدث عنها ، وذكر الأرض والأنفس هو على سبيل محل المصيبة ، وقيل : يعود على الأرض ، وقيل : على الأنفس قاله ابن عباس وقتادة وجماعة ، وذكر المهدوي جواز عود الضمير على جميع ما ذكر . قال ابن عطية . وهي كلها معان صحاح ، لأن الكتاب السابق أزلي قبل هذه كلها انتهى . ﴿ إن ذلك ﴾ أي : تحصيل كل ما ذكر في كتاب ، وتقديره : ﴿ على الله يسير ﴾ أي : سهل ، وإن كان عسيراً على العباد ، ثم بين تعالى الحكمة في إعلامنا بذلك الذي فعله من تقدير ذلك وسبق قضائه به ، فقال : ﴿ لكيلا تأسوا ﴾ أي : تحزنوا ﴿ على ما فاتكم ﴾ لأن العبد إذا أعلم ذلك سلم ، وعلم أن ما فاته لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، فلذلك لا يحزن على ما فات لأنه ليس بصدد أن يفوته فهون عليه أمر حوادث الدنيا بذلك ، إذ قد وطن نفسه على هذه العقيدة ، ويظهر أن المراد بقوله : ﴿ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ﴾ [آل عمران ١٥٣] أنه يلحق الحزن الشديد على ما فات من الخير ، فيحدث عنه التسخط ، وعدم الرضا بالمقدور ﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ أن يفرح الفرح المؤدي إلى البطر المنهي عنه في قوله تعالى : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ [القصص ٧٦] فإن الحزن قد ينشأ عنه البطر ، ولذلك ختم بقوله ﴿ والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ فالفرح بما ناله من حطام الدنيا يلحقه في نفسه الخيلاء ، والافتخار ، والتكبر على الناس ، فمثل هذا هو المنهي عنه ، وأما الحزن على ما فات من طاعة الله ، والفرح بنعم الله والشكر عليها والتواضع فهو مندوب إليه . وقال ابن عباس : ليس أحد إلا يحزن ويفرح ، ولكن من أصابته مصيبة فجعلها صبراً ، ومن أصاب خيراً جعله شكراً ، انتهى . يعني هو المحمود . وقال الزمخشري : ﴿ فإن قلت : ﴾ فلا أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ، ولا عند منفعة ينالها أن لا يحزن ولا يفرح . ﴿ قلت : ﴾ المراد الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ، ورجاء ثواب الصابرين ، والفرح المطغي الملهي عن الشكر ، فأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام ، والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس به انتهى . وقرأ الجمهور ﴿ بما آتاكم ﴾ أي : أعطاكم ، وعبد الله ﴿ أوتيتم ﴾ مبنياً للمفعول ، أي : أعطيتم وأبو عمرو ﴿ أتاكم ﴾ أي . ﴿ جاءكم الذين يبخلون ﴾ أي : هم الذين يبخلون أو يكون الذين مبتدأ محذوف الخبر على جهة الإبهام ، تقديره مذمومون أو موعودون بالعذاب ، أو مستغنى عنهم أو على إضمار ، أعني : فهو في موضع نصب ، أو في موضع نصب صفة لكل مختال ، وإن كان نكرة فهو مخصص نوعاً ما فيسوغ لذلك وصفه بالمعرفة ، قال ابن عطية : هذا مذهب الأخفش انتهى . عظمت الدنيا في أعينهم فبخلوا أن يؤدوا منها حقوق الله تعالى ، وما كفاهم ذلك حتى أمروا الناس بالبخل ، ورغبوهم في الإمساك ، والظاهر أنهم أمروا الناس حقيقة ، وقيل : كانوا قدوة فيه ، فكأنهم يأمرون به ، ومن يتول عن ما أمر الله به . وقرأ الجمهور ﴿ فإن الله هو ﴾ وقرأ نافع وابن عامر بإسقاط هو ، وكذا في

مصاحف المدينة والشام، وكلتا القراءتين متواترة، فمن أثبت هو فقال أبو علي الفارسي: يحسن أن يكون فصلاً، قال: ولا يحسن أن يكون ابتداء، لأن حذف الابتداء غير سائغ انتهى: يعني أنه في القراءة الأخرى حذفه، ولو كان مبتدأ لم يجز حذفه، لأنك إذا قلت إن زيداً هو الفاضل، فأعربت هو مبتدأ لم يجز حذفه. لأن ما بعده من قولك الفاضل صالح أن يكون خبراً لإن، فلا يبقى دليل على حذفه هو الرابط، ونظيره الذين هو يريدون لا يجوز حذف هو، لأن ما بعده يصلح أن يكون صلة فلا يبقى دليل على المحذوف. وما ذهب إليه أبو علي ليس بشيء، لأنه بنى ذلك على توافق القراءتين، وتركيب إحداهما على الأخرى، وليس كذلك، ألا ترى أنه يكون قراءتان في لفظ واحد، ولكل منهما توجيه يخالف الآخر، كقراءة من قرأ ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ [آل عمران: ٣٦] بضم التاء، وقراءة الأخرى بما وضعت بتاء التأنيث، فضم التاء يقتضي أن الجملة من كلام أم مريم، وتاء التأنيث تقتضي أنها من كلام الله تعالى، وهذا كثير في القراءات المتواترة، فكذلك هذا يجوز أن يكون هو مبتدأ في قراءة من أثبته، وإن كان لم يرد في القراءة الأخرى، ولكل من التركيبين في الإعراب حكم يخصه. ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾ الظاهر أن الرسل هم من بني آدم، والبينات الحجج والمعجزات، ﴿وأنزلنا معهم الكتاب﴾ الكتاب اسم جنس، ومعهم حال مقدرة، أي: وأنزلنا الكتاب صائراً معهم أي: مقدراً صحبته لهم، لأن الرسل منزلون هم والكتاب، ولما أشكل لفظ معهم على الزمخشري فسر الرسل بغير ما فسرناه، فقال: ﴿لقد أرسلنا رسلنا﴾ يعني الملائكة إلى الأنبياء بالحجج والمعجزات ﴿وأنزلنا معهم الكتاب﴾ أي: الوحي، والميزان يروى أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح، وقال: مر قومك يزنوا به، ﴿وأنزلنا الحديد﴾ قيل: نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد: السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والإبرة. وروي ومعه المر والمسحاة. وعن النبي ﷺ: أن الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض، أنزل الحديد والنار والماء والملح انتهى. وأكثر المتأولين على أن المراد بالميزان العدل. قاله ابن زيد وغيره. أراد بالموزون لتعرف به الحقوق، وهذا جزء من العدل. ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾ الظاهر أنه علة لإنزال الميزان فقط، ويجوز أن يكون علة لإنزال الكتاب والميزان معاً، لأن القسط هو العدل في جميع الأشياء من سائر التكاليف، فإنه لا جور في شيء منها، ولذلك جاء ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾ [آل عمران: ١٨]. ﴿وأنزلنا الحديد﴾ عبر عن إيجاده بالإنزال كما قال ﴿وأنزل لكم من الأنعام﴾ وأيضاً فإن الأوامر وجميع القضايا والأحكام لما كانت تلقى من السماء جعل الكل نزولاً منها، قاله ابن عطية. وقال الجمهور: أراد بالحديد جنسه من المعادن. وقال ابن عباس: نزل آدم من الجنة ومعه السندان والكلبتان والميقعة. ﴿فيه بأس شديد﴾ أي: السلاح الذي يباشر به القتال ﴿ومنافع للناس﴾ في مصالحهم ومعايشهم وصنائعهم، فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها. ﴿وليعلم الله﴾ علة لإنزال الكتاب والميزان والحديد ﴿من ينصره ورسله﴾ بالحجج والبراهين المنتزعة من الكتاب المنزل، وبإقامة العدل، وبما يعمل من آلة الحرب للجهاد في سبيل الله. قال ابن عطية: أي: ليعلمه موجوداً، فالتغير ليس في علم الله، بل في هذا الحدث الذي خرج من العدم إلى الوجود، وقوله: ﴿بالغيب﴾ معناه بما سمع من الأوصاف الغائبة عنه، فآمن بها لقيام الأدلة عليها، ولما قال تعالى: ﴿من ينصره ورسله﴾ وذكر تعالى أنه غني عن نصرته بقدرته وعزته، وأنه إنما كلفهم الجهاد لمنفعة أنفسهم، وتحصيل ما يترتب لهم من الثواب. وقال ابن عطية: ويترتب معنى الآية بأن الله تعالى أخبر بأنه أرسل رسله، وأنزل كتباً وعدلاً مشروعاً وسلاحاً يحارب به من عانده، ولم يهتد بهدى الله فلم يبق عذر، وفي الآية على هذا التأويل حث على القتال. قوله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا

فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

لما ذكر تعالى إرسال الرسل جملة أفرد منهم في هذه الآية نوحاً وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ تشريفاً لهما بالذكر ، أما نوح فلأنه أول الرسل إلى من في الأرض ، وأما إبراهيم فلأنه انتسب إليه أكثر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وهو معظم في كل الشرائع ، ثم ذكر أشرف ما حصل لذريتهما ، وذلك النبوة وهي التي بها هدي الناس من الضلال والكتاب ، وهي الكتب الأربعة التوراة والزبور والإنجيل والقرآن ، وهي جميعها في ذرية إبراهيم ـ عليه السلام ـ وإبراهيم من ذرية نوح فصدق أنها في ذريتهما ، وفي مصحف عبد الله والنبية مكتوبة بالياء عوض الواو . وقال ابن عباس : والكتاب الخط بالقلم . والظاهر أن الضمير في منهم عائد على الذرية . وقيل : يعود على الرسل إليهم لدلالة ذكر الإرسال والمرسلين عليهم ، ومع إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة العلل بذلك انقسموا إلى مهتد وفاسق ، وأخبر بالفسق عن الكثير منهم . ﴿ ثم قفينا ﴾ أي : أتبعنا وجعلناهم يقفون من تقدم ﴿ على آثارهم ﴾ أي : آثار الذرية ﴿ برسلنا ﴾ وهم الرسل الذين جاءوا بعد الذرية ﴿ وقفينا بعيسى ﴾ ذكره تشريفاً له ولاشتهار أمته ، ونسبه لأمه على العادة في الإخبار عنه ، وتقدمت قراءة الحسن ﴿ الإنجيل ﴾ بفتح الهمزة في أول سورة آل عمران . قال أبو الفتح : وهو مثال لا نظير له انتهى ، وهي لفظة أعجمية فلا يلزم فيها أن تكون على أبنية كلام العرب . وقال الزمخشري : أمره أهون من أمر البرطيل يعني أنه بفتح الباء ، وكأنه عربي ، وأما الإنجيل فأعجمي . وقرئ رآفة على وزن فعالة ، وجعلنا يحتمل أن يكون بمعنى وخلقنا . كقوله ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ [الأنعام ١] ويحتمل أن يكون بمعنى صيرنا فيكون في قلوب في موضع المفعول الثاني لجعلنا . ﴿ ورهبانية ﴾ معطوف على ما قبله فهي داخلة في الجعل . ﴿ ابتدعوها ﴾ جملة في موضع الصفة لرهبانية ، وخصت الرهبانية بالابتداع ، لأن الرأفة والرحمة في القلب لا تكسب للإنسان فيها بخلاف الرهبانية ، فإنها أفعال بدن مع شيء في القلب ، ففيها موضع للتكسب . قال قتادة الرأفة والرحمة من الله ، والرهبانية هم ابتدعوها ، والرهبانية رفض الدنيا وشهواتها من النساء وغيرهن[1] واتخاذ الصوامع ، وجعل أبو علي الفارسي ورهبانية منقطعة من العطف على ما قبلها من رأفة ورحمة ، فانتصب عنده ورهبانية على إضمار فعل يفسره ما بعده ، فهو من باب الاشتغال ، أي : وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ، واتبعه الزمخشري ، فقال : وانتصابها بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ، يعني : وأحدثوها من عند أنفسهم ونذروها انتهى . وهذا إعراب المعتزلة ، وكان أبو علي معتزلياً وهم يقولون ما كان مخلوقاً لله لا يكون مخلوقاً للعبد ، فالرأفة والرحمة من خلق الله ، والرهبانية من ابتداع الإنسان فهي مخلوقة له ، وهذا الإعراب الذي لهم ليس بجيد من جهة صناعة العربية ، لأن مثل هذا هو مما يجوز فيه الرفع بالابتداء ، ولا يجوز الابتداء هنا بقوله : ﴿ ورهبانية ﴾ لأنها نكرة لا مسوغ لها من المسوغات للابتداء بالنكرة . وروي في ابتداعهم الرهبانية أنهم افترقوا ثلاث فرق . ففرقة قاتلت الملوك على

---

(١) انظر الطبري ٤/ ٣٠٢ .

الذين قتلت وفرقة قعدت في المدن يدعون إلى الدين ويبينونه ، ولم تقاتل فأخذها الملوك ينشرونهم بالمناشير فقتلوا . وفرقة خرجت إلى الفيافي وبنت الصوامع والديارات ، وطلبت أن تسلم على أن تعتزل فتركت ، والرهبانية الفعلة المنسوبة إلى الرهبان ، وهو الخائف بني فعلان من رهب كالخشيان من خشي[1] وقرئ : (ورهبانية) بالضم . قال الزمخشري : كأنها نسبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان انتهى . والأولى أن يكون منسوباً إلى رهبان ، وغير بضم الراء ؛ لأن النسب باب تغيير ، ولو كان منسوباً إلى رهبان الجمع لرد إلى مفرده ، فكان يقال راهبية إلا إن كان قد صار كالعلم فإنه ينسب إليه على لفظه كالأنصار . والظاهر أن (إلا ابتغاء رضوان الله) استثناء متصل مما هو مفعول من أجله ، وصار المعنى أنه تعالى كتبها عليهم ابتغاء مرضاته ، وهذا قول مجاهد ، ويكون كتب بمعنى قضى . وقال قتادة وجماعة : المعنى لم يفرضها عليهم ، ولكنهم فعلوا ذلك ابتغاء رضوان الله تعالى ، فالاستثناء على هذا منقطع ، أي : لكن ابتدعوها لابتغاء رضوان الله تعالى . والظاهر أن الضمير في (رعوها) عائد على ما عاد عليه في ابتدعوها ، وهو ضمير الذين اتبعوه ، أي : لم يرعوها كما يجب على الناذر رعاية نذره ، لأنه عهد مع الله لا يحل نكثه . وقال نحوه ابن زيد ، قال : ثم بدلوا عن ذلك ، ولا رعوه حقه ، بل غيروا وبدلوا ، وعلى تقدير أن فيهم من رعى يكون المعنى : فما رعوها بأجمعهم . وقال ابن عباس وغيره : الضمير للملوك الذين حاربوهم وأجلوهم . وقال الضحاك وغيره : الضمير للأخلاف الذين جاؤوا بعد المبتدعين لها . (فآتينا الذين آمنوا) وهم أهل الرأفة والرحمة الذين اتبعوا عيسى عليه السلام . (وكثير منهم فاسقون) وهم الذين لم يرعوها . (يا أيها الذين آمنوا) الظاهر أنه نداء لمن آمن من أمة محمد ـ ﷺ ـ ومعنى آمنوا دوموا واثبتوا ، وهكذا المعنى في كل أمر يكون المأمور ملتبساً بما أمر به (يؤتكم كفلين) قال أبو موسى الأشعري : كفلين ضعفين بلسان الحبشة انتهى والمعنى : أنه يؤتكم مثل ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفلين ، في قوله : ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين ﴾ [القصص ٥٤] إذ أنتم مثلهم في الإيمانين لا تفرقوا بين أحد من رسله . وروي أن مؤمني أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين ، وادعوا الفضل عليهم فنزلت . وقيل : النداء متوجه لمن آمن من أهل الكتاب ، فالمعنى : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد ـ ﷺ ـ يؤتكم الله كفلين ، أي : نصيبين من رحمته ، وذلك لإيمانكم بمحمد ـ ﷺ ـ وإيمانكم بمن قبله من الرسل . (ويجعل لكم نوراً تمشون به) وهو النور المذكور في قوله ﴿ يسعى نورهم ﴾ [الحديد ١٢] ويغفر لكم ما أسلفتم من الكفر والمعاصي ، ويؤيد هذا المعنى ما ثبت في الصحيح : ثلاثة يؤتيهم الله أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي الحديث . ليعلم أهل الكتاب الذين لم يسلموا أنهم لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضله من الكفلين ، والنور والمغفرة ، لأنهم لم يؤمنوا برسول الله ـ ﷺ ـ فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله ، ولم يكسبهم فضلاً قط . وإذا كان النداء لمؤمني هذه الأمة ، والأمر لهم فروي أنه لما نزل هذا الوعد لهم حسدهم أهل الكتاب ، وكانت اليهود تعظم دينها وأنفسها ، وتزعم أنهم أحباء الله وأهل رضوانه ، فنزلت هذه الآية معلمة أن الله تعالى فعل ذلك ، وأعلمهم به ليعلم أهل الكتاب أنهم ليسوا كما يزعمون . وقرأ الجمهور : (لئلا يعلم) ولا زائدة كهي في قوله : ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ [الأعراف ١٢] وفي وقوله ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ [الأنبياء ٩٥] في بعض التأويلات . وقرأ خطاب بن عبد الله (لأن لا يعلم) وعبد الله وابن عباس وعكرمة والجحدري وعبد الله بن سلمة على اختلاف ليعلم ، والجحدري لينعلم أصله ، لأن يعلم قلب الهمزة ياء لكسرة ما قبلها وأدغم النون في الياء بغير غنة ، كقراءة خلف أن يضرب بغير غنة ، وروى ابن مجاهد عن الحسن (ليلا) مثل ليلى اسم المرأة (يعلمُ) برفع الميم ، أصله فلأن لا بفتح لام الجر ، وهي لغة فحذفت الهمزة اعتباطاً وأدغمت النون في اللام فاجتمعت الأمثال ، وثقل النطق بها فأبدلوا من الساكنة ياء ، فصار

---

(1) انظر الطبري ٤/ ٣٠٠.

ليلاً ، ورفع الميم لأن (أن) هي المخففة من الثقيلة ، لا الناصبة للمضارع إذ الأصل لأنه لا يعلم . وقطرب عن الحسن أيضاً (لِئلا) بكسر اللام . وتوجيهه كالذي قبله ، إلا أنه كسر اللام على اللغة المشهورة في لام الجر . وعن ابن عباس (كي يعلم) وعنه (لكيلا يعلم) وعن عبد الله وابن جبير وعكرمة (لكي يعلم) . وقرأ الجمهور أن لا يقدرون بالنون فأن هي المخففة من الثقيلة ، وعبد الله بحذفها فأن الناصبة للمضارع والله تعالى أعلم .

سورة المجادلة مدنية وهي اثنتان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴿١﴾ الذين يظهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور ﴿٢﴾ والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ﴿٣﴾ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴿٤﴾ إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين ﴿٥﴾ يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ﴿٦﴾ ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴿٧﴾ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴿٨﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون ﴿٩﴾ إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿١٠﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير ﴿١١﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

سمع في المجلس وسمع لغيره ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير * الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور * والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم * إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين * يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد * ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ هذه السورة مدنية. قال الكلبي: إلا قوله: ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾، وعن عطاء: العشر الأول منها مدني، وباقيها مكي. قرأ الجمهور قد سمع بالبيان، وأبو عمرو وحمزة والكسائي وابن محيصن بالإدغام، قال خلف بن هشام البزار: سمعت الكسائي يقول: من قرأ قد سمع فبين الدال عند السين فلسانه أعجمي ليس بعربي، ولا يلتفت إلى هذا القول، فالجمهور على البيان. والتي تجادله: خولة بنت ثعلبة، وقيل بالتصغير، أو خولة بنت خويلد، أو خولة بنت حكيم، أو خولة بنت دليج، أو جميلة، أو خولة بنت الصامت أقوال للسلف، وأكثر الرواة على أن الزوج في هذه الحادثة أوس بن الصامت أخو عبادة، وقيل: سلمة بن صخر البياضي ظاهر من امرأته، فأتت زوجته: يا رسول الله أكل أوس شبابي، ونثرت له بطني فلما كبرت ومات أهلي ظاهر مني، فقال لها: ما أراك إلا قد حرمت عليه، فقالت: يا

أبو حنيفة والشافعي : لا يلزم . وسبب الخلاف هو هل تندرج في نسائهم أم لا ؟ والظاهر صحة ظهار العبد لدخوله في يظاهرون منكم ؛ لأنه من جملة المسلمين ، وإن تعذر منه العتق والإطعام فهو قادر على الصيام . وحكى الثعلبي عن مالك أنه لا يصح ظهاره . وليست المرأة مندرجة في الذين يظاهرون ، فلو ظاهرت من زوجها لم يكن شيئاً . وقال الحسن بن زياد : تكون مظاهرة . وقال الأوزاعي وعطاء وإسحاق وأبو يوسف : إذا قالت لزوجها أنت عليّ كظهر فلانة فهي يمين تكفرها . وقال الزهري : أرى أن تكفر كفارة الظهار ، ولا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها أن يصيبها . والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ثم يعودون لما قالوا﴾ أن يعودوا للفظ الذي سبق منهم وهو قول الرجل ثانياً : أنت مني كظهر أمي ، فلا تلزم الكفارة بالقول ، وإنما تلزم بالعود . وهذا مذهب أهل الظاهر ، وروي أيضاً عن بكير بن عبد الله بن الأشج وأبي العالية وأبي حنيفة وهو قول الفراء . وقال طاوس وقتادة والزهري والحسن ومالك وجماعة : ﴿لما قالوا﴾ أي : للوطء ، والمعنى لما قالوا إنهم لا يعودون إليه ، فإذا ظاهر ثم وطئ ، فحينئذ يلزمه الكفارة ، وإن طلق أو مات . وقال أبو حنيفة ومالك أيضاً والشافعي وجماعة : معناه يعودون لما قالوا بالعزم على الإمساك والوطء ، فمتى عزم على ذلك لزمته الكفارة طلق أو مات . قال الشافعي : العود الموجب للكفارة أن يمسك عن طلاقها بعد الظهار ، ويمضي بعده زمن يمكن أن يطلقها فيه فلا يطلق . وقال قوم : المعنى والذين يظاهرون من نسائهم في الجاهلية ، أي : كان الظهار عادتهم ، ثم يعودون إلى ذلك في الإسلام ، وبه قال القتبي . وقال الأخفش : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير فتحرير رقبة لما قالوا ، وهذا قول ليس بشيء ؛ لأنه يفسد نظم الآية . ﴿فتحرير رقبة﴾ والظاهر أنه يجزئ مطلق رقبة ، فتجزئ الكافرة . وقال مالك والشافعي : شرطها الإسلام كالرقبة في كفارة القتل . والظاهر إجزاء المكاتب ؛ لأنه عبد ما بقي عليه درهم ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه ، وإن عتق نصفي عبدين لا يجزئ . وقال الشافعي : يجزئ . ﴿من قبل أن يتماسا﴾ لا يجوز للمظاهر أن يطأ حتى يكفر ، فإن فعل عصى ولا يسقط عنه التكفير . وقال مجاهد : يلزمه كفارة أخرى . وقيل : تسقط الكفارة الواجبة عليه ، ولا يلزمه شيء . وحديث أوس بن الصامت يرد على هذا القول ، وسواء كانت الكفارة بالعتق ، أم الصوم ، أم الإطعام . وقال أبو حنيفة : إذا كانت الإطعام جاز له أن يطأ ، ثم يطعم . وهو ظاهر قوله : ﴿فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً﴾ إذ لم يقل فيه من قبل أن يتماسا . وقيد ذلك في العتق والصوم . والظاهر في التماس الحقيقة ، فلا يجوز تماسها قبلة ، أو مضاجعة أو غير ذلك من وجوه الاستمتاع ، وهو قول مالك وأحد قولي الشافعي . وقال الأكثرون هو الوطء ، فيجوز له الاستمتاع بغيره قبل التكفير ، وقاله الحسن والثوري وهو الصحيح من مذهب الشافعي ، والضمير في يتماسا عائد على ما عاد عليه الكلام من المظاهر ، والمظاهر منها . ﴿ذلكم توعظون به﴾ إشارة إلى التحرير ، أي : فعل عظة لكم لتنتهوا عن الظهار . ﴿فمن لم يجد﴾ أي : الرقبة ولا ثمنها ، أو وجدها أو ثمنها وكان محتاجاً إلى ذلك ، فقال أبو حنيفة : يلزمه العتق ولو كان محتاجاً إلى ذلك ، ولا ينتقل إلى الصوم وهو الظاهر . وقال الشافعي : ينتقل إلى الصوم ، والشهران بالأهلة ، وإن جاء أحدهما ناقصاً . أو بالعدد لا بالأهلة ، فيصوم إلى الهلال ، ثم شهراً بالهلال ، ثم يتم الأول بالعدد ، والظاهر وجوب التتابع ، فإن أفطر بغير عذر استأنف ، أو بعذر من سفر ونحوه فقال ابن المسيب وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار والشعبي ومالك والشافعي في أحد قوليه : يبني . وقال النخعي وابن جبير والحكم بن عتيبة والثوري وأصحاب الرأي والشافعي في أحد قوليه : يستأنف . والظاهر أنه إن وجد الرقبة بعد أن شرع في الصوم أنه يصوم ويجزئه ، وهو مذهب مالك والشافعي . وقال أبو حنيفة وأصحابه : يلزمه العتق ولو وطئ في خلال الصوم بطل التتابع ويستأنف ، وبه قال مالك وأبو حنيفة . وقال الشافعي : يبطل إن جامع نهاراً لا ليلاً . ﴿فمن لم يستطع﴾ الصوم لزمانة به ، أو كونه يضعف به ضعفاً شديداً كما جاء في حديث أوس لما قال هل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ، فقال : والله يا رسول الله إني إذا لم آكل في اليوم والليلة ثلاث مرات كل بصري ، وخشيت أن تعشو عيني . والظاهر مطلق الإطعام ، وتخصيصه بما كانت العادة في الإطعام وقت

التزويج ، وهو ما يشبع من غير تحديد بمد ، ومذهب مالك أنه مد وثلث بمد النبي ، ويجب استيعاب العدد ستين عند مالك والشافعي ، وهو الظاهر . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لو أطعم مسكيناً واحداً كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد أجزأه . { ذلك لتؤمنوا } قال ابن عطية : إشارة إلى الرجعة والتسهيل في النقل من التحرير إلى الصوم والإطعام ، ثم شدد تعالى بقوله : { وتلك حدود الله } أي : فالتزموها وقفوا عندها ، ثم توعد الكافرين بهذا الحكم الشرعي . وقال الزمخشري : ذلك البيان والتعليم للأحكام والتنبيه عليها لتصدقوا بالله ورسوله في العمل بشرائعه التي شرعها في الظهار وغيره ، ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم ، وتلك حدود الله التي لا يجوز تعديها . وللكافرين الذين لا يتبعونها ولا يعملون عليها عذاب أليم انتهى . { إن الذين يحادون الله ورسوله } نزلت في مشركي قريش ، أخزوا يوم الخندق بالهزيمة كما أخزي من قاتل الرسل من قبلهم ، ولما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين المخالفين لها ، والمحادة المعاداة والمخالفة في الحدود . { كبتوا } قال قتادة : أخزوا . وقال السدي : لعنوا . قيل : وهي لغة مذحج . وقال ابن زيد وأبو روق : ردوا مخذولين . وقال الفراء : غيظوا يوم الخندق . { كما كبت الذين من قبلهم } أي : من قاتل الأنبياء . وقيل يوم بدر . وقال أبو عبيدة والأخفش : أهلكوا . وعن أبي عبيدة : التاء بدل من الدال ، أي : كبدوا ، أصابهم داء في أكبادهم . وقيل : والذين من قبلهم منافقو الأمم . وقيل : وكبتوا بمعنى سيكبتون وهي بشارة للمؤمنين بالنصر ، وعبر بالماضي لتحقق وقوعه وتقدم الكلام في مادة كبت في آل عمران . { وقد أنزلنا آيات بينات } على صدق محمد ﷺ ، وصحة ما جاء به . { وللكافرين } أي : الذين يحادونه { عذاب مهين } أي : يهينهم ويذلهم . والناصب ليوم يبعثهم العامل في للكافرين ، أو مهين ، أو اذكر أو يكون على أنه جواب لمن سأل متى يكون عذاب هؤلاء ، فقيل له : يوم يبعثهم الله أي : يكون يوم يبعثهم الله ، وانتصب جميعاً على الحال ، أي : مجتمعين في صعيد واحد ، أو معناه كلهم إذ جميع يحتمل ذينك المعنيين ، فينبئهم بما عملوا تخجيلاً لهم وتوبيخاً . أحصاه بجميع تفاصيله وكميته ، وكيفيته ، وزمانه ومكانه . ونسوه لاستحقارهم إياه واعتقادهم أنه لا يقع عليه حساب . { شهيد } لا يخفى عليه شيء . وقرأ الجمهور ما يكون بالياء ، وأبو جعفر وأبو حيوة وشيبة بالتاء لتأنيث النجوى . قال صاحب اللوامح : وإن شغلت بالجار فهي بمنزلة ما جاءني من امرأة إلا أن الأكثر في هذا الباب التذكير على ما في العامة ، يعني القراءة العامة ، قال : لأنه مسند إلى من نجوى ، وهو يقتضي الجنس ، وذلك مذكر انتهى . وليس الأكثر في هذا الباب التذكير ، لأن من زائدة ، فالفعل مسند إلى مؤنث فالأكثر التأنيث وهو القياس ، قال تعالى : { وما تأتيهم من آية من آيات ربهم } { ما تسبق من أمة أجلها } ويكون هنا تامة ، ونجوى احتمل أن تكون مصدراً مضافاً إلى ثلاثة ، أي : من تناجي ثلاثة أو مصدراً على حذف مضاف ، أي : من ذوي نجوى ، أو مصدراً أطلق على الجماعة المتناجين ، فثلاثة على هذين التقديرين . قال ابن عطية : بدل أو صفة . وقال الزمخشري : صفة وقرأ ابن أبي عبلة { ثلاثة } و { خمسة } بالنصب على الحال ، والعامل يتناجون مضمرة يدل عليه نجوى . وقال الزمخشري : أو على تأويل نجوى بمتناجين ، ونصبها من المستكن فيه . وقال ابن عيسى : كل سرار نجوى . وقال ابن سراقة : السرار ما كان بين اثنين ، والنجوى ما كان بين أكثر . قيل : نزلت في المنافقين ، واختص الثلاثة والخمسة ، لأن المنافقين كانوا يتناجون على هذين العددين مغايظة لأهل الإيمان ، والجملة بعد إلا في المواضع الثلاثة في موضع الحال ، وكونه تعالى رابعهم وسادسهم ومعهم بالعلم ، وإدراك ما يتناجون به . وقال ابن عباس : نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو ، وصفوان بن أمية تحدثوا فقال أحدهم : أترى الله يعلم ما نقول ؟ فقال الآخر : يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً . فقال الثالث : إن كان يعلم بعضاً فهو يعلمه كله . { ولا أدنى من ذلك } إشارة إلى الثلاثة والخمسة ، والأدنى من الثلاثة الإثنين ، ومن الخمسة الأربعة { ولا أكثر } يدل على ما يلي الستة فصاعداً . وقرأ الجمهور ولا أكثر عطفاً على لفظ المخفوض ، والحسن وابن أبي إسحاق والأعمش وأبو حيوة وسلام ويعقوب بالرفع عطفاً على موضع نجوى إن أريد به

عن أبي عمرو وحيوة بما يعملون بالياء من تحت ، والجمهور بالتاء ، قوله عز وجل :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم . أأشفقتم أن تقدّموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون . ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون . أعدّ الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدّوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين . لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون . استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . إن الذين يحادّون الله ورسوله أولئك في الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز . لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ الذين تولوا هم المنافقون ، والمغضوب عليهم هم اليهود . عن السدي ومقاتل أنه ﷺ قال لأصحابه : يدخل عليكم رجل قلبه قلب جبار ، وينظر بعيني شيطان ، فدخل عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان أزرق أسمر قصيراً خفيف اللحية ، فقال عليه الصلاة والسلام : علام تشتمني أنت وأصحابك ، فحلف بالله ما فعل فقال عليه الصلاة والسلام له : فعلت ، فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فنزلت . والضمير في (ما هم) عائد على الذين تولوا ، وهم المنافقون ، أي : ليسوا منكم أيها المؤمنون ، (ولا منهم) أي : ليسوا من الذين تولوهم وهم اليهود . و (ما هم) استئناف إخبار بأنهم مذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، كما قال عليه الصلاة والسلام : مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين ، لأنه مع المؤمنين بقوله ، ومع الكفار بقلبه . وقال ابن عطية : ويحتمل تأويلاً آخر ، وهو أن يكون قوله ما هم يريد به اليهود ، وقوله (ولا منهم) يريد به المنافقين ، فيجيء فعل المنافقين على هذا التأويل أخس ، لأنهم تولوا مغضوباً عليهم ليسوا من أنفسهم ، فيلزمهم ذمهم ، ولا من القوم المحقين فتكون الموالاة صواباً انتهى . والظاهر التأويل الأول ، لأن الذين تولوا هم المحدث عنهم ، والضمير في ويحلفون عائد عليهم ، فتتناسق الضمائر لهم ولا تختلف ، وعلى هذا التأويل يكون ما هم استئنافاً ، ويجوز أن يكون حالاً من ضمير تولوا ، وعلى الاحتمال الذي قبله يكون ما هم صفة لقوم ، ويحلفون على الكذب إما أيمانهم التي روي في سبب النزول ، أو على أنهم مسلمون ، والكذب هو ما ادعوه من الإسلام (وهم يعلمون) جملة حالية بشع عليهم إذ حلفوا على خلاف ما اعتقدوا ، فالمعنى : وهم عالمون متعمدون له . والعذاب الشديد المعد لهم في الآخرة . وقرأ الجمهور (أيمانهم) جمع يمين ، والحسن (إيمانهم) بكسر الهمزة ، أي : ما يظهرونه من الإيمان . (جنة) أي : ما يستترون به ، ويقون المحذور وهو الترس (فصدوا) أي : أعرضوا ، أو صدوا الناس عن الإسلام إذ كانوا يثبطون من لقوا عن الإسلام ، ويضعفون أمر الإيمان وأهله ، أو صدوا المسلمين عن قتلهم بإظهار الإيمان ، وقتلهم هو سبيل الله فيهم ، لكن ما أظهروه من الإسلام صدوا به المسلمين عن قتلهم . (لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً) تقدم الكلام على هذه الجملة في أوائل آل عمران . (فيحلفون له) أي : لله تعالى ، ألا ترى إلى قولهم : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام ٢٣] (كما يحلفون لكم) أنهم مؤمنون ، وليسوا مؤمنين . والعجب منهم كيف يعتقدون أن كفرهم يخفى على عالم الغيب والشهادة ، ويجرونه مجرى المؤمنين في عدم اطلاعهم على كفرهم ونفاقهم ، والمقصود أنهم مقيمون على الكذب ، قد تعودوه حتى كان على ألسنتهم في الآخرة ، كما كان في الدنيا . (ويحسبون أنهم على شيء) أي : شيء نافع لهم . (استحوذ عليهم الشيطان) أي : أحاط بهم من كل جهة ، وغلب على نفوسهم ، واستولى عليها ،

وتقدمت هذه المادة في قوله تعالى: ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ [النساء ١٤١] في النساء. وأحاذ الحمار العانة إذا ساقها، وجمعها غالباً لها، ومنه كان أحوذياً نسيج وحده. وقرأ عمر استحاذ أخرجه على الأصل، والقياس واستحوذ شاذ في القياس فصيح في الاستعمال. ﴿فأنساهم ذكر الله﴾ فهم لا يذكرونه لا بقلوبهم ولا بألسنتهم. وحزب الشيطان جنده، قاله أبو عبيدة. ﴿أولئك في الأذلين﴾ هي أفعل التفضيل، أي: في جملة من هو أذل خلق الله تعالى، لا ترى أحداً أذل منهم. وعن مقاتل لما فتح الله مكة للمؤمنين والطائف وخيبر وما حولها قالوا: نرجو أن يظهرنا الله على فارس والروم، فقال عبد الله بن أبي: أتظنون الروم وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها، والله إنهم لأكثر عدداً، وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك. فنزلت ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ ﴿كتب﴾ أي: في اللوح المحفوظ، أو قضى. وقال قتادة: بمعنى قال. ﴿ورسلي﴾ أي: من بعثت منهم بالحرب، ومن بعثت منهم بالحجة. ﴿إن الله قوي﴾ ينصر حزبه ﴿عزيز﴾ يمنعه من أن يذل. ﴿لا تجد قوماً﴾ قال الزمخشري: من باب التخييل، خيل أن من الممتنع المحال أن تجد قوماً مؤمنين يوادون المشركين، والغرض منه أنه لا ينبغي أن يكون ذلك وحقه أن يمتنع، ولا يوجد بحال مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملابسته والتصلب في مجانبة أعداء الله، وزاد ذلك تأكيداً بقوله: ﴿ولو كانوا آباءهم﴾ انتهى. وبدأ بالآباء لأنهم الواجب على الأولاد طاعتهم، فنهاهم عن موادتهم، وقال تعالى: ﴿وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ وصاحبهما في الدنيا معروفاً [العنكبوت ٨] ثم ثنى بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب، ثم أتى ثالثاً بالإخوان، لأنهم هم المعاضد كما قيل:

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح(١)

ثم رابعاً بالعشيرة، لأن بها التناصر، وبهم المقاتلة والتغلب والتسرع إلى ما دعوا إليه كما قال:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا(٢)

وقرأ الجمهور ﴿كتب﴾ مبنياً للفاعل ﴿في قلوبهم الإيمان﴾ نصباً أي: كتب الله. وأبو حيوة والمفضل عن عاصم ﴿كتب﴾ مبنياً للمفعول، والإيمان رفع. والجمهور: ﴿أو عشيرتهم﴾ على الإفراد، وأبو رجاء على الجمع، والمعنى أثبت الإيمان في قلوبهم. ﴿وأيدهم بروح منه﴾ تعالى وهو الهدى والنور واللطف. وقيل: الروح القرآن. وقيل: جبريل يوم بدر(٣). وقيل: الضمير في منه عائد على الإيمان، والإيمان في نفسه روح يحيا به القلب. والإشارة بأولئك كتب إلى الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله. قيل: والآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة(٤). وقيل: الظاهر أنها متصلة بالآي التي في المنافقين الموالين لليهود(٥). وقيل: نزلت في ابن أبي، وأبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ كان منه سب(٦) للرسول ـ ﷺ ـ فصكه أبو بكر صكة سقط منها، فقال له الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو فعلته؟ قال: نعم، قال: لا تعد، قال: والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته. وقيل: في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد وقيل

(١) البيت من الطويل لمسكين الدارمي، خزانة الأدب (١/٤٦٥)، الأغاني (٢٠/٦٠)، الهمع (١/١٧٠)، المقاصد رقم (٤٠٦)، روح المعاني (٢٧/٣٦).

(٢) البيت من البسيط لقريط بن أنيف، انظر ديوان الحماسة (١/١٣)، روح المعاني (٢٧/٣٦).

(٣) انظر البغوي (٤/٣١٦) وزاد المسير (٨/٢٠٠) والوسيط ١٢٨٤ خ.

(٤) انظر المصادر السابقة.

(٥) انظر المصادر السابقة.

(٦) لشيخ الإسلام ابن تيمية، ولابن السبكي كلام في هذا فراجعه في كتابيهما.

سورة الحشر مدنية وهي أربع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾

الاستنباط) أن الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ قال: سلوني عما شئتم أخبركم به من كتاب الله تعالى وسنة النبي ـ ﷺ ـ فقال له عبد الله بن محمد بن هارون: ما تقول في المحرم يقتل الزنبور؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن خراش عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»(١)، وحدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب أنه أمر بقتل الزنبور انتهى. ويعني في الإحرام بين أنه يقتدى بعمر وأن الرسول ـ ﷺ ـ أمر بالاقتداء به، وأن الله تعالى أمر بقبول ما يقول رسول الله ـ ﷺ ـ. قوله عز وجل: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون. والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم. ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون. لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون. لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون. لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ للفقراء. قال الزمخشري: بدل من قوله: ﴿ولذي القربى﴾ والمعطوف عليه، والذي منع الإبدال من الله وللرسول، والمعطوف عليهما وإن كان المعنى لرسول الله ـ ﷺ ـ أن الله عز وجل أخرج رسوله من الفقراء في قوله: ﴿وينصرون الله﴾ [الحشر: ٨] وأنه يترفع برسول الله ـ ﷺ ـ عن التسمية بالفقير، وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عز وعلا انتهى. وإنما جعله الزمخشري بدلاً من قوله ﴿ولذي القربى﴾ لأنه مذهب أبي حنيفة، والمعنى إنما يستحق ذو القربى الفقير. فالفقر شرط فيه على مذهب أبي حنيفة، ففسره الزمخشري على مذهبه، وأما الشافعي فيرى أن سبب الاستحقاق هو القرابة، فيأخذ ذو القربى الغني لقرابته. وقال ابن عطية: ﴿للفقراء المهاجرين﴾ بيان لقوله: ﴿والمساكين وابن السبيل﴾ وكررت لام الجر لما كانت الأولى مجرورة باللام ليبين ﴿بين الأغنياء منكم﴾ أي: ولكن يكون للفقراء انتهى. ثم وصف تعالى المهاجرين بما يقتضي فقرهم، ويوجب الإشفاق عليهم. ﴿أولئك هم الصادقون﴾ أي: في إيمانهم وجهادهم قولاً وفعلاً. والظاهر أن قوله: ﴿والذين تبوءوا﴾ معطوف على المهاجرين وهم الأنصار، فيكون قد وقع بينهم الاشتراك فيما يقسم من الأموال. وقيل: هو مستأنف مرفوع بالابتداء، والخبر يحبون أثنى الله تعالى بهذه الخصال الجليلة كما أثنى على المهاجرين بقوله ﴿يبتغون فضلاً﴾ الخ. والإيمان معطوف على الدار، وهي المدينة والإيمان ليس مكاناً فيتبوأ. فقيل: هو من عطف الجمل، أي: واعتقدوا الإيمان وأخلصوا فيه، لأنه أمر عقلي فيكون كقوله:

علفتها تبناً وماءً بارداً

أو يكون ضمن تبوءوا معنى لزموا، واللزوم قدر مشترك في الدار والإيمان، فيصح العطف أو لما كان الإيمان قد شملهم صار كالمكان الذي يقيمون فيه، لكن يكون ذلك جمعاً بين الحقيقة والمجاز. قال الزمخشري: أو أراد دار الهجرة ودار الإيمان، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه، وحذف المضاف من دار الإيمان، ووضع المضاف إليه

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٦٦٢)، (٣٨٠٥) وابن ماجه في المقدمة (٩٧) وأحمد في المسند (٥/٣٨٢، ٣٨٥، ٣٩٩، ٤٠٢) وابن

مقامه، أو سمى المدينة لأنها دار الهجرة، ومكان ظهور الإيمان بالإيمان. وقال ابن عطية: والمعنى تبوؤا الدار مع الإيمان معاً، وبهذا الاقتران يصح معنى قوله: ﴿من قبلهم﴾ فتأمله انتهى. ومعنى ﴿من قبلهم﴾ من قبل هجرتهم ﴿حاجة﴾ أي: حسداً ﴿مما أوتوا﴾ أي: مما أعطي المهاجرون، ونعم الحاجة ما فعله الرسول ـ ﷺ ـ في إعطائه المهاجرين من أموال بني النضير والقرى. ﴿ويؤثرون على أنفسهم﴾، من ذلك قصة الأنصاري مع ضيف الرسول ﷺ حيث لم يكن لهم إلا ما يأكل الصبية، فأوهمهم أنه يأكل حتى أكل الضيف، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: عجب الله من فعلكما البارحة. فالآية مشيرة إلى ذلك. ويروى غير ذلك في إيثارهم ﴿والخصاصة﴾ الفاقة مأخوذة من خصاص البيت، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفرج والفتوح، فكأن حال الفقير هي كذلك يتخللها النقص والاحتياج. وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة ﴿شح﴾ بكسر الشين، والجمهور بإسكان الواو، وتخفيف القاف، وضم الشين. والشح اللؤم وهو كزازة النفس على ما عندها والحرص على المنع، قال الشاعر:

تمارس نفساً بين جنبيه كزة ... إذا هم بالمعروف قالت له مهلاً[1]

وأضيف الشح إلى النفس لأنه غريزة فيها. وقال تعالى: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ وفي الحديث: من أدى الزكاة المفروضة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة فقد برئ من الشح. ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ الظاهر أنه معطوف على ما قبله من المعطوف على المهاجرين. فقال الفراء: هم الفرقة الثالثة من الصحابة، وهو من آمن أو كثر في آخر مدة النبي ـ ﷺ ـ. وقال الجمهور أراد من يجيء من التابعين، فعلى القول الأول يكون معنى من بعدهم، أي: من بعد المهاجرين والأنصار السابقين بالإيمان، وهؤلاء تأخر إيمانهم أو سبق إيمانه، وتأخرت وفاته حتى انقرض معظم المهاجرين والأنصار، وعلى القول الثاني يكون معنى ﴿من بعدهم﴾ أي: من بعد وفاة المهاجرين مهاجريهم وأنصارهم وإذا كان والذين معطوفاً على المجرور قبله، فالظاهر أنهم مشركو من تقدم في حكم الفيء. وقال مالك بن أوس: قرأ عمر ﴿إنما الصدقات للفقراء﴾ [التوبة: ٦٠] الآية حتى بلغ. هذه لهؤلاء، ثم قرأ ﴿واعلموا أنما غنمتم﴾ [الأنفال: ٤١] فقال وهذه لهؤلاء، ثم قرأ ﴿ما أفاء الله على رسوله﴾ حتى بلغ ﴿للفقراء المهاجرين﴾ إلى ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ ثم قال لئن عشت ليأتين الراعي وهو بسرو حمير نصيبه منها. وعنه أيضاً أنه استشار المهاجرين والأنصار فيما فتح الله عليه من ذلك في كلام كثير آخره أنه تلا ﴿ما أفاء الله على رسوله﴾ الآية، فلما بلغ ﴿أولئك هم الصادقون﴾ قال: هي لهؤلاء فقط، وتلا ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ الآية، إلى قوله ﴿رؤوف رحيم﴾ ثم قال: ما بقي أحد من أهل الإسلام إلا وقد دخل في ذلك. وقال عمر رضي الله تعالى عنه: لولا من يأتي من آخر الناس ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله ـ ﷺ ـ خيبر. وقيل: والذين جاؤوا من بعدهم مقطوع مما قبله معطوف عطف الجمل لا عطف المفردات، فإعرابه ﴿والذين﴾ مبتدأ قصدوا بالدعاء للأولين، والثناء عليهم، وهم من يجيء بعد الصحابة إلى يوم القيامة، والخبر ﴿يقولون﴾ أخبر تعالى عنهم بأنهم لإيمانهم ومحبة أسلافهم يقولون ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا﴾ وعلى القول الأول يكون يقولون استئناف إخبار قيل: أو حال. ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا﴾ الآية نزلت في عبد الله بن أبي، ورفاعة بن التابوت، وقوم من منافقي الأنصار، كانوا بعثوا إلى بني النضير بما تضمنته الجمل المحكية بقوله: ﴿يقولون﴾ واللام في لإخوانهم للتبليغ والأخوة بينهم أخوة الكفر وموالاتهم ﴿ولا

حديث أورده الهيثمي في الموارد (٢٦٩٣) وفي المجمع (٩/ ٣٣، ٢٩٥) وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١٠٩) والطحاوي في مشكل الآثار (٣/ ٨٤، ٨٤، ٩٥) والطبراني في الكبير (٦/ ٦٨) وابن سعد في الطبقات (٢/ ٣٨، ٩٨، ٩٩) والبخاري في التاريخ (٨/ ٢٠٩) (٩/ ٥) والبغوي في التفسير (٦/ ٥٥) (٦/ ٣٩٦) والحاكم في المستدرك (٣/ ٧٥) والبيهقي (٤/ ٦٢، ٨/ ١٥٣)

(١) انظر البيت في الكشاف (٤/ ٥٠٣) روح المعاني (٢٧/ ٥٣)

نطيع فيكم) أي : في قتالكم أحداً من الرسول والمؤمنين ، أو لا نطيع فيكم ، أي : في خذلانكم ، وإخلاف ما وعدناكم من النصرة (وإن قوتلتم لننصرنكم) جواب قسم محذوف قبل إن الشرطية ، وجواب إن محذوف ، والكثير في كلام العرب إثبات اللام المؤذنة بالقسم قبل أداة الشرط ، ومن حذفها قوله ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين ﴾ [المائدة ٧٣] التقدير : ولئن لم ينتهوا لكاذبون أي : في مواعيدهم لليهود ، وفي ذلك دليل على صحة النبوة ، لأنه إخبار بالغيب ، ولذلك لم يخرجوا حين أخرج بنو النضير ، بل أقاموا في ديارهم وهذا إذا كان قوله لإخراجهم إليهم بنو النضير ، وقيل : هم يهود المدينة ، والضمائر على هذين القولين . وقيل : فيها اختلاف ، أي : لئن أخرج اليهود لا يخرج المنافقون ، ولئن قوتل اليهود لا ينصرهم المنافقون ، ولئن نصر اليهود المنافقين ليولي اليهود الأدبار ، وكأن صاحب هذا القول نظر إلى قوله (ولئن قوتلوا لا ينصرونهم) فقد أخبر أنهم لا ينصرونهم ، فكيف يأتي (ولئن نصروهم) فأخرجه في حيز الإمكان ، وقد أخبر أنهم لا ينصرونهم فلا يمكن نصرهم إياهم بعد إخباره تعالى أنه لا يقع ، وإذا كانت الضمائر متفقة فقال الزمخشري : معناه ولئن نصروهم على الفرض ، والتقدير كقوله : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [الزمر ٦٥] وكما يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون ، وقال ابن عطية : معناه ولئن خالفوا ذلك فإنهم ينهزمون انتهى . والظاهر أن الضمير في (ليولن الأدبار) وفي (ثم لا ينصرون) عائد على المفروض أنهم ينصرونهم ، أي : ولئن نصرهم المنافقون ليولي المنافقون الأدبار ، ثم لا ينصر المنافقون . وقيل : الضمير في الثاني عائد على اليهود ، وكذا في لا ينصرون . قال ابن عطية : وجاءت الأفعال غير مجزومة في قوله (لا يخرجون) و (لا ينصرون) لأنها راجعة على حكم القسم لا على حكم الشرط ، وفي هذا نظر انتهى . وأي نظر في هذا ، وهذا جاء على القاعدة المتفق عليها من أنه إذا تقدم القسم على الشرط كان الجواب للقسم ، وحذف جواب الشرط وكان فعله بصيغة المضي أو مجزوماً بلم ، وله شرط وهو أنه لا يتقدمه طالب خبر ، واللام في لئن مؤذنة بقسم محذوف قبله فالجواب له . وقد أجاز الفراء أن يجاب الشرط وإن تقدم القسم ، ورد عليه البصريون ، ثم خاطب المؤمنين بأن هؤلاء يخافونكم أشد خيفة من الله تعالى لأنهم يتوقعون عاجل شركم ، ولعدم إيمانهم لا يتوقعون آجل عذاب الله . وذلك لقلة فهمهم . و (رهبة) مصدر رهب المبني للمفعول ، كأنه قيل : أشد مرهوبية فالرهبة واقعة منهم ، لا من المخاطبين والمخاطبون مرهوبون وهذا كما قال :

فلهو أخوف عندي إذ أكلمه ... وقيل إنك مأسور ومقتول
من ضيغم بثراء الأرض مخدره ... ببطن عثر غيل دونه غيل (١)

فالمخبر عنه مخوف لا خائف ، والضمير في صدورهم . قيل : لليهود ، وقيل : للمنافقين ، وقيل : للفريقين ، ويجعل المصدر مقراً للرهبة دليل على تمكنها منهم ، بحيث صارت الصدور مقراً لها ، والمعنى : رهبتهم منكم أشد من رهبتهم من الله عز وجل (لا يقاتلونكم) أي : بنو النضير ، وجميع اليهود . وقيل : اليهود والمنافقون جميعاً أي مجتمعين متساندين يعضد بعضهم بعضاً (إلا في قرى محصنة) لا في الصحراء لخوفهم منكم ، وتحصينها بالدروب والخنادق ، أو من وراء جدار يتسترون به من أن تصيبوهم ، وقرأ الجمهور : (جدر) بضمتين جمع جدار ، وأبو رجاء والحسن وابن وثاب بإسكان الدال تخفيفاً ، ورويت عن ابن كثير وعاصم والأعمش ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير وكثير من المكيين (جدار) بالألف وكسر الجيم . وقرأ كثير من المكيين وهارون عن ابن كثير (جدر) بفتح الجيم وسكون الدال . قال صاحب اللوامح وهو واحد بلغة اليمن ، وقال ابن عطية : ومعناه أصل بنيان كالسور ونحوه . قال : ويحتمل أن يكون من جدر النخل ، أي من وراء نخلهم ، إذ هي مما يتقى به عند المضافة . (بأسهم بينهم شديد) أي : إذا اقتتلوا بعضهم

(١) البيتان من البسيط لكعب بن زهير من قصيدته (بانت سعاد) انظر ديوانه (٣٠) الجمهرة (١٤٩) شرح [illegible] ٢٢ - ٢٣)

مع بعض كان بأسهم شديداً، أما إذا قاتلوكم فلا يبقى لهم بأس، لأن من حارب أولياء الله خذل ﴿تحسبهم جميعاً﴾ أي: مجتمعين ذوي ألفة واتحاد ﴿وقلوبهم شتى﴾ أي: وأهواؤهم متفرقة، وكذا حال المخذولين لا تستقر أهواؤهم على شيء واحد، وموجب ذلك الشتات هو انتفاء عقولهم، فهم كالبهائم لا تتفق على حالة. وقرأ الجمهور ﴿شتى﴾ بألف التأنيث ومبشر بن عبيد منوناً جعلها ألف الإلحاق، وفي قراءة عبد الله وقلوبهم أشت أي: أشد تفرقاً، ومن كلام العرب شتى تؤوب الحلبة. قال الشاعر:

إلى الله أشكو فتية شقت العصا ... هي اليوم شتى وهي أمس جميع[1]

قوله عز وجل: ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم. كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين. فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون. ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون. لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون. لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون. هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون. هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ ﴿كمثل﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: مثلهم، أي: بني النضير ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً﴾ وهم بنو قينقاع، أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة قبل بني النضير، فكانوا مثلاً لهم، قاله ابن عباس، أو أهل بدر الكفار، فإنه عليه الصلاة والسلام قتلهم فهم مثلهم في أن غلبوا وقهروا. وقيل: الضمير في قبلهم للمنافقين، والذين من قبلهم منافقو الأمم الماضية غلبوا وذلوا على وجه الدهر، فهؤلاء مثلهم. ويبعد هذا التأويل لفظة قريباً إن جعلته متعلقاً بما قبله، وقريباً ظرف زمان، وإن جعلته معمولاً لذاقوا، أي: ذاقوا وبال أمرهم قريباً من عصيانهم، أي: لم تتأخر عقوبتهم في الدنيا كما لم تتأخر عقوبة هؤلاء. ﴿ولهم عذاب أليم﴾ في الآخرة ﴿كمثل الشيطان﴾ لما مثلهم بمن قبلهم، ذكر مثلهم مع المنافقين، فالمنافقون كالشيطان، وبنو النضير كالإنسان، والجمهور على أن الشيطان والإنسان اسما جنس يورطه في المعصية، ثم يفر منه، كذلك أغوى المنافقون بني النضير، وحرضوهم على الثبات ووعدوهم النصر، فلما نشب بنو النضير خذلهم المنافقون وتركوهم في أسوأ حال. وقيل: المراد استغواء الشيطان قريشاً يوم بدر، وقوله لهم ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم﴾ إلى قوله ﴿إني بريء منكم﴾ [الأنفال: ٤٨]. وقيل: التمثيل بشيطان مخصوص مع عابد مخصوص استودع امرأة فوقع عليها، فحملت فخشي الفضيحة فقتلها ودفنها، سوّل له الشيطان ذلك، ثم شهره فاستخرجت فوجدت مقتولة، وكان قال إنها ماتت ودفنتها، فعلموا بذلك فتعرض له الشيطان، وقال: اكفر واسجد لي وأنا أنجيك ففعل، وتركه عند ذلك، وقال: إني بريء منك. وقول الشيطان: ﴿إني أخاف الله﴾ رياء، ولا يمنعه الخوف عن سوء يوقع ابن آدم فيه. وقرأ الجمهور ﴿عاقبتهما﴾ بنصب التاء، والحسن وعمرو بن عبيد وسليم بن أرقم برفعها. والجمهور ﴿خالدين﴾ بالياء حالاً، و﴿في النار﴾ خبر أن، وعبد الله وزيد بن علي والأعمش وابن أبي عبلة بالألف، فجاز أن يكون خبر أن والظرف ملغى، وإن كان قد أكد بقوله فيها، وذلك جائز على مذهب سيبويه، ومنع ذلك أهل الكوفة، لأنه إذا أكد عندهم لا يلغى، ويجوز أن يكون في النار خبراً لأن، وخالدين خبر ثان، فلا يكون فيه حجة على مذهب سيبويه. ولما انقضى في هذه السورة وصف المنافقين واليهود وعظ المؤمنين، لأن الموعظة بعد ذكر المصيبة لها موقع في النفس

(١) البيت من الطويل لم نهتد لقائله. انظر القرطبي (١٨/ ٣٦).

لرقة القلوب ، والحذر مما يوجب العقاب ، وكرر الأمر بالتقوى على سبيل التوكيد ، أو لاختلاف متعلق التقوى ، فالأولى في أداء الفرائض لأنه مقترن بالعمل ، والثانية في ترك المعاصي ، لأنه مقترن بالتهديد والوعيد . وقرأ الجمهور ولتنظر أمراً ، واللام ساكنة وأبو حيوة ويحيى بن الحارث بكسرها ، وروي ذلك عن حفص عن عاصم ، والحسن بكسرها وفتح الراء جعلها لام كي . ولما كان أمر القيامة كائناً لا محالة عبر عنه بالغد ، وهو اليوم الذي يلي يومك على سبيل التقريب . وقال الحسن وقتادة : لم يزل يقربه حتى جعله كالغد ، ونحوه { كأن لم تغن بالأمس }[يونس ٢٤] يريد تقريب الزمان الماضي . وقيل : عبر عن الآخرة بالغد ، كأن الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد . وقال ابن عطية : ويحتمل أن يريد بقوله لغد ليوم الموت ، لأنه لكل إنسان كغده . وقال مجاهد وابن زيد : بالأمس الدنيا ، وغد الآخرة . وقال الزمخشري : أما تنكير النفس فاستقلال للأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة ، كأنه قيل : لغد لا يعرف كنهه لعظمه . انتهى . وقرأ الجمهور (لا تكونوا) بتاء الخطاب ، وأبو حيوة بياء الغيبة على سبيل الالتفات . وقال ابن عطية . كناية عن نفس التي هي اسم الجنس ، كالذين نسوا هم الكفار وتركوا عبادة الله وامتثال ما أمر ، واجتناب ما نهى وهذا تنبيه على فرط غفلتهم ، واتباع شهواتهم (فأنساهم أنفسهم) حيث لم يسعوا إليها في الخلاص من العذاب ، وهذا من المجازاة على الذنب بالذنب ، عوقبوا على نسيان جهة الله تعالى بأن أنساهم أنفسهم . قال سفيان . المعنى حظ أنفسهم . ثم ذكر مباينة الفريقين أصحاب النار في الجحيم ، وأصحاب الجنة في النعيم . كما قال ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ [السجدة ١٨] وقال تعالى : ﴿ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ [ص ٢٨] (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل) هذا من باب التخييل والتمثيل ، كما مر في قوله تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات ﴾ [الأحزاب ٧٢] ودل على ذلك (وتلك الأمثال نضربها للناس) والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وعدم تأثره لهذا الذي لو أنزل على الجبل لتخشع وتصدع ، وإذا كان الجبل على عظمه وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع ، فابن آدم كان أولى بذلك ، لكنه على حقارته وضعفه لا يتأثر . وقرأ طلحة (مصدعاً) بإدغام التاء في الصاد ، وأبو السمال وأبو دينار الأعرابي (القدوس) بفتح القاف ، والجمهور بالقاف والضم ، وقرأ الجمهور (المؤمن) بكسر الميم اسم فاعل من آمن بمعنى أمن . وقال ثعلب المصدق المؤمنين في أنهم آمنوا ، وقال النحاس : أو في شهادتهم على الناس يوم القيامة ، وقيل . المصدق نفسه في أقواله الأزلية . وقرأ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين . وقيل : أبو جعفر المدني (المؤمن) بفتح الميم . قال أبو حاتم لا يجوز ذلك ، لأنه لو كان كذلك لكان المؤمن به ، وكان جائزاً لكن المؤمن المطلق بلا حرف جر يكون من كان خائفاً فأومن . وقال الزمخشري : يعني المؤمن به على حذف حرف الجر ، كما تقول في قوم موسى من قوله ﴿ واختار موسى قومه ﴾ [الأعراف ١٥٥] المختارون ، و (المهيمن) تقدم شرحه ، (الجبار) القهار الذي جبر خلقه على ما أراد ، وقيل : الجبار الذي لا يدانيه شيء ، ولا يلحق ومنه نخلة جبارة إذا لم تلحق ، وقال امرؤ القيس :

سوابق جبار أثيث فروعه ... وعالين قنواناً من البسر أحمرا[١]

وقال ابن عباس : هو العظيم ، وجبروته عظمته . وقيل : من الجبر ، وهو الإصلاح جبرت العظم أصلحته بعد الكسر . وقال الفراء : من أجبره على الأمر قهره ، وقال : ولم أسمع فعالاً من أفعل إلا في جبار ، ودراك انتهى . وسمع أسار فهو أسار . المتكبر : المبالغ في الكبرياء ، والعظمة ، وقيل : المتكبر عن ظلم عباده ، الخالق المقدر لما يوجده . البارئ المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة المصور الممثل . وقرأ علي وحاطب بن أبي بلتعة والحسن وابن السميفع (المصور) بفتح الواو والراء وانتصب مفعولاً بالبارئ ، وأراد به جنس المصور ، وعن علي فتح الواو وكسر الراء على إضافة اسم الفاعل إلى المفعول نحو الضارب الغلام .

---

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه (٥٧) القرطبي (١٨ / ٤٦) الشاهد في قوله (جبار) .

سورة الممتحنة مدنية وهي ثلاث عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١) إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (٣) قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٥) لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (٦) ۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٧) لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٩)

هذه السورة مدنية ونزلت بسبب حاطب بن أبي بلتعة ، الذي قد وجه كتاباً مع امرأة إلى أهل مكة يخبرهم بأن رسول الله ـ ﷺ ـ متوجه إليهم لغزوهم ، فأطلع الله رسوله ـ ﷺ ـ على ذلك ، ووجه إلى المرأة من أخذ الكتاب منها ، والقصة مشهورة في كتب الحديث والتفسير . ومناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما ذكر فيما قبلها حالة المنافقين والكفار ، افتتح هذه بالنهي عن موالاة الكفار ، والتودد إليهم . وأضاف في قوله (عدوي) تغليظاً لجرمهم ، وإعلاماً بحلول عقاب الله بهم . والعدو يطلق على الواحد وعلى الجمع وأولياء مفعول ثان لتتخذوا . و(تلقون) حال من ... فلا موضع له من

كفرهم على كل حال سواء أظفروا بهم أو لم يظفروا، وإنما هو معطوف على جملة الشرط والجزاء. أخبر تعالى بخبرين: أحدهما اتضاح عداوتهم والبسط إليهم ما ذكر على تقدير الظفر بهم، والآخر ودادتهم كفرهم لا على تقدير الظفر بهم. ولما كان حاطب قد اعتذر بأن له بمكة قرابة فكتب إلى أهلها بما كتب ليرعوه في قرابته، قال تعالى: ﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم﴾ أي: قراباتكم الذين توالون الكفار من أجلهم، وتتقربون إليهم محاماة عليهم. ﴿يوم القيامة يفصل بينكم﴾ أو يفصل. وقرأ الجمهور: ﴿يفصل﴾ بالياء مخففاً مبنياً للمفعول. وقرأ الأعرج وعيسى وابن عامر كذلك، إلا أنه مشدد. والمرفوع إما ﴿بينكم﴾ وهو مبني على الفتح لإضافته إلى مبني، وإما ضمير المصدر المفهوم من يفصل، أي: يفصل هو، أي: الفصل. وقرأ عاصم والحسن والأعمش: يفصل بالياء مخففاً مبنياً للفاعل، وحمزة والكسائي وابن وثاب مبنياً للفاعل بالياء مضمومة مشدداً، وأبو حيوة وابن أبي عبلة كذلك إلا أنه بالنون مشدداً وهما أيضاً، وزيد بن علي بالنون مفتوحة مخففاً مبنياً للفاعل، وأبو حيوة أيضاً بالنون مضمومة. فهذه ثماني قراءات. ولما نهى عن موالاة الكفار ذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وأن من سيرته التبرؤ من الكفار، ليقتدوا به في ذلك ويتأسوا. وقرأ الجمهور: ﴿إسوة﴾ بكسر الهمزة، وعاصم بضمها، وهما لغتان. ﴿والذين معه﴾ قيل: من آمن به. وقال الطبري وغيره: الأنبياء معاصروه أو كانوا قريباً من عصره، لأنه لم يرو أنه كان له أتباع مؤمنون في مكافحته لهم، ولنمروذ. ألا تراه قال لسارة حين رحل إلى الشام مهاجراً من بلد نمروذ: ما على الأرض من يعبد الله غيري وغيرك. والتأسي بإبراهيم عليه السلام هو في التبرؤ من الشرك، وهو في كل ملة، وبرسولنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الإطلاق في العقائد وأحكام الشرع. وقرأ الجمهور: ﴿برآء﴾ جمع بريء، كظريف وظرفاء، وعيسى: ﴿براء﴾ جمع بريء أيضاً كظريف وظراف، وأبو جعفر بضم الباء كتؤام وظؤار، وهو اسم جمع الواحد بريء، وتؤام وظئر. ورويت عن عيسى. قال أبو حاتم: زعموا أن عيسى الهمداني رووا عنه براء على فعال، كالذي في قوله تعالى: ﴿إنني براء مما تعبدون﴾ [الزخرف ٢٦] في الزخرف، وهو مصدر على فعال يوصف به المفرد والجمع. وقال الزمخشري: وبراء على إبدال الضم من الكسر، كرخال ورباب انتهى. فالضمة في ذلك ليست بدلاً من كسرة، بل هي ضمة أصلية، وهو وزن من أوزان أسماء الجموع، وليس جمع تكسير فتكون الضمة بدلاً من الكسرة. ﴿إلا قول إبراهيم﴾ استثناء من قوله أسوة حسنة، قاله قتادة والزمخشري. قال مجاهد وقتادة وعطاء الخراساني وغيرهم: المعنى أن الأسوة لكم في هذا الوجه لا في الوجه الآخر، لأنه كان لعلة ليست في نازلتكم. وقال الزمخشري: فإن قلت: فإن كان قوله لأستغفرن لك مستثنى من القول الذي هو أسوة حسنة فما بال قوله وما أملك لك من الله من شيء، وهو غير حقيق بالاستثناء، ألا ترى إلى قوله فمن يملك لكم من الله شيئاً؟ قلت: أراد استثناء جملة قوله لأبيه، والقصد إلى موعد الاستغفار له، وما بعده مبني عليه وتابع له، كأنه قال: أنا أستغفر لك، وما في طاقتي إلا الاستغفار. انتهى. وقال الزمخشري أولاً بعد أن ذكر أن الاستثناء هو من قوله أسوة حسنة في مقالات قال: لأنه أراد بالأسوة الحسنة قولهم الذي حق عليهم أن يأتسوا به، ويتخذوه سنة يستنون بها. انتهى. والذي يظهر أنه مستثنى من مضاف لإبراهيم، تقديره أسوة حسنة في مقالات إبراهيم ومحاورته لقومه ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك﴾ فليس فيه أسوة حسنة، فيكون على هذا استثناء متصلاً. وإما أن يكون قول إبراهيم مندرجاً في أسوة حسنة، لأن معنى الأسوة هو الاقتداء والتأسي، فالقول ليس مندرجاً تحته، لكنه مندرج تحت مقالات إبراهيم عليه السلام. وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون الاستثناء من التبري والقطيعة التي ذكرت، أي: لم تبق صلة إلا كذا. انتهى. وقيل: هو استثناء منقطع المعنى، لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك فلا تأسوا به فيه، فتستغفروا وتفدوا آباءكم الكفار بالاستغفار. ﴿ربنا عليك توكلنا﴾ وما بعده الظاهر أنه من تمام قول إبراهيم متصلاً بما قبل الاستثناء، وهو من جملة ما يتأسى به فيه، وفصل بينها بالاستثناء اعتناء بالاستثناء، ولقربه من المستثنى منه. ويجوز أن يكون أمراً من الله للمؤمنين، أي: قولوا ربنا عليك توكلنا، فعلمهم تلك المقالة التي

بينهم ، وبين الكفار . ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ ، قال ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا ويعذبونا . وقال مجاهد : لا تعذبنا بأيديهم ، ولا بعذاب من عندك فيظنوا أنهم محقون ، وأنا مبطلون فيفتنوا لذلك ، وقال نحوه قتادة ، وأبو مجلز ، وقول ابن عباس أرجح ، لأنه دعاء لأنفسهم ، وعلى قول غيره دعاء للكافرين . والضمير في فيهم عائد على إبراهيم والذين معه ، وكررت الأسوة تأكيداً ، وكذلك ذلك مختلف أيضاً ، وفي وجوده من حسن المطلب بدل بعض من كل . ويروى أنه لما نزلت هذه الآية عزم المسلمون على إظهار عداوة أقربائهم الكفار ، ولحقهم هم لكونهم لم يؤمنوا حتى يتوادوا ، فنزلت : ﴿ عسى الله ﴾ الآية مؤنسة ومرجية ، فأسلم الجميع عام الفتح ، وصاروا إخواناً ، ومن ذكر أن هذه المودة هي تزويج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأنها كانت بعد الفتح فقد أخطأ ، لأن تزويجها كان وقت هجرة الحبشة ، وهذه الآيات سنة ست من الهجرة ، ولا يصح ذلك عن ابن عباس إلا أن يسوقه مثالاً وإن كان متقدماً لهذه الآية ، لأنه استمر بعد الفتح كسائر ما نشأ من مودات قاله ابن عطية . و ﴿ عسى ﴾ من الله تعالى واجبة الوقوع ﴿ والله قدير ﴾ على تقليب القلوب وتيسير العسير ﴿ والله غفور ﴾ لمن أسلم من المشركين . ﴿ لا ينهاكم الله ﴾ الآية قال مجاهد : نزلت في قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا ، فكانوا في رتبة سوء لتركهم فرض الهجرة . وقيل : في مؤمنين من أهل مكة وغيرها تركوا الهجرة . وقال الحسن وأبو صالح في خزاعة ، وبني الحارث بن كعب ، وكنانة ومزينة ، وقبائل من العرب كانوا مظاهرين للرسول محبين فيه وفي ظهوره . وقيل : فيمن لم يقاتل ، ولا أخرج ولا أظهر سوءاً من كفار قريش . وقال قرة الهمداني وعطية العوفي : في قوم من بني هاشم منهم العباس . وقال عبد الله بن الزبير : في النساء والصبيان من الكفرة . وقال النحاس والثعلبي : أراد المستضعفين من المؤمنين الذين لم يستطيعوا الهجرة . وقيل : قدمت على أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنه أمها نتيلة بنت عبد العزى وهي مشركة بهدايا ، فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول ، فنزلت الآية ، فأمرها رسول الله ﷺ أن تدخلها منزلها ، وتقبل منها وتكرمها وتحسن إليها . قال ابن عطية : وكانت المرأة فيما روي خالتها فسمتها أماً . وفي التحرير أن أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه طلق امرأته قتيلة في الجاهلية وهي أم أسماء بنت أبي بكر ، فقدمت في المدة التي فيها هدنة وأهدت إلى أسماء قرطاً وأشياء ، فكرهت أن تقبل منها حتى نزلت الآية ﴿ أن تبروهم ﴾ و ﴿ أن تولوهم ﴾ بدلان مما قبلهما بدل اشتمال . قوله عز وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

كان صلح الحديبية قد تضمن أن من أتى أهل مكة من المسلمين لم يرد إليهم، ومن أتى المسلمين من أهل مكة رد إليهم، فجاءت أم كلثوم وهي بنت عقبة بن أبي معيط وهي أول امرأة هاجرت بعد هجرة رسول الله ـ ﷺ ـ في هدنة الحديبية، فخرج في أثرها أخواها عمارة والوليد، فقالا: يا محمد أوف لنا بشرطنا، فقالت: يا رسول الله حال النساء إلى الضعف كما قد علمت، فتردني إلى الكفار يفتنوني عن ديني، ولا صبر لي، فنقض الله العهد في النساء، وأنزل فيهن الآية، وحكم بحكم رضوه كلهم. وقيل: سبب نزولها سبيعة بنت الحارث الأسلمية جاءت الحديبية مسلمة، فأقبل زوجها مسافر المخزومي. وقيل: صيفي بن الراهب، فقال: يا محمد اردد علي امرأتي فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا، وهذه طينة الكتاب لم تجف، فنزلت بياناً أن الشرط إنما كان في الرجال دون النساء. وذكر ابن نعيم الأصبهاني أن سبب نزولها أميمة بنت بشر بن عمرو بن عوف امرأة حسان بن الدحداحة، وسماهن تعالى مؤمنات قبل أن يمتحن، وذلك لنطقهن بكلمة الشهادة، ولم يظهر منهن ما ينافي ذلك، أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان. وقرئ: مهاجرات بالرفع على البدل من المؤمنات. وامتحانهن، قالت عائشة: بآية المبايعة. وقيل: بأن يشهدن أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. وقال ابن عباس: بالحلف أنها ما خرجت إلا حباً لله ورسوله، ورغبة في دين الإسلام. وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة وعكرمة: كانت تستحلف أنها ما هاجرت لبغض في زوجها ولا لجريرة جرتها ولا لسبب من أغراض الدنيا سوى حب الله ورسوله والدار الآخرة {الله أعلم بإيمانهن} لأنه تعالى هو المطلع على أسرار القلوب وخبيئات العقائد، {فإن علمتموهن} أطلق العلم على الظن الغالب بالحلف، وظهور الأمارات بالخروج من الوطن، والحلول في قوم ليسوا من قومها، وبين انتفاء رجعهن إلى الكفار أزواجهن، وذلك هو التحريم بين المسلمة والكافر. وقرأ طلحة {لا هن يحللن لهم} وانعقد التحريم بهذه الجملة، وجاء قوله {ولا هم يحلون لهن} على سبيل التأكيد، وتشديد الحرمة، لأنه إذا لم تحل المؤمنة للكافر علم أنه لا حل بينهما ألبتة. وقيل: أفاد قوله {ولا هم يحلون لهن} استمرار الحكم بينهم فيما يستقبل، كما هو في الحال ما داموا على الإشراك، وهن على الإيمان {وآتوهم ما أنفقوا} أمر أن يعطى الزوج الكافر ما أنفق على زوجته إذا أسلمت، فلا يجمع عليه خسران الزوجة والمالية. قال ابن عباس: أعطى رسول الله ـ ﷺ ـ بعد امتحانها زوجها الكافر ما أنفق عليها، فتزوجها عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ وكان إذا امتحنهن أعطى أزواجهن مهورهن. وقال قتادة: الحكم في رد الصداق إنما كان في نساء أهل العهد، فأما من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يرد عليه الصداق، والأمر كما قال قتادة. ثم نفى الحرج في نكاح المؤمنين إياهن إذا آتوهن مهورهن. ثم أمر تعالى المؤمنين بفراق نسائهم الكوافر عابدات الأوثان. وقرأ الجمهور {تمسكوا} مضارع أمسك، كأكرم، وأبو عمرو ومجاهد بخلاف عنه وابن جبير والحسن والأعرج مضارع مسك مشدداً، والحسن أيضاً وابن أبي ليلى وابن عامر في رواية عبد الحميد وأبو عمرو في رواية معاذ {تمسكوا} بفتح الثلاثة مضارع تمسك محذوف التاء تتمسكوا، والحسن أيضاً تمسكوا بكسر السين مضارع مسك ثلاثياً. وقال الكرخي: الكوافر يشمل الرجال والنساء، فقال له أبو علي الفارسي: النحويون لا يرون هذا إلا في النساء جمع كافرة، فقال: أليس يقال طائفة كافرة، وفرقة كافرة، قال أبو علي: فبهت، فقلت: هذا تأييد. انتهى. وهذا الكرخي معتزلي فقيه، وأبو علي معتزلي فأعجبه هذا التخريج، وليس بشيء، لأنه لا يقال كافرة في وصف الرجال إلا تابعاً لموصوفها، أو يكون محذوفاً مراداً، أما بغير ذلك فلا يجمع فاعلة على فواعل إلا ويكون للمؤنث. والعصم جمع عصمة، وهي سبب البقاء في الزوجية {واسألوا ما أنفقتم} أي: واسألوا الكافرين ما أنفقتم على أزواجكم إذا فروا إليهم {وليسألوا} أي: الكفار ما أنفقوا على أزواجهم إذا فروا إلى المؤمنين. ولما نزل هذا الحكم، قالت قريش، فيما روي: لا نرضى هذا الحكم ولا نلتزمه، ولا ندفع لأحد صداقاً، فنزلت بسبب ذلك هذه الآية الأخرى {وإن فاتكم} فأمر تعالى المؤمنين أن يدفعوا من فرت زوجته من المسلمين ففاتت بنفسها إلى الكفار، وانقلبت من الإسلام ما كان مهرها. قال

مضى، وفيما غبر فهو لك حلال. فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال لها: وإنك لهند بنت عتبة، قالت: نعم فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك. فقال: ﴿ولا يزنين﴾، فقالت: أو تزني الحرة؟ فقال: ﴿ولا يقتلن أولادهن﴾ فقالت: ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر. فضحك عمر رضي الله تعالى عنه حتى استلقى، وتبسم رسول الله ﷺ، فقال: ﴿ولا يأتين ببهتان﴾، فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمر الله إلا بالرشد ومكارم الأخلاق. فقال: ﴿ولا يعصينك في معروف﴾، فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا، وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء. ومعنى قول هند أو تزني الحرة، أنه كان في قريش في الإماء غالباً، وإلا فالبغايا ذوات الرايات قد كن حرائر. وقرأ علي والحسن والسلمي: ﴿ولا يقتّلن﴾ مشدداً. وقتلهن من أجل الفقر والعيلة، وكانت العرب تفعل ذلك. والبهتان قال الأكثرون: أن تنسب إلى زوجها ولداً ليس منه، وكانت المرأة تلتقط الولد فتقول لزوجها هو ولدي منك. ﴿بين أيديهن وأرجلهن﴾ لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين وفرجها الذي تلده به بين الرجلين. وروى الضحاك: البهتان العضه، لأنها إذا قذفت المرأة غيرها فقد بهتت ما بين يدي المقذوفة، ورجليها إذا نفت عنها ولداً قد ولدته، أو ألحقت بها ولداً لم تلده. وقيل: البهتان السحر. وقيل: بين أيديهن ألسنتهن بالنميمة، وأرجلهن فروجهن، وقيل: بين أيديهن قبلة، أو جسة، وأرجلهن الجماع. ومن البهتان الفرية بالقول على أحد من الناس، والكذب فيما اؤتمن عليه من حمل وحيض. والمعروف الذي نهين عن العصيان فيه، قال ابن عباس وأنس وزيد بن أسلم: هو النوح وشق الجيوب، ووشم الوجوه، ووصل الشعر، وغير ذلك من أوامر الشريعة فرضها وندبها. روي أن قوماً من فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم، فقيل لهم: لا تتولوا قوماً مغضوباً عليهم، وعنى أنهم اليهود، فسرهم الحسن وابن زيد ومنذر بن سعيد، لأن غضب الله قد صار عرفاً لهم. وقال ابن عباس: كفار قريش، لأن كل كافر عليه غضب من الله. وقيل: اليهود والنصارى قد يئسوا من الآخرة. قال ابن عباس: من خيرها وثوابها. والظاهر أن من في أصحاب القبور لابتداء الغاية، أي: من لقاء أصحاب القبور، فمن الثانية كالأولى من الآخرة. فالمعنى أنهم لا يلقونهم في دار الدنيا بعد موتهم. وقال ابن عطية: هم الذين قالوا: ما يهلكنا إلا الدهر. انتهى. والكفار على هذا كفار مكة، لأنهم إذا مات لهم حميم قالوا: هذا آخر العهد به، لن يبعث أبداً. وهذا تأويل ابن عباس وقتادة والحسن. وقيل: من لبيان الجنس، أي: الكفار الذين هم أصحاب القبور. والمأيوس منه محذوف، أي كما يئس الكفار المقبورون من رحمة الله، لأنه إذا كان حياً غير مقبور كان يرجى له أن لا ييأس من رحمة الله إذ هو متوقع إيمانه. وهذا تأويل مجاهد وابن جبير وابن زيد. وقال ابن عطية: وبيان الجنس أظهر. انتهى. وقد ذكرنا أن الظاهر كون من لابتداء الغاية إذ لا يحتاج الكلام إلى تقدير محذوف. وقرأ ابن أبي الزناد: ﴿كما يئس الكافر﴾ على الإفراد، والجمهور على الجمع. ولما افتتح هذه السورة بالنهي عن اتخاذ الكفار أولياء ختمها بمثل ذلك تأكيداً لترك موالاتهم، وتنفيراً للمسلمين عن توليهم وإلقاء المودة إليهم.

من ذلك لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله فقد تم كبره وشدته انتهى. وقال ابن عطية: والمقت البغض من أجل ذنب، أو ريبة أو دناءة يصنعها الممقوت انتهى. وقال المبرد: رجل ممقوت ومقيت إذا كان يبغضه كل أحد انتهى. وقرأ زيد بن علي (يقاتَلون) بفتح التاء. وقرئ (يُقَتَّلون) وانتصب صفاً على الحال، أي: صافين أنفسهم، أو مصفوفين كأنهم في تراصهم من غير فرجة ولا خلل بنيان رُصَّ بعضه إلى بعض، والظاهر تشبيه الذوات في التحام بعضهم ببعض بالبنيان المرصوص. وقيل: المراد استواء نياتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص. قيل: وفيه دليل على فضل القتال راجلاً، لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة، و(صفاً) و(كأنهم) قال الزمخشري: حالان متداخلان. وقال الحوفي: كأنهم في موضع النعت لصفاً انتهى. ويجوز أن يكونا حالين من ضمير يقاتلون. ولما ذكر أن في المؤمنين من يقول ما لا يفعل وهو راجع إلى الكذب ذكر ذلك في معنى الإذاية للرسول عليه الصلاة والسلام، إذ كان في أتباعه من هان التكذيب، ناسب ذكر قصة موسى، وقوله لقومه: (لم تؤذونني) وإذايتهم له كان بانتقاصه في نفسه، وجحود آيات الله تعالى، واقتراحهم عليه ما ليس لهم اقتراحه (وقد تعلمون) جملة حالية تقتضي تعظيمه وتكرمته، فرتبوا على علمهم أنه رسول الله ما لا يناسب العلم وهو الإذاية، وقد تدل على التحقيق في الماضي والتوقع في المضارع، والمضارع هنا معناه المضي، أي: وقد علمتم كقوله ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ [النور: ٦٤] أي: قد علم ﴿قد نرى تقلب﴾ [البقرة: ١٤٤] وعبر عنه بالمضارع ليدل على استصحاب الفعل (فلما زاغوا) عن الحق (أزاغ الله قلوبهم). قال الزمخشري: بأن منع ألطافه (والله لا يهدي القوم الفاسقين) لا يلطف بهم، لأنهم ليسوا من أهل اللطف. وقال غيره: أسند الزيغ إليهم، ثم قال أزاغ الله كقوله تعالى (نسوا الله فأنساهم أنفسهم) [الحشر: ١٩] وهو من العقوبة على الذنب بالذنب بخلاف قوله ﴿ثم تاب الله عليهم ليتوبوا﴾ [التوبة: ١١٨] ولما ذكر شيئاً من قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل ذكر أيضاً شيئاً من قصة عيسى عليه السلام. وهناك قال (يا قوم) لأنه من بني إسرائيل وهنا قال عيسى (يا بني إسرائيل) من حيث لم يكن له فيهم أب، وإن كانت أمه منهم، و(مصدقاً) و(مبشراً) حالان، والعامل رسول، أي: مرسل ويأتي (اسمه) جملتان في موضع الصفة لرسول أخبر أنه مصدق لما تقدم من كتب الله الإلهية، وبمن تأخر من النبي المذكور، لأن التبشير بأنه رسول تصديق لرسالته. وروي أن الحواريين قالوا: يا رسول الله هل بعدنا من أمة. قال: نعم، أمة أحمد ﷺ حكماء علماء أبرار أتقياء، كأنهم من الفقه أنبياء يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم بالقليل من العمل، وأحمد علم منقول من المضارع للمتكلم، أو من أحمد أفعل التفضيل، وقال حسان:

صلى الإلهُ ومَنْ يحفُّ بعرشِه ... والطيّبون على المباركِ أحمدِ(١)

وقال القشيري: بشر كل نبي قومه بنبينا محمد ﷺ والله أفرد عيسى بالذكر في هذا الموضع لأنه آخر نبي قبل نبينا ﷺ فبين أن البشارة به عمت جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام، والظاهر أن الضمير المرفوع في جاءهم يعود على عيسى، لأنه المحدث عنه. وقيل: يعود على أحمد لما فرغ من كلام عيسى تعرض إلى الإخبار عن أحمد ﷺ وذلك على سبيل الإخبار للمؤمنين، أي: فلما جاء المبشر به هؤلاء الكفار بالمعجزات الواضحة (قالوا هذا سحر مبين)، وقرأ الجمهور (سحر) أي: ما جاء به من البينات. وقرأ عبد الله وطلحة والأعمش وابن وثاب (ساحر) أي: هذا الجائي ساحر. وقرأ الجمهور: (يُدعى) مبنياً للمفعول، وطلحة (يَدَّعي) مضارع ادعى مبنياً للفاعل، وادعى يتعدى بنفسه إلى المفعول به، لكنه لما ضمن معنى الانتماء والانتساب عدي بإلى. وقال الزمخشري أيضاً وقرأ طلحة بن مصرف (وهو يدَّعي) بشد الدال بمعنى يدعو، وادعاه ودعاه نحو لمسه والتمسه (يريدون) الآية تقدم

---

(١) البيت من الكامل، انظر ديوانه (٦٦)، روح المعاني (٢٨/٨٦).

عن جواب الاستفهام ، وهو قوله : ﴿ هل أدلكم ﴾ واستبعد هذا التخريج . قال الزجاج : ليسوا إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم ، إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا . وقال المهدوي : إنما يصح حملاً على المعنى ، وهو أن يكون تؤمنون وتجاهدون عطف بيان على قوله : ﴿ هل أدلكم ﴾ كأن التجارة لم يدر ما هي فبينت بالإيمان والجهاد ، فهي هما في المعنى ، فكأنه قال : هل تؤمنون وتجاهدون ؟ قال : فإن لم تقدر هذا التقدير لم يصح ، لأنه يصير إن دللتم يغفر لكم ، والغفران إنما يجب بالقبول والإيمان لا بالدلالة . وقال الزمخشري نحوه ، قال : وجهه أن متعلق الدلالة هو التجارة ، والتجارة مفسرة بالإيمان والجهاد ، فكأنه قيل : هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم ؟ انتهى . وتقدم شرح بقية الآية . ولما ذكر تعالى ما يمنحهم من الثواب في الآخرة ذكر ما يسرهم في العاجلة ، وهو ما يفتح عليهم من البلاد وأخرى صفة لمحذوف ، أي : ولكم مثوبة أخرى أو نعمة أخرى عاجلة إلى هذه النعمة الآجلة . فأخرى مبتدأ وخبره المقدر لكم وهو قول الفراء ، ويرجحه البدل منه بقوله : ﴿ نصر من الله ﴾ وتحبونها صفة ، أي : محبوبة لكم ، وقال قوم : ﴿ وأخرى ﴾ في موضع نصب بإضمار فعل ، أي : ويمنحكم أخرى ، ونصر خبر مبتدأ ، أي : ذلك أو هو نصر . وقال الأخفش : وأخرى في موضع جر عطفاً على تجارة ، وضعف هذا القول ، لأن هذه الأخرى ليست مما دل عليه إنما هي من الثواب الذي يعطيهم الله على الإيمان والجهاد بنفوسهم وأموالهم . وقرأ الجمهور ﴿ نصرٌ ﴾ بالرفع ، وكذا ﴿ وفتح قريب ﴾ ؛ وابن أبي عبلة بالنصب فيها ثلاثتها ووصف أخرى بتحبونها ، لأن النفس قد وكلت بحب العاجل ، وفي ذلك تحريض على ما يحصل ذلك وهو الإيمان والجهاد . وقال الزمخشري : وفي تحبونها شيء من التوبيخ على محبة العاجل ، قال : ﴿ فإن قلت ﴾ لم نصب من قرأ نصراً من الله وفتحاً قريباً ؟ ﴿ قلت : ﴾ يجوز أن ينصب على الاختصاص ، أو على ينصرون نصراً ، ويفتح لكم فتحاً ، أو على يغفر لكم ، ويدخلكم جنات ويؤتكم أخرى ، نصراً وفتحاً قريباً : ﴿ فإن قلت : ﴾ علام عطف قوله ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ ؟ ﴿ قلت : ﴾ على تؤمنون ، لأنه في معنى الأمر ، كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبكم الله ، وينصركم وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك . انتهى .

﴿ كونوا أنصار الله ﴾ ندب المؤمنين إلى النصرة ، ووضع لهم هذا الاسم ، وإن كان قد صار عرفاً للأوس والخزرج ، وسماهم الله به . وقرأ الأعرج وعيسى وأبو عمرو والحرميان ﴿ أنصاراً لله ﴾ بالتنوين ، والحسن والجحدري وباقي السبعة بالإضافة إلى الله ، والظاهر أن كما في موضع نصب على إضمار ، أي : قلنا لكم ذلك كما قال عيسى . وقال مكي : نعت لمصدر محذوف ، والتقدير كونوا كوناً ، وقيل : نعت لأنصاراً ، أي : كونوا أنصاراً لله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال من أنصاري إلى الله ؟ انتهى . والحواريون اثنا عشر رجلاً ، وهم أول من آمن بعيسى ، بثهم عيسى في الآفاق فبعث بطرس وبولس إلى رومية وأندراوس ومتى إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس ، ويوحنس إلى أرض بابل ، وفيلبس إلى قرطاجنة ، وهي إفريقية ويحنس إلى أفسوس قرية أصحاب الكهف ، ويعقوبس إلى بيت المقدس ، وابن ثلماء إلى أرض الحجاز ، وشمعون إلى أرض البربر وما حولها . وفي بعض أسمائهم إشكال من جهة النقط فليلتمس ذلك من مظانه ﴿ فأيدنا الذين آمنوا ﴾ بعيسى ﴿ على عدوهم ﴾ وهم الذين كفروا بعيسى ، ﴿ فأصبحوا ظاهرين ﴾ أي : قاهرين لهم مستولين عليهم . وقال زيد بن علي وقتادة : ظاهرين غالبين بالحجة والبرهان . وقيل : أيدنا المسلمين على الفرقتين الضالتين والله أعلم .

سورة الجمعة مدنية وهي إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝

السفر: الكتاب المجمع لأوراق منفصلة.

﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم . هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين . قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة

فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ۝ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴾ هذه السورة مدنية . وقيل : مكية وهو خطأ ، لأن أمر اليهود وانفضاض الناس في الجمعة لم يكن إلا بالمدينة . ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ذكر تأييد من آمن على أعدائهم ، أتبعه بذكر التنزيه لله تعالى وسعة ملكه وتقديسه ، وذكر ما أنعم به على أمة محمد ﷺ من بعثته إليهم وتلاوته عليهم كتابه وتزكيتهم . فصارت أمته غالبة سائر الأمم ، وقاهرة لها ، منتشرة الدعوة كما انتشرت دعوة الحواريين في زمانهم . وقرأ الجمهور (الملك) بجرّه وجر ما بعده ، وأبو وائل ومسلمة بن محارب ورؤبة وأبو الدينار الأعرابي بالرفع على إضمار هو ، وحسنه الفصل الذي فيه طول بين الموصوف والصفة ، وكذلك جاء عن يعقوب . وقرأ أبو الدينار وزيد بن علي (القدوس) بفتح القاف ، والجمهور بضمها . (هو الذي بعث) الآية تقدم الكلام في نظيرها في آل عمران ، وفي سورة الأمي وآخرين . الظاهر أنه معطوف على الأميين ، أي : وفي آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد ، وسيلحقون . وقيل : (وآخرين) منصوب معطوف على الضمير في ويعلمهم ، أسند تعليم الآخرين إليه عليه الصلاة والسلام عبارة لما تناسق التعليم إلى آخر الزمان ، وتلا بعضه بعضا ، فكأنه عليه الصلاة والسلام وجد منه . وقال أبو هريرة وغيره : وآخرين هم فارس ، وجاء نصا عنه في صحيح البخاري ومسلم ، ولو فهم منه الحصر في فارس لم يجز أن يفسر به الآية ، ولكن فهم المفسرون منه أنه تمثيل . فقال مجاهد وابن جبير : الروم والعجم . وقال مجاهد أيضا وعكرمة ومقاتل : التابعون من أبناء العرب ، لقوله : (منهم) أي في النسب . وقال مجاهد أيضا والضحاك وابن حيان : طوائف من الناس . وقال ابن عمر : أهل اليمن وعن مجاهد أيضا أبناء الأعاجم ، وعن ابن زيد أيضا : هم التابعون . وعن الضحاك أيضا العجم ، وعن أبي روق : الصغار بعد الكبار ، وينبغي أن تحمل هذه الأقوال على التمثيل ، كما حملوا قول الرسول ﷺ في فارس وهو العزيز الحكيم في تمكينه رجلا أميا من ذلك الأمر العظيم ، وتأييده واختياره من سائر البشر . (ذلك فضل الله) أي : إيتاء النبوة ، وجعله خير خلقه واسطة بينه وبين خلقه (مثل الذين حملوا التوراة) هم اليهود المعاصرون للرسول ﷺ . كلفوا القيام بأوامرها ونواهيها ، ولم يطيقوا القيام بها حين كذبوا الرسول ﷺ ، وهي ناطقة بنبوته . وقرأ الجمهور (حملوا) مشددا مبنيا للمفعول ، ويحيى بن يعمر وزيد بن علي مخففا مبنيا للفاعل . شبه صفتهم بصفة الحمار الذي يحمل كتبا ، فهو لا يدري ما عليه أكتب هي أم صخر وغير ذلك ، وإنما يدرك من ذلك ما يلحقه من التعب بحملها . وقال الشاعر في نحو ذلك :

زوامِلُ للأشعار لا علمَ عندَهم ... بجيدها إلا كعلمِ الأباعرِ

لعمرُكَ ما يدري البعيرُ إذا غدا ... بأوساقه أو راحَ ما في الغرائرِ(١)

وقرأ عبد الله (حمار) منكرا ، والمأمون بن هارون (يحمّل) بشد الميم مبنيا للمفعول . والجمهور : (الحمار) معرفا ، (يحمل) مخففا مبنيا للفاعل ، و (يحمل) في موضع نصب على الحال . وقال الزمخشري : أو الجر على الوصف ، لأن الحمار كاللئيم في قوله :

ولقد أمُرُّ على اللئيمِ يسبُّني(٢)

انتهى . وهذا الذي قاله قد ذهب إليه بعض النحويين ، وهو أن مثل هذا من المعارف يوصف بالجمل ، وحملوا عليه ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ [يس ٣٧] وهذا وأمثاله عند المحققين في موضع الحال لا في موضع الصفة ، ووصفه

---

(١) انظر أسرار البلاغة (٣٢٦) المحرر (١٠) [illegible] روح المعاني (٢٨/٩٤) القرطبي (١٨/٩٤).

(٢) تقدم.

بالمعرفة ذي اللام دليل على تعريفه مع ما في ذلك المذهب من هدم ما ذكره المتقدمون من أن المعرفة لا تنعت إلا بالمعرفة ، والجمل نكرات . ﴿ بئس مثل القوم ﴾ قال الزمخشري : بئس مثلاً مثل القوم انتهى . فخرجه على أن يكون التمييز محذوفاً . وفي بئس ضمير مفسره مثلاً الذي ادعى حذفه ، وقد نص سيبويه على أن التمييز الذي يفسره الضمير المستكن في نعم وبئس وما أجرى مجراهما لا يجوز حذفه . وقال ابن عطية : والتقدير بئس المثل مثل القوم انتهى . وهذا ليس بشيء ، لأن فيه حذف الفاعل ، وهو لا يجوز . والظاهر أن مثل القوم فاعل بئس ، والذين كذبوا هو المخصوص بالذم على حذف مضاف ، أي : مثل الذين كذبوا بآيات الله ، وهم اليهود ، أو يكون الذين كذبوا صفة للقوم ، والمخصوص بالذم محذوف للعلم به ، أي : بئس مثل القوم المكذبين مثلهم ، أي : مثل هؤلاء الذين حملوا التوراة . روي أنه لما ظهر رسول الله ـ ﷺ ـ كتبت يهود المدينة ليهود خيبر إن تتبعوه أطعناكم ، وإن خالفتموه خالفناه ، فقالوا لهم : نحن أبناء خليل الرحمن ، ومنا عزير بن الله ، والأنبياء ، ومتى كانت النبوة في العرب ، نحن أحق بها من محمد ، ولا سبيل إلى اتباعه ، فنزلت ﴿ قل يا أيها الذين هادوا ﴾ وكانوا يقولون : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة ١٨] . وإن كان قولكم حقاً فتمنوا أن تنقلوا سريعاً إلى دار كرامته المعدة لأوليائه ، وتقدم تفسير معنى هذه الآية في سورة البقرة . وقرأ الجمهور ﴿ فتمنوا الموت ﴾ بضم الواو ، وابن يعمر وابن أبي إسحاق وابن السميفع بكسرها ، وعن ابن السميفع أيضاً فتحها . وحكى الكسائي عن بعض الأعراب أنه قرأ بالهمز مضمومة بدل الواو ، وهذا كقراءة من قرأ ﴿ تلؤون ﴾ بالهمز بدل الواو . قال الزمخشري : ولا فرق بين لا ولن في أن كل واحد منهما نفي للمستقبل ، إلا أن في لن تأكيداً وتشديداً ليس في لا ، فأتى مرة بلفظ التأكيد ﴿ ولن يتمنوه ﴾ [البقرة ٩٥] ومرة بغير لفظه ﴿ ولا يتمنونه ﴾ وهذا منه رجوع عن مذهبه في أن لن تقتضي النفي على التأبيد إلى مذهب الجماعة في أنها لا تقتضيه . وأما قوله إلا أن في لن تأكيداً وتشديداً ليس في لا ، فيحتاج ذلك إلى نقل عن مستقري اللسان .
وقرأ الجمهور ﴿ فإنه ﴾ والفاء دخلت في خبر إن لما جرى مجرى صفته ، فكأن إن باشرت الذي ، وفي الذي معنى الشرط فدخلت الفاء في الخبر ، وقد منع هذا قوم منهم الفراء ، وجعلوا الفاء زائدة . وقرأ زيد بن علي ﴿ إنه ﴾ بغير فاء ، وخرجه الزمخشري على الاستئناف ، وخبر ﴿ إن ﴾ هو ﴿ الذي ﴾ كأنه قال : قل إن الموت هو الذي تفرون منه انتهى . ويحتمل أن يكون خبر ﴿ إن ﴾ هو قوله ﴿ إنه ملاقيكم ﴾ فالجملة خبر ﴿ إن ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿ إنه ﴾ توكيداً لـ ﴿ إن الموت ﴾ و ﴿ ملاقيكم ﴾ خبر ﴿ إنه ﴾ لما طال الكلام أكد الحرف مصحوباً بضمير الاسم الذي ﴿ لأن ﴾ . ﴿ إذا نودي ﴾ أي : إذا أذن ، وكان الأذان عند قعود الإمام على المنبر ، وكذا كان في زمن الرسول ﷺ . كان إذا صعد على المنبر أذن على باب المسجد ، فإذا نزل بعد الخطبة أقيمت الصلاة ، وكذا كان في عهد أبي بكر وعمر إلى زمن عثمان كثر الناس ، وتباعدت المنازل فزاد مؤذناً آخر على داره التي تسمى الزوراء ، فإذا جلس على المنبر أذن الثاني ، فإذا نزل من المنبر أقيمت الصلاة ولم يعب ذلك أحد على عثمان ـ رضي الله عنه ـ ﴿ فإن قلت : ﴾ من في قوله ﴿ من يوم الجمعة ﴾ ما هي ؟ ﴿ قلت : ﴾ هي بيان لإذا ، وتفسير له انتهى . وقرأ الجمهور ﴿ الجمعة ﴾ بضم الميم ، وابن الزبير وأبو حيوة وابن أبي عبلة ، ورواية عن أبي عمرو ، وزيد بن علي والأعمش بسكونها ، وهي لغة تميم ، ولغة بفتحها لم يقرأ بها ، وكان هذا اليوم يسمى عروبة ، ويقال العروبة ، قيل : أول من سماه الجمعة كعب بن لؤي ، وأول جمعة صليت جمعة أسعد بن زرارة ، صلى بهم ركعتين ، وذكرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ، فأنزل الله آية الجمعة ، فهي أول جمعة جمعت في الإسلام . وأما أول جمعة جمعها رسول الله ـ ﷺ ـ فإنه لما قدم المدينة نزل قباء على بني عمرو بن عوف ، وأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأسس مسجدهم ، ثم خرج يوم الجمعة عامداً المدينة ، فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم ، فخطب وصلى الجمعة . والظاهر وجوب السعي لقوله تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ وأنه يكون في المشي خفة وبدار . وقال الحسن وقتادة ومالك وغيرهم : إنما تؤتى الصلاة بالسكينة ، والسعي هو بالنية والإرادة والعمل وليس

الإسراع في المشي ، كالسعي بين الصفا والمروة ، وإنما هو بمعنى قوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ [النجم ٣٩] فالقيام والوضوء ولبس الثوب والمشي كله سعي . والظاهر أن الخطاب بالأمر بالسعي للمؤمنين عموماً ، وإنها فرض على الأعيان وعن بعض الشافعية أنها فرض كفاية ، وعن مالك رواية شاذة أنها سنة . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : ثبت عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : الرواح إلى الجمعة واجب على كل مسلم . وقالوا : المأمور بالسعي المؤمن الصحيح الحر الذكر المقيم ، فلو حضر غيره أجزأهم انتهى . والمسافة التي يسعى منها إلى صلاة الجمعة لم تتعرض الآية لها ، واختلف الفقهاء في ذلك . فقال ابن عمر وأبو هريرة وأنس والزهري : ستة أميال . وقيل : خمسة ، وقال ربيعة أربعة أميال ، وروي ذلك عن الزهري وابن المنكدر . وقال مالك والليث : ثلاثة . وقال أبو حنيفة وأصحابه على من في المصر سمع النداء أو لم يسمع ، لا على من هو خارج المصر ، وإن سمع النداء ، وعن ابن عمر وابن المسيب والزهري وأحمد وإسحاق على من سمع النداء . وعن ربيعة على من إذا سمع النداء وخرج من بيته ماشياً أدرك الصلاة . وقرأ كبراء من الصحابة والتابعين (فامضوا) بدل (فاسعوا) وينبغي أن يحمل على التفسير من حيث إنه لا يراد بالسعي هنا الإسراع في المشي ، ففسروه بالمضي ، ولا يكون قرآناً لمخالفته سواد ما أجمع عليه المسلمون . وذكر الله هنا الخطبة ، قاله ابن المسيب ، وهي شرط في انعقاد الجمعة عند الجمهور . وقال الحسن هي مستحبة . والظاهر أنه يجزىء من ذكر الله تعالى ما يسمى ذكراً . قال أبو حنيفة : لو قال الحمد لله ، أو سبحان الله ، واقتصر عليه جاز . وقال غيره لا بد من كلام يسمى خطبة ، وهو قول الشافعي وأبي يوسف ، ومحمد بن الحسن . والظاهر تحريم البيع ، وأنه لا يصح . وقال ابن العربي : يفسخ وهو الصحيح وقال الشافعي : ينعقد ولا يفسخ ، وكلما يشغل من العقود كلها فهو حرام شرعاً مفسوخ ردعاً انتهى . وإنما ذكر البيع من بين سائر المحرمات ، لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق ، إذ يكثر الوافدون الأمصار من القرى ويجتمعون للتجارة إذا تعالى النهار ، فأمروا بالبدار إلى تجارة الآخرة ونهوا عن تجارة الدنيا ، ووقت التحريم من الزوال إلى الفراغ من الصلاة ، قاله الضحاك ، والحسن وعطاء . وقالت فرقة : من وقت أذان الخطبة إلى الفراغ . والإشارة بذلكم إلى السعي ، وترك البيع ، والأمر بالانتشار . والابتغاء أمر إباحة ، وفضل الله هو ما يطلب في حالة حسنة ، كعيادة المريض ، وصلة صديق ، واتباع جنازة ، وأخذ في بيع وشراء ، وتصرفات دينية ودنيوية ، فأمر مع ذلك بإكثار ذكر الله . وقال مكحول والحسن وابن المسيب : الفضل المأمور بابتغائه هو العلم . وقال جعفر الصادق : ينبغي أن يكون صبح يوم السبت . ويعني أن يكون بقية يوم الجمعة في طاعة . ويروى أنه كان أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر ، فقدم دحية بعير تحمل ميرة . قال مجاهد : وكان من عرفهم أن يدخل بالطبل والمعازف من دوابها ، فدخلت بها فانفضوا إلى رؤية ذلك وسماعه ، وتركوه ـ ﷺ ـ قائماً على المنبر في اثني عشر رجلاً . قال جابر أنا أحدهم . قال أبو بكر غالب بن عطية هم العشرة المشهود لهم بالجنة ، والحادي عشر قيل : عمار . وقيل : ابن مسعود . وقيل : ثمانية فقط نزلت (وإذا رأوا تجارة) . وقرأ الجمهور : (إليها) بضمير التجارة ، وابن أبي عبلة (إليه) بضمير اللهو ، وكلاهما جائز نص عليه الأخفش عن العرب . وقال ابن عطية : وقال إليها ، ولم يقل إليهما تهمماً بالأهم ، إذا كانت سبب اللهو ، ولم يكن اللهو سببها . وتأمل أن قدمت التجارة على اللهو في الرؤية ، لأنها أهم ، وأخرت مع التفضيل لتقع النفس أولاً على الأبين انتهى . وفي قوله (قائماً) دلالة على مشروعية القيام في الخطبة ، وأول من استراح في الخطبة عثمان ، وأول من خطب جالساً معاوية . وقرىء إليهما بالتثنية كالضمير ، كقوله تعالى : ﴿ إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ﴾ [النساء ١٣٥] وتخريجه على أن يتجوز بأو فتكون بمعنى الواو ، وقد تقدم غير هذا التخريج في قوله : (فالله أولى بهما) في موضعه في سورة النساء . وناسب ختمها بقوله (والله خير الرازقين) لأنهم كانوا قد مسهم شيء من غلاء الأسعار ، كما تقدم في سبب النزول وقد ملأ المفسرون كثيراً من أوراقهم بأحكام ، وخلاف في مسائل الجمعة مما لا تعلق لها بلفظ القرآن .

سورة المنافقون مدنية وهي إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝

أجسم وأخف معرفة أسندت ظهري إلى حائط ثابت وأصحابه إليه، وتساعد قوم استنفروا وتقاتلوا للقتال.

﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون، ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون، وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون، وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون، سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين، هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون، يقولون لئن رجعنا إلى

المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ، يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾ هذه السورة مدنية ، نزلت في غزوة بني المصطلق ، كانت من عبد الله بن أبي بن سلول وأتباعه فيها أقوال نزلت . وسبب نزولها مذكور في قصة طويلة من مضمونها أن اثنين من الصحابة ازدحما على ماء ، وذلك في غزوة بني المصطلق ، فشج أحدهما الآخر ، فدعا المشجوج يا للأنصار ، والشاج يا للمهاجرين ، فقال عبد الله بن أبي بن سلول ما حكى الله تعالى عنه من قوله : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا وقوله : ﴿ ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ وعنى الأعز نفسه ، وكلاماً قبيحاً فسمعه زيد بن أرقم ، ونقل ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فلام رسول الله ﷺ عبد الله ، فحلف ما قال شيئاً من ذلك ، فاتهم زيد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ إلى قوله ﴿ لا يعلمون ﴾ تصديقاً لزيد ، وتكذيباً لعبد الله بن أبي . ومناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما كان سبب الانفضاض عن سماع الخطبة ربما كان حاصلاً عن المنافقين ، واتبعهم ناس كثير من المؤمنين في ذلك ، وذلك لسرورهم بالعير التي قدمت بالميرة إذ كان وقت مجاعة ، جاء ذكر المنافقين وما هم عليه من كراهة أهل الإيمان ، وأتبعه بقبائح أفعالهم ، وقولهم ﴿ لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾ إذ كانوا هم أصحاب أموال ، والمهاجرون فقراء قد تركوا أموالهم ، ومتاجرهم ، وهاجروا لله تعالى . ﴿ قالوا نشهد ﴾ يجري مجرى اليمين ، ولذلك تلقى بما يتلقى به القسم ، وكذا فعل اليقين والعلم يجري مجرى القسم بقوله ﴿ إنك لرسول الله ﴾ وأصل الشهادة أن يواطئ اللسان القلب هذا بالنطق ، وذلك بالاعتقاد ، فأكذبهم الله وفضحهم بقوله .
﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ أي لم تواطئ قلوبهم ألسنتهم على تصديقك ، واعتقادهم أنك غير رسول ، فهم كاذبون عند الله ، وعند من خبر حالهم ، أو كاذبون عند أنفسهم ، إذ كانوا يعتقدون أن قولهم : إنك لرسول الله كذب ، وجاء بين شهادتهم وتكذيبهم قوله تعالى : ﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ إيذاناً أن الأمر كما لفظوا به من كونه رسول الله حقاً ، ولو لم تأت هذه الجملة لتوهم أن قولهم هذا كذب ، فوسطت الأمر بينهما ليزول ذلك التوهم . ﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ سمى شهادتهم تلك أيماناً . وقرأ الجمهور ﴿ أيمانهم ﴾ بفتح الهمزة جمع يمين ، والحسن بكسرها مصدر آمن . وقد ذكر أنهم كاذبون أتبعهم بموجب كفرهم ، وهو اتخاذ أيمانهم جنة ، يستترون بها ، ويذبون بها عن أنفسهم ، وأموالهم ، كما قال بعض الشعراء :

وما انتسبوا إلى الإسلام إلا … لصون دمائهم أن لا تسالا[1]

ومن أيمانهم أيمان عبد الله ، ومن حلف معه من قومه أنه ما قال ما نقله زيد بن أرقم إلى رسول الله ﷺ جعلوا تلك الأيمان جنة ، تقي من القتل . وقال أعشى همدان :

إذا أنت لم تجعل لعرضك جنة … من المال سار القوم كل مسير[2]

وقال الضحاك : اتخذوا حلفهم بالله إنهم لمنكم . وقال قتادة : كلما ظهر شيء منهم يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين ، عصمة لأموالهم ودمائهم . وقال السدي : جنة من قتل الصلاة عليهم إذا ماتوا ﴿ فصدوا ﴾ أي : أعرضوا وصدوا اليهود والمشركين عن الدخول في الإسلام ﴿ ذلك ﴾ أي : ذلك الحلف الكاذب ، والصد المتسببان لهم سوء العمل بسبب إيمانهم ، ثم كفرهم . وقال ابن عطية : ذلك إشارة إلى فعل الله بهم في فضيحتهم وتوبيخهم ، ويحتمل أن تكون الإشارة

---

(١) تقدم .
(٢) البيت من الكامل [illegible]

إلى سوء ما عملوا فالمعنى ساء عملهم بأن كفروا. وقال الزمخشري: ذلك القول الشاهد عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالاً بسبب أنهم آمنوا، ثم كفروا، أو إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستخفاف بالأيمان، أي: ذلك كله بسبب أنهم آمنوا ثم كفروا. وقرأ الجمهور ﴿فطبع﴾ مبنياً للمفعول، وزيد بن علي مبنياً للفاعل، أي: فطبع الله، وكذا قرأه الأعمش وزيد في رواية مصرحاً بالله، ويحتمل على قراءة زيد الأولى أن يكون الفاعل ضميراً يعود على المصدر المفهوم من ما قبله، أي: فطبع هو، أي: تلعبهم بالدين. ومعنى ﴿آمنوا﴾ نطقوا بكلمة الشهادة وفعلوا كما يفعل المسلمون ﴿ثم كفروا﴾ أي: ظهر كفرهم بما نطقوا به من قولهم: لئن كان محمد ما يقوله حقاً فنحن شر من الحمير، وقولهم: أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر هيهات. أو نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، وبالكفر عند شياطينهم، أو ذلك فيمن آمن ثم ارتد. ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾ الخطاب للرسول ـ ﷺ ـ أو لكل سامع، أي: لحسنها ونضارتها وجهارة أصواتهم. فكان منظرهم يروق، ومنطقهم يحلو. وقرأ الجمهور ﴿تسمع﴾ بتاء الخطاب، وعكرمة وعطية العوفي ﴿يسمع﴾ بالياء مبنياً للمفعول، وتوهم الجار والمجرور هو المفعول الذي لم يسم فاعله، وليست اللام زائدة، بل ضمن يسمع معنى يصغ ويمل، تعدى باللام وليست زائدة، فيكون قولهم هو المسموع. وشبهوا بالخشب لعزوب أفهامهم، وفراغ قلوبهم من الإيمان، ولم يكتف حتى جعلها مسندة إلى الحائط لا انتفاع بها، لأنها إذا كانت في سقف أو مكان ينتفع بها، وأما إذا كانت غير منتفع بها فإنها تكون مهملة مسندة إلى الحيطان، أو ملقاة على الأرض قد صففت أو شبهوا بالخشب التي هي الأصنام، وقد أسندت إلى الحيطان، والجملة التشبيهية مستأنفة أو على إضمارهم. وقرأ الجمهور ﴿خُشُب﴾ بضم الخاء والشين، والبراء بن عازب والنحويان وابن كثير بإسكان الشين، تخفيف خشب المضموم. وقيل: جمع خشباء كحمر جمع حمراء، وهي الخشبة التي نخر جوفها شبهوا بها في فساد بواطنهم. وقرأ ابن المسيب وابن جبير ﴿خَشَب﴾ بفتحتين اسم جنس الواحد خشبة، وأنث وصفه كقوله ﴿أعجاز نخل خاوية﴾ أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام، وذكر من كان ذا بهاء وفصاحة عبد الله بن أبي، والجد بن قيس ومعتب بن قشير، قال الشاعر في مثل هؤلاء:

لا تخدعنك اللحى ولا الصورُ ... تسعة أعشار من ترى بقرُ
تراهم كالسحاب منتشراً ... وليس فيها لطالب مطرُ
في شجر السرو منهم شبهٌ ... له رواء وما له ثمرُ

وقيل: الجملة التشبيهية وصف لهم بالجبن والخور، ويدل عليه ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ في موضع المفعول الثاني ليحسبون، أي: واقعة عليهم، وذلك لجبنهم وما في قلوبهم من الرعب. قال مقاتل: كانوا متى سمعوا بنشدان ضالة أو صياحاً بأي وجه كان، أو أخبروا بنزول وحي طارت عقولهم، حتى يسكن ذلك، ويكون في غير شأنهم، وكانوا يخافون أن ينزل الله تعالى فيهم ما تباح به دماؤهم وأموالهم، ونحو هذا قول الشاعر:

يروعه السرار بكل أرض ... مخافة أن يكون به السرار

وقال جرير:

ما زلت تحسب كل شيء بعدهم ... خيلاً تكر عليهم ورجالا(٢)

أنشده ابن عطية لجرير، ونسب هذا البيت الزمخشري للأخطل. قال: ويجوز أن يكون ﴿هم العدو﴾ المفعول

---

(١) انظر روح المعاني (٢٧/ ١١٦).

(٢) انظر شرح ديوان جرير (٣٤٩)، الكشاف (٤/ ١١٥)، القرطبي (١٨/ ٨٢)، روح المعاني (٢٨/ ١١٦).

يريد أتسمع. وقال الزمخشري: وقرأ أبو جعفر (آستغفرت) إشباعاً لهمزة الاستفهام للإظهار والبيان، لا قلب همزة الوصل ألفاً كما في آلسحر وآلله. وقال ابن عطية: وقرأ أبو جعفر بن القعقاع (آستغفرت) بمدة على الهمزة، وهي ألف التسوية. وقرأ أيضاً بوصل الألف دون همز على الخبر، وفي هذا كله ضعف، لأنه في الأولى أثبت همزة الوصل، وقد أغنت عنها همزة الاستفهام، وفي الثانية حذف همزة الاستفهام وهو يريدها، وهذا مما لا يستعمل إلا في الشعر. (هم الذين يقولون) إشارة إلى ابن سلول ومن وافقه من قومه سفه أحلامهم في أنهم ظنوا أن رزق المهاجرين بأيديهم، وما علموا أن ذلك بيد الله تعالى (لا تنفقوا على من عند رسول الله) إن كان الله تعالى حكى نص كلامهم فقولهم على من عند رسول الله هو على سبيل الهزء، كقولهم ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ [الحجر: ٦] أو لكونه جرى عندهم مجرى اللقب، أي: هو معروف بإطلاق هذا اللفظ عليه إذ لو كانوا مقرين برسالة الله ما صدر منهم ما صدر. فالظاهر أنهم لم ينطقوا بنفس ذلك اللفظ، ولكنه تعالى عبر به عن رسوله ـ ﷺ ـ إكراماً له وإجلالاً. وقرأ الجمهور (ينفضوا) أي: يتفرقوا عن الرسول، والفضل بن عيسى (ينفضوا) من انفض القوم فني طعامهم، فنفض الرجل وعاءه، والفعل من باب ما يعدى بغير الهمزة، وبالهمزة لا يتعدى. قال الزمخشري: وحقيقته حان لهم أن ينفضوا مزاودهم. وقرأ الجمهور (ليخرجن الأعز منها الأذل) فالأعز فاعل، والأذل مفعول، وهو من كلام ابن سلول. كما تقدم، ويعني بالأعز: نفسه وأصحابه، وبالأذل المؤمنين. والحسن وابن أبي عبلة والسبتي في اختياره (لنخرجن) بالنون ونصب الأعز والأذل، فالأعز مفعول، والأذل حال. وقرأ الحسن فيما ذكر أبو عمرو الداني (لنخرجن) بنون الجماعة مفتوحة وضم الراء ونصب الأعز على الاختصاص، كما قال: نحن العرب أقرى الناس للضيف، ونصب الأذل على الحال. وحكى هذه القراءة أبو حاتم، وحكى الكسائي والفراء أن قوماً قرأوا (ليخرجن) بالياء مفتوحة وضم الراء، فالفاعل الأعز، ونصب الأذل على الحال. وقرئ مبنياً للمفعول، وبالياء الأعز مرفوع به الأذل نصباً على الحال، ومجيء الحال بصورة المعرفة متأول عند البصريين، فما كان منها بأل فعلى زيادتها إلا أنها معرفة. وقد سمع عبد الله ولد عبد الله بن أبي هذه الآية جاء إلى أبيه فقال: أنت والله يا أبت الذليل، ورسول الله ـ ﷺ ـ العزيز، فلما دنا من المدينة جرد السيف عليه، ومنعه الدخول حتى يأذن له رسول الله ـ ﷺ ـ وكان فيما قال له: وراءك لا تدخلها حتى تقول رسول الله ـ ﷺ ـ الأعز وأنا الأذل، فلم يزل حبيساً في يده حتى أذن له رسول الله ـ ﷺ ـ بتخليته. وفي هذا الحديث أنه قال لأبيه: لئن لم تشهد لله ولرسوله بالعزة لأضربن عنقك، قال: أفاعل أنت؟ قال: نعم، فقال: أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. وقيل: للحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما: إن فيك تيهاً فقال: ليس بتيه، ولكنه عزة وتلا هذه الآية. (لا تلهكم أموالكم) بالسعي في نمائها، والتلذذ بجمعها، ولا أولادكم بسروركم بهم، وبالنظر في مصالحهم في حياتكم، وبعد مماتكم عن ذكر الله هو عام في الصلاة، والثناء على الله تعالى بالتسبيح والتحميد، وغير ذلك والدعاء. وقال نحواً منه الحسن وجماعة. وقال الضحاك وعطاء: الذكر هنا الصلاة المكتوبة. وقال الحسن أيضاً: جميع الفرائض. وقال الكلبي: الجهاد مع رسول الله ـ ﷺ ـ وقيل: القرآن. (ومن يفعل ذلك) أي: التشاغل عن ذكر الله بالمال والولد (فأولئك هم الخاسرون) حيث آثروا العاجل على الآجل، والفاني على الباقي. (وأنفقوا مما رزقناكم) قال الجمهور: المراد الزكاة. وقيل: عام في المفروض والمندوب، وعن ابن عباس نزلت في مانعي الزكاة، والله لو رأى خيراً ما سأل الرجعة، فقيل له: أما تتقي الله يسأل المؤمنون الكرة، قال: نعم، أنا أقرأ عليكم به قرآناً يعني أنها نزلت في المؤمنين، وهم المخاطبون بها. (لولا أخرتني) أي: هلا أخرت موتي إلى زمان قليل. وقرأ الجمهور (فأصدق)، وهو منصوب على جواب الرغبة، وأبي وعبد الله وابن جبير (فأتصدق) على الأصل. وقرأ الجمهور السبعة (وأكن) مجزوماً. قال الزمخشري: (وأكن) بالجزم عطفاً على محل فأصدق، كأنه قيل: إن أخرتني أصدق، وأكن انتهى. وقال ابن عطية عطفاً على الموضع، لأن التقدير إن

سورة التغابن مدنية وهي ثمانية عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ۝ هو الذي خلقكم
فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير ۝ خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن
صوركم وإليه المصير ۝ يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور
۝ ألم يأتكم نبؤا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ۝ ذلك بأنه كانت تأتيهم
رسلهم بالبينت فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد ۝ زعم الذين كفروا أن لن
يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ۝ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا
والله بما تعملون خبير ۝ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه
سيئاته ويدخله جنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ۝ والذين
كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ۝ ما أصاب من
مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم ۝ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول
فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين ۝ الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل
المؤمنون ۝ يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم
وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ۝ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله
عنده أجر عظيم ۝ فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن
يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ۝ إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم
والله شكور حليم ۝ عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ۝

التغابن تفاعل من الغبن، وليس من اثنين بل هو من واحد، كتواضع، وتحامل. والغبن: أخذ الشيء بدون قيمته، أو بيعه كذلك. وقيل: الغبن الإخفاء، ومنه غبن البيع لاستخفائه، ويقال: غبنت الثوب وخبنته إذا أخذت ما طال منه عن مقدارك، فمعناه النقص. ﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير. خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير. يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور. ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم. ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد. زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير. فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير. يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ هذه السورة مدنية في قول الأكثرين. وقال ابن عباس وغيره: مكية إلا آيات من آخرها ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم﴾ إلخ. وقال الكلبي: مدنية ومكية. ومناسبة هذه السورة لما قبلها أن ما قبلها مشتمل على حال المنافقين، وفي آخرها خطاب المؤمنين، فأتبعه بما يناسب من قوله: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾. هذا تقسيم في الإيمان والكفر بالنظر إلى الاكتساب عند جماعة من المتأولين لقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»[1]، ولقوله تعالى: ﴿فطرت الله التي فطر الناس عليها﴾ [الروم: ٣٠]. وقيل: ذلك في أصل الخلقة بدليل ما في حديث النطفة من قول الملك: «أشقي أم سعيد»[2]، والغلام الذي قتله الخضر عليه السلام أنه طبع يوم طبع كافراً. وما روى ابن مسعود أنه عليه الصلاة والسلام قال: «خلق الله فرعون في البطن كافراً»[3]، وخلق يحيى بن زكريا في البطن مؤمناً. وعن عطاء بن أبي رباح: فمنكم كافر بالله مؤمن بالكوكب، وقدّم الكافر لكثرته، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ [سبأ: ١٣] ويحسن ذكر التفاضل مثل: ﴿وقليل ما هم﴾ [ص: ٢٤]. وقال الزمخشري: فمنكم آت بالكفر وفاعل له، ومنكم آت بالإيمان وفاعل له، كقوله تعالى: ﴿وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون﴾ [الحديد: ٢٦]، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي عالم بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم، والمعنى: هو الذي تفضل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد عن العدم، فكان يجب أن تنظروا النظر الصحيح، وتكونوا بأجمعكم عباداً شاكرين، انتهى. وهو على طريقة الاعتزال. وقال أيضاً: وقيل: هو الذي خلقكم فمنكم كافر بالخلق وهم الدهرية، ومنكم مؤمن به. وعن الحسن: في الكلام حذف دل عليه تقديره: ومنكم فاسق، وكأنه من دسّ المعتزلة على الحسن. وقدّم الظرف والمجرور في قوله: ﴿له الملك وله الحمد﴾، قال الزمخشري: ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله عزّ وجلّ، وذلك لأن الملك على الحقيقة له، لأنه مبدئ كل شيء ومبدعه، والقائم به المهيمن عليه، وكذلك الحمد، لأن أصول النعم وفروعها منه، وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء، وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده. انتهى. وقرأ الجمهور: ﴿صُوَرَكم﴾ بضم الصاد، وزيد بن علي وأبو رزين بكسرها، والقياس الضم، وهذا تعديد للنعمة في حسن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٥)، وأخرجه أبو داود برقم (٤٧١٤)، (١٩١٥) وأحمد (٢/ ٢٣٣، ٢٧٥، ٢٥٣، ٣٩٣، ٤١٠، ٤٨١، ٢/ ٣٥٣) والحميدي (١١١٣)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٢٤) وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢/ ٢١٦) ومالك في الموطأ (٢٤١) وابن حبان (١٣٣) والبيهقي (٦/ ٢٠٣).

(٢) البخاري (٦/ ٣٠٣) في بدء الخلق باب ذكر الملائكة (٣٢٠٨) في القدر (٦٥٩٤) ومسلم (٤/ ٢٠٣٦) في القدر (٢٦٤٣).

(٣) ذكره السيوطي في الدر (٦/ ٢٢٧) وعزاه لابن عدي والطبراني في الأوسط والبيهقي وابن عساكر، وأخرجه ابن عدي (١/ ٢٤٣)، (٢/ ٢٩٨).

الخلقة ، لأن أعضاء بني آدم متصرفة بجميع ما تتصرف به أعضاء الحيوان ، وبزيادة كثيرة تفضل بها ، ثم هو منفصل بحسن الوجه وجمال الجوارح ، كما قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ [التين : ٤] . وقيل : الهيئة هنا إنما هي صورة الإنسان من حيث هو إنسان مدرك عاقل ، فهذا هو الذي حسن له حتى لحقته كمالات كثيرة . وتكاد العرب لا تعرف الصورة إلا الشكل لا المعنى فقالت بحسن صورة . ووصفه تعالى بعلمه بما في السموات والأرض ، ثم بعلمه بما يسر العباد وما يعلنونه ، ثم بعلمه بما أكنته الصدور على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شيء ، لا من الكليات ولا من الجزئيات ، فابتدأ بالعلم الشامل للعالم كله ، ثم بخاص العباد من سرهم وإعلانهم ، ثم بما خص منه ، وهو ما تنطوي عليه صدورهم من خفي الأشياء وكامنها ، وهذا كله في معنى الوعيد ، إذ هو تعالى المجازي على جميع ذلك بالثواب والعقاب . وقرأ الجمهور ﴿ ما تسرون وما تعلنون ﴾ بتاء الخطاب ، وعبيد عن أبي عمرو وأبان عن عاصم بالياء . ﴿ ألم يأتكم ﴾ الخطاب لقريش ، ذكروا بما حل بالكفار قبلهم عاد وثمود وقوم إبراهيم وغيرهم ، ممن صرح بذكرهم في سورة براءة وغيرها . وقد سمعت قريش أخبارهم ﴿ فذاقوا وبال أمرهم ﴾ أي : مكروههم وما يسوؤهم منه . ﴿ ذلك ﴾ أي : الوبال ﴿ بأنه ﴾ بأن الشأن والحديث استبعدوا أن يبعث الله تعالى من البشر رسولاً ، كما استبعدت قريش ، فقالوا على سبيل الاستغراب : ﴿ أبشر يهدوننا ﴾ وذلك أنهم يقولون نحن متساوون في البشرية فأنى يكون لهؤلاء تميز علينا ، بحيث يصيرون هداة لنا . وارتفع ﴿ أبشر ﴾ عند الحوفي وابن عطية على الابتداء ، والخبر ﴿ يهدوننا ﴾ والأحسن أن يكون مرفوعاً على الفاعلية ، لأن همزة الاستفهام تطلب الفعل ، فالمسألة من باب الاشتغال . ﴿ فكفروا ﴾ العطف بالفاء يدل على تعقب كفرهم مجيء الرسل ﴿ وتولوا ﴾ أي : لم ينظروا في تلك البينات ، ولا تأملوها ، بل عقبوا مجيئها بالكفر ﴿ واستغنى الله ﴾ استفعل بمعنى الفعل المجرد ، وغناه تعالى أزلي ، فالمعنى أنه ظهر تعالى غناه عنهم ، إذ أهلكهم وليست استفعل هنا للطلب . وقال الزمخشري : معناه وظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ، ولم يضطرهم إليه مع قدرته على ذلك انتهى . وفيه دسيسة الاعتزال . والزعم تقدم تفسيره . و﴿ الذين كفروا ﴾ أهل مكة . و﴿ بلى ﴾ إثبات لما بعد حرف النفي ﴿ وذلك على الله يسير ﴾ أي : لا يصرفه عنه صارف . ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ وهو محمد ﷺ . ﴿ والنور الذي أنزلنا ﴾ هو القرآن . وانتصب ﴿ يوم يجمعكم ﴾ بقوله ﴿ لتنبؤن ﴾ ، أو بـ ﴿ خبير ﴾ بما فيه من معنى الوعيد ، أو باذكر مضمرة قاله الزمخشري . والأول عن النحاس ، والثاني عن الحوفي . وقرأ الجمهور ﴿ يجمعكم ﴾ بالياء وضم العين . وروي عنه سكونها وإشمامها الضم ، وسلام ويعقوب وزيد بن علي والشعبي بالنون . ﴿ ليوم الجمع ﴾ يجمع فيه الأولون والآخرون ، وذلك أن كل واحد يبعث طامعاً في الخلاص ، ورفع المنزلة . ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ مستعار من تغابن القوم في التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً ، لأن السعداء نزلوا منازل الأشقياء لو كانوا سعداء ، ونزل الأشقياء منازل السعداء لو كانوا أشقياء . وفي الحديث « ما من عبد يدخل الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً ، وما من عبد يدخل النار إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة » ، وذلك معنى ﴿ يوم التغابن ﴾ . وعن مجاهد وغيره إذا وقع الجزاء غبن المؤمنون الكافرين ، لأنهم يحوزون الجنة ، ويحصل الكفار في النار . وقرأ الأعرج وشيبة وأبو جعفر وطلحة ونافع وابن عامر والمفضل عن عاصم وزيد بن علي والحسن بخلاف عنه ﴿ نكفر ﴾ ﴿ وندخله ﴾ بالنون فيهما ، والأعمش وعيسى والحسن وباقي السبعة بالياء فيهما قوله عز وجل : ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم . وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين . الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون . يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم . إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم . فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم . عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ﴾ التنافر : إطلاق الصيبة

على الرزية وما يسوء العبد، أي: في نفس، أو مال أو ولد، أو قول أو فعل. وخصت بالذكر وإن كان جميع الحوادث لا تصيب إلا بإذن الله. وقيل: ويحتمل أن يريد بالمصيبة الحادثة من خير وشر، إذ الحقيقة في كونها بإذن الله. ومفعول أصاب محذوف، أي: ما أصاب أحداً. والفاعل من مصيبة، ومن زائدة، ولم يلحق التاء أصاب وإن كان الفاعل مؤنثاً وهو فصيح، والتأنيث لقوله تعالى: ﴿ما تسبق من أمة أجلها﴾ [الحجر: ٥] وقوله: ﴿وما تأتيهم من آية إلا بإذن الله﴾ أي: بإرادته وعلمه وتمكينه. ﴿ومن يؤمن بالله﴾ أي: يصدق بوجوده، ويعلم أن كل حادثة بقضائه وقدره. ﴿يهد قلبه﴾ على طريق الخير والهداية. وقرأ الجمهور: ﴿يهد﴾ بالياء مضارعاً هدى، مجزوماً على جواب الشرط. وقرأ ابن جبير وطلحة وابن هرمز والأزرق عن حمزة بالنون، والسلمي والضحاك وأبو جعفر: ﴿يهد﴾ مبنياً للمفعول، ﴿قلبه﴾ رفع؛ وعكرمة وعمرو بن دينار ومالك بن دينار: ﴿يهدأ﴾ بهمزة ساكنة، ﴿قلبه﴾ بالرفع بمعنى: يطمئن ويسكن بإيمانه ولا يكون فيه اضطراب؛ وعمرو بن فائد: ﴿يهدا﴾ بألف بدلاً من الهمزة الساكنة؛ وعكرمة ومالك بن دينار أيضاً: ﴿يهد﴾ بحذف الألف بعد إبدالها من الهمزة الساكنة، وإبدال الهمزة ألفاً في مثل يهدأ ويقرأ ليس بقياس، خلافاً لمن أجاز ذلك قياساً، وبني عليه جواز حذف تلك الألف للجازم، وخرج عليه قول زهير بن أبي سلمى:

جريءٌ متى يظلم يعاقب بظلمه ... سريعاً وإن لا يبد بالظلم يظلم [١]

أصله يبدأ، ثم أبدل من الهمزة ألفاً، ثم حذفها للجازم تشبيهاً بألف يخشى إذا دخل الجازم. ولما قال تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله﴾ ثم أمر بطاعة الله وطاعة رسوله، وحذر مما يلحق الرجل من امرأته وولده بسبب ما يصدر من بعضهم من العداوة، ولا أعدى على الرجل من زوجته وولده إذا كانا عدوين، وذلك في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فبإذهاب ماله وعرضه، وأما في الآخرة فبما يسعى في اكتسابه من الحرام لهما، وربما يكسبانه منه بسبب جاهه. وكم من امرأة قتلت زوجها وجذمته وأفسدت عقله، وكم من ولد قتل أباه، وفي التواريخ وفيما شاهدناه من ذلك كثير. وعن عطاء بن أبي رباح أن عوف بن مالك الأشجعي أراد الغزو مع النبي ﷺ، فاجتمع أهله وأولاده، فثبطوه وشكوا إليه فراقه، فرق ولم يغز. ثم إنه ندم وهم بمعاقبتهم، فنزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ الآية. وقيل: آمن قوم بالله، وثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة، فلم يهاجروا إلا بعد مدة، فوجدوا غيرهم قد تفقه في الدين فندموا، وأسفوا وهموا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم، فنزلت. وقيل: قالوا لهم: أين تذهبون وتدعون بلدكم وعشيرتكم وأموالكم؟ فغضبوا عليهم وقالوا: لئن جمعنا الله في دار الهجرة لم نصبكم بخير، فلما هاجروا منعوهم الخير، فحثوا أن يعفوا عنهم ويردوا إليهم البر والصلة. و﴿من﴾ في ﴿من أزواجكم وأولادكم﴾ للتبعيض، وقد توجد زوجة تسر زوجها وتعينه على مقاصده في دينه ودنياه، وكذلك الولد. وقال الشاعر العبسي يمدح ولده ربيعاً:

إذا كان أولاد الرجال حزازة ... فأنت الحلال الحلو والبارد العذب
لنا جانب منه دميث وجانب ... إذا رامه الأعداء مركبه صعب
وتأخذه عند المكارم هزة ... كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

وقال قرمان بن الأعرف في ابنه منازل وكان عاقاً له قصيدة فيها بعض طول منها:

وربيته حتى إذا ما تركته ... أخا القوم واستغنى عن المسح شاربه

---

(١) تقدم.

خاصاً بل ، كان كوناً مطلقاً ، لو قلت : زيد عندك ، أو في الدار تريد : ضاحكاً عندك ، أو ضاحكاً في الدار لم يجز ، لتعلّق اللام بقوله (فطلقوهن) ويحمل على حذف مضاف هو الصحيح ، وما روي عن جماعة من الصحابة والتابعين ـ رضي الله تعالى عنهم ـ من أنهم قرؤوا (فطلقوهن في قبل عدتهن) وعن بعضهم (في قبل عدتهن) وعن عبد الله (لقبل طهرهن) هو على سبيل التفسير ، لا على أنه قرآن لخلافه سواد المصحف الذي أجمع عليه المسلمون شرقاً وغرباً . وعلى تفسير العدة بالنسبة إلى الأطهار أو الحيض ، تقدم ذلك في البقرة في قوله (ثلاثة قروء) والمراد أن يطلقهن في طهر لم يجامعهن فيه ، ثم يخلين حتى تنقضي عدتهن ، فإن شاء ردها وإن شاء أعرض عنها ، لتكون مهيأة للزوج ، وهذا الطلاق أدخل في السنة . وقال مالك : لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة ، وكره الثلاث مجموعة أو مفرقة ، وأبو حنيفة كره ما زاد على الواحدة في طهر واحد ، فأما مفرقاً في الأطهار فلا ، وقال الشافعي : لا بأس بإرسال الطلاق الثلاث ، ولا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح ، فراعى في السنة الوقت فقط ، وأبو حنيفة التفريق والوقت ، وقوله (فطلقوهن) مطلق لا تعرض فيه لعدد ولا لوصف ، من تفريق أو جمع ، والجمهور على أنه لو طلق لغير السنة وقع ، وعن ابن المسيب وجماعة من التابعين : أنه لو طلق في حيض أو ثلاثة لم يقع . والظاهر أن الخطاب في (وأحصوا العدة) للأزواج أي : اضبطوا بالحفظ وفي الإحصاء فوائد مراعاة الرجعة وزمان النفقة والسكنى وتوزيع الطلاق على الأقراء ، وإذا أراد أن يطلق ثلاثاً والعلم بأنها قد بانت ، فيتزوج بأختها وأربع سواها ، ونهى تعالى عن إخراجهن من مساكنهن ، حتى تنقضي العدة ، ونهاهن أيضاً عن خروجهن ، وأضاف البيوت إليهن لما كان سكناهن فيها ، ونهيهن عن الخروج لا يبيحه إذن الأزواج ، إذ لا أثر لإذنهم ، والإسكان على الزوج ، فإن كان ملكه أو بكراء فذاك ، أو ملكها فلها عليه أجرته ، وسواء في ذلك الرجعية والمبتوتة ، وسنة ذلك أن لا تبيت عن بيتها ، ولا تخرج عنه نهاراً إلا لضرورة ، وذلك لحفظ النسب والاحتفاظ بالنساء ، (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) وهي الزنا عند قتادة ومجاهد والحسن والشعبي وزيد بن أسلم والضحاك وعكرمة وحماد والليث ، ورواه مجاهد عن ابن عباس ، فيخرجن للحد ، وعن ابن عباس : البذاء على الأحماء ، فتخرج ويسقط حقها في السكنى ، وتلزم الإقامة في مسكن تتخذه حفظاً للنسب ، وعنه أيضاً : جميع المعاصي من سرقة ، أو قذف أو زنا ، أو غير ذلك ، واختاره الطبري ، فيسقط حقها في السكنى ، وعند ابن عمر والسدي وابن السائب هي خروجها من بيتها خروج انتقال ، فيسقط حقها في السكنى . وعند قتادة أيضاً نشوزها عن الزوج ، فتطلق بسبب ذلك ، فلا يكون عليه سكنى ، وإذا سقط حقها من السكنى أتمت العدة . (لا تدري) أيها السامع (لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) ، قال المفسرون : الأمر هنا الرغبة في ارتجاعها والميل إليها بعد انصرافه عنها ، أو ظهور حمل فيراجعها من أجله ، ونصب (لا تدري) على جملة الترجي فـ (لا تدري) معلقة عن العمل ، وقد تقدم لنا الكلام على قوله ﴿ وإن أدري لعله فتنة لكم ﴾ [الأنبياء ١١١] وذكرنا أنه ينبغي أن يزاد في المعلقات (لعل) فالجملة المترجاة في موضع نصب بـ (لا تدري) ، (فإذا بلغن أجلهن) أي : أشرفن على انقضاء العدة (فأمسكوهن) أي : راجعوهن (بمعروف) أي : بغير ضرار (أو فارقوهن بمعروف) أي : سرحوهن بإحسان ، والمعنى : اتركوهن حتى تنقضي عدتهن ، فيملكن أنفسهن ، وقرأ الجمهور (أجلهن) على الإفراد ، والضحاك وابن سيرين (آجالهن) على الجمع والإمساك بمعروف : هو حسن العشرة فيما للزوجة على الزوج ، والمفارقة بمعروف : هو أداء المهر والتمتيع والحقوق الواجبة والوفاء بالشرط . (وأشهدوا) الظاهر وجوب الإشهاد على ما يقع من الإمساك وهو الرجعة ، أو المفارقة وهي الطلاق وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة كقوله : ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ [البقرة ٢٨٢] وعند الشافعية واجب في الرجعة ، مندوب إليه في الفرقة . وقيل (وأشهدوا) يرجع على الرجعة فقط ، والإشهاد شرط في صحتها ، فلها منعه من نفسها حتى يشهد ، وقال ابن عباس : الإشهاد على الرجعة وعلى الطلاق يرتفع من النوازل أشكالاً كثيرة ويفسد تاريخ الإشهاد من الإشهاد ، قيل : وفائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد ، وأن لا

وتفسيره كأنه قيل: أسكنوهن مكاناً من مسكنكم مما تطيقونه، والوجد: الوسع والطاقة انتهى. ولا نعرف عطف بيان يعاد فيه العامل، إنما هذا طريقة البدل مع حرف الجر، ولذلك أعربه أبو البقاء بدلاً من قوله (من حيث سكنتم). وقرأ الجمهور: (من وُجْدكم) بضم الواو؛ والحسن والأعرج وابن أبي عبلة وأبو حيوة بفتحها؛ والفياض بن غزوان وعمرو بن ميمون ويعقوب بكسرها، وذكرها المهدوي عن الأعرج، وهي لغات ثلاث بمعنى الوسع. والوجد بالفتح يستعمل في الحزن والغضب والحب، ويقال: وجدت في المال ووجدت على الرجل وجداً وموجدة، ووجدت الضالة وجداناً، والوُجد: بالضم الغنى والقدرة، يقال: افتقر الرجل بعد وجده. وأمر تعالى بإسكان المطلقات، ولا خلاف في ذلك في التي لم تبت. وأما المبتوتة فقال ابن المسيب وسليمان بن يسار وعطاء والشعبي والحسن ومالك والأوزاعي وابن أبي ليلى والشافعي وأبو عبيد: لها السكنى، ولا نفقة لها. وقال الثوري وأبو حنيفة: لها السكنى والنفقة. وقال الحسن وحماد وأحمد وإسحاق وأبو ثور: لا سكنى لها ولا نفقة. (ولا تضاروهن) ولا تستعملوا معهن الضرار (لتضيقوا عليهن) في المسكن ببعض الأسباب، من إنزال من لا يوافقهن، أو بشغل مكانهن، أو غير ذلك حتى تضطروهن إلى الخروج. وقيل: هذه المضارة مراجعتها إذا بقي من عدتها قليل، ثم يطلقها، فيطول حبسها في عدته الثانية. وقيل: يلجئها إلى أن تفتدي منه. (وإن كن أولات حمل) لا خلاف في وجوب سكناها ونفقتها، بتت أو لم تبت. وإن كان متوفى عنها فأكثر العلماء على أنها لا نفقة لها، وعن علي وابن مسعود: تجب نفقتها في التركة. (فإن أرضعن لكم) أي: ولدن وأرضعن المولود وجب لها النفقة، وهي الأجر والكسوة، وسائر المؤن على ما قرر في كتب الفقه. ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه الاستئجار إذا كان الولد منهن ما لم يبن، ويجوز عند الشافعي. وفي تعميم المطلقات بالسكنى وتخصيص أولات الأحمال بالنفقة دليل على أن غيرها من المطلقات لا يشاركها في النفقة، وتشاركهن في السكنى. (وأتمروا) افتعلوا من الأمر، يقال: ائتمر القوم وتآمروا إذا أمر بعضهم بعضاً، والخطاب للآباء والأمهات، أي: وليأمر بعضكم بعضاً (بمعروف) أي: في الأجرة والإرضاع، والمعروف الجميل بأن تسامح الأم ولا يماكس الأب، لأنه ولدهما معاً، وهما شريكان فيه، وفي وجوب الإشفاق عليه. وقال الكسائي: (وأتمروا) تشاوروا، ومنه قوله تعالى: ﴿إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ [القصص: ٢٠] وقول امرئ القيس:

ويعدو على المرء ما يأتمر[١]

وقيل: المعروف الكسوة والدثار. (وإن تعاسرتم) أي: تضايقتم وتشاكستم فلم ترض الأم بما ترضى به الأجنبية، وأبى الزوج الزيادة، أو إن أبى الزوج الإرضاع إلا مجاناً وأبت هي إلا بعوض (فسترضع له أخرى) أي: فليستأجر غيرها، وليس له إكراهها. فإن لم يقبل إلا ثدي أمه أجبرت على الإرضاع بأجرة مثلها. ولا يختص هذا الحكم، من وجوب أجرة الرضاع بالمطلقة، بل المنكوحة في معناها. وقيل: (فسترضع) خبر في معنى الأمر، أي: فلترضع له أخرى. وفي قوله (فسترضع له أخرى) يسير معاتبة للأم إذا تعاسرت، كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى: سيقضيها غيرك، تريد: لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم. والضمير في (له) عائد على الأب كما عدي في قوله (فإن أرضعن لكم) أي: للأزواج (لينفق) الموسر والمقدور عليه من سعته وسعه أي: على المطلقات والمرضعات، ولا يكلف ما لا يطيقه، وظاهره أن المأمور بالإنفاق الأزواج. وهذا أصل في وجوب نفقة الولد على الوالد دون الأم. وقال محمد بن المواز: هي على الأبوين على قدر الميراث. وفي الحديث: يقول لك ابنك أنفق علي، إلى من تكلني. ذكره في صحيح البخاري. وقرأ الجمهور: (لِيُنفِقْ) بلام الأمر. وحكى أبو معاذ (لِيُنفِقَ) بلام كي ونصب القاف، ويتعلق بمحذوف، تقديره: شرعنا ذلك لينفق. وقرأ

---

(١) عجز بيت وصدره: أحار بن عمرو كأني خمر. انظر ديوان امرئ القيس (٦٨).

والجمهور : (قدر) مخففاً ، وابن أبي عبلة مشدد الدال . (سيجعل الله) وعد لمن قدر عليه رزقه ، بفتح له أبواب الرزق . ولا يختص هذا الوعد بمن في ذلك الوقت ، ولا بفقراء الأزواج مطلقاً ، بل من أنفق ما قدر عليه ولم يقصر . ولو عجز عن نفقة امرأته ، فقال أبو هريرة والحسن وابن المسيب ومالك والشافعي وأحمد وإسحاق : يفرق بينهما . وقال عمر بن عبد العزيز وجماعة : لا يفرق بينهما . قوله عز وجل :

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

تقدم الكلام على (كأين) في آل عمران ، وعلى (نكراً) في الكهف (عتت) أعرضت (عن أمر ربها) على سبيل العناد والتكبر . والظاهر في (فحاسبناها) الجمل الأربعة أن ذلك في الدنيا ، لقوله بعدها (أعد الله لهم عذاباً شديداً) وظاهره أن المعد عذاب الآخرة . والحساب الشديد : هو الاستقصاء والمناقشة ، فلم تغتفر لهم زلة ، بل أخذوا بالدقائق من الذنوب . وقيل : الجمل الأربعة في الحساب والعذاب والذوق والخسر في الآخرة ، وجيء به على لفظ الماضي ، كقوله (ونادى أصحاب الجنة) ويكون قوله (أعد الله لهم) تكريراً للوعيد ، وبياناً لكونه مترقباً ، كأنه قال : أعد الله لهم هذا العذاب . وقال الكلبي : الحساب في الآخرة ، والعذاب النكر في الدنيا بالجوع والقحط والسيف . ولما ذكر ما حل بهذه القرى العاتية أمر المؤمنين بتقوى الله تحذيراً من عقابه ، ونبه على ما يحض على التقوى ، وهو إنزال الذكر . والظاهر أن الذكر هو القرآن ، وأن الرسول هو محمد ﷺ . فإما أن يجعل نفس الذكر مجازاً لكثرة يقظته بالذكر ، فكأنه هو الذكر ، أو يكون بدلاً على حذف مضاف ، أي : ذكر رسول . وعلى هذا (رسولاً) نعت على حذف مضاف ، أي : ذكراً ذا رسول . وقيل : المضاف محذوف من الأول ، أي : ذا ذكر رسولاً ، فيكون (رسولاً) نعتاً لذلك المحذوف ، أو بدلاً . وقيل : رسول بمعنى رسالة ، فيكون بدلاً من (ذكراً) ، ويعضده قوله بعده (يتلو عليكم) والرسالة لا تسند التلاوة إليها إلا مجازاً . وقيل : الذكر اسم من أسماء النبي ﷺ . وقيل : الذكر الشرف ، لقوله ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : ٤٤] فيكون (رسولاً) بدلاً منه وبياناً له . وقال الكلبي : الرسول هنا جبريل عليه السلام ، وتبعه الزمخشري فقال : (رسولاً) هو جبريل صلوات الله وسلامه عليه ، أبدل من (ذكراً) لأنه وصف بتلاوة آيات الله ، فكان إنزاله في معنى إنزال الذكر ، فصح إبداله منه . انتهى . ولا يصح لتباين المدلولين بالحقيقة ، ولكونه لا يكون بدل بعض ولا بدل اشتمال . وهذه الأعاريب على أن يكون (ذكراً) و (رسولاً) لشيء واحد . وقيل : (رسولاً) منصوب بفعل محذوف ، أي : بعث رسولاً ، أو أرسل رسولاً ، وحذف لدلالة (أنزل) عليه . ونحا إلى هذا السدي ، واختاره ابن عطية . وقال الزجاج وأبو علي الفارسي : يجوز أن يكون (رسولاً) معمولاً للمصدر الذي هو الذكر . انتهى . فيكون المصدر مقدراً بأن والفعل

سورة التحريم مدنية وهي اثنتا عشرة اية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝

هذه السورة مدنية ، وسبب نزولها ما يأتي ذكره في تفسير أوائلها ، والمناسبة بينها وبين السورة قبلها أنه لما ذكر جملة من أحكام زوجات المؤمنين ، ذكر هنا ما جرى من بعض زوجات رسول الله ﷺ (يا أيها النبي) نداء إقبال وتشريف ، وتنبيه بالصفة على عصمته مما يقع فيه من ليس معصوماً (لم تحرم) سؤال تلطف ، ولذلك قدم قبله (يا أيها النبي) كما جاء في قوله تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) [التوبة: ٤٣] ومعنى (تحرم) تمنع ، وليس التحريم المشروع بوحي من الله ، وإنما هو امتناع لتطييب خاطر بعض من يحسن معه العشرة (ما أحل الله لك) هو مباشرة مارية جاريته ، وكان ﷺ ألم بها في بيت بعض نسائه فغارت من ذلك صاحبة البيت فطيب خاطرها بامتناعه منها واستكتمها ذلك فأفشته إلى بعض نسائه ، وقيل : هو عسل كان يشربه عند بعض نسائه ، فكان بعض نسائه يتواطأن [illegible] من دعوته بيت التي عندها العسل وتواطأن على أن يقلن له [illegible] ، فقال : لا أشربه . وللزمخشري هنا كلام أضربت عنه صفحاً ، كما أضربت عن كلامه في قوله (عفا الله عنك لم أذنت لهم) وكلامه هذا ونحوه مما يجب طرحه ، ونسبته إلى المعصوم ما ليس لائقاً .

ومن حرم الإنسان على نفسه شيئاً أحله الله كشرب عسل أو وطء سرية [illegible] إذا قال لزوجته أنت علي حرام ، أو الحلال علي حرام ، ولا نية ، فقال جماعة منهم الشعبي ، ومسروق ، وربيعة ، وأبو سلمة ، وأصبغ : هو

كتحريم الماء والطعام ، وقال تعالى (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) والزوجة من الطيبات ومما أحله الله ، وقال أبو بكر ، وعمر ، وزيد ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وعائشة وابن المسيب ، وعطاء ، وطاووس ، وسليمان بن يسار ، وابن جبير ، وقتادة ، والحسن ، والأوزاعي ، وأبو ثور وجماعة : هو يمين يكفرها ، وقال ابن مسعود ، وابن عباس أيضاً في إحدى روايتيه ، والشافعي ، في أحد قوليه : فيه تكفير يمين ، وليس بيمين ، وقال أبو حنيفة ، وسفيان ، والكوفيون : هو ما أراد من الطلاق فإن لم يرد طلاقاً فهو لا شيء ، وقال آخرون كذلك فإن لم يرد فهو يمين ، وفي التحرير قال أبو حنيفة وأصحابه : إن نوى الطلاق فواحدة بائنة ، أو اثنين فواحدة ، أو ثلاثاً فثلاث ، أو لم ينو شيئاً فيمين وهو مول أو الظهار فظهار ، وقال ابن القاسم : لا ينعقد نية الظهار ويكون طلاقاً ، وقال يحيى بن عمر يكون طلاقاً فإن ارتجعها فلا يجوز له وطؤها حتى يكفر كفارة الظهار فيما أراد من إعداده . فإن نوى واحدة فرجعية وهو قول الشافعي ، وقال الأوزاعي ، وسفيان ، وأبو ثور أي شيء نوى به من الطلاق وقع ، وإن لم ينو شيئاً فقال سفيان : لا شيء عليه . وقال الأوزاعي ، وأبو ثور : تقع واحدة . وقال الزهري : له نيته ولا يكون أقل من واحدة ، فإن لم ينو : فلا شيء ، وقال ابن جبير : عليه عتق رقبة وإن لم يكن ظهاراً ، وقال أبو قلابة وعثمان وأحمد وإسحاق التحريم ظهار ففيه كفارة ، وقال الشافعي : إن نوى أنها محرمة كظهر أمه فظهار ، أو تحريم عينها بغير طلاق ، أو لم ينو فكفارة يمين ، وقال مالك : هي ثلاث في المدخول بها ، وينوي في غير المدخول بها فهو ما أراد من واحدة أو اثنتين أو ثلاث ، وقاله علي ، وزيد ، وأبو هريرة ، وقيل : في المدخول بها ثلاث ، قاله علي أيضاً وزيد بن أسلم ، والحكم ، وقال ابن أبي ليلى وعبد الملك بن الماجشون : هي ثلاث في الوجهين ، ولا ينوي في شيء ، وروى ابن خويز منداد عن مالك ، وقاله زيد ، وحماد بن أبي سليمان : إنها واحدة بائنة في المدخول بها وغير المدخول بها ، وقال الزهري ، وعبد العزيز بن الماجشون : هي واحدة رجعية ، وقال أبو مصعب ، ومحمد بن الحكم هي في التي لم يدخل بها واحدة ، وفي المدخول بها ثلاث . وفي الكشاف : لا يراه الشافعي يميناً ، ولكن سبباً في الكفارة في النساء وحدهن : وإن نوى الطلاق فهو رجعي . وعن عمر : إذا نوى الطلاق فرجعي وعن علي : ثلاث ، وعن زيد : واحدة ، وعن عثمان : ظهار انتهى . وقال أيضاً . ولم يثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال لما أحله هو حرام علي ، وإنما امتنع من مارية ليمين تقدمت منه وهو قوله : والله لا أقربها بعد اليوم ، فقيل له (لم تحرّم ما أحلّ الله لك) أي : لم تمتنع منه بسبب اليمين يعني أقدم على ما حلفت عليه وكفر ونحوه قوله تعالى : ﴿ وحرّمنا عليه المراضع ﴾ [القصص ١٢] أي : منعناه منها . انتهى . وتبتغي في موضع الحال ، وقال الزمخشري : تفسير لتحرم أو استئناف مرضاة رضا أزواجك أي بالامتناع مما أحله الله لك . (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) الظاهر : أنه كان حلف على أنه يمتنع من وطء مارية ، أو من شرب ذلك العسل على الخلاف في السبب وعرض إحالة على آية العقود ﴿ ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ [المائدة ٨٩] وتحلة : مصدر حلل ، كتكرمة من كرم ، وليس مصدراً مقيساً ، والمقيس : التحليل والتكريم ، لأن قياس فعل الصحيح العين غير المهموز هو التفعيل وأصل هذا تحللة فأدغم ، وعن مقاتل : أعتق رقبة في تحريم مارية ، وعن الحسن لم يكفر . انتهى . فدل على أنه لم يكفر ثم يمين و (بعض أزواجه) حفصة ، والحديث هو بسبب مارية (فلما نبأت به) أي : أخبرت عائشة ، وقيل : الحديث إنما هو شربت عسلاً ، وقال ميمون بن مهران : هو إسراره إلى حفصة أن أبا بكر وعمر يملكان أمري من بعدي خلافة ، وقرأ الجمهور (نبّأت به) وطلحة (أنبأت) والعامل في (إذا) : اذكر ، وذكر ذلك على سبيل التأنيب في أمر له فأفشاه . ونبأ وأنبأ : الأصل أن يتعديا إلى واحد بأنفسهما ، وإلى ثان بحرف الجر ، ويجوز حذفه فتقول : نبأت به ، المفعول الأول محذوف أي غيرها و (من أنبأك هذا) أي : بهذا (قال نبأني) أي : نبأني به أو بنبئه ، فإذا ضمنت معنى أعلم تعدت إلى ثلاث مفاعيل نحو قوله الشاعر :

الله واختصاصه بالملائكة. وبدئ بجبريل وأفرد بالذكر تعظيماً له وإظهاراً لمكانته عند الله، ويكون قد ذكر مرتين، مرة بالنص، ومرة في العموم. واكتسب { صالح المؤمنين } بجبريل تشريفاً لهم واعتناء بهم إذ جعلهم بين الملكين { يسبحون الليل والنهار لا يفترون } فعلى هذا جبريل داخل في الظهراء لا في الولاية ويختص الرسول بأن الله هو مولاه. ويجوز أن يكون { وجبريل وصالح المؤمنين } عطفاً على اسم الله، فيدخلان في الولاية ويكون { والملائكة } مبتدأ، و { ظهير } خبره، فيكون { جبريل } داخلاً في الولاية بالنص، وفي الظهراء بالعموم. والظاهر عموم { وصالح المؤمنين } فيشمل كل صالح. وقال قتادة والعلاء بن زياد: هم الأنبياء، ويكون مظاهرتهم له كونهم قدوة، فهم ظهراء بهذا المعنى. وقال عكرمة والضحاك وابن جبير ومجاهد: المراد أبو بكر وعمر، ورواه مجاهد. وعلي بن أبي طالب، وقيل: الصحابة، وقيل: الخلفاء، وعن ابن جبير: من برئ من النفاق. { وصالح } يحتمل أن يراد به الجمع، وإن كان مفرداً فيكون كالسامر في قوله { مستكبرين به سامراً } [المؤمنون ٦٧] أي سماراً، ويحتمل أن يكون جمعاً حذفت منه الواو خطاً لحذفها لفظاً، كقوله { سندع الزبانية } [العلق ١٨]، وأفرد الظهير، لأن المراد فوج ظهير. وكثيراً ما يأتي فعيل بمعنى الجمع للمفرد والمثنى والمجموع بلفظ المفرد، كأنهم في المظاهرة يد واحدة على من يعاديه، فما قدر تظاهر امرأتين من هؤلاء ظهراؤه. وذلك إشارة إلى تظاهرهما، أو إلى الولاية. وفي الحديث أن عمر قال: يا رسول الله، لا تكترث بأمر نسائك، والله معك، وجبريل معك، وأبو بكر وأنا معك، فنزلت. ويروى عنه أنه قال لزوجات النبي ﷺ: عسى ربه إن طلقكن، الآية، فنزلت. وقرأ الجمهور { طلقكن } بفتح القاف، وأبو عمرو في رواية ابن عباس بإدغامها في الكاف. وتقدم ذكر الخلاف في أن يبدله في سورة الكهف. واستدل به على وقوع الطلاق لدلالة النص عليه. تقديره: أن يبدله خيراً منكن، لأنهن إذا طلقهن كان طلاقهن لسوء عشرتهن، واللواتي يتصفن بهذه الأوصاف يكن خيراً منهن. وبدأ في وصفهن بالإسلام وهو الانقياد، ثم بالإيمان وهو التصديق، ثم بالقنوت وهو الطواعية، ثم بالتوبة وهي الإقلاع عن الذنب، ثم بالعبادة وهي التلذذ، ثم بالسياحة وهي كناية عن الصوم، قاله أبو هريرة وابن عباس وقتادة والضحاك. وقيل: إن الرسول ﷺ فسره بذلك، وقاله أيضاً الحسن، وابن جبير، وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن. قال الفراء والقتبي: سمي الصائم سائحاً لأن السائح لا زاد معه، وإنما يأكل من حيث يجد الطعام. وقال زيد بن أسلم ويمان: مهاجرات. وقال ابن زيد: ليس في الإسلام سياحة إلا الهجرة. وقيل: ذاهبات في طاعة الله. وقرأ الجمهور { سائحات } وعمرو بن فائد { سيحات }. وهذه الصفات تجتمع. وأما الثيوبة والبكارة فلا يجتمعان فلذلك عطف أحدهما على الآخر، ولو لم يأت بالواو لاختل المعنى. وذكر الجنسين لأن في أزواجه ﷺ من تزوجها بكراً. والثيب: الراجع بعد زوال العذرة، يقال: ثاب يثوب ثوباً وثؤوباً مثل قعد قعوداً. ولما وعظ أزواج الرسول ﷺ موعظة خاصة أتبع ذلك بموعظة عامة للمؤمنين وأهليهم وعطف { وأهليكم } على { أنفسكم } لأن رب المنزل راع وهو مسؤول عن أهله. ومعنى وقايتهم: حملهم على طاعة الله وإلزامهم أداء ما فرض عليهم. قال عمر: يا رسول الله نقي أنفسنا فكيف لنا بأهلينا؟ قال: تنهونهن عما نهاكم الله تعالى عنه، وتأمرونهن بما أمركم الله به فتكون ذلك وقاية بينهن وبين النار. ودخل الأولاد في { وأهليكم }. وقيل: دخلوا في { أنفسكم }، لأن الولد بعض من أبيه فيعلمه الحلال والحرام ويجنبه المعاصي. وقرئ: { وأهلوكم } بالواو وهو معطوف على الضمير في { قوا } وحسن العطف للفصل بالمفعول. وقال الزمخشري: { فإن قلت: } أليس التقدير: قوا أنفسكم وليق أهلوكم أنفسهم؟ { قلت: } لا، ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو و { أنفسكم } واقع بعده، فكأنه قيل: قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم، لما جمعت مع المخاطب الغائب غلبته عليه فجعلت ضميرهما معاً على لفظ المخاطب. انتهى. ولا يصح في قوله هذا لأنه تقدير: وليق أهلوكم، فتجعله من عطف الجمل، لأن { وأهلوكم } مرفوع بفعل لا يمكن عنده أن يرتفع بفعل الأمر الذي للمخاطب، وكذا في قوله: { اسكن أنت وزوجك الجنة } [الأعراف ١٩] ثم قال: ولكن المعطوف مقارن

في التقدير للواو ، متناقض ، لأنه في هذا جعله مغايراً في التقدير للواو ، وبما قبله رفعه بعامل آخر غير الرافع للواو وهو دليل . وتقدم الخلاف في فتح الواو في قوله : (وقودها) وضمها في البقرة وتفسير ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ [التحريم ٦] في البقرة (عليها ملائكة) هي الزبانية التسعة عشر وأعوانهم ، ووصفهم بالغلظ : إما لشدة أجسامهم وقوتهم ، وإما لقساوتهم لقوله ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب ﴾ [آل عمران ١٥٩] أي : ليس فيهم رقة ولا حنو على العصاة والتعب (ما أمرهم) على البدل أي لا يعصون أمره كقوله تعالى . ﴿ أفعصيت أمري ﴾ [طه ٩٣] أو على إسقاط حرف الجر أي في أمرهم (ويفعلون ما يؤمرون) ، قيل . كرر المعنى توكيداً ، وقال الزمخشري : (فإن قلت .) أليست الجملتان في معنى واحد ؟ (قلت .) لا . فإن معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ، ويلتزمونها ، ولا يأبونها ، ولا ينكرونها ، ومعنى الثانية : أنهم يؤدون ما يؤمرون ولا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه ، (لا تعتذروا) خطاب لهم عند دخولهم النار ، لأنهم لا ينفعهم الاعتذار فلا فائدة فيه . قوله عز وجل

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

ذكروا في النصوح أربعة وعشرين قولاً ، وروي عن عمر ، وعبد الله ، وأبي ومعاذ ، أنها التي لا عودة بعدها ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع ، ورفعه معاذ إلى النبي ﷺ وقرأ الجمهور (نَصوحاً) بفتح النون ، وصفاً للتوبة ، وهو من أمثلة المبالغة كضروب وقتول ، وقرأ الحسن ، والأعرج ، وعيسى وأبو بكر عن عاصم ، وخارجة عن نافع : بضمها ، وهو مصدر وصف به ووصفها بالنصح على سبيل المجاز إذ النصح صفة التائب ، وهو أن ينصح نفسه بالتوبة ، فيأتي بها على طرقها ، وهي خلوصها من جميع الشوائب المفسدة لها من قولهم : عسل ناصح أي : خالص من الشمع ، أو من النصاحة وهي الخياطة أي : قد أحكمها وأوثقها كما يحكم الخياط الثوب بخياطته وتوثيقه . وسمع علي أعرابياً يقول : اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك ، فقال : يا هذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين ، فقال : وما التوبة ؟ قال يجمعها ستة أشياء : على الماضي من الذنوب الندامة ، وعلى الفرائض الإعادة ، ورد المظالم ، واستحلال الخصوم ، وأن يعزم على أن لا يعود ، وأن تذيب نفسك في طاعة الله . كما ربيتها في المعصية وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعاصي . وعن حذيفة بحسب الرجل من الشر أن يتوب من الذنب ثم يعود فيه . انتهى . و (نصوحاً) من نصح فاحتمل وهو الظاهر أن تكون التوبة تنصح نفس التائب واحتمل أن يكون متعلق النصح الناس أي : يدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها على صاحبها ، وقرأ

عوده على ﴿ مصابيح ﴾ ونسب الرجم إليها لأن الشهاب المتبع للمسترق منفصل من نارها والكوكب قار في ملكه على حاله فالشهاب كقبس يؤخذ من النار ، والنار باقية لا تنقص . والظاهر أن الشياطين هم مسترقو السمع وأن الرجم هو حقيقة يرمون بالشهاب كما تقدم في سورة الحجر وسورة والصافات . وقيل : معنى ﴿ رجوماً ﴾ ظنوناً لشياطين الإنس وهم المنجمون ينسبون إلى النجوم أشياء على جهة الظن من جهالهم ، والتمويه والاختلاق من أذكيائهم ، ولهم في ذلك تصانيف تشتمل على خرافات يموهون بها على الملوك وضعفاء العقول ، ويعملون موالد يحكمون فيها بالأشياء لا يصح منها شيء ، وقد وقفنا على أشياء من كذبهم في تلك الموالد وما يحكونه عن أبي معشر وغيره من شيوخ السوء كذب يغرون به الناس الجهال . وقال قتادة : خلق الله تعالى النجوم زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، ويهتدى بها في البر والبحر ، فمن قال غير هذه الخصال الثلاث فقد تكلف وأذهب حظه من الآخرة . والضمير في ﴿ لهم ﴾ عائد على الشياطين . وقرأ الجمهور ﴿ عذابُ جهنم ﴾ برفع الباء ، والضحاك ، والأعرج ، وأسيد بن أسيد المزني والحسن في رواية هارون عنه بالنصب ، عطفاً على ﴿ عذاب السعير ﴾ أي : وأعتدنا للذين كفروا عذاب جهنم ﴿ إذا ألقوا فيها ﴾ أي : طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ويرمى به ، ومثله حصب جهنم ﴿ سمعوا لها ﴾ أي لجهنم ﴿ شهيقاً ﴾ أي : صوتاً منكراً كصوت الحمار تصوت مثل ذلك لشدة توقدها وغليانها ، ويحتمل أن يكون على حذف مضاف ، أي : سمعوا لأهلها كما قال تعالى ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ [هود ١٠٦] ﴿ وهي تفور ﴾ تغلي بهم غلي المرجل ، ﴿ تكاد تميز ﴾ أي : ينفصل بعضها من بعض لشدة اضطرابها ، ويقال : فلان يتميز من الغيظ إذا وصفوه بالإفراط في الغضب ، وقرأ الجمهور ﴿ تميز ﴾ بتاء واحدة خفيفة والبزي بشدها ، وطلحة بتاءين ، وأبو عمرو بإدغام الدال في التاء ، والضحاك ﴿ تمايز ﴾ على وزن تفاعل وأصله تتمايز بتاءين ، وزيد بن علي ، وابن أبي عبلة ﴿ تميز ﴾ من ميز من ماز ، من الغيظ على الكفرة جعلت كالمغتاظة عليهم لشدة غليانها بهم ومثل هذا التجوز قول الشاعر :

في كلَبٍ[١] يشتدُّ في جريِهِ ... يكادُ أنْ يخرجَ مِنْ إهابِهِ[١]

وقولهم : غضب فلان فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء ، إذا أفرط في الغضب ، ويجوز أن يراد من غيظ الزبانية ﴿ كلما ألقي فيها فوج ﴾ أي فريق من الكفار ﴿ سألهم خزنتها ﴾ سؤال توبيخ وتقريع ، وهو مما يزيدهم عذاباً إلى عذابهم و﴿ خزنتها ﴾ مالك وأعوانه ﴿ ألم يأتكم نذير ﴾ ينذركم بهذا اليوم قالوا على اعتراف منهم . انتهى إليهم . قال الزمخشري : اعتراف منهم بعدل الله وإقرار بأنه عز وعلا أزاح عللهم ببعثة الرسل وإنذارهم فيما وقعوا فيه وأنهم لم يؤتوا من قدره كما تزعم المجبرة ، وإنما أتوا من قبل أنفسهم ، واختيارهم خلاف ما اختار الله وأمر به وأوعد على ضده . انتهى . وهو على طريق المعتزلة والظاهر : أن قوله ﴿ إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾ من قول الكفار للرسل الذين جاؤوا نذراً إليهم ، أنكروا أولاً أن الله نزل شيئاً واستجهلوا ثانياً من أخبر بأنه تعالى أرسل إليهم الرسل ، وأن قائل ذلك في حيرة عظيمة ، ويجوز أن يكون من قول الخزنة للكفار إخباراً لهم وتقريعاً بما كانوا عليه في الدنيا أرادوا بالضلال الهلاك الذي هم فيه ، أو سموا عقاب الضلال ضلالاً لما كان ناشئاً عن الضلال ، وقال الزمخشري : أو من كلام الرسل لهم ، حكوه للخزنة ، أي : قالوا لنا هذا فلم نقبله . انتهى . فإن كان الخطاب في ﴿ إن أنتم ﴾ للرسل ، فقد يراد به الجنس ، ولذلك جاء الخطاب بالجمع ﴿ وقالوا ﴾ أي للخزنة حين حاوروهم ﴿ لو كنا نسمع ﴾ سماع طالب للحق ﴿ أو نعقل ﴾ عقل متأمل له لم نستوجب الخلود في النار ﴿ فاعترفوا بذنبهم ﴾ أي : بتكذيب الرسل ﴿ فسحقاً ﴾ أي : فبعداً لهم ، وهو دعاء عليهم ، والسحق : البعد ، وانتصابه على المصدر أي : سحقهم الله سحقاً قال الشاعر :

---

(١) البيت من الرجز شرح المفصل لابن يعيش (٢/ ١٢٦).

شيء من بناء أفعل مطاوعاً ، ولا يعرف هذا إلا حملة كتاب سيبويه ، وهذا الرجل كثير التبجح بكتاب سيبويه ، وكم من
نص في كتاب سيبويه عمي بصره وبصيرته عنه حتى إن الإمام أبا الحجاج يوسف بن معزوز صنف كتاباً يذكر فيه ما غلط فيه
الزمخشري ، وما جهله من نصوص كتاب سيبويه . و (أهدى) أفعل تفضيل من الهدى في الظاهر ، وهو نظير : العسل
أحلى أم الخل ، وهذا الاستفهام لا تراد حقيقته ، بل المراد منه أن كل سامع يجيب بأن الماشي سوياً على صراط مستقيم
أهدى . وانتصب (قليلاً) على أنه نعت لمصدر محذوف ، و (ما) زائدة و (تشكرون) مستأنف ، أو حال مقدرة ، أي
تشكرون شكراً قليلاً . وقال ابن عطية : ظاهره أنهم يشكرون قليلاً ، وما عسى أن يكون للكافرين شكر وهو قليل غير
نافع وأما أن يريد به نفي الشكر جملة فعبر بالقلة ، كما تقول العرب : هذه أرض قلّ ما تنبت كذا ، وهي لا تنبته بتة .
انتهى . وتقدم نظير قوله وأورد عليه في ذلك . (ذرأكم) بثكم و (الحشر) البعث و (الوعد) المشار إليه هو وعد يوم
القيامة ، أي : متى إنجاز هذا الوعد . (فلما رأوه زلفة) أي رأوا العذاب وهو الموعود به زلفة أي قريباً أي ذا قرب ، وقال
الحسن : عياناً ، وقال ابن زيد : حاضراً وقيل التقدير مكاناً ذا زلفة ، فانتصب على الظرف (سيئت) أي ساءت رؤيته
وجوههم ، وظهر فيها السوء والكآبة ، وغشيها السواد كمن يساق إلى القتل . وأخلص الجمهور كسرة السين . وأشمها
الضم أبو جعفر ، والحسن ، وأبو رجاء ، وشيبة ، وابن وثاب ، وطلحة ، وابن عامر ، ونافع ، والكسائي (وقيل هذا)
أي ، تقول لهم الزبانية ومن يوبخهم . وقرأ الجمهور (تدّعون) بشد الدال مفتوحة ، فقيل : من الدعوى ، قال
الحسن : تدعون أنه لا جنة ولا نار . وقيل : تطلبون وتستعجلون ، وهو من الدعاء . ويقوي هذا القول قراءة أبي رجاء ،
والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وابن يسار عبد الله بن مسلم ، وسلام ويعقوب (تدْعون) بسكون الدال ، وهي قراءة
ابن أبي عبلة ، وأبي زيد ، وعصمة عن أبي بكر ، والأصمعي عن نافع ، وروي أن الكفار كانوا يدعون على الرسول ﷺ
وأصحابه بالهلاك ، وقيل : كانوا يتآمرون بينهم بأن يهلكوهم بالقتل ونحوه ، فأمر أن يقول (إن أهلكني الله) كما تريدون
(أو رحمنا) بالنصر عليكم فمن يجيركم من العذاب الذي سببه كفركم ، ولما قال (أو رحمنا) قال (هو الرحمن) ثم ذكر ما
به النجاة وهو الإيمان والتفويض إلى الله تعالى . وقرأ الجمهور (فستعلمون) بتاء الخطاب . والكسائي بياء الغيبة نظراً إلى
قوله (فمن يجير الكافرين) ولما ذكر العذاب وهو مطلق ذكر فقد ما به حياة النفوس وهو الماء ، وهو عذاب مخصوص
، والغور ، مشروح في الكهف ، و (المعين) في (قد أفلح) وجواب (إن أهلكني) (فمن يجير) وجواب (إن أصبح)
(فمن يأتيكم) وتليت هذه الآية عند بعض المستهزئين فقال : تجيء به الفؤوس والمعاول فذهب ماء عينه

سورة القلم مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

ن والقلم وما يسطرون (١) ما أنت بنعمة ربك بمجنون (٢) وإن لك لأجرا غير ممنون (٣) وإنك لعلى خلق
عظيم (٤) فستبصر ويبصرون (٥) بأييكم المفتون (٦) إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو
أعلم بالمهتدين (٧) فلا تطع المكذبين (٨) ودوا لو تدهن فيدهنون (٩) ولا تطع كل حلاف مهين (١٠)
هماز مشاء بنميم (١١) مناع للخير معتد أثيم (١٢) عتل بعد ذلك زنيم (١٣) أن كان ذا مال وبنين (١٤) إذا
تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين (١٥) سنسمه على الخرطوم (١٦) إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ
أقسموا ليصرمنها مصبحين (١٧) ولا يستثنون (١٨) فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون (١٩) فأصبحت كالصريم (٢٠)
فتنادوا مصبحين (٢١) أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين (٢٢) فانطلقوا وهم يتخافتون (٢٣) أن لا يدخلنها اليوم عليكم
مسكين (٢٤) وغدوا على حرد قادرين (٢٥) فلما رأوها قالوا إنا لضالون (٢٦) بل نحن محرومون (٢٧) قال أوسطهم ألم أقل لكم
لولا تسبحون (٢٨) قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين (٢٩) فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون (٣٠) قالوا يا ويلنا إنا كنا
طاغين (٣١) عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون (٣٢) كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون
(٣٣) إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم (٣٤) أفنجعل المسلمين كالمجرمين (٣٥) ما لكم كيف تحكمون (٣٦) أم لكم كتاب
فيه تدرسون (٣٧) إن لكم فيه لما تخيرون (٣٨) أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون (٣٩) سلهم
أيهم بذلك زعيم (٤٠) أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين (٤١) يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود
فلا يستطيعون (٤٢) خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون (٤٣) فذرني ومن يكذب بهذا
الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون (٤٤) وأملي لهم إن كيدي متين (٤٥) أم تسألهم أجرا فهم من مغرم
مثقلون (٤٦) أم عندهم الغيب فهم يكتبون (٤٧) فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم
(٤٨) لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم (٤٩) فاجتباه ربه فجعله من الصالحين (٥٠) وإن يكاد الذين

إذن حرف هجاء كما في سائر مفاتيح السور. انتهى. ومن قال إنه اسم الدواة أو الحوت، وزعم أنه مقسم به كالقلم فإن كان علماً فينبغي أن يجر، فإن كان مؤنثاً منع الصرف أو مذكراً صرف، وإن كان جنساً أعرب ونُوِّنَ، وليس فيه شيء من ذلك فضعف القول به. وقال ابن عطية: إذا كان اسماً للحوت فإما أن يكون لغة لبعض العرب أو لفظة أعجمية عربت قال الشاعر:

إذا ما الشوق يبرح بي إليهم ... ألقت النون بالدمع السجوم(١)

فمن جعله الحوت جعل القلم هو الذي خلقه الله وأمره بكتب الكائنات، وجعل الضمير في (يسطرون) للملائكة، ومن قال هو اسم جعله القلم المتعارف بأيدي الناس. نص على ذلك ابن عباس وجعل الضمير في (يسطرون) للناس، فجاء القسم على هذا المجموع أمر الكتاب الذي هو قوام للعلوم وأمور الدنيا والآخرة، فإن القلم أخو اللسان ونعمة من الله عامة. انتهى. وقرأ الجمهور (ن) بسكون النون وإدغامها في واو والقلم بغنة، وبلا غنة، وأظهرها حمزة، وأبو عمرو، وابن كثير، وقالون وحفص، وقرأ ابن عباس، وابن أبي إسحاق، والحسن، وأبو السمال بكسر النون، لالتقاء الساكنين. وسعيد بن جبير، وعيسى بخلاف عنه بفتحها فاحتمل أن تكون حركة إعراب، وهو اسم للسورة أقسم به، وحذف حرف الجر فانتصب ومنع الصرف للعلمية والتأنيث، ويكون (والقلم) معطوفاً عليه واحتمل أن يكون لالتقاء الساكنين، وأوثر الفتح تخفيفاً كأين، و(ما) يحتمل أن تكون موصولة، ومصدرية، والضمير في (يسطرون) عائد على الكتاب لدلالة القلم عليهم، فإما أن يراد بهم الحفظة، وإما أن يراد كل كاتب. وقال الزمخشري: ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه فيكون الضمير في (يسطرون) لهم كأنه قيل: وأصحاب القلم ومسطوراتهم أو وسطرهم انتهى. فيكون كقوله (كظلمات في) في بحر لجي أي: وكذي ظلمات ولهذا عاد عليه الضمير في قوله ﴿يغشاه موج﴾ [النور: ٤٠] وجواب القسم (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) ويظهر أن (بنعمة ربك) قسم اعترض به بين المحكوم عليه والحكم على سبيل التأكيد والتشديد والمبالغة في انتفاء الوصف الذميم عنه ﷺ. وقال ابن عطية: (بنعمة ربك) اعتراض، كما تقول للإنسان أنت بحمد الله فاضل انتهى. ولم يبين ما تتعلق به الباء في (بنعمة)، وقال الزمخشري: يتعلق (بمجنون) منفياً، كما يتعلق بعاقل مثبتاً في قولك: أنت بنعمة الله عاقل، مستوياً في ذلك النفي والإثبات استواءهما في قولك: ضرب زيد عمراً، وما ضرب زيد عمراً، تعمل الفعل مثبتاً ومنفياً إعمالاً واحداً، ومحله النصب على الحال كأنه قال: ما أنت مجنوناً منعماً عليك بذلك، ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله لأنها زائدة لتأكيد النفي، والمعنى استبعاد ما كان ينسبه إليه كفار مكة عداوة وحسداً، وأنه من إنعام الله تعالى عليه بحصافة العقل والشهامة التي يقتضيها التأهيل للنبوة بمنزلة. انتهى. وما ذهب إليه الزمخشري من أن (بنعمة ربك) متعلق (بمجنون) وأنه في موضع الحال يحتاج إلى تأمل، وذلك: أنه إذا تسلط النفي على محكوم به وذلك له معمول، ففي ذلك طريقان: أحدهما أن النفي يتسلط على ذلك المعمول فقط، والآخر أن يتسلط النفي على المحكوم به فينتفي معموله لانتفائه بيان ذلك تقول: ما زيد قائم مسرعاً، فالمتبادر إلى الذهن أنه منتف إسراعه دون قيامه فيكون قد قام غير مسرع، والوجه الآخر: أنه انتفى قيامه فانتفى إسراعه. أي لا قيام فلا إسراع. وهذا الذي قررناه لا يتأتى معه قول الزمخشري بوجه بل يؤدي إلى ما لا يجوز أن ينطق به في حق المعصوم ﷺ. وقيل: معناه ما أنت مجنون والنعمة بربك كقولهم سبحانك اللهم وبحمدك أي والحمد لله، ومنه قول لبيد:

(١) انظر البيت في روح المعاني [٢٩/ ٢٦].

الفارسي. يجوز أن يعمل فيها (عتل) وإن كان قد وصف. انتهى. وهذا قول كوفي ولا يجوز ذلك عند البصريين، وقيل (زنيم) لا سيما على قول من فسره بالقبيح الأفعال، وقال الزمخشري: متعلق بقوله (ولا تطع) يعني: ولا تطعه مع هذه المثالب لأن كان ذا مال أي ليساره وحظه من الدنيا ويجوز أن يتعلق بما بعده على معنى لكونه متمولاً مستظهراً بالبنين كذب آياتنا، ولا يعمل فيه (قال) الذي هو جواب (إذا) لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله، ولكن ما دلت عليه الجملة من معنى التكذيب. انتهى. وأما على الاستفهام فيحتمل أن يقدر عامل يدل عليه ما قبله، أي: أيكون طواعية لأن كان، وتقدير الزمخشري: أتطيعه لأن كان أو عامل يدل عليه ما قبله أي أكذب أو جحد لأن كان، وقرأ نافع في رواية اليزيدي عنه (إن كان) بكسر الهمزة، قال الزمخشري: والشرط للمخاطب، أي: لا تطع كل حلاف شارطاً يساره، لأنه إذا أطاع الكافر لغناه فكأنه اشترط في الطاعة الغنى، ونحو صرف الشرط إلى المخاطب صرف الترجي إليه في قوله: ﴿ لعله يتذكر ﴾ [طه ٤٤] انتهى. وأقول (إن كان) شرط (وإذا تتلى) شرط فهو مما اجتمع فيه شرطان، وليسا من الشروط المترتبة الوقوع فالمتأخر لفظاً هو المتقدم، والمتقدم لفظاً هو شرط في الثاني كقوله:

(١) فإن عثرت بعدها إن وألت ... نفسي من هاتا فقولا لا لعا

لأن الحامل على ترك تدبر آيات الله، كونه ذا مال وبنين، فهو مشغول القلب بذلك غافل عن النظر والفكر، قد استولت عليه الدنيا وأبطرته، وقرأ الحسن (أأن) على الاستفهام وهو استفهام تقريع وتوبيخ على قوله القرآن أساطير الأولين لما تليت عليه آيات الله، ولما ذكر قبائح أفعاله وأقواله ذكر ما يفعل به على سبيل التوعد فقال ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ والسمة: العلامة. ولما كان الوجه أشرف ما في الإنسان، والأنف أكرم ما في الوجه لتقدمه، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية، واشتقوا منه الأنفة وقالوا: حمي الأنف، شامخ العرنين، وقالوا في الذليل: جدع أنفه ورغم أنفه وكان أيضاً مما تظهر السمات فيه لعلوه، قال: سنسمه على الخرطوم وهو غاية الإذلال والإهانة والاستبلاد، إذ صار كالبهيمة لا يملك الدفع عن وسمه في الأنف، وإذا كان الوسم في الوجه شيئاً فكيف به على أكرم عضو فيه؟ وقد قيل: الجمال في الأنف، وقال بعض الأدباء:

وحسن الفتى في الأنف والأنف عاطل ... فكيف إذا ما الخال كان له حليا

و(سنسمه) فعل مستقبل لم يتعين زمانه، وقال ابن عباس: هو الضرب بالسيف، أي يضرب به وجهه وعلى أنفه فيجيء ذلك كالوسم على الأنف وحل به ذلك يوم بدر، وقال المبرد: ذلك في عذاب الآخرة في جهنم وهو تعذيب بنار على أنوفهم، وقال آخرون: ذلك يوم القيامة أي نوسم على أنفه سمة يعرف بها كفره وانحطاط قدره، وقال قتادة وغيره: معناه سنفعل به في الدنيا من الذم والمقت والاشتهار بالشر ما يبقى فيه ولا يخفى به فيكون ذلك كالوسم على الأنف ثابتاً بيناً، كما تقول: سأطوقك طوق الحمامة، أي أثبت لك الأمر بيناً فيك، ونحو هذا أراد جرير بقوله:

لما وضعت على الفرزدق ميسمي (٢)

وفي الوسم على الأنف تشويه فجاءت استعارته في المذمات بليغة جداً، قال ابن عطية: وإذا تأملت حال أبي جهل ونظرائه، وما ثبت لهم في الدنيا من سوء الأحدوثة، رأيت أنهم قد وسموا على الخراطيم. انتهى. وقال أبو العالية ومقاتل، واختاره الفراء: يسود وجهه قبل دخول النار. وذكر (الخرطوم) والمراد الوجه، لأن بعض الوجه يؤدي عن

---

(٢) تقدم.

واحلفوا ليصرمنها وتوقف الحسن في كونهم مؤمنين وقال: أكان قولهم (إنا إلى ربنا راغبون) إيمانًا أو على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة (كذلك العذاب) هذا خطاب للرسول ﷺ في أمر قريش. قال ابن عطية: والإشارة بذلك إلى العذاب الذي نزل بالجنة، أي: كذلك العذاب الذي نزل بقريش بغتة ثم عذاب الآخرة بعد ذلك أشد عليهم من عذاب الدنيا. وقال كثير من المفسرين: العذاب النازل بقريش المماثل لأمر الجنة هو الجدب الذي أصابهم سبع سنين حتى أكلوا الجيف وأكلوا الجلود. انتهى. وقال الزمخشري: مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة عذاب الدنيا (ولعذاب الآخرة) أشد وأعظم منه انتهى. وتشبيه بلاء قريش ببلاء أصحاب الجنة هو أن أصحاب الجنة عزموا على الانتفاع بثمرها وحرمان المساكين فقلب الله تعالى عليهم وحرمهم، وأن قريشًا حين خرجوا إلى بدر حلفوا على قتل الرسول ﷺ وأصحابه، فإذا فعلوا ذلك رجعوا إلى مكة، وطافوا بالكعبة، وشربوا الخمور، فخيب الله عليهم بأن قتلوا وأسروا. ولما عذبهم بذلك في الدنيا قال (ولعذاب الآخرة أكبر). قوله عز وجل: ﴿ إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم. أفنجعل المسلمين كالمجرمين. ما لكم كيف تحكمون. أم لكم كتاب فيه تدرسون. إن لكم فيه لما تخيرون. أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون. سلهم أيهم بذلك زعيم. أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين. يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون. فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم إن كيدي متين. أم تسألهم أجرًا فهم من مغرم مثقلون. أم عندهم الغيب فهم يكتبون. فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم. لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم. فاجتباه ربه فجعله من الصالحين. وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون. وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾

لما ذكر تعالى أنه ابتلى كفار قريش وشبه بلاءهم ببلاء أصحاب الجنة أخبر بحال أضدادهم وهم المتقون، فقال (إن للمتقين) أي الكفر (جنات النعيم) أضافها إلى النعيم، لأن النعيم لا يشوبها إذ ليس فيها إلا هو فلا يشوبه كدر كما يشوب جنات الدنيا. وروي: أنه لما نزلت هذه الآية قالت قريش: إن كان ثم جنة فلنا فيها أكثر الحظ فنزلت (أفنجعل المسلمين كالمجرمين). قال مقاتل: قالوا فضلنا الله عليكم في الدنيا، فهو يفضلنا عليكم في الآخرة، وإلا فالمشاركة. فأجاب تعالى (أفنجعل) أي: لا نسوي المطيع والعاصي، وهو استفهام فيه توقيف على خطأ ما قالوا وتوبيخ. ثم التفت إليهم فقال (ما لكم) أي: أي شيء لكم فيما تزعمون، وهو استفهام إنكار عليهم ثم قال (كيف تحكمون) وهو استفهام ثالث على سبيل الإنكار عليهم. استفهم عن هيئة حكمهم ففي قوله (ما لكم) استفهام عن كينونة مبهمة، وفي (كيف تحكمون) استفهام عن هيئة حكمهم. ثم أضرب عن هذا إضراب انتقال لشيء آخر لا إبطال لما قبله فقال (أم لكم) أي بل ألكم (كتاب) أي من عند الله (فيه تدرسون) أن ما تختارونه يكون لكم وقرأ الجمهور (إن لكم) بكسر الهمزة فقيل هو استئناف قول على معنى: إن لكم كتاب فلكم فيه متخير، وقيل: إن معمولة لتدرسون، أي تدرسون في الكتاب أن لكم لما تخيرون، أي: تختارونه من النعيم. وكسرت الهمزة من (أن) لدخول اللام في الخبر وهي بمعنى أن بفتح الهمزة قاله الزمخشري وبدأ به وقال: ويجوز أن تكون حكاية للمدروس كما هو كقوله: ﴿ وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح ﴾ [الصافات ٧٨ ، ٧٩] انتهى. وقرأ طلحة، والضحاك (أن لكم) بفتح الهمزة، واللام في (لما) زائدة كهي في قراءة من قرأ ﴿ إلا أنهم ليأكلون الطعام ﴾ [الفرقان ٢٠] بفتح همزة أنهم. وقرأ الأعرج (أإن لكم) على الاستفهام. (أم لكم أيمان) أي أقسام (علينا بالغة) أي متناهية في التوكيد يقال: لفلان علي يمين إذا حلفت له على الوفاء بما حلفت عليه (إلى يوم القيامة) متعلق بما تعلق به الخبر وهو (لكم) أي ثابتة لكم إلى يوم القيامة، أو بـ بالغة، أي: تبلغ إلى ذلك اليوم وتنتهي إليه. وقرأ الجمهور (بالغة) بالرفع على الصفة. والحسن، وزيد بن علي بالنصب على الحال من الضمير المستكن

﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ [الشمس: ١١]. وقيل: الطاغية عاقر الناقة، والهاء فيه للمبالغة كرجل راوية وعلامة، أهلكوا كلهم لما صنعه بفعله. وقيل: بسبب الفئة الطاغية. واختار الطبري وغيره أن الطاغية هي الصيحة، ويرجح ذلك مقابلة سبب الهلاك في ثمود بسبب الهلاك في عاد وهو قوله: (بريح صرصر) وتقدم القول في: صرصر: في سورة القمر (عاتية) عتت على خزانها فخرجت بغير مقدار، أو على عاد فلم يقدروا على أن يستتروا منها، أو وصفت بذلك استعارة لشدة عصفها. والتسخير: هو استعمال الشيء بالاقتدار عليه فمعنى (سخرها عليهم) أي أقامها وأدامها (سبع ليال) بدأت عليهم صبح الأربعاء لثمان بقين من شوال إلى آخر الأربعاء تمام الشهر (حسوماً) قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وأبو عبيدة: تباعاً، فلم يتخللها انقطاع. وقال الخليل: شؤماً ونحساً. وقال ابن زيد: (حسوماً) جمع حاسم أي تلك الأيام قطعتهم بالإهلاك ومنه حسم العلل والحسام. وقال الزمخشري: وإن كان مصدراً فإما أن ينتصب بفعل مضمر أي تحسم حسوماً بمعنى تستأصل استئصالاً، أو يكون صفة كقولك: ذات حسوم، أو يكون مفعولاً له أي سخرها عليهم للاستئصال. وقرأ السدي (حَسوماً) بالفتح حالاً من الريح أي: سخرها عليهم مستأصلة. وقيل: هي أيام العجوز وهي آخر الشتاء، وأسماؤها: الصن، والصنبر، والوبر، والآمر، والمؤتمر، والمعلل، ومطفئ الجمر، وقيل: مكفئ الظعن. (فترى القوم فيها) أي في الليالي والأيام، أو في منازلهم، أو في مهاب الريح احتمالات أظهرها: الأول، لأنه أقرب، ومصرح به. وقرأ أبو نهيك (أعجز) على وزن أفعل كضبع وأضبع، وحكى الأخفش أنه قرئ: (نخيل خاوية) خلت أعجازها بلى وفساداً. وقال ابن شجرة: كانت تدخل من أفواههم فتخرج ما في أجوافهم من الحشو من أدبارهم، فصاروا كالنخل الخاوية. وقال يحيى بن سلام: خلت أبدانهم من أرواحهم. وقال ابن جريج: كانوا في سبعة أيام في عذاب، ثم في الثامن ماتوا وألقتهم الريح في البحر، فذلك قوله: (فهل ترى لهم من باقية)، وقال ابن الأنباري: (من باقية) أي من بقاء والهاء للمبالغة، وقال أيضاً: من فئة باقية. وقيل: (من باقية) من بقية مصدر جاء على فاعلة كالعاقبة. وقرأ أبو رجاء، وطلحة، والجحدري، والحسن بخلاف عنه، وعاصم في رواية أبان، والنحويان: (ومن قِبَله) بكسر القاف وفتح الباء أي أجناده وأهل طاعته، وتقول: زيد قبلك أي فيما يليك من المكان، وكثر استعماله حتى صار بمنزلة عندك وفي جهتك وما يليك بأي وجه وليك. وقرأ باقي السبعة، وأبو جعفر، وشيبة، والسلمي: (ومن قبله) ظرف زمان أي الأمم الكافرة التي كانت قبله، كقوم نوح، وعاد، وثمود. وقد أشير إلى بعض من جاء بعده (والمؤتفكات) قرى قوم لوط. وقرأ الحسن هنا: (والمؤتفكة) على الإفراد (بالخاطئة) أي بالفعلة أو الفعلات الخاطئة قاله مجاهد. أو تكون الخاطئة مصدراً جاء على فاعلة كالعاقبة قاله الجرجاني (فعصوا رسول ربهم) (رسول) جنس وهو من جاءهم من عند الله تعالى، كموسى ولوط عليهما السلام. وقيل: لوط عليه السلام لأنه أقرب مذكور وهو رسول المؤتفكات، وقال الكلبي: موسى عليه السلام لتقدمه على الأنبياء وهو رسول فرعون. وقيل: (رسول) بمعنى رسالة (رابية) أي نامية. قال مجاهد: شديدة يريد أنها زادت على غيرها من الأخذات وهي الغرق وقلب المدائن. (إنا لما طغى الماء) أي: زاد وعلا على أعلى جبل في الدنيا خمس عشرة ذراعاً. قال ابن جبير: طغى على الخزان كما طغت الريح على خزانها (حملناكم) أي في أصلاب آبائكم (في الجارية) هي سفينة نوح عليه السلام، وكثر استعمال الجارية في السفينة ومنه قوله تعالى: ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ [الشورى: ٣٢] وقال الشاعر:

تسعون جارية في بطن جارية(١)

وقال المهدوي: المعنى في السفن الجارية يعني أن ذلك هو على سبيل الامتنان، والمحمولون هم ...

---

(١) شطر بيت من البسيط ذكره السمين الحلبي في الدر المصون.

{ لنجعلها } أي سفينة نوح عليه السلام { لكم تذكرة } بما جرى لقوم نوح المكذبين وقومه الناجين فيها وعظة . قال قتادة : أدركها أوائل هذه الأمة . وقال ابن جريج : كانت ألواحها على الجودي . وقيل : لنجعل تلك الفعلة في سفينة نوح عليه السلام لكم موعظة تذكرون بها نجاة آبائكم ، وإغراق مكذبي نوح عليه السلام { وتعيها } أي تحفظ قصتها أذن من شأنها أن تعي المواعظ . يقال : وعيت لما حفظ في النفس ، وأوعيت لما حفظ في غير النفس من الأوعية . وقال قتادة : الواعية هي التي عقلت عن الله وانتفعت بما سمعت من كتاب الله . وفي الحديث أنه ﷺ قال لعلي : « إني دعوت الله تعالى أن يجعلها أذنك يا علي » ، قال علي رضي الله تعالى عنه : فما سمعت بعد ذلك شيئاً فنسيته . وقرأ { وتعيها } بكسر العين وتخفيف الياء العامة ، وابن مصرف ، وأبو عمرو في رواية هارون ، وخارجة عنه ، وقنبل بخلاف عنه بإسكانها ، وحمزة بإخفاء الحركة . ووجه الإسكان التشبيه في الفعل بما كان على وزن فعل في الاسم والفعل نحو كبد ، وعلم وتعي ليس على وزنه فعل بل هو مضارع وعى ، فصار إلى فعل وأصله يفعل حذفت واوه . وروي عن عاصم عصمة ، وحمزة الأزرق { وتعيّها } بتشديد الياء ، قيل : وهو خطأ ، وينبغي أن يتأول على أنه أريد به شدة بيان الياء احترازاً ممن سكنها لا إدغام حرف في حرف ، ولا ينبغي أن يجعل ذلك من باب التضعيف في الوقف ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ، وإن كان قد ذهب إلى ذلك بعضهم . وروي عن حمزة ، وعن موسى بن عبد الله العبسي { وتعيها } بإسكان الياء فيحتمل الاستئناف وهو الظاهر ، ويحتمل أن يكون مثل قراءة { من أوسط ما تطعمون أهاليكم } بسكون الياء . وقال الزمخشري : فإن قلت : لم قيل { أذن واعية } على التوحيد والتنكير ؟ قلت : للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم ، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله تعالى فهي السواد الأعظم عند الله تعالى ، وأن ما سواها لا يبالي بهم بالة وإن ملؤوا ما بين الخافقين . انتهى ، وفيه تكثير .

ولما ذكر تعالى ما فعل بمكذبي الرسل من العذاب في الدنيا ذكر أمر الآخرة ، وما يعرض فيها لأهل السعادة ، وأهل الشقاوة ، وبدأ بأعلام يوم القيامة فقال : { فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة } وهذه النفخة نفخة الفزع . قال ابن عباس : وهي النفخة الأولى التي يحصل عنها خراب العالم ، ويؤيد ذلك قوله : { وحملت الأرض والجبال } وقال ابن المسيب ، ومقاتل : هي النفخة الآخرة ، وعلى هذا لا يكون الدك بعد النفخ ، والواو لا ترتب . وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً . ولما كانت { نفخة } مرة ، أكدت بقوله { واحدة } . وقرأ الجمهور { نفخةٌ واحدةٌ } برفعهما ولم تلحق التاء نفخ لأن تأنيث النفخة مجازي ووقع الفصل . وقال ابن عطية : لما نعت صح رفعه . انتهى . ولو لم ينعت لصح لأن نفخة مصدر محدود ونعته ليس بنعت تخصيص ، إنما هو نعت توكيد . وقرأ أبو السمال بنصبهما أقام الجار والمجرور مقام الفاعل . وقرأ الجمهور { وحُمِلت } بتخفيف الميم وابن أبي عبلة ، وابن مقسم ، والأعمش ، وابن عامر في رواية يحيى بتشديدها ، فالتخفيف على أن تكون الأرض والجبال حملتها الريح العاصف ، أو الملائكة ، أو القدرة من غير واسطة مخلوق ، ويبعد قول من قال : إنها الزلزلة ، لأن الزلزلة ليس فيها حمل ، إنما هي اضطراب . والتشديد على أن تكون للتكثير ، أو يكون التضعيف للنقل ، فجاز أن تكون الأرض والجبال المفعول الأول أقيم مقام الفاعل ، والثاني محذوف أي ريحاً تفتتها ، أو ملائكة ، أو قدرة ، وجاز أن يكون الثاني أقيم مقام الفاعل ، والأول محذوف وهو واحد من الثلاثة المقدرة . وثنى الضمير في { فدكتا } وإن كان قد تقدمه ما يعود عليه ضمير الجمع لأن المراد جملة الأرض ، وجملة الجبال أي ضرب بعضها ببعض حتى تفتت وترجع كما قال تعالى : ﴿ كثيباً مهيلاً ﴾ [المزمل ١٤] والدك فيه تفرق الأجزاء لقوله هباء والدق فيه اختلاف الأجزاء . وقيل : تبسط فتصير أرضاً { لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً } وهو من قولهم بعير أدك ، وناقة دكاء إذا ضعفا فلم يرتفع سنامهما واستوت عراجينهما مع ظهريهما { فيومئذ } معطوف على { فإذا نفخ في الصور } وهو منصوب بوقعت كما أن { إذا } منصوب بنفخ على ما اخترناه وقررناه ، واستدللنا له في أن العامل في إذا هو الفعل الذي يليها لا الجواب وإن كان مخالفاً

قول الجمهور والتنوين في إذ للعوض من الجملة المحذوفة وهي في التقدير: فيوم إذ نفخ في الصور وجرى كيت وكيت، و﴿ الواقعة ﴾ هي القيامة، وقد تقدم في ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ أن بعضهم قال: هي صخرة بيت المقدس. ﴿ وانشقت السماء ﴾ أي: انفطرت وتميز بعضها من بعض ﴿ فهي ﴾ يومئذ ﴿ واهية ﴾ ضعيفة لتشققها بعد أن كانت شديدة ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء ﴾ [النازعات ٢٧] أو مسترخية [illegible]. وقيل: انشقاقها لنزول الملائكة قال تعالى: ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ [الفرقان ٢٥] وقيل: انشقاقها هول يوم القيامة ﴿ والملك على أرجائها ﴾ قال ابن عباس: على حافاتها حين تنشق، والظاهر أن الضمير في أرجائها عائد على السماء، وقال ابن جبير، والضحاك: على حافات الأرض ينزلون إليها يحفظون أطرافها وإن لم يجر لها ذكر قريب، كما روي أن الله تعالى يأمر ملائكة سماء الدنيا فيقفون صفاً على حافات الأرض، ثم ملائكة الثانية فيصفون حولهم، ثم ملائكة كل سماء فكلما ند أحد من الجن والإنس وجد الأرض أحيط بها ﴿ والملك ﴾ اسم جنس يراد به الملائكة، وقال الزمخشري: (فإن قلت:) ما الفرق بين قوله: ﴿ والملك ﴾ وبين أن يقال: والملائكة؟ (قلت:) الملك أعم من الملائكة، ألا ترى أن قولك: ما من ملك إلا وهو شاهد أعم من قولك: ما من ملائكة. انتهى. ولا يظهر أن الملك أعم من الملائكة لأن المفرد المحلى بالألف واللام الجنسية قصاراه أن يراد به الجمع المحلى بهما، ولذلك صح الاستثناء منه فقصاراه أن يكون كالجمع المحلى بهما، وأما دعواه أنه أعم منه بقوله: ألا ترى إلخ فليس دليلاً على دعواه لأن (من ملك) نكرة مفردة في سياق النفي قد دخلت عليها من المخلصة للاستغراق فشملت كل ملك، فاندرج تحتها الجمع لوجود الفرد فيه، فانتفى كل فرد فرد بخلاف من ملائكة فإن (من) دخلت على جمع منكر، فعم كل جمع جمع من الملائكة ولا يلزم من ذلك انتفاء كل فرد فرد من الملائكة، لو قلت: ما في الدار من رجال، جاز أن يكون فيها واحد، لأن النفي إنما انسحب على جمع، ولا يلزم من انتفاء الجمع أن ينتفي المفرد والملك في الآية ليس في سياق نفي دخلت عليه من فيكون أعم من جمع، دخلت عليه من، وإنما جيء به مفرداً لأنه أخف، ولأن قوله على أرجائها يدل على الجمع لأن الواحد بما هو واحد لا يمكن أن يكون على أرجائها في وقت واحد، بل في أوقات، والمراد والله تعالى أعلم أن الملائكة على أرجائها لا أنه ملك واحد ينتقل على أرجائها في أوقات، وقال الزمخشري: يعني أنها تنشق وهي مسكن الملائكة فينضوون إلى أطرافها وما حولها من حافاتها. انتهى. والضمير في فوقهم عائد على الملك ضمير جمع على المعنى لأنه يراد به الجنس قاله الزمخشري، وقيل: يعود على الملائكة الحاملين، أي فوق رؤوسهم، وقيل: على العالم كلهم، والظاهر أن التمييز المحذوف في قوله ﴿ ثمانية ﴾ أملاك أي ثمانية أشخاص من الملائكة، وعن الضحاك ثمانية صفوف، وعن الحسن: الله أعلم كم هم أثمانية صفوف؟ أم ثمانية أشخاص؟ وذكروا في صفات هؤلاء الثمانية أشكالاً متكاذبة ضربنا عن ذكرها صفحاً ﴿ يومئذ ﴾ أي: يوم إذ كان ما ذكر ﴿ تُعرضون ﴾ أي: للحساب و﴿ تعرضون ﴾ هو جواب قوله ﴿ فإذا نفخ ﴾ فإن كانت النفخة هي الأولى فيجوز ذلك لأنه اتسع في اليوم فجعل ظرفاً للنفخ ووقوع الواقعة، وجميع الكائنات بعدها وإن كانت النفخة هي الثانية فلا يحتاج إلى اتساع، لأن قوله ﴿ فيومئذ ﴾ معطوف على فإذا و﴿ يومئذ تعرضون ﴾ بدل من فيومئذ وما بعد هذه الظروف واقع في يوم القيامة، والخطاب في ﴿ تعرضون ﴾ لجميع العالم المحاسبين، وعن عبد الله وأبي موسى في القيامة عرضتان فيهما معاذير وتوقيف وخصومات، وثالثة تتطاير فيها الصحف بالأيمان والشمائل. وقرأ الجمهور ﴿ لا تخفى ﴾ بتاء التأنيث، وعلي، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش، وحمزة، والكسائي، وابن مقسم عن عاصم، وابن سعدان بالياء ﴿ خافية ﴾ سريرة وحال كانت تخفى في الدنيا. قوله عز وجل: ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه، إني ظننت أني ملاق حسابيه، فهو في عيشة راضية في جنة عالية، قطوفها دانية، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية، وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه، ولم أدر ما حسابيه، يا ليتها كانت القاضية، ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانيه، خذوه فغلوه

أما إذا كان منصوباً نحو: قليلاً ضربت، أو قليلاً ما ضربت، على أن تكون ما مصدرية، فإن ذلك لا يجوز، لأنه في قليلاً ضربت منصوب بضربت ولم تستعمل العرب قليلاً إذا انتصب بالفعل نفياً بل مقابلاً لكثير. وأما في قليلاً ما ضربت، على أن تكون ما مصدرية فتحتاج إلى رفع قليل، لأن ما المصدرية في موضع رفع على الابتداء. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو بخلاف عنهما، والجحدري، والحسن: (يؤمنون) و(يذكرون) بالياء فيهما، وباقي السبعة بتاء الخطاب، وأبيّ بياءين. وقرأ الجمهور: (تنزيل) بالرفع، وأبو السمال: (تنزيلاً) بالنصب. وقرأ الجمهور: (ولو تقول) والتقول: أن يقول الإنسان عن آخر إنه قال شيئاً لم يقله. وقرأ ذكوان، وابنه محمد: (يقول) مضارع قال، وهذه القراءة معترضة بما صرحت به قراءة الجمهور. وقرىء: (ولو تُقُوِّل) مبنياً للمفعول، وحذف الفاعل، وقام المفعول مقامه وهو بعض إن كان قرىء مرفوعاً، وإن كان قرىء منصوباً فعلينا قام مقام الفاعل. والمعنى: ولو تقول علينا متقول ولا يكون الضمير في (تقول) عائداً على الرسول ﷺ لاستحالة وقوع ذلك منه فنحن نمنع أن يكون ذلك على سبيل الفرض في حقه عليه الصلاة والسلام. و(الأقاويل) جمع الجمع وهو أقوال كبيت وأبيات وأباييت. قال الزمخشري: وسمى الأقوال المتقولة أقاويل تصغيراً لها وتحقيراً كقولك الأعاجيب والأضاحيك كأنها جمع أفعولة من القول. والظاهر أن قوله (باليمين) المراد به الجارحة. فقال الحسن: معناه قطعناه عبرة ونكالاً والباء على هذا زائدة. وقيل: الأخذ على ظاهره. قال الزمخشري: والمعنى ولو ادعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام، فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول: وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته. وخص اليمين على اليسار، لأن القتال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره، وإذا أراد أن يوقعه في جيده وأن يلحقه بالسيف، وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف أخذ بيمينه. ومعنى (لأخذنا منه باليمين) لأخذنا بيمينه، كما أن قوله تعالى (لقطعنا منه الوتين) لقطعنا وتينه انتهى. وهو قول للمتقدمين حسنه الزمخشري بتكثير ألفاظه ومصاعها وقالوا: المعنى لأخذنا بيده التي هي اليمين على جهة الإذلال والصغار، كما يقول السلطان إذا أراد عقوبة رجل: يا غلام خذ بيده وافعل كذا، قاله أو قريباً منه الطبري. وقيل: اليمين هنا مجاز، فقال ابن عباس: باليمين بالقوة معناه لنلنا منه عقابه بقوة منا. وقال مجاهد: بالقدرة. وقال السدي: بالحق. و(من) على هذا صلة. وقال نفطويه: لقبضنا بيمينه عن التصرف. وقيل: لنزعنا منه قوته. وقيل: لأذللناه وأعجزناه. (ثم لقطعنا منه الوتين)، قال ابن عباس: وهو نياط القلب. وقال مجاهد: حبل القلب الذي في الظهر وهو النخاع والموتون الذي قطع وتينه. والمعنى: لو تقول علينا لأذهبنا حياته معجلاً. والضمير في عنه الظاهر أنه يعود على الذي تقول، ويجوز أن يعود على القتل أي لا يقدر أحد منكم أن يحجزه عن ذلك ويدفعه عنه والخطاب في (منكم) للناس. والظاهر في (حاجزين) أن يكون خبراً لما على لغة الحجاز، لأن حاجزين هو محط الفائدة، ويكون منكم لو تأخر لكان صفة لأحد فلما تقدم صار حالاً وفي جواز هذا نظر أو يكون للبيان أو تتعلق بحاجزين كما تقول ما فيك زيد راغباً، ولا يمنع هذا الفصل من انتصاب خبر ما. وقال الحوفي، والزمخشري: (حاجزين) نعت لأحد على اللفظ، وجمع على المعنى، لأنه في معنى الجماعة يقع في النفي العام للواحد والجمع والمذكر والمؤنث، ومنه ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقوله ﴿لستن كأحد من النساء﴾ [الأحزاب: ٣٢] مثل بهما الزمخشري وقد تكلمت على ذلك في موضعيهما. وفي الحديث: «لم تحل الغنائم لأحد سود الرؤوس قبلكم» وإذا كان حاجزين نعتاً لأحد فمن أحد مبتدأ والخبر (منكم) ويضعف هذا القول، لأن النفي يتسلط على الخبر وهو كينونته منكم فلا يتسلط على الحجز. وإذا كان حاجزين خبراً تسلط النفي عليه، وصار المعنى ما أحد منكم يحجزه عن ما يريد به من ذلك. (وإنه لتذكرة) أي: وإن القرآن أو الرسول ﷺ. (وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) وعيد أي مكذبين بالقرآن أو بالرسول ﷺ. (وإنه لحسرة) أي القرآن من حيث كفروا به ويرون من آمن به ينعم وهم معذبون. وقال مقاتل: وإن تكذيبهم بالقرآن (لحسرة) عليهم. عاد الضمير على

المصدر المفهوم من قوله مكذبين كقوله

إذا نهي السفيه جرى إليه

أي السفه . (وإنه) أي ورد القرآن (لحق اليقين فسبح باسم ربك العظيم) ومبنى الكلام على إضافة حق إلى اليقين في آخر الواقعة .

سورة المعارج مكية وهي أربع وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥) فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)

﴿ العهن ﴾ الصوف دون تقييد ، أو الأحمر أو المصبوغ ألوانا أقوال ، و ﴿ الفصيلة ﴾ قال ثعلب : الآباء الأدنون ، وقال أبو عبيدة الفخذ ، وقيل : عشيرته الأقربون ، ﴿ لظى ﴾ : اسم جهنم ، أو للدركة الثانية من دركاتها وهو علم منقول من اللظى وهو اللهب ومنع الصرف هو للعلمية والتأنيث ، و ﴿ الشوى ﴾ جمع شواة وهي جلدة الرأس ، وقال الأعشى :

جميلاً ، إنهم يرونه بعيداً ، ونراه قريباً ، يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ، ولا يسأل حميم حميماً ، يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه ، ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه ، كلا إنها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى ، إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ، والذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم ، والذين يصدقون بيوم الدين ، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، إن عذاب ربهم غير مأمون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم بشهاداتهم قائمون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون ، أولئك في جنات مكرمون ﴾ هذه السورة مكية ، قال الجمهور : نزلت في النضر بن الحارث حين قال : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ [الأنفال ٣٢] الآية ، وقال الربيع بن أنس : في أبي جهل ، وقيل : في جماعة من قريش ﴿ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق ﴾ [الأنفال ٣٢] الآية ، وقيل : السائل نوح عليه السلام ، سأل العذاب على الكافرين ، وقيل : السائل رسول الله ﷺ ، سأل أن يشدد وطأته على مضر الحديث ، فاستجاب الله دعوته ، ومناسبة أولها لآخر ما قبلها : أنه لما ذكر ﴿ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ﴾ أخبر عن ما صدر عن بعض المكذبين بنعم الله وإن كان السائل نوحاً عليه السلام أو الرسول ﷺ فناسب تكذيب المكذبين أن دعا عليهم رسولهم حتى يصابوا فيعرفوا صدق ما جاءهم به ، وقرأ الجمهور ﴿ سأل ﴾ بهمزة أي : دعا داع من قولهم : دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه فالباء على أصلها ، وقيل : المعنى : بحث باحث واستفهم ، قيل : فالباء بمعنى عن وقرأ نافع ، وابن عامر ﴿ سال ﴾ بألف ، فيجوز أن يكون قد أبدلت همزته ألفاً ، وهو بدل على غير قياس ، وإنما قياس هذا بين بين ، ويجوز أن يكون على لغة من قال : سلت أسال ، وحكاها سيبويه ، وقال الزمخشري : هي لغة قريش يقولون : سلت تسال ، وهما يتسايلان ، انتهى . وينبغي أن يتثبت في قوله إنها لغة قريش ، لأن ما جاء في القرآن من باب السؤال مهموز ، أو أصله الهمز كقراءة من قرأ : ﴿ وسلوا الله من فضله ﴾(١) [النساء ٣٢] إذ لا يجوز أن يكون من سال التي عينها واو ، إذ كان يكون ذلك وسالوا الله مثل خافوا الأمر ، فيبعد أن يجيء ذلك كله على غير لغة قريش ، وهم الذين نزل القرآن بلغتهم إلا يسيراً فيه لغة غيرهم ، ثم جاء في كلام الزمخشري : وهما يتسايلان بالياء ، وأظنه من الناسخ وإنما هو يتساولان بالواو ، فإن توافقت النسخ بالياء فيكون التحريف من الزمخشري ، وعلى تقدير أنه من السؤال فـ﴿ سائل ﴾ اسم فاعل منه ، وتقدم ذكر الخلاف في السائل من هو ، وقيل : سال من السيلان ويؤيده قراءة ابن عباس ﴿ سال سيل ﴾ وقال زيد بن ثابت : في جهنم واد يسمى سائلاً وأخبر هنا عنه ، قال ابن عطية : ويحتمل إن لم يصح أمر الوادي أن يكون الإخبار عن نفوذ القدر بذلك العذاب قد استعير له السيل لما عهد من نفوذ السيل وتصميمه ، وقال الزمخشري : والسيل مصدر في معنى السائل ، كالغور بمعنى الغائر ، والمعنى : اندفع عليهم وادي عذاب ، فذهب بهم وأهلكهم انتهى ، وإذا كان السائل هم الكفار فسؤالهم إنما كان على أنه كذب عندهم فأخبر تعالى أنه واقع وعيداً لهم ، وقرأ أبي ، وعبد الله ﴿ سال سيل ﴾ مثل مال بإلقاء صورة الهمزة وهي الياء من الخط تخفيفاً ، قيل : والمراد سائل . انتهى ، ولم نعلم هل قرأ بالهمز أو بإسقاطها ألبتة فإن قرأ بالهمز فالظاهر ، وإن قرأ بحذفها فهو مثل شاك شائك ، حذفت عينه واللام جرى فيها الإعراب والظاهر تعلق ﴿ بعذاب ﴾ بـ﴿ سال ﴾ ، وقال أبو عبد الله الرازي يتعلق بمصدر دل عليه فعله كأنه

---

(١) ظاهر المصنف رحمه الله أن « سالوا » إنما حذفت لكثرة الاستعمال فنقلت حركة الهمزة إلى السين ثم حذفت الهمزة ، وهذا غير صحيح لأن ﴿ وسلوا الله من فضله ﴾ [النساء ٣٢] والأصل واسألوا فنقلت فتحة الهمزة إلى السين ، وحذفت الهمزة ، وكذا همزة الوصل . فلا عنده تحريف فيه ، شرح الشافية للرضي (٣ / ٤٢) .

النية ، والعامل فيها « تلظى » ، وإن كان علماً لما فيه من معنى التلظي كما عمل العلم في الظرف في قوله :

أنا أبو المنهال بعض الأحيان

أي المشهور بعض الأحيان ، أو على الاختصاص للتهويل ، قاله الزمخشري ، وكأنه يعني الفخر ، ولا تنتصب فيها كالرفع فيها إذا أضمرت هو مقصود هنا ، تدعو حقيقة يخلق الله فيها الكلام كما يخلقه في الأعضاء ، قاله ابن عباس وغيره : تدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وقال الزمخشري : وكما خلقه في الشجرة . انتهى . فلم يترك مذهب الاعتزال ، وقال الخليل : مجاز عن استدنائها منهم ، وما توقعه بهم من عذابها ، وقال ثعلب : يهلك ، تقول العرب دعاك الله أي أهلكك وحكاه الخليل عن العرب قال الشاعر :

ليالي يدعوني الهوى فأجيبه … وأعين من أهوى إلي رواني

وقال آخر :

ترفع للعيان وكل فج … طباه الرعي منه والخلاء

يصف ظبياً ، وطباه ، أي : دعاه ، والهوى والرعي لا يدعوان حقيقة ، ولكنه لما كان فيهما ما يجذب صارا داعيين مجازاً ، وقيل : تدعو أي زبانية جهنم أضيف دعاؤهم إليها من أدبر عن الحق وتولى (وجمع فأوعى) أي وجمع المال فجعله في وعاء وكنزه ولم يؤد حق الله فيه ، وهذه إشارة إلى كفار أغنياء ، وقال الحكم : كان عبد الله بن حكيم لا يربط كيسه ويقول : سمعت الله يقول (وجمع فأوعى) (إن الإنسان) جنس ولذلك استثنى منه (إلا المصلين) ، وقيل : الإشارة إلى الكفار ، وقال ثعلب : قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر : ما الهلع ؟ فقلت قد فسره الله تعالى ، ولا يكون تفسير أبين من تفسيره ، وهو : الذي إذا ناله شر أظهر شدة الجزع ، وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس . انتهى . ولما كان ذلك الجزع والمنع متمكناً في الإنسان جعل كأنه خلق مجبولاً عليهما كقوله ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ [الأنبياء : ٣٧] والجملة حال ، (إلا المصلين) استثناء كما قلنا من (الإنسان) ، ولذلك وصفهم بما وصفهم به من الصبر على المكاره ، ووصف الجملة التي حاذوها ، وقرأ الجمهور (على صلاتهم) بالإفراد ، والحسن جمعاً ، وديمومتها قال الجمهور : المواظبة عليها ، وقال ابن مسعود : صلاتها لوقتها ، وقال عقبة بن عامر : يقرون فيها ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً ، ومنه الماء الدائم ، وقال الزمخشري : دوامهم عليها أن يواظبوا على أدائها ولا يشتغلوا عنها بشيء ، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ، ومواقيتها ، ويقيموا أركانها ، ويكملوها بسننها ، وآدابها ، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم ، فالدوام يرجع إلى أنفس الصلوات والمحافظة على أحوالها . انتهى . وهو جوابه لسؤال ، فإن قلت : كيف قال (على صلاتهم دائمون) ثم قال (على صلاتهم يحافظون) ؟ أقول : إن الديمومة على الشيء والمحافظة عليه شيء واحد ، لكنه لما كانت الصلاة هي عمود الإسلام بولغ في التوكيد فيها ، فذكرت أول خصال الإسلام المذكورة في هذه السورة وآخرها ليعلم مرتبتها في الأركان التي بني الإسلام عليها ، والصفات التي بعد هذه تقدم تفسيرها ونظيرها في سورة (قد أفلح المؤمنون) ، وقرأ الجمهور شهادتهم على الإفراد ، والسلمي ، وأبو عمرو ، وحفص على الجمع ، قوله عز وجل :

﴿ فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ، عن اليمين وعن الشمال عزين ، أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم ، كلا إنا خلقناهم مما يعلمون ، فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ، على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين ، فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ، يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾ كان رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة ويقرأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

الأطوار: الأحوال المختلفة قال:

فإن أفاق فقد طارت عمايته ... والمرء يخلق طورا بعد أطوار(١)

---

(١) انظر البيت في اللسان (طور) وروح المعاني (٢٩/ ٩١)

يكون دعاؤه إسراراً، لأنه يكون ألطف بهم ولعلهم يقبلون منه كحال من ينصح في السر فإنه جدير أن يقبل منه، فلما لم يُجْدِ له الإسرار انتقل إلى أشد منه وهو دعاؤهم جهاراً صلة بالدعاء إلى الله لا يحاشي أحداً، فلما لم يجد عاد إلى الإعلان وإلى الإسرار. قال الزمخشري: ومعنى ثم الدلالة على تباعد الأحوال، لأن الجهار أغلظ من الإسرار والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما. انتهى. وكثيراً كرر الزمخشري أن ثم للاستبعاد ولا نعلمه من كلام غيره[1]. وانتصب (جهاراً) بدعوتهم وهو أحد نوعي الدعاء، ويجيء فيه من الخلاف ما جاء في نصب هو يمشي الخوزلى. قال الزمخشري: أو لأنه أراد بدعوتهم جاهرتهم، ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا بمعنى دعاء جهاراً، أي مجاهراً به، أو مصدراً في موضع الحال، أي مجاهراً. ثم أخبر أنه أمرهم بالاستغفار وأنهم إذا استغفروا درّ لهم الرزق في الدنيا، فقدم ما يسرهم وما هو أحب إليهم إذ النفس متشوفة إلى الحصول على العاجل، كما قال تعالى ﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب﴾ [الصف ١٣]، ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ [الأعراف ٩٦] ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ [المائدة ٦٦] الآية، ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم﴾ [الجن ١٦]. قال قتادة: كانوا أهل حب للدنيا فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التي يحبونها. وقيل: لما كذبوه بعد طول تكرار الدعاء قحطوا، وأعقم نساءهم، فبدأهم في وعده بالمطر، ثم ثنى بالأموال والبنين. و(مدراراً) من الدر وهو صفة يستوي فيها المذكر والمؤنث، ومفعال لا تلحقه التاء إلا نادراً فيشترك فيه المذكر والمؤنث، تقول: رجل معدانة، ومطرابة، وامرأة معدانة، ومطرابة. والسماء المظلة، قيل: لأن المطر ينزل منها إلى السحاب، ويجوز أن يراد السحاب والمطر كقوله:

إذا نزل السماء بأرض قوم[2]

الرجاء بمعنى الخوف وبمعنى الأمل، فقال أبو عبيدة وغيره: (لا ترجون) لا تخافون، قالوا: والوقار بمعنى العظمة والسلطان، والكلام على هذا وعيد وتخويف. وقيل: لا تأملون له توقيراً أي تعظيماً. قال الزمخشري: والمعنى ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب، و(لله) بيان للموقر، ولو تأخر لكان صلة أو لا تخافون لله حلماً وترك معاجلة بالعقاب فتؤمنوا. وقيل: ما لكم لا تخافون لله عظمة. وعن ابن عباس: لا تخافون لله عاقبة، لأن العاقبة حال استقرار الأمور وثبات الثواب والعقاب من وقر إذا ثبت واستقر. انتهى. وقيل: ما لكم لا تجعلون رجاءكم لله وتلقاءه وقاراً ويكون على هذا منهم كأنه يقول: تؤدة منكم وتمكناً في النظر، لأن الفكر مظنة الخفة والطيش وركوب الرأس. انتهى. وفي التحرير قال سعيد بن جبير: ما لكم لا ترجون لله ثواباً، ولا تخافون عقاباً، وقاله ابن جبير عن ابن عباس. وقال العوفي عنه: ما لكم لا تعلمون لله عظمة؟ وعن مجاهد، والضحاك: ما لكم لا تبالون لله عظمة. قال قطرب: هذه لغة حجازية، وهذيل، وخزاعة، ومضر يقولون: لم أرج: لم أبال. انتهى. (لا ترجون) حال (وقد خلقكم أطواراً) جملة حالية تحمل على الإيمان بالله وإفراده بالعبادة، إذ في هذه الجملة الحالية التنبيه على تدريج الإنسان في أطوار لا يمكن أن تكون إلا من خلقه تعالى. قال ابن عباس، ومجاهد: من النطفة والعلقة والمضغة. وقيل:

---

(١) الجمهور على أن ثم هنا للمهلة بمعنى عدم اتصال معطوفها بما عطف عليه، وقد ذكر الزمخشري هذا المعنى، وهو الاستبعاد في ثم على أن مجيء كونها للمهلة في الاستبعاد يستلزم التراخي في الرتبة، وقال الرضي: وقد تجيء في الجمل خاصة لاستبعاد مضمون ما بعدها عن مضمون ما قبلها، وعدم مناسبته له (انظر الكشاف ٤/ ٩٤ وشرح الكافية للرضي ٢/ ٣٧٧) وإنكار أبي حيان مبني على أن غير الزمخشري لم يذكر هذا المعنى، ثبت بعد علم الزمخشري الرضي والشوكاني في فتح القدير ٥/ ٢٩٦) قال الشيخ سليمان الجمل: ثم للدلالة على تباعد الأحوال لأن الجهار أغلظ من الإسرار).

(٢) تقدم.

في اختلاف ألوان الناس وخلقهم وخُلقهم ومللهم ، وقيل : صبياناً ثم شباناً ثم شيوخاً وضعفاء ثم أقوياء ، وقيل : معنى ﴿ أطواراً ﴾ أنواعاً صحيحاً ، وسقيماً ، وبصيراً ، وضريراً ، وغنياً ، وفقيراً . قوله عز وجل : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً ، وجعل الشمس سراجاً . والله أنبتكم من الأرض نباتاً . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً . قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً . ومكروا مكراً كباراً . وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً . مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً . وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً . رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً ﴾ لما نبههم نوح عليه السلام على الفكر في أنفسهم ، وكيف انتقلوا من حال إلى حال ، وكانت الأنفس أقرب ما يفكرون فيه منهم ، أرشدهم إلى الفكر في العالم علوه وسفله ، وما أودع تعالى فيه أي في العالم العلوي من هذين النيرين اللذين بهما قوام الوجود ، وتقدم شرح ﴿ طباقاً ﴾ في سورة الملك ، والضمير في ﴿ فيهن ﴾ عائد على السموات وحل القمر في السماء الدنيا ، وصح كون السموات ظرفاً للقمر ، لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأه المظروف ، تقول : زيد في المدينة ، وهو في جزء منها ، ولم تعين الشمس ظرف فقيل : هي في الرابعة ، وقيل : في الخامسة ، وقيل : في الشتاء في الرابعة ، وفي الصيف في السابعة ، وهذا شيء لا يوقف على معرفته إلا من علم الهيئة . ويذكر أصحاب هذا العلم أنه يقوم البرهان القاطع على صحة ما يدعونه ، وأن في معرفة ذلك دلالة واضحة على عظمة الله ، وقدرته ، وباهر مصنوعاته ﴿ سراجاً ﴾ يستضيء به أهل الدنيا كما يستضيء الناس بالسراج في بيوتهم ، ولم يبلغ القمر مبلغ الشمس في الإضاءة ولذلك جاء هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، والضياء أقوى من النور ، والإنبات استعارة في الإنشاء . أنشأ آدم من الأرض ، وصارت ذريته منه . فصح نسبتهم كلهم إلى أنهم أنبتوا منها . وانتصاب ﴿ نباتاً ﴾ بـ ﴿ أنبتكم ﴾ مصدراً على حذف الزائد ، أي : إنباتاً ، أو على إضمار فعل أي فنبتم نباتاً . وقال الزمخشري : المعنى أنبتكم فنبتم أو نصب بأنبتكم لتضمنه معنى نبتم . انتهى . ولا أعقل معنى هذا الوجه الثاني الذي ذكره ﴿ ثم يعيدكم فيها ﴾ أي : يصيركم فيها مقبورين ﴿ ويخرجكم إخراجاً ﴾ أي يوم القيامة ، وأكده بالمصدر أي ذلك واقع لا محالة ﴿ بساطاً ﴾ تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه ، وظاهره أن الأرض ليست كروية بل هي مبسوطة ﴿ سبلاً ﴾ طرقاً ﴿ فجاجاً ﴾ متسعة . وتقدم الكلام على الفج في سورة الحج . ولما أصروا على العصيان وعاملوه بأقبح الأقوال والأفعال ﴿ قال نوح رب إنهم عصوني ﴾ والضمير للجميع . وكان قد دخل فيهم ولم يعصوه . وكان قد أقام فيهم ما حكى الله تعالى عنه ألف سنة إلا خمسين عاماً وكانوا قد وسع عليهم في الرزق بحيث كانوا يزرعون في الشهر مرتين ، وتبعوا في عاداتهم وسفلتهم لأنه لا يصح عوده على الجميع في عبادة الأصنام ﴿ من لم يزده ﴾ أي : رؤساؤهم وكبراؤهم وهم الذين كان ما تأتيهم من المال وما تكثروا به من الولد سبباً في خسارتهم في الآخرة ، وكان سبب هلاكهم في الدنيا وقرأ ابن الزبير ، والحسن ، والأعرج ، ومجاهد ، والأخوان ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع في رواية خارجة ﴿ وولده ﴾ بضم الواو ، وسكون اللام . وروي ، والحسن أيضاً وأبو رجاء ، وابن وثاب ، وأبو جعفر ، وشيبة ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر بفتحهما وهما لغتان كبخل وبخل ، والحسن أيضاً والجحدري ، وقتادة ، وزر ، وطلحة ، وابن أبي إسحاق ، وأبو عمرو في رواية بكسر الواو وسكون اللام ، وقال أبو حاتم : يمكن أن يكون الولد بالضم جمع ولد كخشب وخشب ، وقد قال حسان بن ثابت :

يا بِكْرَ آمنةَ المُبَارَكِ بِكْرُهَا ... مِنْ وُلْدِ مُحْصَنَةٍ بِسَعْدِ الأَسْعَدِ (١)

(١) البيت من الكامل انظر ديوانه (١٤٤)

حيّاك ودٌّ فإنا لا يحل لنا ... لهو النساء وإن الدين قد عزما[1]

وقال آخر:

فحيّاك ودٌّ من هداك لفتية ... وخوص بأعلى ذي طوالة هجّد[2]

فإن أراد ذلك الصنم. وقرأ الجمهور (ولا يغوث ويعوق) بغير تنوين، فإن كانا عربيين فمنع الصرف للعلمية ووزن الفعل، وإن كانا عجميين فللعجمة والعلمية. وقرأ الأشهب (ولا يغوثاً ويعوقاً) بتنوينهما قال صاحب اللوامح: جعلهما فعولاً فلذلك صرفهما، فأما في العامة فإنهما صفتان من الغوث والعوق يفعل منهما، وهما معرفتان فلذلك منع الصرف لاجتماع الفعلين اللذين هما تعريف ومشابهة الفعل المستقبل انتهى. وهذا تخبط، أما أولاً فلا يمكن أن يكونا فعولاً، لأن مادة يغث مفقودة وكذلك يعق، وأما ثانياً فليسا بصفتين من الغوث والعوق لأن يفعلاً لم يجئ اسماً ولا صفة وإنما امتنعا من الصرف لما ذكرناه. وقال ابن عطية: وقرأ الأعمش (ولا يغوثاً ويعوقاً) بالصرف وذلك وهم، لأن التعريف لازم ووزن الفعل انتهى. وليس ذلك بوهم ولم ينفرد الأعمش بذلك بل وافقه الأشهب العقيلي على ذلك، وتخريجه على أحد الوجهين أحدهما: أنه جاء على لغة من يصرف جميع ما لا ينصرف عند عامة العرب وذلك لغة، وقد حكاها الكسائي وغيره. والثاني: أنه صرف لمناسبة ما قبله وما بعده من المنون إذ قبله (ودّاً) و(ولا سواعاً) وبعده (ونسراً) كما قالوا في صرف (سلاسلاً) و(قواريراً) و(قواريراً) لمن صرف ذلك للمناسبة. وقال الزمخشري: وهذه قراءة مشكلة، لأنهما إن كانا عربيين أو أعجميين ففيهما سببا منع الصرف، ولعله قصد الازدواج فصرفهما لمصادفته أخواتهما منصرفات (وداً وسواعاً ونسراً) كما قرئ (وضحاها) بالإمالة لوقوعه مع الممالات للازدواج انتهى. وكأن الزمخشري لم يعلم أن ثم لغة لبعض العرب تصرف كل ما لا ينصرف عند عامتهم فلذلك استشكلها. (وقد أضلوا) أي الرؤساء المتبوعون (كثيراً) من أتباعهم وعامتهم وهذا إخبار من نوح عليه السلام عنهم بما جرى على أيديهم من الضلال. وقال الحسن: (وقد أضلوا) أي الأصنام فعاد الضمير عليهم كما يعود على العقلاء كقوله تعالى (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) ويحسن عوده على أقرب مذكور، ولكن عوده على الرؤساء أظهر، إذ هم المحدث عنهم والمعنى فيهم أمكن وله الخبر أنهم قد أضلوا كثيراً دعا عليهم بالضلال، فقال: (ولا تزد) وهي معطوفة على (وقد أضلوا) إذ تقديره وقال وقد أضلوا كثيراً فهي معمولة لقال المضمر المحكي بها قوله وقد أضلوا، ولا يشترط التناسب في عطف الجمل بل قد يعطف جملة الإنشاء على جملة الخبر والعكس خلافاً لمن يدعي التناسب. وقال الزمخشري: ما ملخصه: عطف (ولا تزد) على (رب إنهم عصوني) أي قال هذين القولين. (إلا ضلالاً) قال الزمخشري: (فإن قلت) كيف جاز أن يريد لهم الضلال ويدعو الله بزيادته (قلت) المراد بالضلال أن يخذلوا ويمنعوا الألطاف لتصميمهم على الكفر ووقوع اليأس من إيمانهم وذلك حسن جميل يجوز الدعاء به، بل لا يحسن الدعاء بخلافه انتهى. وذلك على مذهب الاعتزال. قال: ويجوز أن يريد بالضلال الضياع والهلاك كما قال: (ولا تزد الظالمين إلا تباراً). وقال ابن بحر: (إلا ضلالاً) إلا عذاباً قال: كقوله: ﴿إن المجرمين في ضلال وسعر﴾ [القمر ٤٧]، وقيل: إلا خسراناً، وقيل: إلا ضلالاً في أمر دنياهم وترويج مكرهم وحيلهم. وقرأ الجمهور (مما خطيئاتهم) جمعاً بالألف والتاء مهموزاً، وأبو رجاء كذلك إلا أنه أبدل الهمزة ياء وأدغم فيها الياء، والجحدري وعبيد عن أبي عمرو على الإفراد مهموزاً، والحسن وعيسى والأعرج بخلاف عنهم

---

(١) البيت من البسيط لم نجد قائله، القرطبي [illegible] فتح القدير [illegible].

(٢) البيت من الطويل لم نجد قائله، ذكره السمين في الدر المصون.

وأبو عمرو (خطاياهم) جمع تكسير وهذا إخبار من الله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام بأن دعوة نوح عليه السلام قد أجيبت و(ما) زائدة للتوكيد، قال ابن عطية: لابتداء الغاية، ولا يظهر إلا أنها للسبب، وقرأ عبد الله (من خطيئاتهم ما أغرقوا) بزيادة (ما) بين (أغرقوا) و(خطيئاتهم)، وقرأ الجمهور أغرقوا بالهمزة وزيد بن علي (غرقوا) بالتشديد وكلاهما للنقل وخطيئاتهم الشرك وما انجر معه من الكبائر (فأدخلوا ناراً) أي جهنم وعبر عن المستقبل بالماضي لتحققه وعطف بالفاء على إرادة الحكم أو عبر بالدخول عن عرضهم على النار غدواً وعشياً أي فأدخلوا النار يعرضون عليها، قال الزمخشري: أو أريد عذاب القبر انتهى. وقال الضحاك: كانوا يغرقون من جانب ويحرقون بالنار من جانب (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً) تعريض بانتفاء قدرة آلهتهم عن نصرهم ودعاء نوح عليه الصلاة والسلام بعد أن أوحي إليه ﴿أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ [هود ٣٦] قاله قتادة، وعنه أيضاً ما دعا عليهم إلا بعد أن أخرج الله كل مؤمن من الأصلاب، وأعقم أرحام نسائهم، وهذا لا يظهر، لأنه قال (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك) الآية فقوله (ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) يدل على أنه لم يعقم أرحام نسائهم، وقاله أيضاً محمد بن كعب والربيع، وابن زيد، ولا يظهر كما قلنا وقد كان قبل ذلك طامعاً في إيمانهم عاطفاً عليهم، وفي الحديث: أنه ربما ضربه ناس منهم أحياناً حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون و(دياراً) من ألفاظ العموم التي تستعمل في النفي وما أشبهه، ووزنه فيعال أصله ديوار اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فأدغمت ويقال منه دوّار ووزنه فعّال وكلاهما من الدور كما قالوا قيام وقوام والمعنى واحد وهو الذي من سكن داراً. وقال الزمخشري: وهو فيعال من الدور، أو من الدار. انتهى. والدار أيضاً من الدور، وألفها منقلبة عن واو (ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) وصفهم وهم حالة الولادة بما يصيرون إليه من الفجور والكفر، ولما دعا على الكفار استغفر للمؤمنين، فبدأ بنفسه، ثم بمن وجب بره عليه ثم للمؤمنين فكأن هو ووالداه اندرجوا في المؤمنين والمؤمنات، وقرأ الجمهور (ولوالديّ) وهما أبوه لمك بن متوشلخ وأمه شمخاء بنت أنوش، وقيل: هما آدم وحواء، وقرأ ابن جبير، والجحدري (ولوالدي) بكسر الدال، فاحتمل أن يكون خص أباه الأقرب، أو أراد جميع من ولده من آدم عليه السلام، وقال ابن عباس: لم يكفر لنوح عليه السلام أب ما بينه وبين آدم عليه السلام، وقرأ الحسن بن علي، ويحيى بن يعمر، والنخعي، والزهري، وزيد بن علي (ولولديّ) تثنية ولد يعني ساماً وحاماً، (ولمن دخل بيتي) قال ابن عباس، والجمهور: مسجدي، وعن ابن عباس أيضاً شريعتي استعار لها بيتاً، كما قالوا قبة الإسلام وفسطاطه، وقيل: سفينته، وقيل: داره (وللمؤمنين والمؤمنات) دعا لكل مؤمن ومؤمنة في كل أمة، والتبار: الهلاك.

سورة الجن مكية وهي ثمان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ
بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾
وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ
رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا
وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ
أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا
ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا
يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾
وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ
وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ
عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا
وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَن
يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ
نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا
يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ
أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

وحى لها القرار فاستقرت(١)

وقرأ زيد بن علي وجؤية فيما روى عن الكسائي وابن أبي عبلة: أُحِيَ بإبدال الواو همزة، كما قالوا في وعد أُعِد. وقال الزمخشري: وهو من القلب المطلق جوازه في كل واو مضمومة. انتهى. وليس كما ذكر، بل في ذلك تفصيل، وذلك أن الواو المضمومة قد تكون أولاً، وحشواً، وآخراً، ولكل منها أحكام، وفي بعضها خلاف وتفصيل مذكور في النحو. قال الزمخشري: وقد أطلقه المازني في المكسورة أيضاً كإشاح، وإسادة، وإعاء أخيه. انتهى. وهذا تكثير وتبجح، وكان يذكر هذا في وعاء أخيه في سورة يوسف. وعن المازني في ذلك قولان: أحدهما: القياس كما قال، والآخر: قصر ذلك على السماع. و(أنه استمع) في موضع المفعول الذي لم يسم فاعله أي استماع نفر من الجن. والمشهور أن هذا الاستماع هو المذكور في الأحقاف في قوله تعالى: {وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن} وهي قصة واحدة، وقيل: قصتان، والجن الذين أتوه بمكة جن نصيبين، والذين أتوه بنخلة جن نينوى. والسورة التي استمعوها قال عكرمة: {اقرأ باسم ربك} وقيل: سورة الرحمن. ولم تتعرض الآية لأنها ولا في سورة الأحقاف، إلى أنه رآهم وكلمهم عليه الصلاة والسلام. ويظهر من الحديث أن ذلك كان مرتين إحداهما في مبدأ مبعث رسول الله ﷺ وهو في الوقت الذي أخبر فيه عبد الله بن مسعود أنه لم يكن معه ليلة الجن. وقد فقدوه عليه الصلاة والسلام فالتمسوه في الأودية والشعاب فلم يجدوه فلما أصبح إذا هو جاء من قبل حراء وفيه: «أتاني داعي الجن فذهبت معه وقرأت عليهم القرآن، فانطلق بنا، وأرانا آثارهم وآثار نيرانهم». والمرة الأخرى كان معه ابن مسعود، وقد استندب ﷺ من يقوم معه إلى أن يتلو القرآن على الجن فلم يقم أحد غير عبد الله بن مسعود فذهب معه إلى الحجون عند الشعب، فخط عليه خطاً وقال: «لا تجاوزه» فانحدر عليه ﷺ أمثال الحجل يجرون الحجارة بأقدامهم يمشون يقرعون في دفوفهم، كما تقرع النسوة في دفوفهن حتى غشوه فلا أراه فقمت: فأومأ إليّ بيده أن اجلس، فتلا القرآن، فلم يزل صوته يرتفع، واختفوا في الأرض حتى ما أراهم. الحديث. ويدل على أنهم قصتان اختلافهم في العدد فقيل: سبعة، وقيل: تسعة. وعن زر: كانوا ثلاثة من أهل حران، وأربعة من أهل نصيبين قرية باليمن غير القرية التي بالعراق. وعن عكرمة: كانوا اثني عشر ألفاً من جزيرة الموصل، وأين سبعة من اثني عشر ألفاً؟ {فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً} أي قالوا لقومهم لما رجعوا إليهم ووصفوا قرآناً بقولهم {عجباً}: وصفاً بالمصدر على سبيل المبالغة، أي: هو عجب في نفسه لفصاحة كلامه، وحسن مبانيه، ودقة معانيه، وغرابة أسلوبه، وبلاغة مواعظه، وكونه مبايناً لسائر الكتب. والعجب: ما خرج عن أشكاله ونظائره. {يهدي إلى الرشد} أي يدعو إلى الصواب، وقيل: إلى التوحيد والإيمان. وقرأ الجمهور {الرُّشْد} بضم الراء وسكون الشين، وعيسى بضمهما، وعنه أيضاً فتحهما. {فآمنا به} أي: القرآن، ولما كان الإيمان به متضمناً الإيمان بالله وبوحدانيته وبراءة من الشرك قالوا: {ولن نشرك بربنا أحداً}. وقرأ الحرميان، والأبوان بفتح الهمزة من قوله: {وأنه تعالى} وما بعده وهي اثنتا عشرة آية آخرها {وأنا منا المسلمون}، وباقي السبعة بالكسر. فأما الكسر: فواضح لأنها معطوفات على قوله: {إنا سمعنا} فهي داخلة في معمول القول. وأما الفتح: فقال أبو حاتم: هو على أوحي، فهو كله في موضع رفع على ما لم يسم فاعله. انتهى. وهذا لا يصح لأن من المعطوفات ما لا يصح دخوله تحت أوحي وهو كل ما كان فيه ضمير المتكلم كقوله: {وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع} ألا ترى أنه لا يلائم {أوحي إليّ} {أنا كنا نقعد منها مقاعد}، وكذلك باقيها. وخرجت قراءة الفتح على أن تلك كلها معطوفة على الضمير المجرور في {به} من قوله {فآمنا به} أي وبأنه، وكذلك باقيها، وهذا جائز على مذهب الكوفيين وهو الصحيح. وقد تقدم احتجاجنا على صحة ذلك في قوله: {وكفر به والمسجد الحرام}.

---

(١) هذا بيت من الرجز انظر الديوان [illegible] ٢٣٠.

[البقرة ٢١٧] ، وقال مكي : هو أجود في « أن » منه في غيرها ، لكثرة حذف حرف الجر مع أن . ومنع الزجاج ، ووجهه أن يكون محمولاً على (آمنا به) لأن معنى صدقناه وعلمناه ، فيكون المعنى : فآمنا به أنه تعالى جد ربنا ، وسبقه إلى نحوه الفراء ، قال : فتحت أن لوقوع الإيمان عليها ، وأنت تجد الإيمان يحسن في بعض ما فتح دون بعض فلا يمنعك ذلك من إمضائهن على الفتح فإنه يحسن فيه ما يوجب فتح أن ، نحو صدقنا وشهدنا ، وأشار الفراء إلى أن بعض ما فتح لا يناسب تسليط آمنا عليه نحو قوله : (وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً) وتبعهما الزمخشري ، فقال : ومن فتح كلهن فعطفاً على محل الجار والمجرور في (آمنا به) كأنه قيل : صدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا وأنه كان يقول سفيهنا وكذلك البواقي . انتهى . ولم يتفطن لما تفطن له الفراء من أن بعضها لا يحسن أن يعمل فيه (آمنا) ، وقرأ الجمهور (جَدُّ رَبِّنَا) بفتح الجيم ورفع الدال مضافاً إلى ربنا أي عظمته قاله الجمهور ، وقال أنس والحسن : غناه ، وقال مجاهد : ذكره ، وقال ابن عباس : قدرته وأمره ، وقرأ عكرمة (جدٌّ) منوناً (ربُّنا) مرفوع الباء ، كأنه قال : عظيم هو ربنا فربنا بدل ، والجد : العظمة العظيم ، وقرأ حميد بن قيس (جُدُّ) بضم الجيم مضافاً ومعناه : العظيم حكاه سيبويه ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والمعنى تعالى ربنا العظيم ، وقرأ عكرمة (جداً ربُّنا) بفتح الجيم والدال منونةً ورفع (ربنا) وانتصب (جداً) على التمييز المنقول من الفاعل أصله تعالى (جد ربنا) . وقرأ قتادة وعكرمة أيضاً جداً بكسر الجيم والتنوين نصبٌ ربنا رفع ، قال ابن عطية : نصب جداً على الحال ، ومعناه تعالى : حقيقة ومتمكناً ، وقال غيره : هو صفة لمصدر محذوف تقديره : تعالياً جداً ، وربنا مرفوع بتعالى ، وقرأ ابن السميفع (جدى ربنا) أي جدواه ونفعه ، وقرأ الجمهور (يقول سفيهنا) هو إبليس ، وقيل : هو اسم جنس لكل سفيه وإبليس مقدم السفهاء والشطط التعدي وتجاوز الحد ، قال الأعشى :

أينتهون ولن ينهى ذوي شطط ... كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

ويقال أشط في السوم : إذا أبعد فيه ، أي قولاً هو في نفسه شطط ، وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله تعالى (وأنا ظننا) الآية كنا أحسنا الظن بالإنس والجن واعتقدنا أن أحداً لا يجترئ على أن يكذب على الله فينسب إليه الصاحبة والولد فاعتقدنا صحة ما أغوانا به إبليس ومردته حتى سمعنا القرآن فتبينا كذبهم ، وقرأ الجمهور (أن لن تقول) مضارع قال . والحسن ، والجحدري ، وعبد الرحمن بن أبي بكرة ، ويعقوب ، وابن مقسم (تَقَوَّل) مضارع تقوّل ، حذفت إحدى التاءين وانتصب كذباً في قراءة الجمهور بتقول لأن الكذب نوع من القول ، أو على أنه صفة لمصدر محذوف أي : قولاً كذباً أي : مكذوباً فيه ، وفي قراءة الشاذ على أنه مصدر لتقول ، لأنه هو الكذب فصار كقعدت جلوساً (وأنه كان رجال) ، روى الجمهور أن الرجل كان إذا أراد المبيت أو الحلول في واد نادى بأعلى صوته : يا عزيز هذا الوادي إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك ، فيعتقد بذلك أن الجني الذي بالوادي يمنعه ويحميه ، فروي أن الجن كانت تقول عند ذلك : لا نملك لكم ولا لأنفسنا من الله شيئاً ، قال مقاتل : أول من تعوذ بالجن قوم من اليمن ، ثم بنو حنيفة ، ثم فشا ذلك في العرب ، والظاهر : أن الضمير المرفوع في (فزادوهم) عائد على رجال من الإنس ، إذ هم المحدث عنهم ، وهو قول مجاهد والنخعي وعبيد بن عمير (فزادوهم) أي : الإنس (رهقاً) أي جراءة وانتفاخاً وطغياناً وغشيان المحارم وإعجاباً بحيث قالوا : سدنا الإنس والجن ، وفسر قوم الرهق بالإثم ، وأنشد الطبري في ذلك بيت الأعشى :

لا شيء ينفعني من دون رؤيتها ... لا يشتفي وامق ما لم يصب رهقا[١]

(١) انظر البيت في روح المعاني (٢٩ / ١٠٦) القرطبي (١٨ / ١٠٠٨)

في أشعارهم . ويدل عليه الحديث حين رأى صلى الله عليه وسلم نجماً قد رمي به قال : « ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية ؟ » قالوا : كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم . قال أوس بن حجر :

وانقض كالدري يتبعه   نقع يثور تخاله طنبا (١)

وقال عوف بن الخرع :

يرد علينا العير من دون إلفه   أو الثور كالدري يتبعه الدم (٢)

وقال بشر بن أبي خازم :

والعير يرهقها الغبار وجحشها   ينقض خلفهما انقضاض الكوكب (٣)

قال التبريزي : وهؤلاء الشعراء كلهم جاهليون ليس فيهم مخضرم . وقال معمر : قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية ؟ قال : نعم . قلت : أرأيت قوله ﴿ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ﴾ فقال : غلظت وشدد أمرها حين بعث رسول الله ﷺ . وقال الجاحظ : القول بالرمي أصح لقوله ﴿ فوجدناها ملئت ﴾ وهذا إخبار عن الجن أنه زيد في حرس السماء حتى امتلأت ولما روي عن ابن عباس وذكر الحديث السابق . وقال الزمخشري : ... ، وفي قوله دليل على أن الحرس هو الملء والكثرة ، فلذلك نقعد منها مقاعد أي كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب . والآن ملئت المقاعد كلها انتهى . وهذا كله يبطل قول من قال إن الرجم حدث بعد مبعث رسول الله ﷺ ، وهو إحدى آياته . والظاهر أن (رصداً) على معنى ذوي شهاب راصدين بالرجم ، وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع . ولما ذكروا ما حدث من كثرة الرجم ومنع الاستراق قالوا ﴿ وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض ﴾ وهو كفرهم بهذا النبي ﷺ فينزل بهم الشر ﴿ أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ فيؤمنون به فيرشدون وحين ذكروا الشر لم يسندوه إلى الله تعالى وحين ذكروا الرشد أسندوه إليه تعالى . ﴿ وأنا منا الصالحون ﴾ أخبروا بما هم عليه من صلاح وغيره ﴿ ومنا دون ذلك ﴾ أي : دون الصالحين ، ويقع (دون) في مواضع موقع غير فكأنه قال (ومنا) غير صالحين ، ويجوز أن يريدوا : ومنا دون ذلك في الصلاح ، أي : فيهم أبرار ، وفيهم من هو غير كامل في الصلاح و (دون) في موضع الصفة لمحذوف ، أي : ومنا قوم دون ذلك . ويجوز حذف هذا الموصوف في التفصيل بمن حتى في الجمل ، قالوا : منا ظعن ومنا أقام ، يريدون منا فريق ظعن ومنا فريق أقام . والجملة من قوله ﴿ كنا طرائق قدداً ﴾ تفسير للقسمة المتقدمة . قال ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة : أهواء مختلفة . وقيل : فرقاً مختلفة . وقال الزمخشري : أي كنا ذوي مذاهب متفرقة ، أو كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة ، أو كنا في طرائق مختلفة كقوله :

كما عسل الطريق الثعلب (٤)

أو كانت طرائقنا قدداً على حذف المضاف الذي هو الطرائق وإقامة الضمير المضاف إليه مقامه ، انتهى . وفي تقديره الأول حذف المضاف من (طرائق) وإقامة المضاف إليه مقامه ، إذ قدره ذوي مذاهب ، وأما التقدير الثالث وهو

---

(١) انظر البيت في القرطبي (١٩/١٠) ، وروح المعاني (٢٩/٨٩) ، والكشاف (٤/٦٢٣) .
(٢) انظر البيت في روح المعاني (٢٩/٩١) ، الكشاف (٤/٦٢٤) .
(٣) انظر البيت في الكشاف (٤/٦٢٤) .
(٤) تقدم .

أن ينتصب على إسقاط (في) فلا يجوز ذلك إلا في الضرورة، وقد نص سيبويه على أن «عسل الطريق» شاذ فلا يخرج القرآن عليه. ﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله﴾ أي كنا في الأرض أي كائنين في الأرض ﴿ولن نعجزه هرباً﴾ أي من الأرض إلى السماء، و﴿في الأرض﴾ و﴿هرباً﴾ حالان أي فارين أو هاربين. ﴿وأنا لما سمعنا الهدى﴾ وهو القرآن ﴿آمنا به﴾ أي بالقرآن ﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف﴾ أي فهو لا يخاف. وقرأ ابن وثاب، والأعمش، والجمهور ﴿فلا يخف﴾ وخُرّجت قراءتهما على النهي، وقيل: لعله زائدة ولا نهي، وليس بشيء، ثم كان الجواب بالفاء أجود من المجيء بالفعل مجزوماً دون الفاء، لأنه إذا كان بالفاء كان على إضمار مبتدأ، أي: فهو لا يخاف، والجملة الاسمية أدل وآكد من الفعلية على تحقق مضمون الجملة. ﴿بخساً﴾ قال ابن عباس: نقص الحسنات ﴿ولا رهقاً﴾ قال: زيادة في السيئات. ولا رهقاً أي تحميل ما لا يطاق. وقال الزمخشري: أي جزاء بخس ولا رهق، لأنه لم يبخس أحداً، ولا رهق ظلم أحد فلا يخاف جزاءهما. ويجوز أن يراد فلا يخاف أن يبخس بل يجزى الجزاء الأوفى ولا أن ترهقه ذلة من قوله: ﴿ترهقهم ذلة﴾ [القلم ٤٣] انتهى. وقرأ الجمهور ﴿بخْساً﴾ بسكون الخاء، وابن وثاب بفتحها. ﴿ومنا القاسطون﴾ أي الكافرون الجائرون عن الحق. قال مجاهد وقتادة: القاسط الظالم، ومنه قول الشاعر:

قوم هم قتلوا ابن هند عنوة ... وهم قسطوا على النعمان(١)

وجاء هذا التقسيم وإن كان قد تقدم ﴿وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك﴾ ليذكر حال الفريقين من النجاة والهلكة، ويرغب من يدخل في الإسلام. والظاهر أن ﴿فمن أسلم﴾ إلى آخر الشرطين من كلام الجن. وقال ابن عطية: الوجه أن يكون ﴿فمن أسلم﴾ مخاطبة من الله تعالى لمحمد ﷺ ويؤيده ما بعده من الآيات. وقرأ الأعرج ﴿رُشْداً﴾ بضم الراء وسكون الشين، والجمهور بفتحهما. وقال الزمخشري: وقد زعم من لا يرى للجن ثواباً أن الله تعالى أوعد قاسطيهم وما وعد مسلميهم، وكفى به وعيداً. أي: ﴿فأولئك تحروا رشداً﴾ فذكر سبب الثواب وموجبه، والله أعدل من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد. انتهى. وفيه دسيسة الاعتزال في قوله ومذهبه.

قوله عز وجل: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً. لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً. وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً. وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً. قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً. قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً. قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً. إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً. حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً. قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً. عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً. إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً. ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً﴾.

هذا من جملة الموحى المندرج تحت ﴿أوحي إليّ﴾، و﴿أن﴾ مخففة من الثقيلة، والضمير في ﴿استقاموا﴾ قال الضحاك، والربيع بن أنس، وزيد بن أسلم، وأبو مجلز: هو عائد على قوله ﴿فمن أسلم﴾، و﴿الطريقة﴾ طريقة الكفر أي: لو كفر من أسلم من الناس ﴿لأسقيناهم﴾ إملاء لهم واستدراجاً، واستعارة الاستقامة للكفر قلقة لا تناسب. وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن جبير: هو عائد على القاسطين، والمعنى: على الطريقة الإسلام والحق لأنعمنا عليهم نحو قوله ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا﴾ الآية. وقيل: الضمير في ﴿استقاموا﴾ عائد على الخلق كلهم، و﴿أن﴾ هي

(١) انظر البيت في روح المعاني (٢٩/ ٩١)، القرطبي (١٩/ ١٦).

المضغة من الثقيلة ﴿لأسقيناهم ماء غدقاً﴾ كناية عن توسعة الرزق لأنه أصل المعاش ، وقال بعضهم : لأن حيث الماء ،
وقرأ الجمهور ﴿غدقاً﴾ بفتح الدال ، وعاصم في رواية الأعشى بكسرها ، ويقال : غدقت العين تغدق غدقاً فهي غدقة إذا كثر
ماؤها ، ﴿لنفتنهم﴾ أي لنختبرهم كيف يشكرون ما أنعم عليهم به ، أو لنمتحنهم ونستدرجهم وذلك على الخلاف في من
يعود عليه الضمير في استقاموا ، وقرأ الأعمش ، وابن وثاب بضم واو ﴿لو﴾ والجمهور بكسرها ، وقرأ الكوفيون ﴿يسلكه﴾
بالياء ، وباقي السبعة بالنون ، وابن جندب بالنون من أسلك وبعض التابعين بالياء من أسلك أيضاً وهما لغتان ، سلك
وأسلك قال الشاعر :

حتى إذا أسلكوهم في قتائدة[1]

وقرأ الجمهور ﴿صعداً﴾ بفتحتين ، وهو مصدر صعد ، وصف به العذاب أي : يعلو المعذب ويغلبه وفسر بشاق
يقال : فلان في صعد من أمره أي في مشقة ، وقال عمر : ما تصعد بي شيء كما تصعدني خطبة النكاح أي : ما شق عليّ ،
وقال أبو سعيد الخدري ، وابن عباس : صعد جبل في النار ، وقال الخدري : كلما وضعوا أيديهم عليه ذابت ، وقال
عكرمة : هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها ، فإذا انتهى إلى أعلاها حدر إلى جهنم ، فعلى هذا يجوز أن يكون
بدلاً من ﴿عذاب﴾ على حذف مضاف أي عذاب صعد ، ويجوز أن يكون ﴿صعداً﴾ مفعول ﴿يسلكه﴾ و ﴿عذاباً﴾ مفعول
من أجله ، وقرأ قوم ﴿صُعُداً﴾ بضمتين ، وابن عباس والحسن بضم الصاد وفتح العين ، قال الحسن : معناه لا راحة
فيه ، وقرأ الجمهور ﴿وأنّ المساجد﴾ بفتح الهمزة عطفاً على ﴿أنه استمع﴾ فهو من جملة الموحى ، وقال الخليل : معنى
الآية : ولأن المساجد لله فلا تدعوا ، أي : لهذا السبب وكذلك عنده ﴿لإيلاف قريش﴾ ﴿فليعبدوا﴾ وكذلك ﴿وإن هذه
أمتكم﴾ [المؤمنون ٥٢] أي ولأن هذه ، وقرأ ابن هرمز ، وطلحة ﴿وإن المساجد﴾ بكسرها على الاستئناف ، وعلى تقدير
الخليل : فالمعنى فلا تدعوا مع الله أحداً في المساجد لأنها لله خاصة ولعبادته ، والظاهر : أن المساجد هي البيوت
المعدة للصلاة والعبادة في كل ملة ، وقال الحسن : كل موضع سجد فيه فهو مسجد كان مخصوصاً لذلك أو لم يكن ، لأن
الأرض كلها مسجد لهذه الأمة ، وأبعد ابن عطاء في قوله : إنها الآراب التي يسجد عليها ، واحدها مسجد بفتح الجيم ،
وهي : الجبهة ، والأنف ، واليدان ، والركبتان ، والقدمان عدّ الجبهة والأنف واحداً ، وأبعد أيضاً من قال : المسجد
الحرام لأنه قبلة المساجد ، وقال إنه جمع مسجد وهو السجود ، وروي : أنها نزلت حين تغلبت قريش على الكعبة فقيل
لرسول الله ﷺ المواضع كلها لله فاعبده حيث كنت ، وقال ابن جبير : نزلت ، لأن الجن قالت يا رسول الله : كيف نشهد
الصلاة معك على نأينا عنك ؟ فنزلت الآية ليخاطبهم على معنى : أن عبادتكم حيث كنتم مقبولة إذا دخلتم المساجد ، وقرأ
الجمهور ﴿وأنه لما قام عبد الله﴾ بفتح الهمزة عطفاً على ﴿أنه استمع﴾ و ﴿وأن المساجد﴾ بالفتح ، وقرأ ابن هرمز ، وطلحة ، ونافع
وأبو بكر ، بكسرها على الاستئناف ، و ﴿عبد الله﴾ هو محمد رسول الله ﷺ ﴿يدعوه﴾ أي يدعو الله ﴿كادوا﴾ أي : كاد
الجن قاله ابن عباس والضحاك . يتقصفون عليه لاستماع القرآن . وقال الحسن وقتادة . الضمير في ﴿كادوا﴾ لكفار
قريش ، والعرب في اجتماعهم على رد أمره ، وقال ابن جبير : المعنى أنها قول الجن لقومهم يحكون ، والضمير في ﴿كادوا﴾
لأصحابه الذين يطوعون له ، ويقتدون به في الصلاة قال الزمخشري : ﴿فإن قلت :﴾ هلا قيل رسول الله أو النبي
﴿قلت :﴾ لأن تقديره : وأوحي إليّ أنه لما قام عبد الله ، فلما كان واقعاً في كلام رسول الله ﷺ عن نفسه جيء به على ما

---

(1) صدر بيت من البسيط لعبد مناف بن ربع الهذلي وعجزه :
شلاً كما تطرد الجمّالة الشردا
انظر ديوان الهذليين (٢/٤٢) ، وروح المعاني (٢٩/١١٣) الكشاف (٤/٦٢٩) .

يقتضيه التواضع والتذلل ، أو لأن المعنى : أن عبادة الله ليست بأمر مستبعد عن العقل ، ولا مستنكر حتى يكونوا عليه لبداً . ومعنى : قام يدعوه ، قام يعبده ، يريد قيامه لصلاة الفجر بنخلة ، حين أتاه فاستمعوا لقراءته ـ عليه السلام ـ (كادوا يكونون عليه لبداً) أي : يزدحمون عليه متراكمين ، تعجباً مما رأوا من عبادته ، واقتداء أصحابه به ، قائماً وراكعاً وساجداً ، وإعجاباً بما تلا من القرآن ، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره انتهى . وهو قول متقدم ذكره الزمخشري ملخصاً . وقرأ الجمهور (لِبَداً) بكسر اللام وفتح الباء جمع لبدة ، نحو كسرة وكسر ، وهي الجماعات شبهت بالشيء المتلبد بعضه فوق بعض ، ومنه قول عبد مناف بن ربع :

صافوا بستة أبيات وأربعة ... حتى كأن عليهم جابياً لبداً[1]

وقال ابن عباس : أعواناً . وقرأ مجاهد وابن محيصن وابن عامر بخلاف عنه بضم اللام جمع لبدة كزبرة وزبر . وعن ابن محيصن أيضاً تسكين الباء وضم اللام (لُبْداً) . وقرأ الحسن والجحدري وأبو حيوة وجماعة عن أبي عمرو بضمتين جمع لَبِد ، كرهن ورهن ، أو جمع لبود ، كصبور وصبر . وقرأ الحسن والجحدري بخلاف عنهما (لُبَّداً) بضم اللام وشد الباء المفتوحة . قال الحسن وقتادة وابن زيد : لما قام للدعوة تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ويتم نوره انتهى . وأبعد من قال (عبد الله) هنا نوح ـ عليه السلام ـ ، كاد قومه يقتلونه حتى استنقذه الله منهم . قاله الحسن . وأبعد منه قول من قال : إنه عبد الله بن سلام . وقرأ الجمهور (قال إنما أدعو ربي) أي : أعبده . أي : قال للمتظاهرين عليه : إنما أدعو ربي ، أي : لم آتكم بأمر منكر إنما أعبد ربي وحده ، وليس ذلك مما يوجب إطباقكم على عداوتي ، أو قال للجن عند ازدحامهم متعجبين : ليس ما ترون من عبادة الله بأمر يتعجب منه ، إنما يتعجب ممن يعبد غيره . أو قال الجن لقومهم ذلك حكاية عن رسول الله ﷺ . وهذا كله مرتب على الخلاف في عود الضمير في (كادوا) . وقرأ عاصم وحمزة وأبو عمرو بخلاف عنه (قل) أي : قل يا محمد لهؤلاء المزدحمين عليك ، وهم إما الجن ، وإما المشركون على اختلاف القولين في ضمير (كادوا) . ثم أمره تعالى أن يقول لهم ما يدل على تبرئه من القدرة على إيصال خير أو شر إليهم ، وجعل الضر مقابلاً للرشد تعبيراً به عن الغي ، إذ الغي ثمرته الضرر . ويمكن أن يكون المعنى : ضراً ولا نفعاً ولا غياً ولا رشداً ، فحذف من كل ما يدل عليه مقابله . وقرأ الأعرج (رُشُداً) بضمتين . ولما تبرأ عليه السلام من قدرته على نفعهم وضرهم أمر بأن يخبرهم بأنه مربوب لله تعالى يفعل فيه ربه ما يريد ، وأنه لا يمكن أن يجيره منه أحد ، ولا يجد من دونه ملجأ يركن إليه ، قال معناه قتادة . وقال السدي : حرزاً . وقال الكلبي : مدخلاً في الأرض . وقيل : ناصراً . وقيل : مذهباً ومسلكاً ، ومنه قول الشاعر :

يا لهف نفسي ونفسي غير مجدية ... عني وما من قضاء الله ملتحد[2]

وقيل : في الكلام حذف ، وهو أنهم قالوا له : اترك ما تدعو إليه ، ونحن نجيرك ، فقيل له (قل لن يجيرني) وقيل : هو جواب لقول وردان سيد الجن ، وقد ازدحموا عليه ، قال وردان : أنا أرحلهم عنك ، فقال : إني لن يجيرني أحد ذكره الماوردي . (إلا بلاغاً) قال الحسن : هو استثناء منقطع ، أي : لن يجيرني أحد ، لكن إن بلغت رحمني بذلك ، والإجارة للبلاغ مستعارة ، إذ هو سبب إجارة الله تعالى ورحمته . وقيل : على هذا المعنى هو استثناء متصل أي : لن يجيرني أحد ، لكن لم أجد شيئاً أميل إليه وأعتصم به ، إلا أن أبلغ وأطيع ، فيجيرني الله ، فيجوز نصبه على الاستثناء من (ملتحداً) وعلى

(١) انظر البيت في روح المعاني (٢٩/١٠٦)

(٢) البيت من البسيط لم يعزه قائله انظر روح المعاني (٢٩/١٠٦) ، القرطبي (١٩/١٦٤)

يأتي في المستقبل ، ويكون صادقاً . وثالثها : أن الكاهنة البغدادية التي نقلها السلطان سنجر بن ملكشاه ، من بغداد إلى خراسان ، سألها عن أشياء في المستقبل ، فأخبرت بها ووقعت على وفق كلامها ، فقد رأيت أناساً محققين في علوم الكلام والحكمة حكوا عنه : أنها أخبرت عن الأشياء الغائبة على سبيل التفصيل ، وجاءت كذلك ، وبالغ أبو البركات صاحب المعتبر في شرح حالها في كتاب التعبير ، وقال : فحصت عن حالها منذ ثلاثين سنة ، حتى تيقنت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخباراً مطابقة موافقة ، ورابعها : أنا نشاهد أصحاب الإلهامات الصادقة ، وليس هذا مختصاً بالأولياء ، فقد يوجد في السحرة وفي الأحكام النجومية ما يوافق الصدق ، وإن كان الكذب يقع منهم كثيراً ، وإذا كان ذلك مشاهداً محسوساً فالقول بأن القرآن يدل على خلافه مما يجر الطعن إلى القرآن ، وذلك باطل ، فعلمنا أن التأويل الصحيح ما ذكرناه انتهى . وفيه بعض تلخيص ، وإنما أوردنا كلام هذا الرجل في هذه المسألة ، لننظر فيما ذكر من تلك الوجوه ، أما قصة شق وسطيح ، فليس فيها شيء من الإخبار بالغيب ، لأن ما يخبر به رئي الكهان من الشياطين مسترقة السمع ، كما جاء في الحديث « إنهم يسمعون الكلمة ويكذبون ، ويلقون إلى الكهنة ، ويزيد الكهنة للكلمة مائة كذبة » ، وليس هذا من علم الغيب ، إذ تكلمت به الملائكة ، وتلقفها الجني ، وتلقفها منه الكاهن ، فالكاهن لم يعلم الغيب ، وأما تعبير المنامات فالمعبر غير المعصوم لا يعبر بذلك على سبيل الثبت والقطع ، بل على سبيل الحزر والتخمين ، وقد يقع ما يعبر به وقد لا يقع ، وأما الكاهنة البغدادية ، وما حكي عنها فحسبه عقلاً أن يستدل بأحوال امرأة لم يشاهدها ، ولو شاهد ذلك لكان في عقله ما يجوز أنه لبس عليه . هذا وهو العالم المصنف الذي طبق ذكره الآفاق ، وهو الذي شكك في دلائل الفلاسفة وسامهم الخسف ، وأما حكايته عن صاحب المعتبر ، فهو يهودي أظهر إسلامه ، وهو منتحل طريقة الفلاسفة ، وأما مشاهدته أصحاب الإلهامات الصادقة ، فلي من العمر نحو من ثلاث وسبعين سنة ، أصحب العلماء ، وأتردد إلى من ينتمي إلى الصلاح ، فلم أر أحداً منهم صاحب إلهام صادق ، وأما الكرامات فلا أشك في صدور شيء منها ، لكن ذلك على سبيل الندرة ، وذلك فيمن سلف من صلحاء هذه الأمة ، وربما قد يكون في أعصارنا من تصدر منه الكرامات . ولله تعالى أن يخص من شاء بما شاء والله الموفق . وقرأ الجمهور (لِيَعْلَمَ) مبنياً للفاعل ، فقال قتادة (لِيَعْلَمَ) محمد - ﷺ - أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم وحفظوا . وقال ابن جبير (لِيَعْلَمَ) محمد أن الملائكة الحفظة الرصد النازلين بين يدي جبريل وخلفه (قد أبلغوا رسالات ربهم) ، وقال مجاهد (ليعلم) من أشرك وكذب ، أن الرسل قد بلغت ، وعلى هذا القول لا يقع لهم هذا العلم إلا في الآخرة ، وقيل : ليعلم الله رسله مبلغة خارجة إلى الوجود ، لأن علمه بكل شيء قد سبق ، واختار الزمخشري هذا القول الأخير ، فقال : ليعلم الله أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، يعني الأنبياء ، وحد أولاً على اللفظ في قوله (من بين يديه ومن خلفه) ثم جمع على المعنى كقوله ﴿ فإن له نار جهنم خالدين ﴾ [الجن ٢٣] والمعنى : ليبلغوا رسالات ربهم ، كما هي محروسة من الزيادة والنقصان ، وذكر العلم كذكره في قوله ﴿ حتى نعلم المجاهدين ﴾ [محمد ٣١] انتهى . وقيل : ليعلم النبي - أي رسول كان - أن الرسل سواه بلغوا . وقيل : ليعلم إبليس أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ، سليمة من تخليطه واستراق أصحابه ، وقيل : ليعلم الرسل أن الملائكة بلغوا رسالات ربهم ، وقيل : ليعلم محمد أنه قد بلغ جبريل ومن معه إليه رسالة ربه ، وقيل : ليعلم الجن أن الرسل قد بلغوا ما أنزل إليهم ، ولم يكونوا هم المبلغين باستراق السمع ، وقرأ ابن عباس وزيد بن علي (لِيُعْلَم) بضم الياء مبنياً للمفعول ، والزهري وابن أبي عبلة بضم الياء ، وكسر اللام ، أي : لِيُعْلِمَ الله ، أي : من شاء أن يعلمه أن الرسل قد أبلغوا رسالاته ، وقرأ الجمهور (رسالات) على الجمع وأبو حيوة على الإفراد . وقرأ الجمهور (وأحاط بما لديهم) وأحاط مبنياً للفاعل ، أي الله (وأحصى) مبنياً للفاعل ، أي : الله (كلَّ) نصباً ، وابن أبي عبلة (وأُحيط) (وأُحصي) مبنياً للمفعول (كلُّ) رفعاً ، ولما كان (لِيَعْلَمَ) مضمناً معنى علم ، صار المعنى : قد علم ذلك ، فعطف (وأحاط) على هذا المضمر ، والمعنى : وأحاط بما عند الرسل من الحكم والشرائع ،

لا يفوته منها شيء { وأحصى كل شيء عدداً } أي : معدوداً محصوراً واتصابه على الحال من { كل شيء } وإن كان نكرة لاندراج المعرفة في العموم ، ويجوز أن ينتصب نصب المصدر لـ { أحصى } لأنه في معنى حصر ، وقال أبو البقاء : ويجوز أن يكون تمييزاً ، فيكون منقولاً من المفعول ، إذ أصله : وأحصى عدد كل شيء ، وفي كونه ثابتاً من لسان العرب خلاف .

سورة المزمل مكية وهي عشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩) ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)

تزمّل في ثوبه: التفّ، وزمّل لفّ، قال امرؤ القيس.

كبيرُ أُناسٍ في بجادٍ مزمَّلِ (١)

وقال ذو الرمة:

---

(١) عجز بيت من مطولته، انظر ديوان امرئ القيس: ٢٥

لم تقم. ويدل على أن الناشئة مصدر ما من نشأ إذا قام ونهض، على فاعلة كالعاقبة انتهى. وقرأ الجمهور ﴿وطئاً﴾ بكسر الواو وفتح الطاء ممدوداً، وقرأ قتادة وشبل عن أهل مكة بكسر الواو وسكون الطاء والهمزة مقصورة، وقرأ ابن محيصن بفتح الواو ممدوداً، والمعنى: أنها أشد مواطأة، أي: يواطئ القلب فيها اللسان، أو أشد موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص. ومن قرأ ﴿وطأً﴾ أي: أشد ثبات قدم وأبعد من الزلل، أو أثقل وأغلظ على المصلي من صلاة النهار، كما جاء «اللهم اشدد وطأتك على مضر»(1). وقال الأخفش: أشد قياماً. وقال الفراء: أثبت قراءة وقياماً. وقال الكلبي: أشد نشاطاً للمصلي، لأنه في زمان راحته. وقيل: أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة، والليل وقت فراغ، فالعبادة تدوم ﴿وأقوم قيلاً﴾ أي: أشد استقامة على الصواب، لأن الأصوات هادئة، فلا يضطرب على المصلي ما يقرؤه. قال قتادة ومجاهد: أصوب للقراءة وأثبت للقول، لأنه زمان التفهم. وقال عكرمة: أتم نشاطاً وإخلاصاً وبركة. وحكى ابن شجرة: أعجل إجابة للدعاء. وقال زيد بن أسلم: أجدر أن يتفقه فيها القارئ. وقرأ الجمهور ﴿سبحاً﴾ أي: تصرفاً وتقلباً في المهمات، كما يتردد السابح في الماء. قال الشاعر:

أباحوا لكم شرق البلاد وغربها ... ففيها لكم يا صاح سبح من السبح

وقيل ﴿سبحاً﴾ سبحة أي: نافلة. وقرأ ابن يعمر وعكرمة وابن أبي عبلة «سبخاً» بالخاء المعجمة، ومعناه: خفة من التكاليف، والتسبيخ التخفيف، وهو استعارة من سبخ الصوف إذا نفشه ونشر أجزاءه. فمعناه: انتشار الهمة وتفرق الخاطر بالشواغل. وقيل: فراغاً وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك. وقيل: المعنى: إن فاتك حظك من الليل بنوم أو عذر، فليخلف بالنهار، فإن فيه سبحاً طويلاً. قال صاحب اللوامح: وفسر ابن يعمر وعكرمة ﴿سبخاً﴾ بالخاء معجمة، وقالا: نوماً أي: ينام بالنهار ليستعين به على قيام الليل. وقد تحتمل هذه القراءة غير هذا المعنى، لكنهما فسراها فلا يتجاوز عنه انتهى. وفي الحديث «لا تسبخي بدعائك» أي: لا تخففي. وقال الشاعر:

فسبخ عليك الهم واعلم بأنه ... إذا قدر الرحمن شيئاً فكائن(2)

وقال الأصمعي: يقال: سبخ الله عنك الحمى، أي: خففها. وقيل: السبخ: المد، يقال: سبخي قطنك، أي: مديه. ويقال لقطع القطن: سبائخ، الواحدة سبيخة، ومنه قول الأخطل:

فأرسلوهن يذرين التراب كما ... يذري سبائخ قطن ندف أوتار(3)

﴿واذكر اسم ربك﴾ أي: ادمه على ذكره، وهو يتناول كل ذكر، من تسبيح وتهليل وغيرهما. وانتصب ﴿تبتيلاً﴾ على أنه مصدر على غير الصدر، وحسن ذلك كونه فاصلة. وقرأ الأخوان وابن عامر وأبو بكر ويعقوب ﴿رب﴾ بالخفض على البدل من ﴿ربك﴾ ويأتي للسبعة بالرفع، وزيد بن علي بالنصب. والجمهور ﴿المشرق والمغرب﴾ موحدين، وعبد الله وأصحابه وابن عباس بجمعهما. وقال الزمخشري: وعن ابن عباس على القسم بحذف حرف القسم ﴿رب﴾ بإضمار حرف القسم، كقولك: الله لأفعلن، وجوابه ﴿لا إله إلا هو﴾ كما تقول: والله لا أحد في الدار إلا زيد انتهى. ولعل هذا التخريج لا يصح عن ابن عباس، إذ فيه إضمار الجار في القسم، ولا يجوز عند البصريين إلا في لفظة الله، ولا نقاس

---

(1) متفق عليه أخرجه البخاري (٤٥٦٠) ومسلم (٦٧٥/٢٩٤) وقد تقدم.

(2) البيت من الطويل، وهو بلا نسبة في لسان العرب (سبخ) وروح المعاني (٢٩/١٠٣)، والقرطبي (١٩/٤٣).

(3) البيت من البسيط انظر ديوانه ٧٨ واللسان (سبخ) وروح المعاني (٢٩/١٠٤)، والقرطبي (١٩/٤٣).

وسلطانه . والظاهر أن الضمير في ﴿ وعده ﴾ عائد على اليوم فهو من إضافة المصدر إلى المفعول أي : إنه تعالى وعد عباده هذا اليوم وهو يوم القيامة ، فلا بد من إنجازه . ويجوز أن يكون عائداً على الله تعالى ، فيكون من إضافة المصدر إلى الفاعل ، وإن لم يجر له ذكر قريب ، لأنه معلوم أن الذي هذه مواعيده هو الله تعالى ﴿ إن هذه ﴾ أي : السورة ، أو الأنكال وما عطف عليه والأخذ الوبيل ، أو آيات القرآن المتضمنة شدة القيامة ﴿ تذكرة ﴾ أي : موعظة ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ بالتقرب إليه بالطاعة ، ومفعول ﴿ شاء ﴾ محذوف يدل عليه الشرط ، لأن ﴿ مَنْ ﴾ شرطية أي : فمن شاء أن يتخذ سبيلاً اتخذه إلى ربه . وليست المشيئة هنا على معنى الإباحة ، بل تتضمن معنى الوعد والوعيد . ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى ﴾ أي تصلي كقوله ﴿قم الليل﴾ [المزمل : ٢] إلا أن أكثر أحوال الصلاة القيام عبر به عنها ، وهذه الآية نزلت تخفيفاً لما كان استمر استعماله من أمر قيام الليل ، إما على الوجوب ، وإما على الندب على الخلاف الذي سبق ﴿ أدنى من ثلثي الليل ﴾ أي : زماناً هو أقل من ثلثي الليل ، واستعير الأدنى وهو الأقرب للأقل ، لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز ، وإذا بعدت كثر ذلك . وقرأ الجمهور ﴿ من ثلثي ﴾ بضم اللام ، والحسن وشيبة وأبو حيوة وابن السميفع وهشام وابن مجاهد عن قنبل فيما ذكر صاحب الكامل بإسكانها ، وجاء ذلك عن نافع وابن عامر فيما ذكر صاحب اللوامح . وقرأ العربيان ونافع ﴿ ونصفه وثلثه ﴾ بجرهما عطفاً على ﴿ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ﴾ ، وباقي السبعة وزيد بن علي بالنصب عطفاً على ﴿ أدنى ﴾ لأنه منصوب على الظرف أي : وقتاً أدنى من ثلثي الليل ، فقراءة النصب مناسبة للتقسيم الذي في أول السورة ، لأنه إذا قام الليل إلا قليلاً صدق عليه أدنى من ثلثي الليل ، لأن الزمان الذي لم يقم فيه يكون الثلث وشيئاً من الثلثين ، فيصدق عليه قوله ﴿ إلا قليلاً ﴾ وأما قوله ﴿ ونصفه ﴾ فهو مطابق لقوله أولاً ﴿ نصفه ﴾ وأما ﴿ ثلثه ﴾ فإن قوله ﴿ أو انقص منه قليلاً ﴾ قد ينتهي النقص في القليل إلى أن يكون الوقت ثلث الليل . وأما قوله ﴿ أو زد عليه ﴾ فإنه إذا زاد على النصف قليلاً كان الوقت أقل من الثلثين ، فيكون قد طابق قوله ﴿ أدنى من ثلثي الليل ﴾ ويكون قوله تعالى ﴿ نصفه أو انقص منه قليلاً ﴾ شرحاً لمبهم ما دل عليه قوله ﴿ قم الليل إلا قليلاً ﴾ وعلى قراءة النصب ، قال الحسن وابن جبير معنى ﴿ تحصوه ﴾ تطيقوه أي : علم تعالى أنهم يقدرون الزمان على ما مر في أول السورة فلم يطيقوا قيامه لكثرته وشدته ، فخفف تعالى عنهم فضلاً منه ، لا لعلة جهلهم بالتقدير وإحصاء الأوقات . وأما قراءة الجر فالمعنى : أنه قيام مختلف ، مرة أدنى من الثلثين ، ومرة أدنى من النصف ، ومرة أدنى من الثلث ، وذلك لتعذر معرفة البشر مقادير الزمان مع عذر النوم ، وتقدير الزمان حقيقة إنما هو لله تعالى والبشر لا يحصون ذلك ، أي : لا يطيقون مقادير ذلك فتاب عليهم أي : رجع بهم من الثقل إلى الخفة وأمرهم بقيام ما تيسر ، وعلى القراءتين يكون علمه تعالى بذلك على حسب الوقوع منهم ، لأنهم قاموا تلك المقادير في أوقات مختلفة ، فقاموا أدنى من الثلثين ونصفاً وثلثاً ، وقاموا أدنى من النصف وأدنى من الثلث ، فلا تنافي بين القراءتين . وقرأ الجمهور ﴿ وثلثه ﴾ بضم اللام ، وابن كثير في رواية شبل بإسكانها . وطائفة معطوف على الضمير المستكن في ﴿ تقوم ﴾ وحسنه الفصل بينهما . وقوله ﴿ وطائفة من الذين معك ﴾ دليل على أنه لم يكن فرضاً على الجميع ، إذ لو كان فرضاً لكان التركيب : والذين معك إلا إن اعتقد أنهم كان منهم من يقوم في بيته ومنهم من يقوم معه ، فيمكن إذ ذاك الفرضية في حق الجميع . ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ أي : هو وحده تعالى العالم بمقادير الساعات . قال الزمخشري : وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنياً عليه يقدر هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير انتهى . وهذا مذهبه ، وإنما استفيد الاختصاص من سياق الكلام لا من تقديم المبتدأ ، ولو قلت : زيد يحفظ القرآن ، أو يتفقه في كتاب سيبويه لم يدل تقديم المبتدأ على الاختصاص ، و﴿ أن ﴾ مخففة من الثقيلة والضمير في ﴿ تحصوه ﴾ الظاهر أنه عائد على المصدر المفهوم من ﴿ يقدر ﴾ أي : أن لن تحصوا تقدير ساعات الليل والنهار ، لا تحيطوا به على الحقيقة ، وقيل : الضمير يعود على القيام المفهوم من قوله ﴿ فتاب عليكم ﴾ قيل : فيه دليل على أنه كان فيهم من تركه بعض ما أمر به ، وقيل : رجع بكم من ثقل إلى خف ، ومن عسر إلى يسر ، ورخص

لكم في ترك القيام المقدر (فاقرءوا ما تيسر من القرآن) عبر بالقراءة عن الصلاة، لأنها بعض أركانها، كما عبر عنها بالقيام والركوع والسجود: أي فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل. قيل: وهذا ناسخ للأول، ثم نسخا جميعاً بالصلوات الخمس، وهذا الأمر بقوله (فاقرءوا)، قال الجمهور: أمر إباحة، وقال ابن جبير وجماعة: هو فرض لا بد منه ولو خمسين آية، وقال الحسن وابن سيرين: قيام الليل فرض ولو قدر حلب شاة، وقيل: هو أمر بقراءة القرآن بعينها، لا كناية عن الصلاة، وإذا كان المراد: فاقرءوا في الصلاة ما تيسر، فالظاهر أنه لا يتعين ما يقرأ، بل إذا قرأ ما تيسر له وسهل عليه أجزأه، وقدره أبو حنيفة بآية حكاه عنه الماوردي، وبثلاث حكاه ابن العربي، وعين مالك والشافعي (ما تيسر) فقالا: هو فاتحة الكتاب لا يعدل عنها، ولا يقتصر على بعضها، (علم أن سيكون منكم مرضى) بين الحكمة في النسخ، وهي تعذر القيام على المرضى والضاربين في الأرض للتجارة، والمجاهدين في سبيل الله (فاقرءوا ما تيسر منه) كرر ذلك على سبيل التوكيد، ثم أمر بعمودي الإسلام البدني والمالي، ثم قال (وأقرضوا الله قرضاً حسناً) العطف يشعر بالتغاير، فقوله (وآتوا الزكاة) أمر بأداء الواجب (وأقرضوا الله) أمر بأداء الصدقات التي يتطوع بها، وقرأ الجمهور (هو خيراً وأعظم أجراً): بنصبهما، واحتمل (هو) أن يكون فصلاً، وأن يكون تأكيداً لضمير النصب في (تجدوه) ولم يذكر الزمخشري والحوفي وابن عطية في إعراب (هو) إلا الفصل، وقال أبو البقاء: هو فصل، أو بدل، أو تأكيد. فقوله: أو بدل وهم لو كان بدلاً لطابق في النصب، فكان يكون إياه، وقرأ أبو السمال وابن السميفع (هو خيرٌ وأعظمُ) برفعهما على الابتداء أو الخبر، قال أبو زيد: هو لغة بني تميم يرفعون ما بعد الفاصلة، يقولون: كان زيد هو العاقل بالرفع، وهذا البيت لقيس بن ذريح وهو:

تبكي على ليلى وأنت تركتها ... وكنت عليها بالملا أنت أقدر[1]

قال أبو عمرو الجرمي: أنشد سيبويه هذا البيت شاهداً للرفع، والقوافي مرفوعة، ويروى: أقدرا، وقال الزمخشري: وهو فصل، وجاز وإن لم يقع بين معرفتين لأن أفعل من أشبه في امتناعه من حرف التعريف المعرفة انتهى. وليس ما ذكر متفقاً عليه، ومنهم من أجاز، وليس أفعل من أحكام الفصل ومسائله، والخلاف الوارد فيها كثير جداً، وقد جمعنا فيه كتاباً سميناه بالقول الفصل في أحكام الفصل، وأودعنا معظمه شرح التسهيل من تأليفنا

---

(١) أقدر

سورة المدثر مكية وهي ست وخمسون اية

بسم الله الرحمن الرحيم

يٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

طهارة الثياب شرط في صحة الصلاة ، ويقبح أن تكون ثياب المؤمن نجسة ، والقول بأنها الثياب حقيقة هو قول ابن سيرين وابن زيد والشافعي ، ومن هذه الآية ذهب الشافعي إلى وجوب غسل النجاسة من ثوب المصلي . وقيل : تطهيرها : تقصيرها ومخالفة العرب في تطويل الثياب وجرهم الذيول على سبيل الفخر والتكبر ، قال الشاعر

ثم راحوا عبق المسك بهم ... يلحفون الأرض هداب الأزر(1)

ولا يؤمن من إصابته النجاسة وفي الحديث إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه لا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ما كان أسفل من ذلك ففي النار ، وذهب الجمهور إلى أن الثياب هنا مجاز ، فقال ابن عباس والضحاك : تطهيرها أن لا تكون تلبس بالغدر . وقال ابن عباس وابن جبير أيضاً : كنى بالثياب عن القلب ، كما قال امرؤ القيس :

فسلّي ثيابي من ثيابك تنسلي(2)

أي : قلبي من قلبك . يعني الطهارة من الغدر ، وأنشد قول غيلان بن سلمة الثقفي :

إني بحمد الله لا ثوب فاجر ... لبست ولا من غدرة أتقنع(3)

وقيل : كناية عن طهارة النفس ، والمعنى : وعملك فأصلح قاله مجاهد وابن زيد ، وقال ابن زيد : إذا كان الرجل خبيث العمل قالوا : فلان خبيث الثياب ، وإذا كان حسن العمل قالوا : فلان طاهر الثياب ، ونحو هذا عن السدي ، ومنه قول الشاعر :

لا هم إن عامر بن جهم ... أوذم حجاً في ثياب دسم(4)

أي : دنسة بالمعاصي ، وقيل : كنى عن النفس بالثياب قاله ابن عباس . قال الشاعر

فشككت بالرمح الطويل ثيابه

وقال آخر :

ثياب بني عوف طهارى نقية ... وأوجههم بيض المسافر غران(5)

أي : أنفسهم ، وقيل : كنى بها عن الجسم ، قالت ليلى وقد ذكرت إبلاً :

رموها بأثواب خفاف فلا ترى ... لها شبهاً إلا النعام المنفرا(6)

أي : ركبوها فرموها بأنفسهم . وقيل : كناية عن الأهل قال تعالى ﴿ هن لباس لكم ﴾ [البقرة ١٨٧] والتطهير فيهن اختيار المؤمنات العفائف ، وقيل : وطئهن في القبل لا في الدبر ، في الطهر لا في الحيض ، حكاه ابن بحر ، وقيل :

---

(1) البيت لطرفة انظر ديوانه (٦٤) الأخفش (٢/ ٩١٠) البحر (٣/ ٣٠٨) روح المعاني (٢٩/ ١٤٨)
(2) انظر البيت في القرطبي (١٩/ ٤٣) روح المعاني (٢٩/ ١٤٧) .
(3) انظر البيت في القرطبي (١٩/ ٤٣) .
(4) انظر البيت في القرطبي (١٩/ ٤٢)
(5) تقدم
(6) انظر البيت في روح المعاني (٢٩/ ١٤٢) القرطبي (١٩/ ٤٢)

كناية عن الخلق، أي: وخلقك فحسّن، قاله الحسن والقرطبي، ومنه قوله:

ويحيى ما يلام بسوء خلق ... ويحيى طاهر الأثواب حرّ(١)

أي: حسن الأخلاق. وقرأ الجمهور: (والرِّجز) بكسر الراء، وهي لغة قريش، والحسن ومجاهد والسلمي وأبو جعفر وأبو شيبة وابن محيصن وابن وثاب وقتادة والنخعي وابن أبي إسحاق والأعرج وحفص: بضمها. فقيل: هما بمعنى واحد يراد بهما الأصنام والأوثان. وقيل: الكسر للنجاسة والنقائص والفجور، والضم لصنمين إساف ونائلة. وقال عكرمة ومجاهد والزهري: للأصنام عموماً. وقال ابن عباس: الرجز: السخط، أي: اهجر ما يؤدي إليه. وقال الحسن: كل معصية، والمعنى في الأمر: اثبت ودم على هجره، لأنه ﷺ كان بريئاً منه. وقال النخعي: (الرجز) الإثم. وقال القتبي: العذاب، أي: اهجر ما يؤدي إليه. وقرأ الجمهور: (ولا تمنن) بفك التضعيف، والحسن وأبو السمال: بشد النون. قال ابن عباس وغيره: ولا تعط عطاء لتعطى أكثر منه، كأنه من قولهم: منّ إذا أعطى. قال الضحاك: هذا خاص به ﷺ، ومباح ذلك لأمته، لكنه لا أجر لهم فيه. وعن ابن عباس أيضاً: لا تقل دعوت فلم أستجب. وعن قتادة: لا تدل بعملك. وعن ابن زيد: لا (تمنن) بنبوتك (تستكثر) بأجر، أو كسب تطلبه منهم. وقال الحسن: (تمنن) على الله بجدك (تستكثر) أعمالك، ويقع لك بها إعجاب. وهذه الأقوال كلها من المن تعداد اليد وذكرها. وقال مجاهد: (ولا تضعف تستكثر) ما حملناك من أعباء الرسالة، أو تستكثر من الخير، من قولهم: حبل منين، أي: ضعيف. وقيل: ولا تعط مستكثراً رائياً لما تعطيه. وقرأ الجمهور: (تستكثر) برفع الراء، والجملة حالية، أي: مستكثراً. قال الزمخشري: ويجوز في الرفع أن تحذف أن ويبطل عملها، كما روي:

أحضر الوغى

بالرفع. انتهى. وهذا لا يجوز أن يحمل القرآن عليه، لأنه لا يجوز ذلك إلا في الشعر، ولنا مندوحة عنه مع صحة الحال، أي: مستكثراً. وقرأ الحسن وابن أبي عبلة: بجزم الراء، ووجهه أنه بدل من (تمنن)، أي: لا تستكثر، كقوله: ﴿يضاعف له العذاب﴾ [الفرقان: ٦٩] في قراءة من جزم بدلاً من قوله: (يلق)، وكقوله:

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا ... تجد حطباً جزلاً وناراً تأججا(٢)

ويكون من المن الذي في قوله تعالى: ﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ [البقرة: ٢٦٤] لأن من شأن المانّ أن يستكثر ما يعطي أن يراه كثيراً ويعتد به. وأجاز الزمخشري فيه وجهين، أحدهما: أن تشبه ثرو بعضد، فتسكن تخفيفاً. والثاني: أن يعتبر حال الوقف، يعني: فتجري الوصل مجرى الوقف. وهذان لا يجوز أن يحمل القرآن عليهما مع وجود ما هو راجح عليهما وهو البدل. وقرأ الحسن أيضاً والأعمش: (تستكثرَ) بنصب الراء، أي: لن تستكثر. وقرأ ابن مسعود: (أن تستكثر) بإظهار أن. (ولربك فاصبر) أي: لوجه ربك. أمره بالصبر، فيتناول الصبر على تكاليف النبوة، وعلى أداء طاعة الله، وعلى أذى الكفار. قال ابن زيد: على حرب الأحمر والأسود. فكل مصبور عليه ومصبور عنه يندرج في الصبر. وقال الزمخشري: والفاء في قوله: (فإذا نقر) للتسبيب، كأنه قيل: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم، وتلقى عاقبة صبرك عليه. وقال الزمخشري: والفاء في (فذلك) للجزاء. فإن قلت: بم انتصب إذا؟

---

(١) انظر البيت في القرطبي (١٩/ ٦٤)، وروح المعاني (٢٩/ ١٢٤).
(٢) تقدم.

الفصل في سورة مكية ، ولم يكن بمكة نفاق ، وإنما المرض في الآية الاضطراب وضعف الإيمان . وقيل : هو إخبار بالغيب : أي وليقول المنافقون الذين يتجمون في مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ لما سمعوا هذا العدد لم يهتدوا وحاروا ، فاستفهم بعضهم بعضاً عن ذلك ، استبعاداً أن يكون هذا من عند الله ، وسموه ﴿ مثلاً ﴾ استعارة من المثل المضروب ، استغراباً منهم لهذا العدد . والمعنى : أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب ، ومرادهم إنكار أصله ، وأنه ليس من عند الله وتقدم إعراب مثل هذه الجملة في أوائل البقرة .

﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر ، كلا والقمر ، والليل إذ أدبر ، والصبح إذا أسفر ، إنها لإحدى الكبر ، نذيراً للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ، كل نفس بما كسبت رهينة ، إلا أصحاب اليمين ، في جنات يتساءلون ، عن المجرمين ، ما سلككم في سقر ، قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ، فما تنفعهم شفاعة الشافعين ، فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة ، بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ، كلا بل لا يخافون الآخرة ، كلا إنه تذكرة ، فمن شاء ذكره ، وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ .

الكاف في محل نصب ، و ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى ، أي : مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل الكافرين ، فيشكون ، فيزيدهم كفراً وضلالاً ، ويهدي المؤمنين ، فيزيدهم إيماناً . ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ إعلام بأن الأمر فوق ما يتوهم ، وأن الخزنة إنما هم من بعض القدرة لا من كلها ، والسماء عامرة بأنواع من الملائكة ، وفي الحديث « أطت السماء ، وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع قدم إلا وملك واضع جبهته لله ساجداً » . ﴿ وما هي ﴾ أي : النار قاله مجاهد ، أو المخاطبة والنذارة ، أو نار الدنيا ، أو الآيات التي ذكرت ، أو العدة التسعة عشر ، أو الجنود ، أقوال راجحها الأول ، وهي سقر ، ذكر بها البشر ليخافوا ويطيعوا ، وقد جرى ذكر النار أيضاً في قوله ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ [المدثر ٣١] ﴿ إلا ذكرى للبشر ﴾ أي : الذين أهلوا للتذكر والاعتبار . قال الزمخشري : ﴿ كلا ﴾ إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن يكون لهم ذكرى ، لأنهم لا يتذكرون انتهى . ولا يسوغ هذا في حق الله تعالى ، أن يخبر أنه ذكرى للبشر ، ثم ينكر أن تكون لهم ذكرى ، وإنما قوله ﴿ للبشر ﴾ عام مخصوص ، وقال الزمخشري أو ردع لمن ينكر أن يكون إحدى الكبر نذيراً . وقيل : ردع لقول أبي جهل وأصحابه : إنهم يقدرون على مقاومة خزنة جهنم . وقيل : ردع عن الاستهزاء بالعدة المخصوصة ، وقال الفراء : هي صلة للقسم ، وقدرها بعضهم بحقاً ، وبعضهم بألا الاستفتاحية ، وقد تقدم الكلام عليها في آخر سورة مريم ـ عليها السلام ـ ﴿ والقمر والليل إذ أدبر ﴾ أي ولى ، ويقال : دبر وأدبر بمعنى واحد ، أقسم تعالى بهذه الأشياء تشريفاً لها ، وتنبيهاً على ما يظهر بها وفيها من عجائب الله وقدرته ، وقوام الوجود بإيجادها ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وعطاء وابن يعمر وأبو جعفر وشيبة وأبو الزناد وقتادة وعمر بن عبد العزيز والحسن وطلحة والنحويان والابنان وأبو بكر ﴿ إذا ﴾ ظرف زمان مستقبل ﴿ دبر ﴾ بفتح الدال ، وابن جبير والسلمي والحسن بخلاف عنهم ، وابن سيرين والأعرج وزيد بن علي وأبو شيخ وابن محيصن ونافع وحمزة وحفص ﴿ إذ ﴾ ظرف زمان ماض ﴿ أدبر ﴾ رباعياً ، والحسن أيضاً ، وأبو رزين وأبو رجاء وابن يعمر أيضاً ، والسلمي أيضاً ، وطلحة أيضاً ، والأعمش ويونس بن عبيد ومطر ﴿ إذا ﴾ بالألف ﴿ أدبر ﴾ بالهمز ، وكذا هو في مصحف عبد الله وأبي ، وهو مناسب لقوله ﴿ إذا أسفر ﴾ ويقال : كأمس الدابر ، وأمس المدبر بمعنى واحد ، وقال يونس بن حبيب ﴿ دبر ﴾ انقضى ، و ﴿ أدبر ﴾ تولى . وقال قتادة ﴿ دبر ﴾ الليل ولى ، وقال الزمخشري ﴿ دبر ﴾ بمعنى ﴿ أدبر ﴾ كقبل بمعنى أقبل ، وقيل : هو من دبر

الليل النهار أخلفه ، وقرأ الجمهور (أسفر) رباعياً وابن السميفع وعيسى بن الفضل (سفر) ثلاثياً ، والمعنى : طرح الظلمة عن وجهه . ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ الظاهر أن الضمير في (إنها) عائد على النار . قيل : ويحتمل أن يكون للنذارة وأمر الآخرة ، فهو للحال والقصة . وقيل : إن قيام الساعة لإحدى الكبر ، فعاد الضمير إلى غير مذكور ، ومعنى (إحدى الكبر) الدواهي الكبرى أي : لا نظير لها ، كما تقول : هو أحد الرجال ، وهي إحدى النساء ، و(الكبر) العظائم من العقوبات .

وقال الراجز :

يـا ابْنَ الْمُعَلَّى نَـزَلَتْ إِحْـدَى الْكُبَـرْ ... دَاهِيَـةُ الـدَّهْـرِ وَصَمَّـاءُ الْـغِيَـرْ[1]

و(الكبر) جمع الكبرى ، وطرحت ألف التأنيث في الجمع ، كما طرحت همزته في قاصعاء ، فقالوا : قواصع ، وقال ابن عطية : و(الكبر) جمع كبيرة ، ولعله من وهم الناسخ ، وقرأ الجمهور (لإحدى) بالهمزة وهي منقلبة عن واو ، أصله : لوحدى ، وهو بدل لازم ، وقرأ نصر بن عاصم وابن محيصن ووهب بن جرير عن ابن كثير بحذف الهمزة ، وهو حذف لا ينقاس ، وتخفيف مثل هذه الهمزة أن تجعل بين بين ، والظاهر أن هذه الجملة جواب للقسم ، وقال الزمخشري : أو تعليل لـ(كلا) والقسم معترض للتوكيد انتهى ، وقرأ الجمهور (نذيراً) واحتمل أن يكون مصدراً بمعنى الإنذار ، كالنكير بمعنى الإنكار ، فيكون تمييزاً أي : (لإحدى الكبر) إنذاراً ، كما تقول : هي إحدى النساء عفافاً ، كما ضمن (إحدى) معنى المعظم جاء منه التمييز . وقال الفراء : هو مصدر نصب بإضمار فعل ، أي : أنذر إنذاراً ، واحتمل أن يكون اسم فاعل بمعنى منذر . فقال الزجاج : حال من الضمير في (إنها) ، وقيل : حال من الضمير في (إحدى) ومن جعله متصلاً بـ(قم) في أول السورة ، أو بـ(فأنذر) في أول السورة ، أو حالاً من (الكبر) أو حالاً من ضمير (الكبر) فهو بمعزل عن الصواب ، قال أبو البقاء : والمختار أن يكون حالاً مما دلت عليه الجملة ، تقديره : عظمت نذيراً انتهى . وهو قول لا بأس به . قال النحاس : وحذفت الهاء من (نذيراً) وإن كان للنار على معنى النسب ، يعني ذات الإنذار ، وقال علي بن سليمان : أعني نذيراً ، وقال الحسن : لا أنذر ، إذ هي من النار ، قال ابن عطية : وهذا القول يقتضي أن (نذيراً) حال من الضمير في (إنها) ومن قوله (لإحدى) ، قال أبو رزين : (نذيراً) هنا هو الله تعالى ، فهو منصوب بإضمار فعل أي : أدعو نذيراً ، وقال ابن زيد : نذير هنا هو محمد ﷺ ، فهو منصوب بفعل مضمر ، أي : ناد ، أو بلغ ، أو أعلن . وقرأ أبي وابن أبي عبلة (نذيرٌ) بالرفع فإن كان من وصف النار جاز أن يكون خبراً وخبر مبتدأ محذوف ، أي : هي نذير ، وإن كان من وصف الله ، أو الرسول فهو على إضمار هو ، والظاهر أن (لمن) بدل من (للبشر) بإعادة الجار ، و(أن يتقدم) منصوب بـ(شاء) ضمير يعود على (من) ، وقيل : الفاعل ضمير يعود على الله تعالى ، أي : لمن شاء هو أي الله تعالى ، وقال الحسن : هو وعيد نحو قوله تعالى ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف ٢٩] ، قال ابن عطية : هو بيان في النذارة ، وإعلام بأن كل أحد يسلك طريق الهدى والحق إذا حقق النظر ، إذ هو بعينه يتأخر عن هذه الرتبة بغفلته وسوء نظره ، ثم قوى هذا المعنى بقوله تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة) ، وقال الزمخشري (أن يتقدم) في موضع الرفع بالابتداء ، و(لمن شاء) خبر مقدم عليه ، كقولك لمن توضأ : أن يصلي ، ومعناه : مطلق لمن شاء التقدم أو التأخر (أن يتقدم أو يتأخر) والمراد بالتقدم والتأخر السبق إلى الخير والتخلف عنه ، وهو كقوله ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف ٢٩] انتهى ، وهو معنى لا يتبادر إلى الذهن ، وفيه حذف ،

---

(١) بيت من الرجز للعجاج انظر فتح القدير (٥/٣٢٦) القرطبي (١٩/٥٥) .

قيل: والتقدم الإيمان، والتأخر الكفر. وقال السدي: (أن يتقدم) إلى النار المتقدم ذكرها (أو يتأخر) عنها إلى الجنة. وقال الزجاج: (أن يتقدم) إلى المأمورات (أو يتأخر) عن المنهيات. والظاهر العموم في (كل نفس). وقال الضحاك: (كل نفس) حقت عليها كلمة العذاب، ولا يرتهن الله تعالى أحداً من أهل الجنة. و(رهينة) بمعنى رهن، كالشتيمة بمعنى الشتم، وليست بمعنى مفعول، لأنها بغير تاء للمذكر والمؤنث، نحو: رجل قتيل وامرأة قتيل، فالمعنى: كل نفس بما كسبت رهن، ومنه قول الشاعر:

أبعد الذي بالنعف نعف كويكب ... رهينة رمس ذي تراب وجندل[1]

أي: رهن رمس. والمعنى: أن كل نفس رهن عند الله غير مفكوك. وقيل: الهاء في (رهينة) للمبالغة. وقيل: على تأنيث اللفظ لا على الإنسان. والذي أختاره أنها مما دخلت فيه التاء، وإن كان بمعنى مفعول في الأصل، كالنطيحة. ويدل على ذلك أنه لما كان خبراً عن المذكر كان بغير ها، قال تعالى: (كل امرئ بما كسب رهين) فأنت ترى حيث كان خبراً عن المذكر أتى بغير تاء، وحيث كان خبراً عن المؤنث أتى بالتاء، كما في هذه الآية. فأما الذي في البيت فأنث على معنى النفس. (إلا أصحاب اليمين): قال ابن عباس: هم الملائكة. وقال علي: هم أطفال المسلمين، فعلى هذين القولين يكون استثناء منقطعاً، أي: لكن أصحاب اليمين في جنات. وقال الحسن وابن كيسان: هم المسلمون المخلصون، ليسوا مرتهنين، لأنهم أدوا ما كان عليهم. وهذا كقول الضحاك الذي تقدم. وقال الزمخشري: (إلا أصحاب اليمين) فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق. انتهى. وظاهر هذا أنه استثناء متصل. (في جنات) أي: هم في جنات (يتساءلون) أي: يسأل بعضهم بعضاً، أو يكون يتساءل بمعنى يسأل، أي: يسألون غيرهم، كما يقال: دعوته وتداعوته بمعنى. وعلى هذين التفسيرين كيف جاء (ما سلككم في سقر) بالخطاب للمجرمين، وفي الكلام حذف، المعنى: أن أصحاب اليمين سأل بعضهم بعضاً، أو يسألون غيرهم عن من غاب من معارفهم، فإذا عرفوا أنهم مجرمون في النار قالوا لهم، أو قالت لهم الملائكة، فحكت ذلك بعضهم لبعض. والأقرب أن يكون التقدير: يتساءلون عن المجرمين قائلين لهم بعد التساؤل (ما سلككم في سقر). وقال الزمخشري: (فإن قلت:) كيف طابق قوله (ما سلككم) وهو سؤال للمجرمين، وإنما كان يطابق ذلك لو قيل: يتساءلون المجرمين ما سلككم؟ (قلت:) (ما سلككم) ليس ببيان للتساؤل عنهم، وإنما هو حكاية قول المسؤولين عنهم، لأن المسؤولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين، فيقولون: قلنا لهم ما سلككم في سقر؟ قالوا: لم نك من المصلين، إلا أن الكلام جيء به على الحذف والاختصار، كما هو نهج التنزيل في غرابة نظمه. انتهى. وفيه تكلف. والأظهر أن السائلين هم المتساءلون، و(ما سلككم) على إضمار القول كما ذكرنا، وسؤالهم سؤال توبيخ لهم وتحقير، وإلا فهم عالمون ما الذي أدخلهم النار. والجواب: أنهم لم يكونوا متصفين بخصال الإسلام، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم ارتقوا من ذلك إلى الأعظم، وهو الكفر والتكذيب بيوم الجزاء، كقوله: ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ [البلد: 11] ثم قال: ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ [البلد: 17] و (اليقين) أي: [illegible] على إنكار يوم الجزاء أي: وقت الموت. وقال ابن عطية: و(اليقين) عندي صحة ما كانوا يكذبون به من الرجوع إلى الله تعالى والدار الآخرة. وقال المفسرون: (اليقين) الموت. وذلك عندي هنا متعقب، لأن نفس الموت يقين عند الكافر وهو حي، وإنما اليقين الذي عنوا في هذه الآية الشيء الذي كانوا يكذبون به وهم أحياء في الدنيا، فتيقنوه بعد الموت. وإنما يتفسر اليقين بالموت في قوله تعالى: ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [الحجر: 99] (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) ليس المعنى أنه يشفع لهم، فلا تنفع شفاعة من يشفع لهم، وإنما

---

(1) البيت من الطويل لسويد بن كراع الحارثي انظر ديوان الحماسة (1/ 90) والكشاف (4/ 655)، القرطبي (19/ 86).

المعنى : نفي الشفاعة فانتفى النفع ، أي : لا شفاعة شافعين لهم ، فتنفعهم من باب :

على لاحبٍ لا يُهتدى بمناره

أي : لا منار له فيهتدى به ، وتخصيصهم بانتفاء شفاعة الشافعين يدل على أنه قد تكون شفاعات وينتفع بها ، ووردت أحاديث في صحة ذلك . ﴿ فما لهم عن التذكرة ﴾ وهي مواعظ القرآن التي تذكر الآخرة ، ﴿ معرضين ﴾ أي : والحال المنتظرة هذه الموصوفة ، ثم شبههم بالحمر المستنفرة في شدة إعراضهم ونفارهم عن الإيمان وآيات الله تعالى . وقرأ الجمهور ﴿ حُمُر ﴾ بضم الميم والأعمش بإسكانها ، قال ابن عباس : المراد الحمر الوحشية ، شبههم تعالى بالحمر مذمة وتهجيناً لهم ، وقرأ نافع وابن عامر والمفضل عن عاصم ﴿ مُسْتَنْفَرة ﴾ بفتح الفاء ، والمعنى : استنفرها فزعها من القسورة ، وباقي السبعة بكسرها ، أي : نافرة ، نفر واستنفر بمعنى : عجب واستعجب ، وسخر واستسخر ، ومنه قول الشاعر :

أمسكْ حمارَكَ إنه مُسْتَنْفِرٌ في إثر أحمرةٍ عمدنَ لغُرَّبِ[1]

ويناسب الكسر قوله ﴿ فرَّتْ ﴾ ، وقال محمد بن سلام : سألت أبا سوار الغنوي ـ وكان أعرابياً فصيحاً ـ فقلت : كأنهم حمر ماذا مستنفرة طردها قسورة ؟ فقلت : إنما هو ﴿ فرت من قسورة ﴾ قال : أفرّت ؟ قلت : نعم ، قال : فمستنفرة إذن . قال ابن عباس وأبو موسى الأشعري وقتادة وعكرمة : القسورة الرماة ، وقال ابن عباس أيضاً ، وأبو هريرة وجمهور من اللغويين : الأسد ، وقال ابن جبير : رجال القنص ، وهو قريب من القول الأول ، وقاله ابن عباس أيضاً . وقال ابن الأعرابي : القسورة أول الليل ، والمعنى : فرت من ظلمة الليل ، ولا شيء أشد نفاراً من حمر الوحش . ولذلك شبهت بها العرب الإبل في سرعة سيرها وخفتها ﴿ بل يريد كل امرىء منهم ﴾ أي : من المعرضين عن عظات الله وآياته ﴿ أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ أي : منشورة غير مطوية تقرأ كالكتب التي يتكاتب بها ، أو كتبت في السماء نزلت بها الملائكة ساعة كتبت رطبة لم تطو بعد ، وذلك أنهم قالوا لرسول الله ـ ﷺ ـ : لن نتبعك حتى يؤتى كل واحد منا بكتاب من السماء ، عنوانه من رب العالمين إلى فلان بن فلان ، يؤمر فيها باتباعك ، ونحوه ﴿ ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ [الإسراء : ٩٣] وروي أن بعضهم قال : إن كان يكتب في صحف ما يعمل كل إنسان فلتعرض تلك الصحف علينا ، فنزلت هذه الآية ، وقرأ الجمهور ﴿ صُحُفاً ﴾ بضم الصاد والحاء ﴿ مُنَشَّرة ﴾ مشدداً ، وابن جبير بإسكانها ﴿ مُنْشَرة ﴾ مخففاً ، ونشر وأنشر مثل نزل وأنزل ، شبه نشر الصحيفة بإنشاء الله الموتى ، فعبر عنه بـ ﴿ منشرة ﴾ من أنشرت ، والمحفوظ في الصحيفة والثوب نشر مخففاً ثلاثياً ، ويقال في الميت : أنشره الله فنشر هو ، أي : أحياه فحيي ، ﴿ كلا ﴾ ردع عن إرادتهم تلك ، وزجر لهم عن اقتراح الآيات ﴿ بل لا يخافون الآخرة ﴾ ولذلك أعرضوا عن التذكرة ، لا لامتناع إيتاء الصحف . وقرأ الجمهور ﴿ يخافون ﴾ بياء الغيبة ، وأبو حيوة بتاء الخطاب التفاتاً ﴿ كلا ﴾ ردع عن إعراضهم عن التذكرة ﴿ إنه تذكرة فمن شاء ذكره ﴾ ذكر في ﴿ إنه ﴾ وفي ﴿ ذكره ﴾ لأن التذكرة ذكر ، وقرأ نافع وسلام ويعقوب ﴿ تذكرون ﴾ بتاء الخطاب ساكنة الذال ، وباقي السبعة وأبو جعفر والأعمش وطلحة وعيسى والأعرج بالياء ، وروي عن أبي حيوة ﴿ يذكرون ﴾ بياء الغيبة وشد الذال ، وروي عن أبي جعفر ﴿ تذكرون ﴾ بالتاء وإدغام التاء في الذال ، ﴿ هو أهل التقوى ﴾ أي : أهل أن يتقى ويخاف ، ﴿ وأهل أن يغفر ﴾ ، وروى أنس بن مالك ـ رضي الله تعالى عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ فسر هذه الآية ، فقال : يقول لكم ربكم جلت قدرته وعظمته : أنا أهل أن أتقى ، فلا يجعل معي إله غيري ، ومن اتقى أن يجعل معي إلهاً غيري فأنا أغفر له ، وقال الزمخشري في قوله تعالى ﴿ وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ يعني إلا أن يقسرهم على الذكر ويلجئهم إليه ، لأنهم مطبوع على قلوبهم ، معلوم أنهم لا يؤمنون اختياراً

---

(١) البيت من الكامل ، وهو لعمرو بن ... (...   ١٩ / ٢٨٨)

هذه السورة مكية، ومناسبتها لما قبلها: أن في آخر ما قبلها قوله ﴿ كلا بل لا يخافون الآخرة كلا إنه تذكرة ﴾ [المدثر ٥٣ ـ ٥٤] وفيها كثير من أحوال القيامة، فذكر هنا يوم القيامة وجملاً من أحوالها، وتقدم الكلام في ﴿ لا أقسم ﴾ والخلاف في ﴿ لا ﴾ والخلاف في قراءتها في أواخر الواقعة، أقسم تعالى بيوم القيامة لعظمه وهوله، و﴿ لا أقسم ﴾ قيل ﴿ لا ﴾ نافية، نفى أن يقسم بالنفس اللوامة، وأقسم بيوم القيامة، نص على هذا الحسن، والجمهور على أن الله أقسم بالأمرين، و﴿ اللوامة ﴾ قال الحسن: هي التي تلوم صاحبها في ترك الطاعة ونحوها، فهي على هذا ممدوحة، ولذلك أقسم الله بها، وروي نحوه عن ابن عباس، وعن مجاهد: تلوم على ما فات وتندم على الشر لم فعلته؟ وعلى الخير لم لم تستكثر منه؟ وقيل: النفس المتقية التي تلوم النفوس في يوم القيامة على تقصيرهن في التقوى. وقال ابن عباس وقتادة: هي الفاجرة الجشعة اللوامة لصاحبها على ما فاته من سعي الدنيا وأعراضها، فهي على هذا ذميمة، ويحسن نفي القسم بها، والنفس اللوامة: اسم جنس بهذا الوصف. وقيل: هي نفس معينة، وهي نفس آدم ـ عليه السلام ـ لم تزل لائمة له على فعله الذي أخرجه من الجنة. قال ابن عطية: وكل نفس متوسطة ليست بمطمئنة ولا أمارة بالسوء فإنها لوامة في الطرفين، مرة تلوم على ترك الطاعة، ومرة تلوم على فوت ما تشتهي، فإذا اطمأنت خلصت وصفت انتهى. والمناسبة بين القسمين، من حيث أحوال النفس من سعادتها وشقاوتها، وظهور ذلك في يوم القيامة، وجواب القسم محذوف يدل عليه يوم القيامة المقسم به، وما بعده من قوله ﴿ أيحسب ﴾ الآية، وتقديره: لتبعثن، وقال الزمخشري: فإن قلت: قوله تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون ﴾ والأبيات التي أنشدتها المقسم عليه فيها منفي، وكذلك قد أنشد قول امرئ القيس

لا وأبيك ابنة العامري ... لا يدعي القوم أني أفر[١]

وقول غوية بن سلمى:

ألا نادت أمامة باحتمالي ... لتحزنني فلا بك ما أبالي[٢]

قال: فهلا زعمت أن ﴿ لا ﴾ التي للقسم زيدت موطئة للنفي بعده ومؤكدة له، وقدرت المقسم عليه المحذوف ها هنا منفياً، نحو قولك: لا أقسم بيوم القيامة لا تتركون سدى؟ قلت: لو قصروا الأمر على النفي دون الإثبات لكان لهذا القول مساغ، ولكنه لم يقصر، ألا ترى كيف لقي ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ [البلد ١] بقوله ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ [البلد ٤] وكذلك ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ [الواقعة ٧٥] ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ [الواقعة ٧٧] ثم قال الزمخشري: وجواب القسم ما دل عليه قوله ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ وهو: لتبعثن انتهى، وهو تقدير النحويين، وقول من قال: جواب القسم هو ﴿ أيحسب الإنسان ﴾ وما روي عن الحسن: أن الجواب ﴿ بلى قادرين ﴾ وما قيل: إن ﴿ لا ﴾ في القسمين لنفيهما أي: لا أقسم على شيء، وأن التقدير: أسألك أيحسب الإنسان، أقوال لا تصلح أن يرد بها، بل تطرح ولا يسود بها الورق، ولولا أنهم سردوها في الكتب لم أنبه عليها، والإنسان هنا: الكافر المكذب بالبعث، وروي أن عدي بن ربيعة قال لرسول الله ـ ﷺ ـ: يا محمد، حدثني عن يوم القيامة، متى يكون أمره؟ فأخبره رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أؤمن به أو يجمع الله هذه العظام بعد بلاها فنزلت، وقيل: نزلت في أبي جهل، كان يقول: أيزعم محمد ـ ﷺ ـ أن يجمع الله هذه العظام بعد بلاها وتفرقها، فيعيدها خلقاً

---

(١) انظر الكشاف (٤/١٥٨)، روح المعاني (٢٩/١٢٠).

(٢) بيت من الوافر لغوية بن سلمى انظر الكشاف (٤/١٥٨)، وروح المعاني (٢٩/١٢٠).

جديداً»[1]. وقرأ الجمهور: (نجمع) بنون، (عظامه) نصباً. وقتادة: بالتاء مبنياً للمفعول، (عظامه) رفعاً. والمعنى: بعد تفرقها واختلاطها بالتراب، وتطيير الرياح إياها في أقاصي الأرض. وقوله: (أيحسب) استفهام تقرير وتوبيخ، حيث ينكر قدرة الله تعالى على إعادة المعدوم. (بلى) جواب للاستفهام المنسحب على النفي، أي: بلى نجمعها. وذكر العظام وإن كان المعنى إعادة الإنسان وجمع أجزائه المتفرقة، لأن العظام هي قالب الخلق. وقرأ الجمهور: (قادرين) بالنصب على الحال من الضمير الذي في الفعل المقدر وهو نجمعها. وابن أبي عبلة وابن السميفع: (قادرون) أي: نحن قادرون (على أن نسوي بنانه) وهي الأصابع، أكثر العظام تفرقاً وأدقها أجزاء، وهي العظام التي في الأنامل ومفاصلها. وهذا عند البعث. وقال ابن عباس والجمهور: المعنى: نجعلها في حياته هذه بضعة، أو عظماً واحداً، كخف البعير لا تفاريق فيه، أي: في الدنيا، فتقل منفعته بها. وهذا القول فيه توعد. والمعنى الأول هو الظاهر، والمقصود من رصف الكلام. وذكر الزمخشري هذين القولين بألفاظ منمقة على عادته في حكاية أقوال المتقدمين. وقيل: (قادرين) منصوب على خبر كان، أي: بل كنا قادرين في الابتداء. (بل يريد الإنسان) (بل) إضراب، وهو انتقال من كلام إلى كلام من غير إبطال. والظاهر أنه يريد الإخبار عن ما يريده الإنسان. وقال الزمخشري: (بل يريد) عطف على (أيحسب) فيجوز أن يكون قبله استفهاماً، وأن يكون إيجاباً على أن يضرب عن مستفهم عنه إلى آخر، أو يضرب عن مستفهم عنه إلى موجب. انتهى. وهذه التقادير الثلاثة لا تظهر، وهي متكلفة. بل المعنى: الإخبار عن الإنسان من غير إبطال لمضمون الجملة السابقة، وهي: نجمعها قادرين. تبين ما هو عليه الإنسان من عدم الفكر في الآخرة وأنه معني بشهواته. ومفعول (يريد) محذوف يدل عليه التعليل في (ليفجر). قال مجاهد والحسن وعكرمة وابن جبير والضحاك والسدي: معنى الآية: أن الإنسان إنما يريد شهواته ومعاصيه ليمضي فيها أبداً قدماً راكباً رأسه، مطيعاً أمله، ومسوفاً بتوبته. قال السدي أيضاً: ليظلم على قدر طاقته. وعلى هذا فالضمير في (أمامه) عائد على الإنسان، وهو الظاهر. وقال ابن عباس ما يقتضي أن الضمير عائد على يوم القيامة، أن الإنسان في زمان وجوده أمام يوم القيامة، وبين يديه، ويوم القيامة خلفه، فهو يريد شهواته ليفجر في تكذيبه بالبعث وغير ذلك بين يدي يوم القيامة، وهو لا يعرف القدر الذي هو فيه. والأمام: ظرف مكان استعير هنا للزمان، أي: ليفجر فيما بين يديه ويستقبله من زمان حياته.

(يسأل أيان يوم القيامة) أي: متى يوم القيامة؟ سؤال استهزاء وتكذيب وتعنت. وقرأ الجمهور: (برق) بكسر الراء؛ وزيد بن ثابت ونصر بن عاصم وعبد الله بن أبي إسحاق وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزعفراني وابن مقسم ونافع وزيد بن علي وأبان عن عاصم وهارون ومحبوب كلاهما عن أبي عمرو، والحسن، والجحدري بخلاف عنهما: بفتحها. قال أبو عبيدة: (برق) بالكسر: شخص. وقال ابن إسحاق: خفت عند الموت. وقال مجاهد: هذا عند الموت[2]. وقال الحسن: هو يوم القيامة[3]. وقرأ أبو السمال: (بلق) باللام عوض الراء، أي: انفتح وانفرج. يقال: بلق الباب وأبلقته وبلقته: فتحته. هذا قول أهل اللغة إلا الفراء فإنه يقول: بلقه وأبلقه إذا أغلقه. وقال ثعلب: أخطأ الفراء في ذلك، إنما هو بلق الباب وأبلقته إذا فتحته. انتهى. ويمكن أن تكون اللام بدلاً من الراء، فهما يتعاقبان في بعض الكلام نحو قولهم: نثره ونثله، ووجر ووجل. وقرأ: (وخسف) مبنياً للفاعل. وأبو حيوة وابن أبي عبلة ويزيد بن قطيب وزيد بن علي: مبنياً للمفعول. يقال: خسف القمر وخسفه الله. وكذلك الشمس. قال أبو عبيدة وجماعة من أهل اللغة: الخسوف والكسوف بمعنى واحد. وقال ابن أبي أويس: الكسوف ذهاب بعض الضوء، والخسوف جميعه. (وجمع الشمس

---

(١) انظر الوسيط (٤/ ٣٩٠).

(٢) انظر الوسيط (٤/ ٣٩١)، والطبري (٢٩/ ١٧٣)، والقرطبي (١٩/ ٩٥)، وزاد المسير (٨/ ٤١٩)، وابن كثير (٤/ ٤٤٨).

(٣) انظر المصادر السابقة.

والقمر) لم تلحق علامة التأنيث ، لأن تأنيث الشمس مجاز أو لتغليب التذكير على التأنيث . وقال الكسائي : حمل على المعنى والتقدير جمع النوران أو الضياءان . ومعنى جمع بينهما : قال عطاء بن يسار يجمعان فيلقيان في النار ، وعنه : يجمعان يوم القيامة ثم يقذفان في البحر فيكونان نار الله الكبرى ، وقيل : يجمع بينهما في الطلوع من المغرب فيطلعان أسودين مكورين . وقال علي وابن عباس : يجعلان في نور الحجب ، وقيل : يجتمعان ولا يفترقان ، ويقربان من الناس فيلحقهم العرق لشدة الحر فكأن المعنى يجمع حرهما . وقيل : يجمع بينهما في ذهاب الضوء ، فلا يكون ثم تعاقب ليل ولا نهار ، وقرأ الجمهور (المَفَرّ) بفتح الميم والفاء أي أين الفرار ؟ وقرأ الحسن بن علي بن أبي طالب والحسن بن زيد وابن عباس والحسن وعكرمة وأيوب السختياني وكلثوم بن عياض ومجاهد وابن يعمر وحماد بن سلمة وأبو رجاء وعيسى وابن أبي إسحاق وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزهري بكسر الفاء وهو موضع الفرار . وقرأ الحسن بكسر الميم وفتح الفاء ، ونسبها ابن عطية للزهري ، أي : الجيد الفرار . وأكثر ما يستعمل هذا الوزن في الآلات وفي صفات الخيل نحو قوله :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا[1]

والظاهر أن قوله (كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر) من تمام قول الإنسان . وقيل : هو من كلام الله تعالى لا حكاية عن الإنسان (كلا) ردع عن طلب المفر (لا وزر) لا ملجأ . وعبر المفسرون عنه بالجبل . قال مطرف بن الشخير : هو كان وزر فرار العرب في بلادهم فلذلك استعمل ، وحقيقته أنه الملجأ من جبل أو حصن أو سلاح أو رجل أو غيره . (إلى ربك يومئذ) أي : إلى حكمه يومئذ ، تقول ابن القر (المستقر) أي الاستقرار أو موضع استقرار من جنة أو نار إلى مشيئته تعالى يدخل من شاء الجنة ويدخل من شاء النار (بما قدم وأخر) قال عبد الله وابن عباس (بما قدم) في حياته (وأخر) من سنة يعمل بها بعده[2] . وقال ابن عباس أيضاً : بما قدم من المعاصي وأخر من الطاعات[3] وقال زيد بن أسلم : بما قدم من ماله لنفسه وما أخر منه للوارث . وقال النخعي ومجاهد : بأول عمله وآخره[4] . وقال الضحاك : بما قدم من فرض وأخر من فرض . والظاهر حمله على العموم أي : يخبره بكل ما قدم وكل ما أخر مما ذكره المفسرون ومما لم يذكروه . (بصيرة) خبر عن الإنسان أي شاهد . قاله قتادة . والهاء للمبالغة . وقال الأخفش : هو كقولك : فلان عبرة وحجة . وقيل : أنث لأنه أراد جوارحه أي جوارحه على نفسه بصيرة . وقيل : (بصيرة) مبتدأ محذوف الموصوف ، أي : عين بصيرة و (على نفسه) الخبر والجملة في موضع خبر عن (الإنسان) والتقدير عين بصيرة وإليه ذهب الفراء ، وأنشد :

كَأَنَّ عَلَى ذِي الْعَقْلِ عَيْنًا بَصِيرَةً ... بِمَقْعَدِهِ أَوْ مَنْظَرٍ هُوَ نَاظِرُهْ

يُحَاذِرُ حَتَّى يَحْسَبُ النَّاسُ كُلُّهُمْ ... مِنَ الْخَوْفِ لَا تَخْفَى عَلَيْهِمْ سَرَائِرُهْ[5]

وعلى هذا تحتمل أن تكون (بصيرة) فاعلاً بالجار والمجرور وهو الخبر عن الإنسان ألا ترى أنه قد اعتمد بوقوعه خبراً

---

(١) صدر بيت لامرئ القيس وعجزه :

... كجلمود صخر حطه السيل من عل

انظر ديوانه (١٩) .

(٢) انظر الوسيط (٤/٣٩١) والطبري (٢٩/١٨٠) والقرطبي (١٩/٦٩٩٠) والبغوي (٤/٤٢١) وتفسير ابن عباس ص (٤٩١) وابن كثير (٤/٤٤٨) وزاد المسير (٨/٤٢٠) وتفسير عبد الرزاق (٣/١٣٨٢) .

(٣) انظر المصدر السابق .

(٤) انظر المصدر السابق .

(٥) البيتان من الطويل انظر روح المعاني (٢٩/١٤٢) فتح القدير (٥/٣٣٨) .

عليه الصلاة والسلام رجع إلى حال الإنسان السابق ذكره المنكر البعث وأن همه إنما هو في تحصيل حطام الدنيا الفاني لا في تحصيل ثواب الآخرة إذ هو منكر لذلك . وقرأ الجمهور ﴿ بل تحبون العاجلة ﴾ ﴿ وتذرون ﴾ بتاء الخطاب للكفار قريش المنكرين البعث ، و ﴿ كلا ﴾ رد عليهم وعلى أقوالهم ، أي ليس كما زعمتم وإنما أنتم قوم غلبت عليكم محبة شهوات الدنيا حتى تتركون معه الآخرة والنظر في أمرها وقال الزمخشري : ﴿ كلا ﴾ ردع وذكر في كتابه ما يوقف عليه فيه . وقرأ مجاهد والحسن وقتادة والجحدري وابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة فيهما ، ولما وبخهم بحب العاجلة وترك الاهتمام بالآخرة تخلص إلى شيء من أحوال الآخرة فقال ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ وعبر بالوجه عن الجملة ، وقرأ الجمهور ﴿ ناضرة ﴾ بالألف وزيد بن علي ﴿ نضرة ﴾ بغير ألف ، وقرأ ابن عطية ﴿ وجوه ﴾ رفع بالابتداء ، وابتدأ بالنكرة ، لأنها تخصصت بقوله ﴿ يومئذ ﴾ و ﴿ ناضرة ﴾ خبر ﴿ وجوه ﴾ وقوله ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ جملة هي في موضع خبر بعد خبر . انتهى . وليس ﴿ يومئذ ﴾ تخصيصاً للنكرة فيسوغ الابتداء بها ، لأن ظرف الزمان لا يكون صفة للجثة وإنما يكون ﴿ يومئذ ﴾ معمولاً لـ ﴿ ناضرة ﴾ ، ومسوغ جواز الابتداء بالنكرة كون الموضع موضع تفصيل و ﴿ ناضرة ﴾ الخبر و ﴿ ناظرة ﴾ صفة . وقيل : ﴿ ناضرة ﴾ نعت لـ ﴿ وجوه ﴾ و ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ الخبر وهو قول سائغ . ومسألة النظر ورؤية الله تعالى مذكورة في أصول الدين . ودلائل الفريقين ، أهل السنة وأهل الاعتزال فلا نطيل بذكر ذلك هنا . ولما كان الزمخشري من المعتزلة ومذهبه أن تقديم المفعول يدل على الاختصاص قال هنا : ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر في محشر يجتمع فيه الخلائق فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه محال فوجب حمله على معنى لا يصح معه الاختصاص ، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي يريد معنى التوقع والرجاء ، ومنه قول القائل :

وإذا نظرتُ إليك من مَلِكٍ ... والبحرُ دونك زدتني نِعَما

وسمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقائلهم تقول عيينتي ناظرة إلى الله وإليكم . والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه انتهى . وقال ابن عطية : ذهبت طائفة من المعتزلة إلى أن المعنى إلى رحمة ربها ناظرة ، أو إلى ثوابه أو ملكه ، فقدروا مضافاً محذوفاً ، وهذا وجه سائغ في العربية ، كما تقول : فلان ناظر إليك في كذا أي إلى صنعك في كذا . انتهى . والظاهر أن ﴿ إلى ﴾ في قوله ﴿ إلى ربها ﴾ حرف جر يتعلق بـ ﴿ ناظرة ﴾ ، وقال بعض المعتزلة ﴿ إلى ﴾ هنا واحد الآلاء ، وهي النعم ، وهي مفعول به معمول لـ ﴿ ناظرة ﴾ بمعنى منتظرة ﴿ ووجوه يومئذ باسرة ﴾ يجوز أن يكون ﴿ وجوه ﴾ مبتدأ خبره ﴿ باسرة ﴾ و ﴿ تظن ﴾ خبر بعد خبر وأن تكون ﴿ باسرة ﴾ صفة و ﴿ تظن ﴾ الخبر . والفاقرة قال ابن المسيب : قاصمة الظهر . و ﴿ تظن ﴾ بمعنى توقن أو يغلب على اعتقادها وتتوقع أن يفعل بها فاقرة فعل هو في شدته داهية تقصم . وقال أبو عبيدة : فاقرة من فقرت البعير إذا وسمت أنفه بالنار ﴿ كلا ﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة ، وتذكير لهم بما يؤولون إليه من الموت الذي تنقطع العاجلة عنده وينتقل منها إلى الآجلة . والضمير في ﴿ بلغت ﴾ عائد إلى النفس الدال عليها سياق الكلام ، كقول حاتم :

لَعَمْرُكَ ما يُغني الثَّراءُ عن الفتى ... إذا حشرجتْ يوماً وضاق بها الصدرُ(1)

وتقول العرب : أرسلت يريدون جاء المطر ولا تكاد تسمعهم يقولون السماء . وذكرهم تعالى بصعوبة الموت وهو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقي ودنا زهوقها . وقيل : مبني للمفعول فاحتمل أن يكون القائل حاضر والمريض طلبوا له من يرقي ويطب ويشفي وغير ذلك مما يتمناه له أهله ، قاله ابن عباس والضحاك وأبو قلابة وقتادة ، وهو استفهام

---

(1) تقدم .

و (صدّق) معناه برسالة الله. وقال قوم: هو من الصدقة وهذا الذي يظهر نفي عنه الزكاة والصلاة وأثبت له التكذيب، كقوله: ﴿لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين﴾ [المدثر: ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦] وحمل (فلا صدق) على نفي التصديق بالرسالة يقتضي أن يكون (ولكن كذب) تكراراً ولزم أن يكون (لكن) استدراكاً بعد (ولا صلى) لا بعد (فلا صدق) لأنه كان يساوي الحكم في (فلا صدق) وفي (كذب) ولا يجوز ذلك. إذ لا تقع (لكن) بين متوافقين (وتولى) أعرض عن رسول الله ﷺ وكذب بما جاء به (ثم ذهب إلى أهله) أي: قومه (يتمطى) يتبختر في مشيته. روي: «أن رسول الله ﷺ لبب أبا جهل يوماً في البطحاء، وقال له: إن الله يقول لك: أولى لك فأولى، فنزل القرآن على نحوها». وقالت الخنساء:

هممت بنفسي كل الهموم ... فأولى لنفسي أولى لها

وتقدم الكلام على (أولى) شرحاً وإعراباً في قوله تعالى: (فأولى لهم طاعة وقول معروف) في سورة القتال وتكرر هنا مبالغة في التهديد والوعيد. ولما ذكر حاله في الموت وما كان من حاله في الدنيا قرر له أحواله في بدايته ليتأملها فلا ينكر معها جواز البعث من القبور. وقرأ الجمهور (أيحسب) بياء الغيبة والحسن بتاء الخطاب على سبيل الالتفات. وقرأ الجمهور (تُمنى) أي: النطفة يمنيها الرجل. وابن محيصن والجحدري وسلام ويعقوب وحفص وأبو عمرو بخلاف عنه بالياء أي (يُمنى) هو أي المني فخلق الله منه بشراً مركباً من أشياء مختلفة (فسوّى) أي سواه شخصاً مستقلاً (فجعل منه الزوجين) أي النوعين أو المزدوجين من البشر. وفي قراءة زيد بن علي (الزوجان) بالألف وكأنه على لغة بني الحارث بن كعب ومن وافقهم من العرب من كون المثنى بالألف في جميع أحواله. وقرأ أيضاً (يَقْدِر) مضارعاً والجمهور (بقادر) اسم فاعل مجرور بالباء الزائدة (أليس ذلك) أي الخالق المسوي (بقادر) وهو توقيف وتوبيخ لمنكر البعث. وقرأ طلحة بن سليمان والفيض بن غزوان بسكون الياء من قوله (أن يحيي) وهي حركة إعراب لا تنحذف إلا في الوقف وقد جاء في الشعر حذفها. وقرأ الجمهور بفتحها. وجاء عن بعضهم (يحيّ) بنقل حركة الياء إلى الحاء وإدغام الياء في الياء. قال ابن خالويه: لا يجيز أهل البصرة سيبويه وأصحابه إدغام (يحيي) قالوا لسكون الياء الثانية ولا يعتدون بالفتحة في الياء لأنها حركة إعراب غير لازمة. وأما الفراء فاحتج بهذا البيت:

تمشي بسدة بيتها فتعيّ

يريد فتعيي. والله تعالى أعلم.

سورة الدهر مدنية وهي إحدى وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ۝ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ۝ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ۝ إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا ۝ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ۝ عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ۝ يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ۝ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ۝ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ۝ إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ۝ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ۝ وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ۝ متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ۝ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ۝ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ۝ قوارير من فضة قدروها تقديرا ۝ ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ۝ عينا فيها تسمى سلسبيلا ۝ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ۝ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ۝ عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ۝ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ۝ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ۝ فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا ۝ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ۝ ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ۝ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ۝ نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا ۝ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ۝ وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما ۝ يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما ۝

الأمشاج : الأخلاط ، واحدها مشج بفتحتين ، أو مشج كعدل ، أو مشيج كشريف وأشراف ، قاله ابن الأعرابي ، وقال رؤبة :

آدم . والحين الذي مرّ عليه إما حين عدمه ، وإما حين كونه نطفة ، وانتقاله من رتبة إلى رتبة حتى حين إمكان خطابه فإنه في تلك المدة لا ذكر له . وسمي إنساناً باعتبار ما صار إليه ، وقيل : آدم عليه الصلاة والسلام . والحين : الذي مر عليه هي المدة التي بقي فيها إلى أن نفخ فيه الروح[1] . وعن ابن عباس : بقي طيناً أربعين سنة ثم صلصالاً أربعين ثم حمأ مسنوناً أربعين فتم خلقه في مائة وعشرين سنة ، وسمي إنساناً باعتبار ما آل إليه . والجملة من ﴿ لم يكن ﴾ في موضع الحال من ﴿ الإنسان ﴾ كأنه قيل غير مذكور ، وهو الظاهر . أو في موضع الصفة لـ ﴿ حين ﴾ فيكون العائد على الموصوف محذوفاً ، أي : لم يكن فيه . ﴿ إنا خلقنا الإنسان ﴾ هو جنس بني آدم ، لأن آدم لم يخلق ﴿ من نطفة أمشاج ﴾ أخلاط وهو وصف لـ ﴿ النطفة ﴾ . فقال ابن مسعود وأسامة بن زيد عن أبيه : هي العروق التي في النطفة . وقال ابن عباس ومجاهد والربيع : هو ماء الرجل وماء المرأة اختلطا في الرحم فخلق الإنسان منهما[2] . وقال الحسن : اختلاط النطفة بدم الحيض فإذا حبلت ارتفع الحيض . وقال ابن عباس أيضاً وعكرمة وقتادة : أمشاج منتقلة من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى غير ذلك إلى إنشائه إنساناً . وقال ابن عباس وعكرمة أيضاً والكلبي : هي ألوان النطفة[3] وقيل : أخلاط الدم والبلغم والصفراء والسوداء والنطفة أريد بها الجنس فلذلك وصفت بالجمع كقوله ﴿ على رفرف خضر ﴾ [الرحمن : ٧٦] أو لتنزيل كل جزء من النطفة نطفة . وقال الزمخشري : نطفة أمشاج كبرمة أعشار وبرد أكياش وهي ألفاظ مفرد غير جموع ولذلك وقعت صفات للإفراد ويقال أيضاً نطفة مشج ، ولا يصح ﴿ أمشاج ﴾ أن تكون تكسيراً له بل هما مثلان في الإفراد لوصف المفرد بهما انتهى . وقوله مخالف لنص سيبويه والنحويين على أن أفعالاً لا يكون مفرداً ، قال سيبويه : وليس في الكلام أفعال إلا أن يكسر عليه اسماً للجميع وما ورد من وصف المفرد بأفعال تأولوه . ﴿ نبتليه ﴾ نختبره بالتكليف في الدنيا . وعن ابن عباس : نصرفه في بطن أمه نطفة ثم علقة . فعلى هذا هي حال مصاحبة ، وعلى أن المعنى نختبره بالتكليف فهي حال مقدرة ، لأنه تعالى حين خلقه من نطفة لم يكن مبتلياً له بالتكليف في ذلك الوقت . وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد ناقلين له من حال إلى حال فسمي ذلك الابتلاء على طريق الاستعارة . انتهى . وهذا معنى قول ابن عباس : وقيل : نبتليه بالإيجاد والكون في الدنيا ، فهي حال مقارنة . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير والأصل : فجعلناه سميعاً بصيراً نبتليه ، أي : جعلناه سميعاً بصيراً للابتلاء ، ولا حاجة إلى ادعاء التقديم والتأخير . والمعنى يصح بخلافه ، وامتن تعالى عليه بجعله بالصفتين . وهما كناية عن التمييز والفهم إذ آلتهما سبب لذلك وهما أشرف الحواس تدرك بهما أعظم المدركات ولما جعله بهذه المثابة أخبر تعالى أنه هداه إلى السبيل أي : أرشده إلى الطريق وعرفه مآل طريق النجاة ومآل طريق الهلاك إذ أرشده طريق الهدى . وقال مجاهد : سبيل السعادة والشقاوة[4] . وقال السدي : سبيل الخروج من الرحم . وقال الزمخشري : أي مكناه وأقدرناه في حالتيه جميعاً وإذا دعوناه إلى الإسلام بأدلة العقل والسمع كان معلوماً منه أنه يؤمن أو يكفر لإلزام الحجة . انتهى . وهو على طريقة الاعتزال . وقرأ الجمهور ﴿ إما ﴾ بكسر الهمزة فيهما . وأبو السمال وأبو العاج وهو كثير بن عبد الله السلمي شامي ولي البصرة لهشام بن عبد الملك بفتحها فيهما ، وهي لغة حكاها أبو زيد عن العرب . وهي التي عدها بعض الناس في حروف العطف[5] .

---

(١) انظر الوسيط (٦٦٣ ع) والقرطبي (٩ / ٦٩١٠) والطبري (٤ / ٢٧٦) .
(٢) انظر المصدر السابق .
(٣) انظر المصدر السابق .
(٤) انظر الوسيط (٦٧٣ ع) .
(٥) الذين ذهبوا إلى أن إما عاطفة استندوا إلى أن سيبويه ذكرها في حروف العطف (١ / ٤٢٦) فحملوا كلامه على ظاهره واختلفوا في تأويله ، شرح الكافية وقال الأندلسي إما الأولى مع الثانية حرف عطف ، وليس عاطفة لأن الثانية على إما الأولى نحو (جاءني إما زيد وإما عمرو) حتى يصير الحرف واحد ، ثم تعطفهما معاً ما بعد الثانية على ما بعد الأولى ، وهذا عذر بارد من وجوه ، لأن تقدم معنى العاطف على المعطوف ـ

وأنشدوا:

يلحقها إما شمال عرية ... وإما صبا جنح العشي هبوب(1)

وقال الزمخشري: وهي قراءة حسنة والمعنى (إما شاكراً) بتوفيقنا (وإما كفوراً) فبسوء اختياره. انتهى. فجعلها (إما) التفصيلية المتضمنة معنى الشرط ولذلك تلقاها بفاء الجواب فصار كقول العرب: إما صديقاً فصديق. وانتصب (شاكراً) و(كفوراً) على الحال من ضمير النصب في (هديناه). وقال الزمخشري: ويجوز أن يكونا حالين من (السبيل) أي: عرفناه السبيل إما سبيلاً شاكراً وإما سبيلاً كفوراً، كقوله ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد: ١٠] فوصف السبيل بالشكر والكفر مجازاً. انتهى. ولما كان الشكر قل من يتصف به قال (شاكراً) ولما كان الكفر كثر من يتصف به ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر جاء (كفوراً) بصيغة المبالغة، ولما ذكر الفريقين أتبعهما الوعيد والوعد. وقرأ طلحة وعمرو بن عبيد وابن كثير وأبو عمرو وحمزة (سلاسل) ممنوع الصرف وقفاً ووصلاً. وقيل: عن حمزة وأبي عمرو الوقف بالألف، وقرأ حفص وابن ذكوان بمنع الصرف، واختلف عنهم في الوقف، وكذا عن البزي وقرأ باقي السبعة بالتنوين وصلاً، وبالألف المبدلة منه وقفاً، وهي قراءة الأعمش. قيل: وهذا على ما حكاه الأخفش من لغة من يصرف كل ما لا ينصرف إلا أفعل من، وهي لغة الشعراء ثم كثر حتى جرى في كلامهم، وعلل ذلك بأن هذا الجمع لما كان يجمع فقالوا: صواحبات يوسف، ونواكسي الأبصار أشبه المفرد فجرى فيه الصرف. وقال بعض الرجاز:

والصرف في الجمع أتى كثيرا ... حتى ادعى قوم به التخييرا(2)

والصرف ثابت في مصاحف المدينة ومكة والكوفة والبصرة وفي مصحف أبي وعبد الله وكذا (قواريرا). وروى هشام عن ابن عامر (سلاسل) في الوصل (وسلاسلا) بألف دون تنوين في الوقف، وروي أن من العرب من يقول رأيت عمرا بالألف في الوقف. (من كأس) (من) لابتداء الغاية (كان مزاجها كافوراً)، قال قتادة: تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك. وقيل: هو على التشبيه أي طيب رائحة وبرد كالكافور. وقال الكلبي: (كافوراً) اسم عين في الجنة وصرفت لتوافق الآي. وقرأ عبد الله (قافوراً) بالقاف بدل الكاف، وهما كثيراً ما يتعاقبان في الكلمة كقولهم: عربي قح وكح، و(عيناً) بدل من (كافوراً) ومفعولاً به (يشربون) أي ماء عين أو بدل من محل (من كأس) على حذف مضاف، أي يشربون خمراً خمر عين أو نصب على الاختصاص ولما كانت الكأس مبدأ شربهم أتي بـ (من) وفي (يشرب بها) أي يمزج شرابهم بها أي بالباء الدالة على الإلصاق. والمعنى يشرب عباد الله بها الخمر كما تقول: شربت الماء بالعسل، أو ضمن يشرب معنى يروى فعدي بالباء، وقيل: زائدة، والمعنى: يشربها. وقال الهذلي:

شربن بماء البحر ثم ترفعت ... متى لجج خضر لهن نئيج(3)

قيل: أي شربن ماء البحر. وقرأ ابن أبي عبلة (يشربها) و(عباد الله) هنا هم المؤمنون (يفجرونها) يثقبونها بعود

= عليه، وعطف بعض الصفات على بعضه وعطف الحرف على الحرف غير موجود في كلامهم، لا تقل لم يقم بين العاطفة، وإما لأحد الشيئين من عاطفة، وعلى هذا الذي اختاره الرضي يونس وأبو علي، وابن كيسان وابن عصفور. شرح الكافية (٢/ ٣٧٢ - ٣٩٨).

(1) تقدم.

(2) انظر البيت في روح المعاني (٢٩/ ١٥٢).

(3) تقدم.

قصب ونحوه حيث شاؤوا فهي تجري عند كل واحد منهم هكذا ورد في الأثر . وقيل : هي عين في دار رسول الله ـ ﷺ ـ تتفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين . ﴿ يوفون بالنذر ﴾ في الدنيا وكانوا يخافون . وقال الزمخشري : ﴿ يوفون ﴾ جواب من عسى يقول ما لهم يرزقون ذلك . انتهى . فاستعمل عسى صلة لـ ﴿ من ﴾ وهو لا يجوز ، وأتى بعد عسى بالمضارع غير مقرون بأن وهو قليل أو في شعر : والظاهر أن المراد بالنذر : ما هو المعهود في الشريعة أنه نذر . قال الأصم وتبعه الزمخشري : هذا مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه كان لما أوجبه الله تعالى عليه أوفى . وقيل ﴿ النذر ﴾ هنا عام لما أوجبه الله تعالى ، وما أوجبه العبد فيدخل فيه الإيمان وجميع الطاعات ﴿ على حبه ﴾ أي على حب الطعام إذ هو محبوب للفاقة والحاجة ، قاله ابن عباس ومجاهد . أو على حب الله ، أي لوجهه وابتغاء مرضاته . قاله الفضيل بن عياض وأبو سليمان الداراني . والأول أمدح ، لأن فيه الإيثار على النفس ، وأما الثاني فقد يفعله الأغنياء أكثر . وقال الحسن بن الفضل : على حب الطعام ، أي محبين في فعلهم ذلك لا رياء فيه ولا تكلف . ﴿ مسكيناً ﴾ وهو الطواف المتكفف في السؤال ﴿ ويتيماً ﴾ هو الصبي الذي لا أب له ﴿ وأسيراً ﴾ والأسير معروف وهو من الكفار ، قاله قتادة . وقيل : من المسلمين تركوا في بلاد الكفار رهائن وخرجوا لطلب الفداء . وقال ابن جبير وعطاء : هو الأسير من أهل القبلة . وقيل : وأسيراً استعارة وتشبيه . وقال مجاهد وابن جبير وعطاء : هو المسجون وقال أبو حمزة اليماني : هي الزوجة . وعن أبي سعيد الخدري : هو المملوك والمسجون . وفي الحديث «غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك» . ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ هو على إضمار القول ، ويجوز أن يكون صرحوا به خطاباً للمذكورين منعاً منهم ومن المجازاة بمثله أو الشكر لأن إحسانهم مفعول لوجه الله تعالى فلا معنى لمكافأة الخلق ، وهذا هو الظاهر . وقال مجاهد : إما أنهم ما تكلموا به ولكن الله تعالى علمه منهم فأثنى عليهم به . ﴿ لا نريد منكم جزاء ﴾ أي : بالأفعال ﴿ ولا شكوراً ﴾ أي : ثناء بالأقوال . وهذه الآية قيل : نزلت في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . يذكر النقاش في ذلك حكاية طويلة جداً ظاهرة الاختلاق ، وفيها إشعار للمسكين واليتيم والأسير يخاطبون بها بيت النبوة ، وإشعار لفاطمة رضي الله عنها تخاطب كل واحد منهم ظاهرها الاختلاق ، لسفساف ألفاظها ، وكسر أبياتها ، وسفاطة معانيها . ﴿ يوماً عبوساً ﴾ نسبة العبوس إلى اليوم مجاز . قال ابن عباس : يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من عينيه عرق كالقطران ، وقرأ الجمهور ﴿ فوقاهم ﴾ بتخفيف القاف ، وأبو جعفر بشدها ﴿ ولقاهم نضرة ﴾ بدل عبوس الكافر ﴿ وسروراً ﴾ فرحاً بدل حزنه ، لا تكاد تكون النضرة إلا مع فرح النفس وقرة العين وقرأ الجمهور ﴿ وجزاهم ﴾ وعلي ﴿ وجازاهم ﴾ على وزن فاعل ﴿ جنة وحريراً ﴾ بستاناً فيه كل مأكل هنيء ﴿ وحريراً ﴾ فيه ملبس بهي . وناسب ذكر الحرير مع الجنة ، لأنهم أوثروا على الجوع والعراء ﴿ لا يرون فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ شمساً ﴾ أي حر شمس ولا شدة برد أي لا شمس فيها فترى فيؤذي حرها ﴿ ولا زمهريراً ﴾ يرى فيؤذي بشدته ، أي هي معتدلة الهواء ، وفي الحديث : «هواء الجنة سجسج لا حر ولا قر» . وقيل : لا يرون فيها شمساً ولا قمراً ، والزمهرير : في لغة طيء ، القمر ، وقرأ الجمهور ﴿ ودانية ﴾ قال الزجاج : هو حال عطفاً على ﴿ متكئين ﴾ . وقال أيضاً : ويجوز أن يكون صفة للجنة فالمعنى وجزاهم جنة دانية . وقال الزمخشري ما معناه : إنها حال معطوفة على حال وهي ﴿ لا يرون ﴾ أي غير رائين ، ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين مجتمعان لهم . كأنه قيل : وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والقر ودنو الظلال عليهم . وقرأ أبو حيوة ﴿ ودانيةٌ ﴾ بالرفع ، واستدل به الأخفش على جواز رفع اسم الفاعل من غير أن يعتمد ، نحو قولك : قائم الزيدون ، ولا حجة فيه ، لأن الأظهر أن يكون ﴿ ظلالها ﴾ مبتدأ ﴿ ودانية ﴾ خبر له . وقرأ الأعمش ﴿ ودانياً عليهم ﴾ وهو كقوله ﴿ خاشعاً أبصارهم ﴾ [القمر ٧] وقرأ أبي ﴿ وداني ﴾ مرفوع فهذا يمكن أن يستدل به الأخفش . ﴿ وذللت قطوفها ﴾ قال قتادة ومجاهد وسفيان : إن كان الإنسان قائماً تناول الثمر دون كلفة وإن قاعداً أو مضطجعاً فكذلك فهذا تذليلها لا يرد اليد عنها بعد ولا شوك . فأما على قراءة الجمهور ﴿ ودانية ﴾ بالنصب كان ﴿ وذللت ﴾ معطوفاً على ﴿ دانية ﴾ لأنها في تقدير المفرد ، أي

ومذللة ، وعلى قراءة الرفع كان من عطف جملة فعلية على جملة اسمية . ويجوز أن تكون في موضع الحال ، أي وقد ذللت رفعت حالية أو نعتت . قوله عز وجل : ﴿ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً قوارير من فضة قدروها تقديراً ، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا ، عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ، وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ، عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ، إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ، إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً ، فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ، واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ، إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ، نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً ، إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً ، يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً ﴾ لما وصف تعالى طعامهم وسكناهم وهيئة جلوسهم ذكر شرابهم . وقدم ذكر الآنية التي يسقون منها ، والآنية : جمع إناء وتقدم شرح الأكواب . وقرأ نافع والكسائي (قواريراً قواريراً) بتنوينهما وصلاً وإبداله ألفاً وقفاً . وابن عامر وحمزة وأبو عمرو وحفص بمنع صرفهما ، وابن كثير بصرف الأول ومنع الصرف في الثاني وقال الزمخشري : وهذا التنوين بدل من ألف الإطلاق لأنه فاصلة ، وفي الثاني لإتباعه الأول انتهى . وهذا قاله في قراءة من قرأ ﴿ سلاسلاً ﴾ [الإنسان ٤] بالتنوين أنه بدل من حرف الإطلاق أجرى الفواصل مجرى أبيات الشعر ، فكما أنه يدخل التنوين في القوافي المطلقة إشعاراً بترك الترنم كما قال الراجز :

يا صاح ما هاج الدموع الذُّرَّفَنْ

فهذه النون بدل من الألف إذ لو ترنم لوقف بألف الإطلاق (من فضة) أي : مخلوقة من فضة ومعنى (كانت) أنه أوجدها تعالى من قوله ﴿ كن فيكون ﴾ [يس ٨٢] تفخيماً لتلك الخلقة العجيبة الشأن الجامعة بين بياض الفضة ونصوعها ، وشفيف القوارير وصفائها ، ومن ذلك قوله ﴿ كان مزاجها كافوراً ﴾ [الإنسان ٥] . وقرأ الأعمش (قواريرُ من فضة) بالرفع ، أي هو قوارير . وقرأ الجمهور (قدّروها) مبنياً للفاعل ، والضمير للملائكة ، أو للطائفين عليهم ، أو المنعمين . والتقدير على قدر الأكف . قاله الربيع ، أو على قدر الري ، قاله مجاهد . وقال الزمخشري : (قدروها) صفة لـ (قوارير من فضة) ومعنى تقديرهم لها : أنهم قدروها في أنفسهم على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم فجاءت كما قدروها ، وقيل : الضمير للطائفين بها دل عليه قوله (ويطاف عليهم) على أنهم قدروا شرابها على قدر الري ، وهو ألذ الشراب ، لكونه على مقدار حاجته لا يفضل عنه ، ولا يعجز وعن مجاهد : لا يفيض ولا يغيض ، انتهى . وقرأ علي وابن عباس والسلمي والشعبي وابن أبزى وقتادة وزيد بن علي والجحدري وعبد الله بن عبيد بن عمير وأبو حيوة وعباس عن أبان والأصمعي عن أبي عمرو وابن عبد الخالق عن يعقوب (قُدِّروها) مبنياً للمفعول ، قال أبو علي : كان اللفظ قدروا عليها وفي المعنى قلب لأن حقيقة المعنى أن يقال : قدرت عليهم ، فهي مثل قوله ﴿ ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ﴾ [القصص ٧٦] ومثل قول العرب : إذا طلعت الجوزاء ألقي العود على الحرباء . وقال الزمخشري : ووجهه أن يكون من قدر منقولاً من قدر تقول : قدرت الشيء وقدرنيه فلان إذا جعلك قادراً عليه ، ومعناه : جعلوا قادرين لها كما شاؤوا وأطلق لهم أن يقدروا على حسب ما اشتهوا . انتهى . وقال أبو حاتم : قدرت الأواني على قدر ريهم ففسر بعضهم قول أبي حاتم قال فيه حذف على حذف وهو أنه قدر على قدر ريهم إياها ثم حذف على فصار قدر ريهم مفعولاً لم يسم فاعله ثم حذف قدر فصار ريهم قائماً مقامه ثم حذف الري فصارت الواو مكان الهاء والميم لما حذف المضاف مما قبلها وصارت الواو

مفعول ما لم يسم فاعله واتصل ضمير المفعول الثاني في تقدير النصب بالفعل بعد الواو التي تحولت من المد ولم يبق حتى أقيمت مقام الفاعل . انتهى . والأقرب في تخريج هذه القراءة الشاذة : أن يكون الأصل : قدر ريهم منها تقديراً ، فحذف المضاف وهو الري وأقيم الضمير مقامه ، فصار التقدير : قدروا منها ، ثم اتسع في الفعل فحذفت من ووصل الفعل إلى الضمير بنفسه ، فصار : قدروها ، فلم يكن فيه إلا حذف مضاف واتساع في المجرور . والظاهر أن الكأس تمزج بالزنجبيل ، والعرب تستلذه ، وتذكره في وصف رضاب أفواه النساء كما تقدمنا عنهم في الكلام على المفردات . وقال الزمخشري : تسمى العين زنجبيلاً لطعم الزنجبيل فيها انتهى . وقال قتادة الزنجبيل : اسم لعين في الجنة يشرب منها المقربون صرفاً ويمزج لسائر أهل الجنة[1] وقال الكلبي : يسقى بجامين ، الأول مزاجه الكافور ، والثاني مزاجه الزنجبيل . و(عيناً) بدل من (كأساً) على حذف ، أي : كأس عين أو من زنجبيل على قول قتادة . وقيل : منصوب على الاختصاص . والظاهر أن هذه العين تسمى سلسبيلاً بمعنى توصف بأنها سلسلة في الاتساع ، سهلة في المذاق . ولا يحمل سلسبيل على أنه اسم حقيقة لأنه إذ ذاك كان ممنوع الصرف للتأنيث والعلمية . وقد روي عن طلحة أنه قرأه بغير ألف جعله علماً لها ، وإن كان علماً فوجه قراءة الجمهور بالتنوين المناسبة للفواصل كما قال ذلك بعضهم في (سلاسلاً) و(قواريراً) ويحسن ذلك أنه لغة لبعض العرب ، أعني صرف ما لا يصرفه أكثر العرب . وقال الزمخشري : وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية ، انتهى . وكأنه قد ذكر فقال : شراب سلسل وسلسال وسلسبيل ، فإن كان عني أنه زيد حقيقة فليس بجيد ، لأن الباء ليست من حروف الزيادة المعهودة في علم النحو ، وإن عني أنه حرف جاء في سنخ الكلمة وليس في سلسل ولا في سلسال فيصح ويكون مما اتفق معناه وكان مختلفاً في المادة . وقال بعض المعربين : (سلسبيلاً) أمر للنبي ﷺ ، ولأمته بسؤال السبيل إليها وقد نسبوا هذا القول إلى علي كرم الله وجهه ويجب طرحه من كتب التفسير والعجب من ذلك توجيه الزمخشري له واشتغاله بحكايته ويذكر نسبته إلى علي كرم الله وجهه ورضي عنه . وعن قتادة : هي عين تنبع من تحت العرش من جنة عدن إلى الجنان[2] . وعن عكرمة : عين سلس ماؤها[3] وقال مجاهد : حديدة الجرية سلسة سهلة المساغ[4] وقال مقاتل : عين يتسلسل عليهم ماؤها في مجالسهم كيف شاؤوا . وتقدم شرح (مخلدون) وتشبيه الولدان باللؤلؤ المنثور في بياضهم ، وصفاء ألوانهم ، وانتشارهم في المساكن في خدمة أهل الجنة ، يجيئون ويذهبون . وقيل : شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفه ، لأنه أحسن في العين ، وأبهج للنفس وجواب (إذا رأيت) نعيماً ومفعول فعل الشرط محذوف حذف اقتصاراً . والمعنى إذا رميت ببصرك هناك و(ثم) ظرف العامل فيه (رأيت) ، وقيل : التقدير : وإذا رأيت ما ثم حذفت ما كما حذفت في قوله ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [الأنعام ٩٤] أي : ما بينكم . وقال الزجاج : وتبعه الزمخشري ، فقال : ومن قدر ما ثم فقد أخطأ ، لأن (ثم) صلة لما ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة . انتهى . وليس بخطأ مجمع عليه ، بل قد أجاز ذلك الكوفيون ، وثم شواهد من لسان العرب كقوله :

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء[5]

أي : ومن يمدحه فحذف الموصول وأبقى صلته . وقال ابن عطية : و(ثم) ظرف العامل فيه (رأيت) أو معناه

---

(١) انظر القرطبي (١٩/ ٩٣) والنسفي (٤/ ٣٢٠) والوسيط (٤/ ٤٠٣) .

(٢) انظر القرطبي (١٩/ ٩٣) .

(٣) انظر القرطبي (١٩/ ٩٣) .

(٤) انظر القرطبي (١٩/ ٩٣) .

(٥) تقدم .

والعشاء . وقال ابن زيد وغيره : كان ذلك فرضاً ونسخ فلا فرض إلا الخمس . وقال قوم : هو محكم على وجه الندب . { إن هؤلاء } إشارة إلى الكفرة . { يحبون العاجلة } يؤثرونها على الآخرة . { ويذرون وراءهم } أي أمامهم وهو ما يستقبلون من الزمان . { يوماً ثقيلاً } استعير الثقل لليوم لشدته وهوله من ثقل الجرم الذي يتعب حامله وتقدم شرح الأسر في سورة القتال . { وإذا شئنا } أي تبديل أمثالهم بإهلاكهم { بدلنا أمثالهم } ممن يطيع . وقال الزمخشري : وحقه أن يجيء بإن لا بإذا ، كقوله ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ [محمد ٣٨] ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ [الأنعام ١٣٣] انتهى . يعني أنهم قالوا : إن إذا للمحقق وإن للممكن وهو تعالى لم يشأ لكنه قد توضع إذا موضع إن وإن موضع إذا كقوله ﴿ أفإن مت فهم الخالدون ﴾ [الأنبياء ٣٤] { إن هذه } أي السورة ، أو آيات القرآن ، أو جملة الشريعة ، ليس على جهة التخيير بل على جهة التحذير من اتخاذ غير سبيل الله . وقال الزمخشري : فمن شاء فمن اختار الخير لنفسه وحسن العاقبة واتخاذ السبيل إلى الله عبارة عن التقرب إليه والتوسل بالطاعة . { وما تشاءون } الطاعة { إلا أن يشاء الله } يقسرهم عليها . { إن الله كان عليماً } بأحوالهم وما يكون منهم { حكيماً } حيث خلقهم مع علمه بهم . انتهى . وفيه دسيسة الاعتزال . وقرأ العربيان وابن كثير { وما يشاءون } بياء الغيبة ، وباقي السبعة بتاء الخطاب . ومذهب أهل السنة أنه نفي لقدرتهم على الاختراع وإيجاد المعاني في أنفسهم ولا يرد هذا وجود ما لهم من الاكتساب . وقال الزمخشري : فإن قلت : ما محل { أن يشاء الله } ؟ قلت : النصب على الظرف ، وأصله إلا وقت مشيئة الله وكذلك قرأ ابن مسعود إلا ما يشاء الله لأن (ما) مع الفعل كأن معه . انتهى . ونصوا على أنه لا يقوم مقام الظرف إلا المصدر المصرح به ، كقولك : أجيئك صياح الديك ، ولا يجيزون : أجيئك أن يصيح الديك ، ولا ما يصيح الديك . فعلى هذا لا يجوز ما قاله الزمخشري . { يدخل من يشاء في رحمته } وهم المؤمنون . وقرأ الجمهور { والظالمين } نصباً بإضمار فعل يفسره قوله { أعد لهم } وتقديره : ويعذب الظالمين . وهو من باب الاشتغال ، جملة عطف فعلية على جملة فعلية . وقرأ ابن الزبير وأبان بن عثمان وابن أبي عبلة : { والظالمون } عطف جملة اسمية على فعلية ، وهو جائز حسن . وقرأ عبد الله { وللظالمين } بلام الجر ، وهو متعلق بـ { أعد لهم } توكيداً ، ولا يجوز أن يكون من باب الاشتغال ويقدر فعل يفسره الفعل الذي بعده ، فيكون التقدير : وأعد للظالمين أعد لهم . وهذا مذهب الجمهور ، وفيه خلاف ضعيف مذكور في النحو . فتقول : بزيد مررت به ويكون التقدير : مررت بزيد مررت به ويكون من باب الاشتغال والمحفوظ المعروف عن العرب نصب الاسم ونصب مررت الناصر به أشبهه من جهة المعنى فعلاً ناصباً .

سورة المرسلات مكية وهي خمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)

فرجت الشيء: فتحته فانفرج. قال الراجز:

بالفارجو باب الأمير المبهم

كفت: ضم وجمع. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «اكفتوا صبيانكم» ومنه قيل لبقيع الغرقد كفتة وكفت. والكفات: اسم لما يكفت كالضمام والجماع يقال هذا الباب جماع الأبواب. وقال الصمصامة بن الطرماح

فأنت اليوم فوق الأرض حي وأنت غداً تضمّك في كِفات[1]

وقال أبو عبيدة : الكفات الوعاء . شمخ : ارتفع . الشرر : ما تطاير من النار متفرقاً في كل جهة ، واحده شررة ولغة تميم شرار بالألف واحده شرارة . القصر : الدار الكبيرة المشيدة . والقصر : قطع من الخشب قدر الذراع وفوقه ودونه يستعد به للشتاء واحده قصرة ، والقصر : بفتح الصاد أعناق الإبل والنخل والناس واحده قصرة وبكسر القاف وفتح الصاد جمع قصرة كحقة من الحديد وحلق والله تعالى أعلم ﴿ والمرسلات عرفاً ، فالعاصفات عصفاً ، والناشرات نشراً ، فالفارقات فرقاً ، فالملقيات ذكراً ، عذراً أو نذراً ، إنما توعدون لواقع ، فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نسفت ، وإذا الرسل أقتت ، لأي يوم أجلت ، ليوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل ، ويل يومئذ للمكذبين ، ألم نهلك الأولين ، ثم نتبعهم الآخرين ، كذلك نفعل بالمجرمين ، ويل يومئذ للمكذبين ، ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون ، ويل يومئذ للمكذبين ، ألم نجعل الأرض كفاتاً ، أحياء وأمواتاً ، وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً ، ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

هذه السورة مكية : وحكي عن ابن عباس وقتادة ومقاتل أن فيها آية مدنية وهي ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ [المرسلات ٤٨] . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة جداً ، وهو أنه تعالى يرحم من يشاء ويعذب الظالمين فهذا وعد منه صادق فأقسم على وقوعه في هذه ، فقال (إنما توعدون لواقع) ولما كان المقسم به موصوفات قد حذفت وأقيمت صفاتها مقامها وقع الخلاف في تعيين تلك الموصوفات ، فقال ابن مسعود وأبو هريرة وأبو صالح ومقاتل والفراء (والمرسلات) الملائكة أرسلت بالعرف ضد النكر ، وهو الوحي فبالتعاقب على العباد طرفي النهار . وقال ابن عباس وجماعة : الأنبياء ومعنى (عرفاً) إفضالاً من الله تعالى على عباده ، ومنه قول الشاعر

لا يذهب العرف بين الله والناس

وانتصابه على أنه مفعول له ، أي أرسلن للإحسان والمعروف ، أو متتابعة تشبيهاً بعرف الفرس في تتابع شعره وأعراف الخيل ، وتقول العرب : الناس إلى فلان عرف واحد . إذا توجهوا إليه متتابعين ، وهم عليه كعرف الضبع إذا تألبوا عليه وانتصابه على الحال . وقال ابن مسعود أيضاً وابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة : الرياح[2] . وقال الحسن : السحاب . وقرأ الجمهور (عرْفاً) بسكون الراء وعيسى بضمها . (فالعاصفات) قال ابن مسعود : الشديدات الهبوب وقيل : الملائكة تعصف بأرواح الكفار أي ترعجها بشدة أو تعصف في مضيها كما تعصف الرياح تحققاً في امتثال أمره . وقيل : هي الآيات المهلكة كالزلازل والصواعق والخسوف . (والناشرات) قال السدي وأبو صالح ومقاتل : الملائكة تنشر صحف العباد بالأعمال . وقال الربيع : الملائكة تنشر الناس من قبورهم . وقال ابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة : الرياح رحمة لله ومطره . وقال أبو صالح الأمطار : تحيي الأرض بالنبات . وقال الضحاك : الصحف تنشر على الله تعالى بأعمال العباد . فعلى هذا تكون الناشرات على معنى النسب ، أي ذات النشر . (فالفارقات) قال ابن عباس وابن مسعود وأبو صالح ومجاهد والضحاك : الملائكة تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام . وقال قتادة والحسن وابن كيسان : آيات القرآن فرقت بين الحلال والحرام . وقال مجاهد أيضاً : الرياح تفرق بين السحاب فتبدده . وقيل : الرسل حكاه الزجاج وقيل : السحاب الماطر تشبيهاً بالناقة الفاروق وهي الحامل التي تخرج حين تضع . وقيل : العقول تفرق بين الحق والباطل

---

(١) البيت من الوافر انظر فتح القدير (٥/٤٢٠)

(٢) انظر الوسيط (٤/٤٠٦) والقرطبي (١٩/١٥٥) والطبري (١٢/٣٨٠) والدر المنثور (٦/٤٣٦)

بواوين على وزن فوعلت والمعنى : جعل لها وقت منتظر فحان وجاء أو بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره وهو يوم القيامة ، والواو في هذا كله أصل والهمزة بدل . قال الزمخشري : ومعنى توقيت الرسل تبيين وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم وجواب (إذا) محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وتقديره : إذا كان كذا وكذا وقع ما توعدون . (لأي يوم أجلت) تعظيم لذلك اليوم ، وتعجيب لما يقع فيه من الهول والشدة والتأجيل : من الأجل أي ليوم عظيم أخرت (ليوم الفصل) أي بين الخلائق ، (ويل) تقدم الكلام فيه في أول ثاني حزب من سورة البقرة (يومئذ) يوم إذ طمست النجوم وكان ما بعدها ، وقرأ الجمهور (نُهلك الأولين) بضم النون وقتادة بفتحها . قال الزمخشري : من هلكه بمعنى أهلكه . قال العجاج .

ومَهْمَهٍ هالكِ مَنْ تعرّجا[1]

انتهى . وخرج بعضهم : هالك من تعرجا

على أن هالكاً هو من اللازم ومَنْ موصول فاستدل به على أن الصفة المشبهة باسم الفاعل قد يكون معمولها موصولاً . وقرأ الجمهور (نتبعُهم) بضم العين على الاستئناف ، وهو وعيد لأهل مكة ويقوي الاستئناف قراءة عبد الله (ثم سنتبعهم) بسين الاستقبال . والأعرج والعباس عن أبي عمرو بإسكانها ، فاحتمل أن يكون معطوفاً على (نهلك) واحتمل أن يكون سكن تخفيفاً كما سكن ﴿ وما يشعركم ﴾ [الأنعام ١٠٩] فهو استئناف فعلى الاستئناف يكون (الأولين) الأمم التي تقدمت قريشاً أجمع ويكون (الآخرين) من تأخر من قريش وغيرهم . وعلى التشريك يكون (الأولين) قوم نوح وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ ومن كان معهم و (الآخرين) قوم فرعون ومن تأخر وقرب من مدة رسول الله ـ ﷺ ـ والإهلاك هنا : إهلاك العذاب والنكال ولذلك جاء (كذلك نفعل بالمجرمين) فأتى بالصفة المقتضية لإهلاك العذاب وهي الإجرام ، ولما ذكر إفناء الأولين والآخرين ذكر ووقف على أصل الخلقة التي يقتضي النظر فيها تجويز البعث (من ماء مهين) أي ضعيف هو مني الرجل والمرأة (في قرار مكين) وهو الرحم (إلى قدر معلوم) أي عند الله تعالى وهو وقت الولادة ، وقرأ علي بن أبي طالب (فقدّرنا) بشد الدال من التقدير كما قال ﴿ من نطفة خلقه فقدّره ﴾ [عبس ١٩] وباقي السبعة بخفها من القدرة . وانتصب (أحياء وأمواتاً) بفعل يدل عليه ما قبله . أي يكفت أحياء على ظهرها ، وأمواتاً في بطنها . واستدل بهذا من قال إن النباش يقطع لأن بطن الأرض حرز للكفن فإذا نبش وأخذ منه فهو سارق ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون المعنى نكفتكم أحياء وأمواتاً فينتصبا على الحال من الضمير لأنه قد علم أنها كفات الإنس . انتهى . و (رواسي) جبالاً ثابتات شامخات مرتفعات ، ومنه شمخ بأنفه : ارتفع منه تكبر ما جرم (وأسقيناكم) جعلناه سقياً لمزارعكم ومساقيكم ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب إنها ترمي بشرر كالقصر . كأنه جمالت صفر . ويل يومئذ للمكذبين . هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، ويل يومئذ للمكذبين ، هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ، فإن كان لكم كيد فكيدون ، ويل يومئذ للمكذبين ، إن المتقين في ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون ، كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين ، ويل يومئذ للمكذبين ، كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون ، ويل يومئذ للمكذبين ، وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ، ويل يومئذ للمكذبين ، فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ يقال للمكذبين (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) أي من العذاب (انطلقوا إلى ظل) أمر قراءة الجمهور تكراراً أو بياناً للمنطلق إليه . وقرأ رويس عن يعقوب بفتح

---

(١) رجز منسوب لعدة شعراء منهم العجاج ، انظر اللسان (هلك) وروح المعاني (٢٩ / ٢٢٠) الكشاف (٤ / ٢٠٩) .

الإعجاز والبلاغة والأخبار المغيبات وغير ذلك مما احتوى عليه ما لم يتضمنه كتاب إلهي ، فإذا كانوا مكذبين به ، ﴿ فبأي حديث بعده ﴾ يصدقون به ، أي لا يمكن تصديقهم بحديث بعد أن كذبوا بهذا الحديث الذي هو القرآن . وقرأ الجمهور ﴿ يؤمنون ﴾ بياء الغيبة . ويعقوب وابن عامر في رواية بتاء الخطاب .

سورة النبأ مكية وهي احدى وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ۝ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۝ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ۝ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ۝ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝ جَزَاءً وِفَاقًا ۝ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ۝ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۝ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۝ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ۝ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ۝ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ۝ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ۝

السبات: قال ابن قتيبة: السبات: أصله القطع والمد، فالنوم قطع الأعمال الشاقة، ومن المد قول الشاعر:

وإن سبتته مال جثلا كأنه ... سدى وابلات من نوائح خثعما

أي: إن مدت شعرها مال وانصب كالثقاف السدي بأيدي نساء ناسجات. الوهاج: المتوقد المتلألئ. المعصرات: قال الفراء: السحاب الذي يحلب المطر، ربما تجتمع مثل الجارية المعصر قد كادت تحيض ولم تحض. وقال نحوه ابن قتيبة.
وقال أبو النجم العجلي:

تَمْشِي الهُوَيْنَا مَائِلاً خِمَارُهَا ... قَدْ أَعْصَرَتْ أَوْ قَدْ دَنَا إِعْصَارُهَا[1]

الثج : قال ثعلب أصله شدة الانصباب . وقال الأزهري : الثجاج : شديد الانصباب ثج الماء وثججته ثجاً وثجوجاً يكون لازماً بمعنى الانصباب وواقعاً بمعنى الصب . قال الشاعر في وصف الغيث :

إِذَا رَمَقَتْ فِيهَا رَحىً مُرْجَحِنَّةٌ ... تَبَعَّجَ ثَجَّاجاً غَزِيرَ الحَوَافِلِ[2]

الألفاف : جمع لف ، ثم جمع لف على ألفاف . الكواعب : جمع كاعب وهي التي برز ثديها ، ومنه كعب الرجل لبروزه ، ومنه الكعبة . قال عاصم بن قيس المنقري :

وَكَمْ مِنْ حَصَانٍ قَدْ حَوَيْنَا كَرِيمَةٍ ... وَمِنْ كَاعِبٍ لَمْ تَدْرِ مَا البُؤْسُ مُعْصِرِ[3]

الدهاق : الملأى مأخوذ من الدهق ، وهو ضغط الشيء وشده باليد كأنه لامتلائه انضغط . وقيل : الدهاق : المتتابعة . قال الشاعر :

أَتَانَا عَامِرٌ يَبْغِي قِرَانَا ... فَأَتْرَعْنَا لَهُ كَأْساً دِهَاقَا[4]

وقال آخر :

لَأَنْتِ إِلَى الفُؤَادِ أَحَبُّ قُرْباً ... مِنَ الصَّادِي إِلَى كَأْسٍ دِهَاقِ[5]

﴿ عم يتساءلون ، عن النبأ العظيم ، الذي هم فيه مختلفون ، كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً ، وخلقناكم أزواجاً ، وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً ، وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ، وجعلنا سراجاً وهاجاً ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ، لنخرج به حباً ونباتاً ، وجنات ألفافاً ، إن يوم الفصل كان ميقاتاً ، يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً ، وفتحت السماء فكانت أبواباً ، وسيرت الجبال فكانت سراباً ﴾ هذه السورة مكية . وروي « أنه ـ ﷺ ـ لما بعث جعل المشركون يتساءلون بينهم فيقولون : ما الذي أتى به ؟ ويتجادلون فيما بعث به ، فنزلت[6] » . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة لما ذكر (فبأي حديث بعده يؤمنون) أي : بعد الحديث الذي هو القرآن وكانوا يتجادلون فيه ويسألون عنه ، قال (عم يتساءلون) وقرأ الجمهور (عمّ) وعبد الله وأبيّ وعكرمة وعيسى (عمّا) بالألف ، وهو أصل (عم) والأكثر حذف الألف من ما الاستفهامية إذا دخل عليها حرف الجر وأضيف إليها ، ومن إثبات الألف قوله :

عَلَى مَا قَامَ يَشْتُمُنِي لَئِيمٌ ... كَخِنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي رَمَادِ[7]

وقرأ الضحاك وابن كثير في رواية (عمّه) بهاء السكت لإجراء الوصل مجرى الوقف ، لأن الأكثر في الوقف على ما

---

(١) البيت من الرجز انظر روح المعاني (٣٠/٦٢) ، اللسان (عصر) .

(٢) البيت من الطويل ذكره السمين في الدر المصون .

(٣) انظر تفسير القرطبي (١٩/١٦٩) .

(٤) البيت من الوافر لخداش بن زهير انظر اللسان (دهق)

(٥) البيت من الوافر انظر القرطبي (١٩/١٢٠) .

(٦) انظر الوسيط (١٧٧ خ) والقرطبي (٣٠/٢) والقرطبي (٦٩٦١/٩) والبغوي (٤/٤٣٦) ، والدر المنثور (٦/٣٠٥) .

(٧) تقدم .

السموات . وقال ابن عباس وأبو العالية والربيع والضحاك : السحاب القاطرة ، مأخوذ من العصر ، لأن السحاب ينعصر فيخرج منه الماء . وقيل : السحاب التي فيها الماء ولم تمطر . وقال ابن كيسان : سميت بذلك من حيث تغيث فهي من العصرة ومنه قوله ﴿وفيه يعصرون﴾ [يوسف ٤٩] والعاصر المغيث فهو ثلاثي وجاء هنا من أعصر أي دخلت في حين العصر فحان لها أن تعصر وأفعل للدخول في الشيء . وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة : الرياح ، لأنها تعصر السحاب جعل الإنزال منها لما كانت سبباً فيه . وقرأ ابن الزبير وابن عباس والفضل بن عباس أخوه وعبد الله بن يزيد وعكرمة وقتادة (بالمعصرات) بالباء بدل من ، قال ابن عطية : فهذا يقوي أنه أراد الرياح . وقال الزمخشري فيه وجهان : أن يراد بالرياح التي حان لها أن تعصر السحاب وأن يراد السحاب لأنه إذا كان الإنزال منها فهو بها كما تقول أعطى من يده درهماً وأعطى بيده درهماً . (ثجاجاً) منصباً بكثرة ، ومنه « أفضل الحج العج والثج » أي رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدي . وقرأ الأعرج (ثجاحاً) بالحاء آخراً ومساحج الماء ، مصابه والماء ينثجح في الوادي . (حباً ونباتاً) بدأ بالحب ، لأنه الذي يتقوت به كالحنطة والشعير ، وثنى بالنبات فشمل كل ما ينبت من شجر وحشيش ودخل فيه الحب . (ألفافاً) ملتفة . قال الزمخشري : ولا واحد له كالأوزاع والأخياف . وقيل : الواحد لف . وقال صاحب الإقليد : أنشدني الحسن بن علي الطوسي :

جنـــة لف وعيش مغدق وندامى كلهم بيض زهر[1]

ولو قيل هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان قولاً وجيهاً ، انتهى . ولا حاجة إلى هذا القول ولا إلى وجاهته . فقد ذكر في المفردات أن مفرده لف بكسر اللام ، وأنه قول جمهور أهل اللغة . (إن يوم الفصل) وهو يوم القيامة يفصل فيه بين الحق والباطل (كان ميقاتاً) أي في تقدير الله وحكمه توقت به الدنيا وتنتهي عنده ، أو حداً للخلائق ينتهون إليه . (يوم ينفخ في الصور) بدل من (يوم الفصل) ، قال الزمخشري : أو عطف بيان وتقدم الكلام في الصور . وقرأ أبو عياض (في الصوَر) بفتح الواو جمع صورة ، أي : يرد الله الأرواح إلى الأبدان . والجمهور بسكون الواو (فتأتون) من القبور إلى الموقف أمماً كل أمة بإمامها . وقيل : جماعات مختلفة . وذكر الزمخشري حديثاً في كيفيات قبيحة لعشرة أصناف يخلقون عليها وسبب خلقه من خلق على تلك الكيفية ، والله أعلم بصحته . وقرأ الكوفيون (وفُتِحَتْ) خفيفاً ، والجمهور بالتشديد (فكانت أبواباً) تنشق حتى يكون فيها فتوح كالأبواب في الجدرات . وقيل : ينقطع قطعاً صغاراً حتى تكون كالألواح الأبواب المعهودة . وقال الزمخشري : فتحت فكانت أبواباً ، أي : كثرت أبوابها لنزول الملائكة كأنها ليست إلا أبواباً مفتحة كقوله ﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾ [القمر ١٢] كأن كلها عيون تتفجر . وقيل : الأبواب : الطرق والمسالك ، أي : تكشط فينفتح مكانها وتصير طرقاً لا يسدها شيء . (فكانت سراباً) أي تصير شيئاً كلا شيء لتفرق أجزائها وانبثاث جواهرها ، انتهى . وقال ابن عطية : عبارة عن تلاشيها وفنائها بعد كونها هباء منبثاً ولم يرد أن الجبال تشبه الماء على بعد من الناظر إليها . وقال الواحدي : على حذف مضاف ، أي ذات أبواب . قوله عز وجل ﴿إن جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآباً ، لابثين فيها أحقاباً ، لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، إلا حميماً وغساقاً ، جزاء وفاقاً ، إنهم كانوا لا يرجون حساباً ، وكذبوا بآياتنا كذاباً ، وكل شيء أحصيناه كتاباً ، فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ، إن للمتقين مفازاً ، حدائق وأعناباً ، وكواعب أتراباً ، وكأساً دهاقاً ، لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ، جزاء من ربك عطاء حساباً ، رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً ، يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ، ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ، إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ، يوم ينظر المرء ما قدمت

---

(1) البيت من الرمل ، انظر الكشاف (٤ / ٦٨٧) .

ومنه قول الآخر:

أَمَانِيُّ مِنْ سُعْدَى حِسَانٌ كَأَنَّمَا ... سَقَتْكَ بِهَا سُعْدَى عَلَى ظَمَأٍ بَرْدَا(١)

والشوق على هذا حقيقة. والنحويون ينشدون على هذا بيت حسان: بَرَدى بفتح الراء والدال بعدها ألف التأنيث وهو نهر في دمشق وتقدم شرح الحميم والغساق وخلاف القراء في شدة الشين وخفتها (وفاقاً) أي لأعمالهم وكفرهم، ووصف الجزاء بالمصدر لـ(وافق) أو على حذف مضاف، أي ذا وفاق. وقال الفراء: هو جمع وفق. وقرأ الجمهور بخف الفاء. وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة بشدها من وفقه كذا. (لا يرجون) لا يخافون أو لا يؤمنون. والرجاء والأمل مفترقان. والمعنى هنا: لا يصدقون بالحساب فهم لا يؤمنون ولا يخافون. وقرأ الجمهور (كِذَّاباً) بشد الذال مصدر كذَّب، وهي لغة لبعض العرب يمانية، يقولون في مصدر فعَّل فِعَّالاً وغيرهم يجعل مصدره على تفعيل نحو تكذيب، ومن تلك اللغة قول الشاعر:

لَقَدْ طَالَ مَا ثَبَّطْتَنِي عَنْ صَحَابَتِي ... وَعَنْ حَاجَةٍ قِضَّاؤُهَا مِنْ شِفَائِيَا(٢)

ومن كلام أحدهم وهو يستفتي: الحلق أحب إليك أم القِصَّار؟ يريد التقصير يعني في الحج. وقال الزمخشري: وفِعَّال في باب فعَّل كله فاشٍ في كلام فصحاء من العرب لا يقولون غيره، وسمعني بعضهم أفسر آية فقال: لقد فسَّرتها فِسَّاراً ما سمع بمثله. وقرأ علي وعوف الأعرابي وأبو رجاء والأعمش وعيسى بخلاف عنه بخف الذال. قال صاحب اللوامح: علي وعيسى البصرة وعوف الأعرابي (كِذَاباً) كلاهما بالتخفيف، وذلك لغة اليمن بأن يجعلوا مصدر كذب مخففاً كِذاباً بالتخفيف مثل كتب كتاباً فصار المصدر هنا من معنى الفعل دون لفظه مثل أعطيته عطاء. انتهى. وقال الأعشى:

فَصَدَقْتُهَا وَكَذَبْتُهَا ... وَالمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهْ(٣)

وقال الزمخشري: هو مثل قوله ﴿أنبتكم من الأرض نباتاً﴾ [نوح ١٧] يعني: وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذاباً أو تنصبه بـ(كذبوا) لأنه يتضمن معنى كذبوا لأن كل مكذب بالحق كاذب، وإن جعلته بمعنى المكاذبة فمعناه وكذبوا بآياتنا فكاذبوا مكاذبة، أو كذبوا بها مكاذبين، لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة، أو لأنهم يتكلمون بما هو إفراط في الكذب فعل من يغالب في أمر فيبلغ فيه أقصى جهده. انتهى. والأظهر الإعراب الأول، وما سواه تكلف. وفي كتاب ابن عطية وكتاب اللوامح: وقرأ عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وفي كتاب ابن خالويه: عمر بن عبد العزيز والماجشون ثم اتفقوا (كُذَّاباً) بضم الكاف وشد الذال، فخرج على أنه جمع كاذب، وانتصب على الحال المؤكدة، وعلى أنه مفرد صفة لمصدر أي تكذيباً كذاباً مفرطاً في التكذيب. وقرأ الجمهور (وكلَّ شيء) بالنصب، وأبو السمال بالرفع وانتصب (كتاباً) على أنه مصدر من معنى (أحصيناه) أي إحصاء، أو يكون (أحصيناه) في معنى كتبناه، والتجوز إما في المصدر وإما في الفعل وذلك لالتقائهما في معنى الضبط، أو على أنه مصدر في موضع الحال، أو مكتوباً في اللوح وفي صحف الحفظة. (وكلُّ شيء) عام مخصوص. أي كل شيء مما يقع عليه الثواب والعقاب وهي جملة اعتراض معترضة. و(فذوقوا) مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات. وقال عبد الله بن عمرو: ما نزلت في أهل النار آية أشد من هذه. ورواه أبو برزة عن النبي ﷺ. ولما ذكر شيئاً من حال أهل النار ذكر ما

(١) البيت من الطويل لرجل من بني الحارث انظر ديوان الحماسة (٢/ ١٠٩) وروح المعاني (٣٠/ ١٤).
(٢) البيت من الطويل انظر اللسان (قضى) وروح المعاني (٣٠/ ٢٠).
(٣) البيت من مجزوء الكامل ليس في ديوان الأعشى انظر الكشاف (٤/ ٦٨٩) ونسب في اللسان للأعشى (صدق).

لأهل الجنة فقال ﴿ إن للمتقين مفازاً ﴾ أي : موضع فوز وظفر حيث زحزحوا عن النار وأدخلوا الجنة ، و ﴿ حدائق ﴾ بدل من ﴿ مفازاً ﴾ وفوزاً فيكون أبدل الجرم من المعنى على حذف ، أي فوز حدائق أي بها . ﴿ دهاقاً ﴾ قال الجمهور : مترعة[1] ، وقال مجاهد وابن جبير : متتابعة[2] ، وقرأ الجمهور ﴿ ولا كِذَّاباً ﴾ بالتشديد أي لا يكذب بعضهم بعضاً وقرأ الكسائي بالتخفيف كاللفظ الأول في قوله تعالى ﴿ وكذبوا بآياتنا كِذّاباً ﴾ مصدر كذب ومصدر كاذب . قال الزمخشري : ﴿ جزاء ﴾ مصدر مؤكد منصوب بمعنى قوله ﴿ إن للمتقين مفازاً ﴾ كأنه قال جازى المتقين بمفاز وعطاء نصب به ﴿ جزاء ﴾ نصب المفعول به ، أي جزاهم عطاء . انتهى . وهذا لا يجوز ، لأنه جعله مصدراً مؤكداً لمضمون الجملة التي هي ﴿ إن للمتقين مفازاً ﴾ والمصدر المؤكد لا يعمل ، لأنه ليس ينحل بحرف مصدري والفعل ولا نعلم في ذلك خلافاً . وقرأ الجمهور ﴿ حساباً ﴾ وهو صفة لـ ﴿ عطاء ﴾ أي كافياً من قولهم : أحسبني الشيء ، أي كفاني ، وقال مجاهد : معنى حساباً هنا بتقسيط على الأعمال لأن دخول الجنة برحمة الله والدرجات فيها على قدر الأعمال فالحساب هنا بموازنة الأعمال . وقرأ ابن قطيب ﴿ حِسَّاباً ﴾ بفتح الحاء وشد السين . قال ابن جني : بنى فَعَّالاً من أفعل كدرّاك من أدرك انتهى . فمعناه محسباً أي كافياً ، وقرأ شريح بن يزيد الحمصي وأبو البرهسم بكسر الحاء وشد السين وهو مصدر مثل كِذّاب أقيم مقام الصفة ، أي إعطاء محسباً أي كافياً . وقرأ ابن عباس وسراج ﴿ حسناً ﴾ بالنون من الحسن وحكى عنه المهدوي ﴿ حَسْباً ﴾ بفتح الحاء وسكون السين والباء نحو قولك حسبك كذا أي كافيك ، وقرأ عبد الله وابن أبي إسحق والأعمش وابن محيصن وابن عامر وعاصم ﴿ ربِّ ﴾ و ﴿ الرحمن ﴾ بالجر والأعرج وأبو جعفر وشيبة وأبو عمرو والحرميان برفعهما . والأخوان ﴿ ربِّ ﴾ بالجر و ﴿ الرحمنُ ﴾ بالرفع وهي قراءة الحسن وابن وثاب والأعمش وابن محيصن بخلاف عنهما ، في الجر على البدل ﴿ من ربك ﴾ و ﴿ الرحمن ﴾ صفة أو بدل ﴿ من رب ﴾ أو عطف بيان . وهل يكون بدلاً ﴿ من ربك ﴾ فيه نظر ، لأن البدل الظاهر أنه لا يتكرر فيكون كالصفات ، والرفع على إضمار هو ربُّ أو على الابتداء وخبره ﴿ لا يملكون ﴾ والضمير في ﴿ لا يملكون ﴾ عائد على المشركين ، قاله عطاء عن ابن عباس ، أي لا يخاطب المشركون الله أما المؤمنون فيشفعون ويقبل الله ذلك منهم . وقيل : عائد على المؤمنين ، أي لا يملكون أن يخاطبوه في أمر من الأمور لعلمهم أن ما يفعله عدل منه . وقيل : عائد على أهل السموات والأرض والضمير في ﴿ منه ﴾ عائد عليه تعالى والمعنى : أنهم لا يملكون من الله أن يخاطبوه في شيء من الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك فيزيدون فيه أو ينقصون منه . والعامل في ﴿ يوم ﴾ إما ﴿ لا يملكون ﴾ وإما ﴿ لا يتكلمون ﴾ وقد تقدم الخلاف في ﴿ الروح ﴾ أهو جبريل أم ملك أكبر الملائكة خلقة ، أو خلق على صورة بني آدم ، أو خلق حفظة على الملائكة ، أو أرواح بني آدم ، أو القرآن ، وقيامه مجاز يعني ظهور آثاره الكائنة عن تصديقه أو تكذيبه ، والظاهر : عود الضمير في ﴿ لا يتكلمون ﴾ على ﴿ الروح ﴾ و ﴿ الملائكة ﴾ ، وقال ابن عباس : عائد على الناس فلا يتكلم أحد إلا بإذن منه تعالى ونطق بالصواب . وقال عكرمة : الصواب لا إله إلا الله أي قالها في الدنيا . وقال الزمخشري : هما شريطتان أن يكون المتكلم منهم مأذوناً لهم في الكلام ، وأن يتكلم بالصواب ، فلا يشفع لغير مرتضى لقوله تعالى ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [الأنبياء ٢٨] انتهى . ﴿ذلك اليوم الحق﴾ أي كيانه ووجوده ﴿فمن شاء﴾ وعيد وتهديد . والخطاب في ﴿أنذرناكم﴾ لمن حضر النبي - ﷺ - ويندرج فيه من يأتي بعدهم ﴿ عذاباً ﴾ هو عذاب الآخرة لتحقق وقوعه وكل آت قريب . ﴿ ويوم ينظر المرء ﴾ عام في المؤمن والكافر . ﴿ ما قدمت يداه ﴾ من خير أو شر لقيام الحجة له وعليه ، وقال الزمخشري : وقاله قبله عطاء : المرء هو الكافر لقوله ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ﴾ ، والكافر ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم ومعنى ما قدمت يداه من الشر

---

(١) انظر القرطبي (١٩/ ١٦٠) والطبري (٣٠/ ١٣) وتفسير مجاهد (٢/ ٧٢٦) وتفسير عبد الرزاق .

(٢) انظر المصادر السابقة .

سورة النازعات مكية وهي ست وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢٦﴾ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

أغرق في الشيء بالغ فيه وأنهاه، وأغرق النازع في القوس: بلغ غاية المد حتى ينتهي إلى النصل، والاستغراق الاستيعاب. والنشط: نشطه بالأنشوطة، نشطة السير والإنشاط ربطه، وأنشطه حله ومده، وكأنما أنشط من عقال، ونشط: ذهب من قطر إلى قطر، ولذلك قيل لبقر الوحش النواشط، لأنهن يذهبن بسرعة من مكان إلى مكان، ومنه قول الشاعر وهو هميان بن قحافة:

أرى همومي تنشط المناشطا ... الشام بي طورًا وطورًا واسطا(1)

---

(١) البيت من الرجز [illegible]

وكأن هذه اللفظة مأخوذة من النشاط . وقال أبو زيد . نشطت الحبل أنشطه نشطاً عقدته أنشوطة وأنشطته حللته وأنشطت الحبل مددته . وقال الليث : أنشطته بأنشوطة ، أي وثقته وأنشطت العقال مددت أنشوطته فانحلت . ويقال : نشط بمعنى أنشط . والأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها إذا جذبت كعقدة التكة . وجف القلب وجيفاً : اضطرب من شدة الفزع ، وكذلك وجب وجيباً ، في كتاب لغات القرآن المروي عن ابن عباس : واجفة : خائفة بلغة همدان . الحافرة : يقال : رجع فلان في حافرته ، أي في طريقته التي جاء منها فحفرها أي أثر فيها بمشيه فيها جعل أثر قدميه حفراً وتوقعها العرب على أول أمر يرجع إليه من آخره . ومنه قول الشاعر :

أَحَـافِرَةً عَلَى صَلَعٍ وَشَيْبٍ ... مَعَـاذَ اللهِ مِنْ سَفَـهٍ وَعَـارِ[1]

أي أأرجع إلى الصبا بعد الصلع والشيب ، الناخرة . المصوتة بالريح المجوفة ، والنخرة بمعناها كطامع وطمع وحاذر وحذر قاله الفراء وأبو عبيد وأبو حاتم وجماعة . وقيل : النخرة : البالية المتفتتة الصائرة رميماً . نخر العود والعظم : بلي وتفتت ، فعلى هذا مغاير للناخرة وهو قول الأكثرين . وقال أبو عمرو بن العلاء : الناخرة ، التي لم تنخر بعد والنخرة التي قد بليت . قال الراجز لفرسه :

أَقْـدِمْ أَخَـا نِهْمٍ عَلَى الأَسَـاوِرَةْ ... وَلَا تَهُـولَنَّـكَ رُؤوسٌ نَـادِرَهْ
فَـإِنَّمَا قَصْـرُكَ تُرْبُ السَّـاهِـرَةْ ... حَتَّى تَعُودَ بَعْدَهَا فِي الحَـافِرَةْ[2]
مِنْ بَعْدِمَا صِرْتَ عِظَامَاً نَاخِرَةْ

وقال الشاعر

وَأَخْلَيْتَهَـا مِنْ مُخِّهَـا فَكَـأَنَّهَـا ... قَـوَارِيرُ فِي أَجْوَافِهَـا الرِّيحُ تَنْخَرُ[3]

ويروى تصفر ونُخرة الريح بضم النون : شدة هبوبها والنخرة أيضاً مقدم أنف الفرس والحمار والخنزير ، يقال : هشم نخرته ، الساهرة : وجه الأرض والفلاة ، وصفت بما يقع فيها وهو السهر للخوف . وقال أمية بن أبي الصلت :

وَفِيهَـا لَحْمُ سَـاهِـرَةٍ وَبَحْـرٌ ... وَمَـا فَاهُوا بِـهِ لَهُمْ مُقِيـمُ[4]

وقال أبو بكر الهذلي .

يَرْتَدْنَ سَـاهِرَةً كَـأَنَّ جَمِيمَهَـا ... وَعَمِيمَهَا أَسْدَافُ لَيْلٍ مُظْلِمِ[5]

والساهور كالغلاف للقمر يدخل فيه إذا كسف . وقال أمية بن أبي الصلت :

وَبَثَّ الخَلْقَ فِيهَـا إِذْ دَحَـاهَـا ... فَهُمْ قُطَّانُهَـا حَتَّى التَّنَـادِي[6]

---

(١) البيت من الوافر لم ينسب لقائله انظر اللسان (حفر) فتح القدير (٥/٣٧٤) .
(٢) الأبيات من الرجز لمجهول انظر اللسان (نخر)
(٣) البيت من الطويل للمازني انظر ديوان الحماسة (٢/١٦٥)
(٤) البيت من الوافر انظر اللسان (سهر) .
(٥) البيت من المنسرح انظر اللسان (سهر) فتح القدير (٥/٣٧٥)
(٦) البيت من الوافر انظر فتح القدير (٥/٣٧٩)

غير تقريب. وقال ابن عطية: رفع قلوب بالابتداء، وجاز ذلك وهي نكرة، لأنها قد تخصصت بقوله (يومئذ) انتهى.
ولا تتخصص الأجرام بظروف الزمان، وإنما تخصصت بقوله (واجفة) (يقولون) حكاية حالهم في الدنيا، والمعنى هم الذين يقولون، و(الحافرة) قال مجاهد: فاعلة بمعنى مفعولة. وقيل: على النسب، أي: ذات حفر، والمراد: القبور، أي مردودون أحياء في قبورنا. وقال زيد بن أسلم: (الحافرة) النار. وقيل: جمع حافرة بمعنى القدم، أي أحياء نمشي على أقدامنا ونطأ بها الأرض. وقال ابن عباس: الحياة الثانية هي أول الأمر وتقول انتجز النقد في الحافرة أي: في ابتداء السوم. وقال الشاعر:

آليتُ لا أنساكمُ فاعلموا ... حتى يُرَدَّ الناسُ في الحافرة(1)

وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة (في الحفرة) بغير ألف والجمهور بالألف، وقيل: هما بمعنى واحد. وقيل: هي الأرض المنتخرة بأجساد موتاها، من قولهم: حفرت أسنانه إذا تآكلت وتغيرت. وقرأ عمر وأبي وعبد الله وابن الزبير وابن عباس ومسروق ومجاهد والأخوان وأبو بكر (ناخرة) بألف، وأبو رجاء والحسن والأعرج وأبو جعفر وشيبة والسلمي وابن جبير والنخعي وقتادة وابن وثاب وأهل مكة وشبل وباقي السبعة بغير ألف. (قالوا تلك إذاً) أي الرجعة إلى الحافرة بعدنا (كرة خاسرة) أي قالوا لتكذيبهم بالبعث، أي لو كان هذا حقاً لكانت ردتنا خاسرة إذ هي إلى النار. وقال الحسن: خاسرة: كاذبة، أي ليست بكائنة وهذا القول منهم استهزاء. وروي أن بعض صناديد قريش قال ذلك. (فإنما هي زجرة واحدة) لما تقدم (يقولون أئنا لمردودون) تضمن قولهم استبعاد النشأة الثانية واستغرابها فجاء قوله (فإنما) مرتبطاً بما دل عليه استبعادهم، فكأنه قيل: ليس بصعب ما تقولون فإنما هي نفخة واحدة (فإذا هم) منشورون أحياء على وجه الأرض قال ابن عباس: بالساهرة: الأرض من فضة يخلقها الله تعالى(2). وقال وهب بن منبه: جبل بالشام يمده الله تعالى يوم القيامة لحشر الناس. وقال أبو العالية وسفيان: أرض قريبة من بيت المقدس. وقال ابن عباس: أرض مكة. وقال قتادة: جهنم، لأنه لا نوم لمن فيها. وأي أن الضمائر قبلها إنما هي للكفار فسرها بجهنم. وقيل: الأرض السابعة يأتي بها الله يحاسب عليها الخلائق. ولما أنكروا البعث وتمردوا شق ذلك على رسول الله ﷺ فقص تعالى عليه قصة موسى عليه السلام، وتمرد فرعون على الله عزَّ وجلَّ حتى ادعى الربوبية وما آل إليه حال موسى من النجاة، وحال فرعون من الهلاك، فكان ذلك مسلاة لرسول الله ﷺ، وتبشيراً بهلاك من يكذبه ونجاته هو من أذاهم. قال تعالى (هل أتاك) توقيفاً له على جمع النفس لما يلقيه إليه وتقدم الكلام في (بالوادي المقدس) والخلاف في القراءات في (طُوى) (اذهب إلى فرعون) تفسير للنداء أو على إضمار القول (فقل هل لك إلى أن تزكى) تلطف في الاستدعاء، لأن كل عاقل يجيب مثل هذا السؤال بنعم. وتزكى: تتحلى بالفضائل، وتتطهر من الرذائل والزكاة هنا يندرج فيها الإسلام وتوحيد الله تعالى. وقرأ الحرميان وأبو عمرو بخلاف (تزكّى) و(تصدّى) [عبس ٦] بشد الزاي والصاد، وباقي السبعة بتخفيفهما. وتقول العرب: هل لك في كذا؟ وهل لك إلى كذا؟ فيحذفون القيد الذي يتعلق به (إلى) أي هل لك رغبة أو حاجة إلى كذا، أو سبيل إلى كذا. قال الشاعر:

فهل لكمُ فيها إليَّ فإنني ... بصيرٌ بما أعيا النطاسيَّ حذيما(3)

---

(1) البيت من الكامل انظر فتح القدير (٥/٣٦٢).
(2) تفسير القرطبي (١٩/١٣٠).
(3) البيت من الطويل لأوس بن حجر، انظر ديوانه (١٢١)، اللسان (نطس)، فتح القدير (٥/٣٦٢).

نزل ذلك في أبي جهل ومصعب بن عمير العبدري ـ رضي الله تعالى عنه ـ وعنه أيضاً { فأما من طغى } فهو أخ لمصعب بن عمير أسر فلم يشدوا وثاقه وأكرموه وبيتوه عندهم فلما أصبحوا حدثوا مصعباً فقال: ما هو لي بأخ شدوا أسيركم فإن أمه أكثر أهل البطحاء حلياً ومالاً فأوثقوه { وأما من خاف مقام ربه } فمصعب بن عمير وقى رسول الله ـ ﷺ ـ بنفسه يوم أحد حين تفرّق الناس عنه حتى نفذت المشاقص في جوفه وهي السهام فلما رآه رسول الله ـ ﷺ ـ متشحطاً في دمه، قال: «عند الله أحتسبك» وقال لأصحابه: «لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما وإن شراك نعله من ذهب»، قيل: واسم أخيه عامر. وفي الكشاف: وقيل الآيتان نزلتا في أبي عزيز بن عمير ومصعب بن عمير وقد قتل مصعب أخاه أبا عزيز يوم أحد ووقى رسول الله ـ ﷺ ـ بنفسه حتى نفذت المشاقص في جوفه. انتهى. { يسألونك } أي قريش، وكانوا يلحون في البحث عن وقت الساعة إذ كان يتوعدهم بها، ويكثر من ذلك فنزلت هذه الآية { أيان مرساها } متى إقامتها؟ أي متى يقيمها الله؟ ويثبتها ويكونها؟ وقيل: أيان منتهاها ومستقرها؟ كما أن مرسى السفينة ومستقرها حيث تنتهي إليه { فيم أنت من ذكراها } قالت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ كان رسول الله ـ ﷺ ـ يسأل عن الساعة كثيراً فلما نزلت هذه الآية انتهى، والمعنى في أي شيء أنت من ذكر تحديدها ووقتها أي لست من ذلك في شيء، وإنما أنت منذر { إلى ربك منتهاها } أي انتهاء علم وقتها لم يؤت علم ذلك أحداً من خلقه. وقيل { فيم } إنكار لسؤالهم، أي فيم هذا السؤال، ثم قال { أنت من ذكراها } وعلامة من علاماتها، فكفاهم بذلك دليلاً على دنوها ومشارفتها ووجوب الاستعداد لها، ولا معنى لسؤالهم عنها، { إنما أنت منذر من يخشاها } أي لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة الذي لا فائدة لهم في علمه وإنما بعثت لتنذر من أهوالها من يكون إنذارك لطفاً له في الخشية منها. انتهى. وهذا القول حكاه الزمخشري وزيفه بكثرة الحذف، وهو تفكيك للكلام وخروج عن الظاهر المتبادر إلى الفهم ولا يخلو من شبهة الاعتزال. وقرأ الجمهور { منذرُ من } بالإضافة، وقرأ عمر بن عبد العزيز وأبو جعفر وشيبة وخالد الحذاء وابن هرمز وعيسى وطلحة وابن عباس وأبو عمرو في رواية وابن مقسم { منذرٌ } بالتنوين. وقال الزمخشري: وقرىء { منذرٌ } بالتنوين وهو الأصل والإضافة تخفيف. وكلاهما يصلح للحال والاستقبال فإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة، كقولك: هو منذر زيد أمس انتهى. أما قوله: وهو الأصل يعني التنوين فهو قول قد قاله غيره من تقدم. وقد قررت في هذا الكتاب وفي كتبي في هذا العلم: أن الأصل الإضافة لأن العمل إنما هو بالشبه والإضافة هي أصل في الأسماء. وأما قوله: فإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة، فهذا فيه تفصيل وخلاف مذكور في علم النحو. وخص { من يخشاها } لأنه هو المنتفع بالإنذار { كأنهم يوم يرونها } تقريب وتقرير لقصر مقامهم في الدنيا { لم يلبثوا } لم يقيموا في الدنيا { إلا عشية } يوم أو بكرته. وأضاف الضحى إلى العشية، لكونهما طرفي النهار بدأ بذكر أحدهما فأضاف الآخر إليه تجوّزاً واتساعاً وحسن الإضافة كون الكلمة فاصلة. والله سبحانه وتعالى أعلم

والحسن وأبو عمران الجوني وعيسى (أأن) بهمزة ومدة بعدها، وبعض القراء بهمزتين محققتين. والهمزة في هاتين القراءتين للاستفهام وبها يقف على (تولى). والمعنى: ألأن جاءه كذا كان كذا. وجاء بضمير الغائب في (عبس وتولى) إجلالاً له عليه الصلاة والسلام، ولطفاً به أن يخاطبه، لما في المشافهة بتاء الخطاب مما لا يخفى. وجاء لفظ (الأعمى) إشعاراً بما يناسب من الرفق به والصغو لما يقصده. ولابن عطية هنا كلام أضربت عنه صفحاً. والضمير في (لعله) عائد على (الأعمى)، أي يتطهر بما يتلقى من العلم (أو يذكر) أي يتعظ (فتنفعه) ذكراك، أي موعظتك. والظاهر نصب (وما يدريك) على جملة الترجي، فالمعنى: لا تدري ما هو مترجى منه من تزكٍّ أو تذكر. وقيل: والمعنى وما يطلعك على أمره وعقبى حاله، ثم ابتدأ القول (لعله يزكى) أي تنمو بركته ويتطهر لله. وقال الزمخشري: وقيل: الضمير في (لعله) للكافر يعني أنك طمعت في أن يتزكى بالإسلام أو يذكر فتقربه الذكرى إلى قبول الحق (وما يدريك) أن ما طمعت فيه كائن. انتهى. وهذا قول يرده عنه حمل القرآن عليه. وقرأ الجمهور (أو يذّكّر) بشد الذال والكاف، وأصله يتذكر، فأدغم. والأعرج وعاصم في رواية (أو يذْكُر) بسكون الذال وضم الكاف. وقرأ الجمهور (فتنفعُه) برفع العين عطفاً على (أو يذكر)، وعاصم في المشهور والأعرج وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزعفراني بنصبها. قال ابن عطية: في جواب التمني، لأن قوله (أو يذكر) في حكم قوله (لعله يزكى) انتهى. وهذا ليس تمنياً إنما هو ترج. وفرق بين الترجي والتمني. وقال الزمخشري: وبالنصب جواباً للعل، كقوله ﴿فأطلع إلى إله موسى﴾ [القصص ٣٨] انتهى. والترجي عند البصريين لا جواب له، فينصب بإضمار أن بعد الفاء. وأما الكوفيون فيقولون ينصب في جواب الترجي. وقد تقدم لنا الكلام على ذلك في قوله (فأطلع إلى إله موسى) في قراءة حفص، ووجهنا مذهب البصريين في نصب المضارع. (أما من استغنى) ظاهره من كان ذا ثروة وغنى. وقال الكلبي: عن الله، وقيل: عن الإيمان بالله. قيل: وكونه بمعنى الثروة لا يليق بمنصب النبوة. ويدل على ذلك أنه لو كان من الثروة لكان المقابل: وأما من جاءك فقيراً حقيراً. وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة والأعرج وعيسى والأعمش وجمهور السبعة (تصَدّى) بخف الصاد. وأصله: يتصدى، فحذف. والحرميان بشدها، لإدغام التاء في الصاد. وأبو جعفر (تُصدّى) بضم التاء وتخفيف الصاد. أي يصديك حرصك على إسلامه، يقال: تصدى الرجل وصديته. وهذا المستغني هو الوليد أو أمية أو عتبة وشيبة أو أبي وجميع المذكورين في سبب النزول أقوال. قال القرطبي: وهذا كله غلط من المفسرين، لأن أمية والوليد كانا بمكة وابن أم مكتوم كان بالمدينة ما حضر معهما ولا ماتا كافرين، أحدهما: قبل الهجرة، والآخر: في بدر، ولم يقصد قط أمية المدينة، ولا حضر معه مفرداً ولا مع أحد انتهى. والغلط من القرطبي كيف ينفي حضور ابن أم مكتوم معهما، وهو وهم منه، وكلهم من قريش، وكان ابن أم مكتوم بها، والسورة كلها مكية بالإجماع. وكيف يقول وإن ابن أم مكتوم بالمدينة كان أولاً بمكة ثم هاجر إلى المدينة وكانوا جميعهم بمكة حين نزول هذه الآية. وابن أم مكتوم: هو عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي، وأم مكتوم أم أبيه عاتكة، وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها. (وما عليك ألا يزكى) تحقير لأمر الكافر وحض على الإعراض عنه وترك الاهتمام به، أي وأي شيء عليك في كونه لا يفلح ولا يتطهر من دنس الكفر؟ (وأما من جاءك يسعى) أي يمشي بسرعة في أمر دينه (وهو يخشى) أي يخاف الله، أو يخاف الكفار وأذاهم، أو يخاف العثار والسقوط لكونه أعمى وقد جاء بلا قائد يقوده (تلهى) تشتغل بغيره. يقال: لها عن الشيء يلهى إذا اشتغل عنه. قيل: وليس من اللهو الذي هو من ذوات الواو انتهى. ويمكن أن يكون منه، لأن ما بني على فعل من ذوات الواو تنقلب واوه ياء لكسرة ما قبلها نحو شقي يشقى، فإن كان مصدره جاء بالياء فيكون من مادة غير مادة اللهو. وقرأ الجمهور (تلهى)، والبزي عن ابن كثير (عنهُ تّلهى) بإدغام تاء المضارعة في تاء تفعل. وأبو جعفر بضمها مبنياً للمفعول أي يشغلك دعاء الكافر للإسلام. وطلحة بتاءين وعنه بتاء واحدة وسكون اللام. (كلا إنها) أي سورة القرآن أو الآيات (تذكرة) عظة ينتفع بها. (فمن شاء

ذكره) أي فمن شاء أن يذكر هذه الموعظة ذكره . أي بالضمير مذكراً لأن التذكرة هي تذكير ، وهي جملة معترضة تتضمن الوعد والترغيب ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾ [المزمل ١٩] و (في صحف) صفة لـ (تذكرة) وما بينهما اعتراض، أي تذكرة كائنة (في صحف) ، قيل : اللوح المحفوظ . وقيل : صحف الأنبياء المنزلة . وقيل : صحف المسلمين فيكون إخباراً بغيب إذ لم يكتب القرآن في صحف زمان كونه ـ عليه السلام ـ بمكة ينزل عليه القرآن (مكرمة) عند الله ، و (مرفوعة) في السماء السابعة ، قاله يحيى بن سلام ، أو مرفوعة عن الشبه والتناقض ، أو مرفوعة المقدار (مطهرة) أي منزهة عن كل دنس قاله الحسن ، وقال أيضاً : (مطهرة) من أن تنزل على المشركين . قال الزمخشري : منزهة عن أيدي الشياطين لا يمسها إلا أيدي ملائكة مطهرة (سفرة) كتبة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ . انتهى . (بأيدي سفرة) قال ابن عباس : هم الملائكة لأنهم كتبة . وقال أيضاً : لأنهم يسفرون بين الله تعالى وأنبيائه . وقال قتادة : هم القراء . وواحد السفرة سافر . وقال وهب : هم الصحابة لأن بعضهم يسفر إلى بعض في الخير والتعليم والعلم . (قتل الإنسان ما أكفره) ، قيل : نزلت في عتبة بن أبي لهب غاضب أباه فأسلم ثم استصلحه أبوه وأعطاه مالاً وجهزه إلى الشام فبعث إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أنه كافر برب النجم إذا هوى . وروي ، أنه ـ ﷺ ـ قال : « اللهم ابعث عليه كلبك يأكله » فلما انتهى إلى الغاضرة ذكر الدعاء فجعل لمن معه ألف دينار إن أصبح حياً فجعلوه وسط الرفقة والمتاع حوله ، فأقبل الأسد إلى الرحال ووثب فإذا هو فوقه فمزقه فكان أبوه يندبه ويبكي عليه ، وقال : ما قال محمد شيئاً قط إلا كان . والآية وإن نزلت في مخصوص فالإنسان يراد به الكافر . وقتل دعاء عليه والقتل أعظم شدائد الدنيا . (ما أكفره) الظاهر أنه تعجب من إفراط كفره والتعجب بالنسبة للمخلوقين إذ هو مستحيل في حق الله تعالى أي هو ممن يقال فيه ما أكفره . وقيل : (ما) استفهام توقيف . أي أي شيء أكفره أي جعله كافراً بمعنى لأي شيء يسوغ له أن يكفر . (من أي شيء خلقه) ؟ استفهام على معنى التقرير على حقارة ما خلق منه . ثم بين ذلك الشيء الذي خلق منه فقال : (من نطفة خلقه فقدره) أي فهيأه لما يصلح له . وقال ابن عباس : أي في بطن أمه . وعنه : قدر أعضاءه وحسناً وذميماً وقصيراً وطويلاً وشقياً وسعيداً . وقيل : من حال إلى حال نطفة ثم علقة إلى أن تم خلقه . (ثم السبيل يسره) أي ثم يسر السبيل ، أي سهل ، قال ابن عباس وقتادة وأبو صالح والسدي : سبيل النظر القويم المؤدي إلى الإيمان ، وتيسيره له هو هبة العقل . وقال مجاهد والحسن وعطاء وابن عباس في رواية أبي صالح عنه : السبيل العام اسم الجنس في هدى وضلال ، أي يسره وما قدر له كقوله ﴿إنا هديناه السبيل﴾ [الإنسان ٣] الآية وقوله تعالى ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد ١٠] وعن ابن عباس يسره للخروج من بطن أمه . (ثم أماته فأقبره) أي جعل له قبراً صيانة لجسده أن يأكله الطير والسباع (قبره) دفنه وأقبره صيره بحيث يقبر وجعل له قبراً ، والقابر : الدافن بيده ، قال الأعشى :

لو أسندت ميتاً إلى نحرها عاش ولم ينقل إلى قابر

(ثم إذا شاء أنشره) أي أحياه بعد موته وأنشره . والمعنى : إذا بلغ الوقت الذي قد شاءه الله وهو يوم القيامة . وفي كتاب اللوامح : شعيب بن أبي حمزة (شاء نشره) بغير همز قبل النون ، وهما لغتان في الإحياء . وفي كتاب ابن عطية : وقرأ شعيب بن أبي حمزة (شاء نشره) . (كلا) ردع للإنسان عن ما هو فيه من الكفر والطغيان (لما يقض) من أول مدة تكليفه إلى حين إقباره ما أمره به الله تعالى . والضمير في (يقض) للإنسان . وقال ابن فورك : لله تعالى ، أي لم يقض الله لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان بل أمره بما لم يقض له . ولما عدد تعالى نعمه في نفس الإنسان ذكر النعم فيما به قوام حياته وأمره بالنظر إلى طعامه وكيفيات الأحوال التي اعتورت على طعامه حتى صار بصدد أن يطعم . والظاهر أن الطعام هو المطعوم ، وكيف يسره الله تعالى بهذه الوسائط المذكورة من صب الماء وشق الأرض والإنبات وهذا قول الجمهور . وقال أبي وابن

عباس ومجاهد والحسن ، وغيرهم ﴿ إلى طعامه ﴾ أي إذا صار رجيعاً ليتأمل عاقبة الدنيا على أي شيء يتفانى أهلها . وقرأ الجمهور ﴿ إنّا ﴾ بكسر الهمزة . والأعرج وابن وثاب والأعمش والكوفيون ورويس ﴿ أنّا ﴾ بفتح الهمزة . والحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ أنّى ﴾ بفتح الهمزة ممالاً ، فالكسر على الاستئناف في ذكر تعداد الوصول إلى الطعام ، والفتح قالوا على البدل وردّه قوم لأن الثاني ليس الأول . قيل : وليس كما ردوا ، لأن المعنى فلينظر الإنسان إلى إنعامنا في طعامه ، فترتب البدل وصح انتهى ، كأنهم جعلوه بدل كل من كل ، والذي يظهر أنه بدل الاشتمال وقراءة أنّى عدلاً على معنى : فلينظر الإنسان كيف صببنا . وأسند تعالى الصب والشق إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب . وصب الماء هو المطر . والظاهر أن الشق : كناية عن شق الفلاح بما جرت العادة أن يشق به ، وقيل : شق الأرض هو بالنبات . ﴿ حباً ﴾ يشمل ما يسمى حباً من حنطة وشعير وذرة وسلت وعدس وغير ذلك . ﴿ وقضباً ﴾ قال الحسن : العلف ، وأهل مكة يسمون القت القضب . وقيل : الفصفصة وضعف لأنه داخل في الأب ، وقيل : ما يقضب ليأكله ابن آدم غضاً من النبات كالبقول والهليون . وقال ابن عباس : هو الرطب ، لأنه يقضب من النخل ولأنه ذكر العنب قبله . ﴿ غلباً ﴾ قال ابن عباس : غلاظاً وعنه : طوالاً وعن قتادة : وابن زيد : كراماً ﴿ وفاكهة ﴾ ما يأكله الناس من ثمر الشجر كالخوخ والتين ﴿ وأباً ﴾ ما تأكله البهائم من العشب . وقال الضحاك : التبن خاصة . وقال الكلبي : كل نبات سوى الفاكهة رطبها والأب يابسها . الصاخة : اسم من أسماء القيامة ، يصم نبأها الآذان . تقول العرب صختهم الصاخة ، وباتتهم البائنة . أي الداهية . وقال أبو بكر بن العربي : الصاخة : هي التي تورث الصمم وإنها لمسمعة ، وهذا من بديع الفصاحة ، كقوله :

أصمّهم سرّهم أيام فرقتهم ... فهل سمعتم بسرٍّ يورث الصمما[1]

ولقول الآخر :

أصمّ بك الناعي وإن كان أسمعا[2]

ولعمر الله إن صيحة القيامة مسمعة تصم عن الدنيا وتسمع أمور الآخرة . انتهى . ﴿ يوم يفر ﴾ بدل من ﴿ إذا ﴾ وجواب ﴿ إذا ﴾ محذوف تقديره : اشتغل كل إنسان بنفسه يدل عليه ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ وفراره من شدة الهول يوم القيامة كما جاء من قول الرسل : نفسي نفسي ، وقيل : حذر التبعات ، لأن الملابسة تقتضي المطالبة ، يقول الأخ لم تواسني بمالك ، والأبوان قصرت في برنا ، والصاحبة أطعمتني الحرام ، وفعلت وصنعت ، والبنون لم تعلمنا وترشدنا . وقرأ الجمهور ﴿ يُغْنِيه ﴾ أي عن النظر في شأن الآخر من الإغناء . والزهري وابن محيصن وابن أبي عبلة وحميد وابن السميفع ﴿ يعنيه ﴾ بفتح الياء والعين المهملة ، من قولهم : عناني الأمر قصدني ﴿ مسفرة ﴾ مضيئة من أسفر الصبح أضاء . ﴿ وترهقها ﴾ تغشاها ﴿ قترة ﴾ أي غبار والأولى ما يغشاه من العبوس عند الهم ، والثانية من غبار الأرض ، وقيل ﴿ غبرة ﴾ أي من تراب الأرض ، و﴿ قترة ﴾ سواد كالدخان ، وقال زيد بن أسلم : الغبرة : ما انحطت إلى الأرض والقترة : ما ارتفعت إلى السماء . وقرأ الجمهور ﴿ قترة ﴾ بفتح التاء وابن أبي عبلة بإسكانها .

---

(1) البيت من البسيط ذكره السمين في الدر المصون .

(2) صدر بيت من الطويل لأبي تمام ، شعر الديوان ١ / ١٩٧ وعجزه :
وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

وقال رؤبة :

بــ منذ ما أُحسِن ما تقحمت ... مُذْ شيبا كان مني فرة رفا

التنفس : خروج النسيم من الجوف ، وتنفس الصبح ومعناه امتداده حتى يصير نهاراً واضحاً . الظنين : المتهم ، فعيل بمعنى مفعول من ظننت الرجل اتهمته ، والضنين : البخيل ، قال الشاعر :

أجود بمكنون الحديث وإنني ... بسرك عمن سالني لضنين

﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموءودة سئلت ، بأيّ ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت ، علمت نفس ما أحضرت ، فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم ، فأين تذهبون ، إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ هذه السورة مكية . ومناسبتها لما قبلها في غاية الظهور . وتكوير الشمس قال ابن عباس : إدخالها في العرش . وقال مجاهد وقتادة والحسن : ذهاب ضوئها . وقال الربيع بن خثيم : رمي بها ، ومنه كورته فتكور . وقال أبو صالح : نكست . وعن ابن عباس أيضاً : أظلمت . وعن مجاهد : اضمحلت . وقيل : غوّرت . وقيل : يلف بعضها ببعض ويرمى بها في البحر . وقال أبو عبيدة : كورت مثل تكوير العمامة . وقال القرطبي : من كار العمامة على رأسه يكورها ، أي : لاثها وجمعها فهي تكور ثم يمحى ضوؤها ثم يرمى بها . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ارتفاع الشمس على الابتداء أو الفاعلية ؟ (قلت :) بل على الفاعلية رافعها فعل مضمر يفسره كورت لأن إذا يطلب الفعل لما فيه من معنى الشرط انتهى . ومن طريقته أنه يسمي المفعول الذي لم يسم فاعله فاعلاً ولا مشاحة في الاصطلاح وليس ما ذكره من الإعراب مجمعاً عليه عند النحاة بل يجوز رفع الشمس على الابتداء عند الأخفش والكوفيين ، لأنهم يجوزون أن تلي الجملة الاسمية بعد إذا نحو : إذا زيد يكرمك فأكرمه ﴿ انكدرت ﴾ عن ابن عباس : تساقطت . وعنه أيضاً تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها ، من قولهم : ماء كدر أي متغير . وتسيير الجبال : أي عن وجه الأرض أو سيرت في الجو تسيير السحاب كقوله ﴿ وهي تمر مر السحاب ﴾ [النمل ٨٨] وهذا أيضاً نسفها وذلك في أول هول يوم القيامة . و ﴿ العشار ﴾ نفس ما عند العرب من المال . وتعطيلها : تركها سائبة مهملة أو عن الحلب ، لاشتغالهم بأنفسهم ، أو عن أن يحمل عليها الفحول واطلق عليها عشاراً باعتبار ما سبق لها ذلك . قال القرطبي : وهذا على وجه المثل لأنه في القيامة لا يكون عشراء ، والمعنى : أنه لو كانت عشراء لعطلها أهلها واشتغلوا بأنفسهم . وقيل : إذا قاموا من القبور شاهدوا الوحوش والدواب محشورة وعشارهم فيها التي كانت كرائم أموالهم لم يعبؤوا بها لشغلهم بأنفسهم . وقيل : العشار : السحاب ، وتعطيلها من الماء فلا تمطر ، والعرب تسمي السحاب بالحامل . وقيل : العشار : الديار تعطل فلا تسكن . وقيل : العشار : الأرض التي يعشر زرعها تعطل فلا تزرع وقرأ الجمهور (عُطِّلَت) بتشديد الطاء . وقرئ عن اليزيدي بتخفيفها ، كذا في كتاب ابن خالويه ، وفي كتاب اللوامح عن ابن كثير ، قال : في اللوامح : هو وهم إنما هو عطلت بفتحتين بمعنى تعطلت ، لأن التشديد فيه التعدي يقال منه عطلت الشيء وأعطلته فعطل بنفسه ، وعطلت المرأة فهي عاطل إذا لم يكن عليها الحلي فلعل هذه القراءة عن ابن كثير لغة استوى فيها فعلت وأفعلت ـ والله أعلم ـ انتهى . وقال امرؤ القيس

وجيدٍ كجيد الرئم ليس بفاحشٍ ... إذا هي نصّته ولا بمعطّلِ (١)

﴿حُشِرَتْ﴾ أي جمعت من كل ناحية. قال ابن عباس: جمعت بالموت فلا تبعث ولا يحضر في القيامة غير الثقلين. وعنه وعن قتادة وجماعة: يحشر كل شيء حتى الذباب. وعنه: تحشر الوحوش حتى يقتص من بعضها لبعض ثم يقتص للجماء من القرناء ثم يقال لها موتي فتموت. وقيل: إذا قضي بينها ردت ترابا فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم وإعجاب بصورته كالطاوس ونحوه. وقال أُبيّ: في الدنيا أي أول الهول تفر في الأرض وتجتمع إلى بني آدم تأنسا بهم. وقرأ الجمهور ﴿حُشِرَتْ﴾ بخف الشين؛ والحسن وعمرو بن ميمون: بشدها. ﴿وإذا البحار سُجِّرت﴾ تقدم أقوال العلماء في سجر البحر في الطور ﴿والبحر المسجور﴾ [الطور ٦] وفي كتاب لغات القراءات: سُجِرت جمعت بلغة خثعم. وقال هنا ابن عطية: ويحتمل أن يكون المعنى ملكت وقيد اضطرابها حتى لا تخرج على الأرض من الهول فتكون اللفظة مأخوذة من ساجور الكلب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: بخف الجيم؛ وباقي السبعة بشدها. قال ابن عطية: وذهب قوم إلى أن هذه الأشياء المذكورة استعارات في ابن آدم وأحواله عند الموت، فالشمس نفسه والنجوم عيناه وحواسه، وهذا قول ذاهب إلى إثبات الرموز في كتاب الله تعالى. انتهى. وهذا مذهب الباطنية ومذاهب من ينتمي إلى الإسلام من غلاة الصوفية. وقد أشرنا إليهم في خطبة هذا الكتاب، وإنما هؤلاء زنادقة تستروا بالانتماء إلى ملة الإسلام، وكتاب الله جاء بلسان عربي مبين لا رمز فيه ولا لغز ولا باطن ولا إيماء لشيء مما تنتحله الفلاسفة ولا أهل الطبائع. ولقد ضمن تفسيره أبو عبد الله الرازي المعروف بابن خطيب الري أشياء مما قاله الحكماء عنده وأصحاب النجوم وأصحاب الهيئة، وذلك كله بمعزل عن تفسير كتاب الله عز وجل. وكذلك ما ذكره صاحب التحرير والتحبير في آخر ما يفسره من الآيات من كلام من ينتمي إلى الصوفية ويسميها الحقائق، وفيها ما لا يحل كتبه فضلاً عن أن يعتقد. نسأل الله تعالى السلامة في ديننا وعقائدنا وما به قوام ديننا ودنيانا. ﴿وإذا النفوس زُوِّجت﴾ أي: الزوج مع المؤمن، والكافر مع الكافر كقوله ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾ [الواقعة ٧] قاله عمر وابن عباس، أو نفوس المؤمنين بأزواجهم من الحور العين وغيرهن، قاله مقاتل بن سليمان، أو الأرواح بالأجساد، قاله عكرمة والضحاك والشعبي. وقرأ عاصم في رواية ﴿زُووِجَتْ﴾ على فوعلت، والمفاعلة تكون بين الشيئين. والجمهور بواو مشددة. وقال الزمخشري: وأد يئد مقلوب من أود إذا أثقل، قال الله تعالى ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ [البقرة ٢٥٥] لأنه إثقال بالتراب. انتهى. ولا يدعى في وأد أنه مقلوب من أود لأن كلا منهما كامل التصرف في الماضي والأمر والمضارع والمصدر واسم الفاعل واسم المفعول، وليس فيه شيء من مسوغات ادعاء القلب. والذي يعلم به الأصالة من القلب أن يكون أحد النظمين فيه حكم يشهد له بالأصالة والآخر ليس كذلك، أو كونه مجرداً من حروف الزيادة والآخر فيه مزيد، وكونه أكثر تصرفاً والآخر ليس كذلك، أو أكثر استعمالاً من الآخر، وهذا على ما قرروا أحكم في علم التصريف. فالأول كـ(يئس) وأيس، والثاني كـ(طأمن) و(طمأن)، والثالث كشوايع وشواع، والرابع كلعمري ورعملي. وقرأ الجمهور ﴿المؤودة﴾ بهمزة بين الواوين اسم مفعول. وقرأ البزي في رواية ﴿المؤودة﴾ بهمزة مضمومة على الواو، فاحتمل أن يكون الأصل الموءودة فحذف إحدى الواوين على الخلاف الذي في المحذوف، واو المد أو الواو التي هي عين نحو مقول حيث نقلوا مقول. وقرئ ﴿الموودة﴾ بضم الواو الأولى وتسهيل الهمزة، أعني التسهيل بالحذف ونقل حركتها إلى الواو. وقرأ الأعمش ﴿الموودة﴾ بسكون الواو على وزن الفعلة. وكذا وقف لحمزة ابن مجاهد. ونقل القراء أن حمزة يقف عليها كالموودة لأجل الخط، لأنها رسمت كذلك والرسم سنة متبعة. وقرأ الجمهور ﴿سُئلت﴾ مبنياً للمفعول، ﴿بأي ذنب قُتلت﴾ كذلك وخف التاء الثانية فيهما. وهذا السؤال هو لتوبيخ الفاعلين للوأد، سؤاله يؤول إلى سؤال

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه ١٦ المعلقات للزوزني ٣٢

تملك » على التنكير منوناً مرفوعاً مكه عن الإضافة وارتفاعه على هو يوم و « لا تملك » جملة في موضع الصفة والعائد محذوف ، أي لا تملك فيه . وقرأ زيد بن علي والحسن وأبو جعفر وشيبة والأعرج وباقي السبعة « يوم » بالفتح على الظرف ، فعند البصريين هي حركة إعراب ، وعند الكوفيين يجوز أن تكون حركة بناء . وهو على التقديرين في موضع رفع خبر المحذوف ، تقديره الجزاء يوم لا تملك ، أو في موضع نصب على الظرف ، أي يدانون يوم لا تملك ، أو على أنه مفعول به أي اذكر يوم لا تملك ، ويجوز على رأي من يجوز بناءه أن يكون في موضع رفع خبر المبتدأ محذوف ، تقديره : هو يوم « لا تملك نفس لنفس شيئاً » عام كقوله « فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً » [سبأ : ٤٢] وقال مقاتل : لنفس كافرة شيئاً من المنفعة . « والأمر يومئذ لله » قال قتادة : وكذلك هو اليوم ، لكنه هناك لا ينازعه أحد منازعة ولا يمكن هو أحداً مما كان ملكه في الدنيا .

سورة المطففين مكية وهي ست وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

التطفيف: النقصان وأصله من الطفيف، وهو النزر الحقير، والمطفف: الآخذ في وزن أو كيل طفيفاً أي شيئاً حقيراً خفياً. ران: غطى وغشي كالصدإ يغشى السيف، قال الشاعر:

وكم ران من ذنب على قلب فاجر ... فتاب من الذنب الذي ران فانجلى

وأصل الرين: الغلبة، يقال: رانت الخمر على عقل شاربها وران الغشي على عقل المريض، قال أبو زبيد:

ثم لما رآه رانت به الخمـ ... ـر وأن لا ترينه باتقاء[1]

(١) البيت من الخفيف انظر اللسان (رين).

والسرقة ، لأنهم يدمدمون ويحتالون في الملء ، ولذا أهملوا كانوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين جميعا يخسرون ينقصون . انتهى . و (يخسرون) معدّى بالهمزة يقال خسر الرجل وأخسره غيره . (ألا يظن) توقيف على أمر القيامة وإنكار عليهم في فعلهم ذلك ، أي (ليوم عظيم) وهو يوم القيامة . و (يوم) ظرف العامل فيه مقدر أي يبعثون (يوم يقوم الناس) ويجوز أن يعمل فيه (مبعوثون) ويكون معنى (ليوم) أي لحساب يوم . وقال الفراء : هو بدل من (يوم عظيم) لكنه بني . وقرئ : (يوم يقوم) بالجر وهو بدل من (ليوم) حكاه أبو معاذ . وقرأ زيد بن علي (يومُ) بالرفع أي ذلك يوم و (يظن) بمعنى يوقن أو هو على وضعه من الترجيح . وفي هذا الإنكار والتعجب ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس فيه خاضعين ووصفه برب العالمين دليل على عظم هذا الذنب وهو التطفيف . (كلا) ردع لما كانوا عليه من التطفيف . وهذا القيام تختلف الناس فيه بحسب أحوالهم . وفي هذا القيام إلجام العرق للناس وأحوالهم فيه مختلفة ، كما ورد في الحديث . و (الفجار) الكفار ، وكتابهم هو الذي فيه تحصيل أعمالهم . و (سجين) قال الجمهور : فعّيل من السجن كسكير ، أو في موضع ساجن فجاء بناء مبالغة ، و (سجين) على هذا صفة لموضع المحذوف . قال ابن مقبل :

وَرُفْقَةٍ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً ضَرْبًا تَوَاصَتْ بِهِ الْأَبْطَالُ سِجِّينَا(١)

وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ما (سجين) أصفة هو أم اسم ؟ (قلت :) بل هو اسم علم منقول من وصف كحاتم ، وهو منصرف ، لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف . انتهى . وكان قد قدم أنه كتاب جامع وهو ديوان الشر دوّن الله فيه أعمال الشياطين ، وأعمال الكفرة ، والفسقة من الجن والإنس ، وهو (كتاب مرقوم) مسطور بيّن الكتابة ، أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه . والمعنى : أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان انتهى . واختلفوا في (سجين) إذا كان مكاناً اختلافاً مضطرباً حذفنا ذكره ، والظاهر : أن (سجيناً) هو كتاب ولذلك أبدل منه (كتاب مرقوم) وقال عكرمة : سجين عبارة عن الخسار والهوان ، كما تقول : بلغ فلان الحضيض إذا صار في غاية الخمول . وقال بعض اللغويين : (سجين) نونه بدل من لام وهو من السجيل . فتلخص من أقوالهم ، أن (سجين) نونه أصلية أو بدل من لام وإذا كانت أصلية فاشتقاقه من السجن . وقيل : هو مكان فيكون (كتاب مرقوم) خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو كتاب ويعني بالضمير عوده على (كتاب الفجار) أو على (سجين) على حذف ، أي هو محل كتاب مرقوم و (كتاب مرقوم) تفسير له من جهة البدل أو خبر مبتدأ والضمير للقدر الذي هو عائد على (سجين) أو كناية عن الخسار والهوان هل هو صفة أو علم . (وما أدراك ما سجين) أي ليس ذلك مما كنت تعلمه (مرقوم) أي مثبت كالرقم لا يبلى ولا يمحى . قال قتادة : رقم لهم بشر لا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد . وقال ابن عباس والضحاك (مرقوم) مختوم بلغة حمير وأصل الرقم الكتابة . ومنه قول الشاعر :

سَأَرْقُمُ فِي الْمَاءِ الْقَرَاحِ إِلَيْكُمُ عَلَى بُعْدِكُمْ إِنْ كَانَ لِلْمَاءِ رَاقِمُ(٢)

وتبين من الإعراب السابق أن (كتاب مرقوم) بدل أو خبر مبتدأ محذوف ، وكان ابن عطية قد قال : إن (سجيناً) موضع ساجن على قول الجمهور ، وعبارة عن الخسار على قول عكرمة ، ثم قال (كتاب مرقوم) من قال بالقول الأول في (سجين) فـ (كتاب) مرتفع عنده على خبر (إن) والظرف الذي هو (لفي سجين) ملغى ومن قال في (سجين) بالقول الثاني فـ (كتاب مرقوم) على خبر ابتداء مضمر التقدير : هو كتاب مرقوم ويكون هذا الكتاب مفسراً لسجين ما هو انتهى

---

(١) انظر البيت في اللسان (سجن) .

(٢) البيت من الكامل لم يعرف قائله . انظر اللسان (رقم) فتح القدير (٥ / ٤٠٠) .

صرفاً وتمزج للأبرار. ومذهب الجمهور (الأبرار) هم أصحاب اليمين، وأن المقربين هم السابقون، وقال قوم: الأبرار والمقربون في هذه الآية بمعنى واحد يقع لكل من نعم في الجنة، وروي أن علياً وجمعاً معه من المؤمنين مروا بجمع من كفار قريش فضحكوا منهم، واستخفوا بهم، عبثاً فنزلت (إن الذين أجرموا) قبل أن يصل علي رضي الله تعالى عنه إلى الرسول ـ ﷺ ـ وكفار مكة هؤلاء قيل: هم أبو جهل، والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل، والمؤمنون عمار، وصهيب، وخباب، وبلال، وغيرهم من فقراء المؤمنين، والظاهر: أن الضمير في (مروا) عائد على (الذين أجرموا) إذ في ذلك تناسق الضمائر لواحد. وقيل: للمؤمنين، أي وإذا مر المؤمنون بالكافرين، يتغامز الكافرون أي يشيرون بأعينهم. و (فاكهين) أي متلذذين بذكرهم وبالضحك منهم. وقرأ الجمهور فاكهين بالألف أي أصحاب فاكهة ومرح وسرور باستخفافهم بأهل الإيمان. وأبو رجاء والحسن وعكرمة وأبو جعفر وحفص بغير ألف والضمير المرفوع في (رأوهم) عائد على المجرمين، أي إذا رأوا المؤمنين نسبوهم إلى الضلال، وهم محقون في نسبتهم إليه (وما أرسلوا) على الكفار (حافظين) وفي الإشارة إليه بأنهم ضالون إثارة للكلام بينهم، وكأن في الآية بعض موادعة، أي أن المؤمنين لم يرسلوا حافظين على الكفار. وهذا على القول بأن هذا منسوخ بآية السيف. وقال الزمخشري: وإنهم لم يرسلوا عليهم حافظين إنكاراً لصدهم إياهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام وجدهم في ذلك. ولما تقدم ذكر يوم القيامة، قيل: (فاليوم الذين آمنوا) و (اليوم) منصوب بـ (يضحكون) منهم في الآخرة و (ينظرون) حال من الضمير في (يضحكون) أي يضحكون ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والعذاب بعد العزة والتنعيم. وقال كعب: لأهل الجنة كوى ينظرون منها إلى أهل النار. وقيل: ستر شفاف بينهم يرون منه حالهم. (هل ثوب) أي هل جوزي، يقال ثوبه وأثابه إذا جازاه، ومنه قول الشاعر:

سأجزيك أو يجزيك عني مثوب ... وحسبك أن يثنى عليك وتحمدي[1]

وهو استفهام بمعنى التقرير للمؤمنين، أي هل جوزوا بها، وقيل: (هل ثوب) متعلق بـ (ينظرون) و (ينظرون) معلق بالجملة في موضع نصب بعد إسقاط حرف الجر الذي هو إلى. وقرأ الجمهور (هل ثوب) بإظهار لام هل والنحويان وحمزة وابن محيصن بإدغامها في الثاء. وفي قوله (ما كانوا) حذف، تقديره: جزاء أو عقاب ما كانوا يفعلون.

---

(١) البيت من الطويل لأوس بن حجر، انظر الكشاف ٤/٧٢٣.

انتهى . وعن مجاهد : هو الشمس . وعن عكرمة : ما بقي من النهار (وما وسق) ما جمع من الحيوان وغيره إذ جمع ذلك بضم وسكن في ظلمة الليل . وقال ابن عباس (وما وسق) أي ما غطى عليه من الظلمة . وقال مجاهد : وما جمع من خير وشر . وقال ابن جبير : وما ساق وعمل . وقال ابن بحر : وما عمل فيه . ومنه قول الشاعر :

فيوماً ترانا صالحين وتارة ... تقوم بنا كالواسق المتلبّب(١)

وقال ابن الفضل : لف كل أحد إلى أهله أي سكن الخلق إليه ورجع كل إلى ما وراءه لقوله (لتسكنوا فيه) [القصص ٧٣] وقرأ عمر وعبد الله وابن عباس ومجاهد والأسود وابن جبير ومسروق والشعبي وأبو العالية وابن وثاب وطلحة وعيسى والأخوان وابن كثير بتاء الخطاب وفتح الباء ، فقيل : خطاب للرسول ـ ﷺ ـ أي حالاً بعد حال من معالجة الكفار . وقال ابن عباس : سماء بعد سماء في الإسراء وقيل : عدة بالنصر ، أي لتركبن أمر العرب قبيلاً بعد قبيل ، وفتحاً بعد فتح ، كما كان ووجد بعد ذلك . وقال الزمخشري : وقرئ (لتركبن) على خطاب الإنسان في (يا أيها الإنسان) وقال ابن مسعود : المعنى لتركبن السماء في أهوال القيامة حالاً بعد حال تكون كالمهل وكالدهان وتنفطر وتنشق . فالتاء للتأنيث وهو إخبار عن السماء بما يحدث لها ، والضمير الفاعل عائد على السماء . وقرأ عمر وابن عباس أيضاً بالياء من أسفل وفتح الباء على ذكر الغائب . قال ابن عباس : يعني نبيكم ـ ﷺ ـ وقيل : الضمير الغائب يعود على القمر لأنه يتغير أحوالاً من إسرار واستهلال وإبدار . وقال الزمخشري ليركبن الإنسان . وقرأ عمر وابن عباس أيضاً وأبو جعفر والحسن وابن جبير وقتادة والأعمش وباقي السبعة بتاء الخطاب وضم الباء ، أي لتركبن أيها الإنسان . وقال الزمخشري : و (لتركبُن) بالضم على خطاب الجنس ، لأن النداء للجنس فالمعنى لتركبن الشدائد الموت والبعث والحساب حالاً بعد حال ، أو يكون الأحوال من النطفة إلى الهرم كما تقول طبقة بعد طبقة ، قال نحوه عكرمة . وقيل : عن مجيء بعض بعده . وقيل ـ المعنى لتركبن هذه الأحوال أمة بعد أمة . ومنه قول العباس بن عبد المطلب في رسول الله ـ ﷺ ـ :

وأنت لما ولدت أشرقت الأرض ... وضاءت بنورك الأفق

تنقل من صالب إلى رحم ... إذا مضى عالم بدا طبق(٢)

وقال مكحول وأبو عبيدة : المعنى : لتركبن سنن من قبلكم . وقال ابن زيد : المعنى ـ لتركبن الآخرة بعد الأولى ، وقرأ عمر أيضاً (ليركبُن) بياء الغيبة وضم الباء ، قيل : أراد به الكفار لا بيان توبيخهم بعده ، أي يركبون حالاً بعد أخرى من المذلة والهوان في الدنيا والآخرة . وقرأ ابن مسعود وابن عباس (لِتركبن) بكسر التاء ، وهي لغة تميم . قيل : والخطاب للرسول ـ ﷺ ـ وقرئ بالتاء وكسر الباء . على خطاب النفس ، و (طبق) الشيء مطابقة لأن كل حال مطابقة للأخرى في الشدة ، ويجوز أن تكون اسم جنس واحده طبقة ، وهي المرتبة من قولهم : هم على طبقات و (عن طبق) في موضع الصفة لقوله (طبقاً) أو في موضع الحال من الضمير في (لتركبن) وعن مكحول : كل عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه . (فما لهم لا يؤمنون) تعجب من انتفاء إيمانهم وقد وضحت الدلائل (لا يسجدون) لا يتواضعون ويخضعون قاله قتادة . وقال عكرمة : لا يباشرون بجباههم المصلى . وقال محمد بن كعب : لا يصلون . وقرأ الجمهور (يُكذِّبون) مشدداً . والضحاك وابن أبي عبلة مخففاً وبفتح الياء (بما يوعون) بما يجمعون من الكفر والتكذيب ، كأنهم يجعلونه في أوعية ، وعيت العلم وأوعيت المتاع . قال نحوه ابن زيد . وقال ابن عباس : بما تضمرون من عداوة الرسول ـ ﷺ ـ

---

(١) البيت من الطويل لم يعد لقائله انظر لسان (وسق)

(٢) البيتان من المنسرح ذكرهما السمين في الدر المصون

والمؤمنين . وقال مجاهد : بما يكتمون من أعمالهم . وقرأ أبو رجاء (بما يعون) من وعى يعي . (إلا الذين آمنوا) أي سبق لهم في علمه أنهم يؤمنون (غير ممنون) غير مقطوع . وقال ابن عباس (ممنون) معدود عليهم محسوب منغص بأذى . وتقدم الكلام على ذلك في فصلت . والله الموفق .

الحكم منه في أولئك الذين قد علموا أنهم ماتوا على كفرهم، وأما قريش فكان فيهم وقت نزول الآية من تاب وآمن. انتهى. وكذلك قوله (إن الذين آمنوا) المراد به العموم لا المفروضون في النار. والبطش الأخذ بقوة (يبدئ ويعيد) قال ابن زيد والضحاك: يبدئ الخلق بالإنشاء ويعيده بالحشر. وقال ابن عباس: عام في جميع الأشياء، أي كل ما بدأ وكل ما يعيد. وقال الطبري: يبدئ العذاب ويعيده على الكفار، ونحوه عن ابن عباس قال: تأكلهم النار حتى يصيروا فحماً ثم يعيدهم خلقاً جديداً. وقرئ (يبدأ) من بدأ ثلاثياً، حكاه أبو زيد. ولما ذكر شدة بطشه ذكر كونه غفوراً ساتراً لذنوب عباده، ودوداً لطيفاً بهم، محسناً إليهم، وهاتان صفتا فعل. والظاهر أن (الودود) مبالغة في الواد. وعن ابن عباس: المتودد إلى عباده بالمغفرة. وحكي نحوه عن القاضي إسماعيل بن إسحاق: أن (الودود) هو الذي لا ولد له، وأنشد:

وأركب في الروع عريانة ... ذلول الجماع لقاحاً ودودا[1]

أي لا ولد لها تحن إليه. وقيل (الودود) فعول بمعنى مفعول كركوب وحلوب، أي يوده عباده الصالحون. (ذو العرش) بإضافته نفسه، تشريفاً للعرش، وتنبيهاً على أنه أعظم المخلوقات. وقرأ الجمهور (ذو) بالواو، وابن عامر في رواية (ذي) بالياء صفة لـ(ربك). وقال القفال: (ذو العرش) ذو الملك والسلطان، ويجوز أن يراد بالعرش السرير العالي، ويكون خلق سريراً في سمائه في غاية العظمة بحيث لا يعرف عظمته إلا هو ومن يطلعه عليه. انتهى. وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وابن وثاب والأعمش والمفضل عن عاصم والأخوان (المجيد) بخفض الدال صفة لـ(العرش)، ومجادته: عظمه وعلوه ومقداره وحسن صورته وتركيبه، فإنه قيل: العرش أحسن الأجسام صورة وتركيباً. ومن قرأ (ذي العرش) بالياء جاز أن يكون (المجيد) بالخفض صفة لـ(ذي)، والأحسن حمل هذه المرفوعات على أنها أخبار عن (هو) فيكون (فعال) خبراً. ويجوز أن يكون (الودود، ذو العرش) صفتين لـ(الغفور)، و(فعّال) خبر مبتدأ، وأتى بصيغة (فعّال) لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة، والمعنى أن كل ما تعلقت به إرادته فعله لا معترض عليه. (هل أتاك حديث الجنود) تقرير لحال الكفرة، أي قد أتاك حديثهم وما جرى لهم مع أنبيائهم، وما حل بهم من العقوبات بسبب تكذيبهم، فكذلك يحل بقريش من العذاب مثل ما حل بهم. و(الجنود) الجموع المعدة للقتال. (فرعون وثمود) بدل من (الجنود) وكأنه على حذف مضاف، أي جنود فرعون. واختصر ما جرى لهم إذ هم مذكورون في غير ما سورة من القرآن. وذكر ثمود لشهرة قصتهم في بلاد العرب، وهي متقدمة، وذكر فرعون لشهرة قصته عند أهل الكتاب وعند العرب الجاهلية أيضاً. ألا ترى إلى زهير بن أبي سلمى في قوله:

ألم تر أن الله أهلك تبعاً ... وأهلك لقمان بن عاد وعاديا
وأهلك ذا القرنين من قبل ما نوى ... وفرعون جباراً طغى والنجاشيا[2]

وكان فرعون من المتأخرين في الهلاك، فدل بقصته وقصة ثمود على أمثالها من قصص الأمم المكذبين وهلاكهم. (بل الذين كفروا) أي من قومك (في تكذيب) حسداً لك، لم يعتبروا بما جرى لمن قبلهم حين كذبوا أنبياءهم. (والله من ورائهم محيط) أي هو قادر على أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون وثمود. ومن كان محاطاً به فهو محصور في غاية لا يستطيع دفعاً. والمعنى دنو هلاكهم. ولما ذكر أنهم (في تكذيب) وأن التكذيب عمهم حتى صار كالظرف لهم وكانوا ـ ﷺ ـ قد كذبوه

---

(١) البيت من المتقارب بلا نسبة، وهو في فتح القدير ٥/٤١٣.
(٢) البيتان من الطويل انظر ديوانه ص ١٤١.

وكذبوا بما جاء به وهو القرآن أخبر تعالى عن شأن ما جاء به وكذبوا به فقال : ﴿ بل هو قرآن ﴾ أي : بل الذي كذبوا به قرآن ﴿ مجيد ﴾ ومجادته : شرفه على سائر الكتب وبإعجازه في نظمه ، وصحة معانيه ، وإخباره بالمغيبات ، وغير ذلك من محاسنه . وقرأ الجمهور : ﴿ قرآنٌ مجيدٌ ﴾ موصوف وصفة . وقرأ ابن السميفع ﴿ قرآنُ مجيدٍ ﴾ بالإضافة قال ابن خالويه : سمعت ابن الأنباري يقول معناه : بل هو قرآن رب مجيد ، كما قال الشاعر

ولكنّ الغنى ربٌّ غفورُ

معناه : ولكن الغنى غنى رب غفور . انتهى . وعلى هذا أخرجه الزمخشري ، وقاله ابن عطية . وقرأ اليماني ﴿ قرآن مجيد ﴾ على الإضافة وأن يكون الله تعالى هو المجيد انتهى . ويجوز أن يكون من باب إضافة الموصوف لصفته فيكون مدلوله ومدلول التنوين ورفع مجيد واحداً . وهذا أولى لتوافق القراءتين . وقرأ الجمهور ﴿ في لوح ﴾ بفتح اللام ؛ ﴿ محفوظٍ ﴾ بالخفض صفة لـ ﴿ لوح ﴾ واللوح المحفوظ هو الذي فيه جميع الأشياء . وقرأ ابن يعمر وابن السميفع بضم اللام قال ابن خالويه : اللوح : الهواء . وقال الزمخشري : يعني اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح المحفوظ من وصول الشياطين إليه . انتهى . وقرأ الأعرج وزيد بن علي وابن محيصن ونافع بخلاف عنه ﴿ محفوظٌ ﴾ بالرفع صفة لـ ﴿ قرآن ﴾ كما قال تعالى ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر : ٩] أي : هو محفوظ في القلوب لا يلحقه خطأ ولا تبديل .

سورة الطارق مكية وهي سبع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝ ﴾

طرق يطرق طروقاً ، أي ليلاً ، قال امرؤ القيس :

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع

وأصله الضرب ، لأن الطارق يطرق الباب ، ومنه المطرقة . ومنه النجم ، وسمي به فكل ما جاء بليل يسمى طارقاً ، ويقال . أطرق فلان : أمسك عن الكلام وأطرق بعينيه ، رمى بهما نحو الأرض . دفق الماء يدفقه دفقاً : صبه ، وماء دافق على النسب ، ويقال دفق الله روحه إذا دعا عليه بالموت . الترائب : موضع القلادة من الصدر ، قال امرؤ القيس :

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل[1]

جمعها تريبة ، أي ترائبها : وقال الشاعر :

والزعفران على ترائبها شرقاً به اللبات والنحر[2]

وقال أبو عبيدة : وجمع تريبة تريب ، قال المثقب العبدي :

ومن ذهب يسن على تريب كلون العاج ليس بذي غضون[3]

---

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه (٥٥) ، المعلقات للزوزني ٣٠ .

(٢) البيت من الكامل ينسب لأبي بكر بن الأسود الزهري انظر اللسان (ترب) ، القرطبي ٨/١٤٣ .

(٣) البيت من الوافر انظر اللسان (ترب) .

الهزل : ضد الجد . وقال الكميت :

تجِدُّ بنا في كلِّ يومٍ وتهزِلُ[1]

أمهلت الرجل : أنظرته . والمَهْل والمُهْلة : السكينة ، ومهّلته تمهيلاً ، وتمهّل في أمره : اتّأد واستمهلته انتظرته . ويقال : مهلاً ، أي : رفقاً وسكوناً . رُوَيداً : مصدر أرود يرود ، مصغر تصغير الترخيم ، وأصله إرواداً ، وقيل : هو تصغير رود من قوله : تمشي على رود ، أي : مهل ، ويستعمل مصدراً نحو : رويد عمرو ، بالإضافة : أي إمهال عمرو ، كقوله ﴿فضرب الرقاب﴾ [محمد : ٤] ونعتاً لمصدر نحو : ساروا سيراً رويداً ، وحالاً نحو : سار القوم رويداً ، ويكون اسم فعل ، وهذا كله موضح في علم النحو ، والله تعالى أعلم .

﴿ والسماء والطارق ، وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب ، إن كل نفس لما عليها حافظ ، فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر ، يوم تبلى السرائر ، فما له من قوة ولا ناصر ، والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل ، إنهم يكيدون كيداً ، وأكيد كيداً ، فمهل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾ هذه السورة مكية . ولما ذكر فيما قبلها تكذيب الكفار للقرآن نبه هنا على حقارة الإنسان ثم استطرد منه إلى أن هذا القرآن قول فصل جد لا هزل فيه ولا باطل يأتيه ، ثم أمر نبيه بإمهال هؤلاء الكفرة المكذبين وهي آية موادعة منسوخة بآية السيف . (والسماء) هي المعروفة ، قاله الجمهور . وقيل : (السماء) هنا المطر و (الطارق) هو الآتي ليلاً ، أي يظهر بالليل ، وقيل : لأنه يطرق الجني ، أي يصكه ، من طرقت الباب إذا ضربته ليفتح لك ، أتى بالطارق ، مقسماً به ، وهي صفة مشتركة بين النجم الثاقب وغيره ، ثم فسره بقوله (النجم الثاقب) إظهاراً لفخامة ما أقسم به لما علم فيه من عجيب القدرة ، ولطيف الحكمة ، وتنبيهاً على ذلك كما قال تعالى ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ [الواقعة ٧٥ ، ٧٦] ، وقال ابن عطية : معنى الآية : والسماء وجميع ما يطرق فيها من الأمور والمخلوقات ، ثم ذكر بعد ذلك على جهة التنبيه أجل الطارقات قدراً ، وهو النجم الثاقب ، وكأنه قال : (وما أدراك ما الطارق) حق الطارق . انتهى . فعلى هذا يكون (النجم الثاقب) بعضاً مما دل عليه (والطارق) ، إذ هو اسم جنس يراد به جميع الطوارق . وعلى قول غيره يراد به واحد فسر بالنجم الثاقب و (النجم الثاقب) عند ابن عباس : الجدي . وعند ابن زيد : زحل ، وقال هو أيضاً وغيره الثريا ، وهو الذي تطلق عليه العرب اسم النجم . وقال علي : نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيره من النجوم فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها ثم رجع إلى مكانه من السماء السابعة فهو طارق حين ينزل وطارق حين يصعد . وقال الحسن : هو اسم جنس ، لأنها كلها ثواقب ، أي ظاهرة الضوء . وقيل : المراد جنس النجوم التي يرمى بها ويرجم . و (الثاقب) قيل : المضيء ، يقال ثقب يثقب ثقوباً وثقابة . أضاء ، أي يثقب الظلام بضوئه ، وقيل : المرتفع العالي ، ولذلك قيل هو زحل ، لأنه أرفعها مكاناً . وقال الفراء : ثقب الطائر : ارتفع وعلا . وقرأ الجمهور (إن) خفيفة ، (كل) رفعاً (لما) خفيفة ، فهي عند البصريين مخففة من الثقيلة و (كل) مبتدأ و (اللام) هي الداخلة للفرق بين إن النافية وإن المخففة و (ما) زائدة و (حافظ) خبر المبتدأ و (عليها) متعلق به . وعند الكوفيين (إن) نافية و (اللام) بمعنى إلا و (ما) زائدة و (كل) و (حافظ) مبتدأ وخبر ، والترجيح بين المذهبين مذكور في علم النحو . وقرأ الحسن والأعرج وقتادة وعاصم وابن عامر وحمزة وأبو عمرو ونافع بخلاف عنهما

---

(١) عجز بيت من الطويل وصدره :

أراها على حب الحياة وطولها . . . . .

انظر اللسان (هزل) .

الجمهور إن الرجع : هو المطر . والصدع : ما تتصدع عنه الأرض من النبات ، ويناسب قول من قال : الرجع المطر ، وقال ابن زيد : ذات الانشقاق بالنبات ، وقيل أيضاً : ذات الحرث . وقال مجاهد : الصدع : ما في الأرض من شقاق والصلب والخندق وتشقق بحرث وغيره ، وهي أمور فيها معتبر . وعنه أيضاً : ذات الطرق تصدعها المشاة ، وقيل : ذات الأموات لانصداعها عنهم يوم النشور والضمير في (إنه) قالوا عائد على القرآن . (فصل) أي فاصل بين الحق والباطل كما قيل له فرقان . والأولى : ويجوز أن يعود الضمير في (إنه) على الكلام الذي أخبر فيه ببعث الإنسان يوم القيامة وابتلاء سرائره ، أي إن ذلك القول قول جزم مطابق للواقع لا هزل فيه ، ويكون الضمير قد عاد على مذكور وهو الكلام الذي تضمن الإخبار عن البعث وليس من الأخبار التي فيها هزل بل هو جد كله . (إنهم) أي الكافرون (يكيدون) أي في إبطال أمر الله وإطفاء نور الحق (وأكيد) أي أجازيهم على كيدهم . فسمى الجزاء كيداً على سبيل المقابلة نحو قوله تعالى ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ آل [عمران : ٥٤] ﴿ إنما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم ﴾ [البقرة ١٤ ، ١٥] ثم أمر رسوله ـ ﷺ ـ فقال (فمهلهم رويداً) أي انتظر عقوبتهم ، ولا تستعجل ذلك . ثم أكد أمره فقال (أمهلهم رويداً) أي إمهالاً لما كرر الأمر توكيداً خالف بين اللفظين على أن الأول مطلق ، وهذا الثاني مقيد بقوله (رويداً) ، وقرأ ابن عباس (مَهِّلْهم) بفتح الميم وشدّ الهاء موافقة للفظ الأمر الأول

استثنوه ، وأخذ الزمخشري هذا القول فقال : وقيل (إلا ما شاء الله) والغرض نفي النسيان رأساً كما يقول الرجل لصاحبه أنت سهيمي فيما أملك إلا ما شاء الله ولا يقصد استثناء شيء ، وهو من استعمال القلة في معنى النفي . انتهى . وقول الفراء والزمخشري يجعل الاستثناء كلا استثناء ، وهذا لا ينبغي أن يكون في كلام الله تعالى ، بل ولا في كلام فصيح وكذلك القول بأن « لا » في (فلا تنسى) للنهي والألف ثابتة لأجل الفاصلة ، وهذا قول ضعيف . ومفهوم الآية في غاية الظهور وقد تعسفوا في فهمها والمعنى أنه تعالى أخبر أنه سيقرئه وأنه لا ينسى إلا ما شاء الله فإنه ينساه إما النسخ وإما أن يسن وإما على أن يتذكر وهو ـ ﷺ ـ معصوم من النسيان فيما أمر بتبليغه فإن وقع نسيان فيذكره على وجه من الوجوه الثلاثة . ومناسبة (سنقرئك) لما قبله أنه لما أمره تعالى بالتسبيح وكان التسبيح لا يتم إلا بقراءة ما أنزل عليه من القرآن ، وكان يتذكر في نفسه مخافة أن ينسى فأزال عنه ذلك وبشره أنه تعالى يقرئه وأنه لا ينسى إلا (ما شاء الله) أن ينسيه لمصلحة من تلك الوجوه . (إنه يعلم الجهر) أي جهرك بالقراءة (وما يخفى) أي في نفسك من خوف التفلت وقد كفاك ذلك بكونه تكفل بإقرائك إياه وإخباره أنك لا تنسى إلا ما استثناه وتضمن ذلك إحاطة علمه بالأشياء (ونيسرك) معطوف على (سنقرئك) وما بينهما من الجملة المؤكدة اعتراض أي ونوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل يعني في حفظ الوحي . وقيل : الشريعة الحنيفية السهلة . وقيل : نذهب بك إلى الأمور الحسنة في أمر دنياك وآخرتك من النصر وعلو المنزلة والرفعة في الجنة . ولما أخبر أنه يقرئه وييسره أمره بالتذكير إذ ثمرة الإقراء هي انتفاعه في ذاته وانتفاع من أرسل إليهم . والظاهر أن الأمر بالتذكير مشروط بنفع الذكرى وهذا الشرط إنما جيء به توبيخاً لقريش أي (إن نفعت الذكرى) في هؤلاء الطغاة العتاة ، ومعناه استبعاد انتفاعهم بالذكرى فهو كما قال الشاعر :

لقد أسمعت لو ناديت حياً ... ولكن لا حياة لمن تنادي[1]

كما تقول : قل لفلان وأعد له إن سمعك فقوله إن سمعك إنما هو توبيخ وإعلام أنه لن يسمع . وقال الفراء والنحاس والزهراوي والجرجاني : معناه وإن لم تنفع فاقتصر على القسم الواحد لدلالته على الثاني . وقيل : إن بمعنى (إذ) كقوله ﴿ وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران : ١٣٩] أي : إذ كنتم لأنه لم يخبر بكونهم الأعلين إلا بعد إيمانهم (سيذكر من يخشى) أي لا يتذكر بتذكرك إلا من يخاف فإن الخوف حامل على النظر في الذي ينجيه مما يخافه فإذا نظر قاده النظر والتذكر إلى الحق ، وهؤلاء هم العلماء والمؤمنون كل على قدر ما وفق له . (ويتجنبها) أي الذكرى (الأشقى) أي البالغ في الشقاوة ، لأن الكافر بالرسول ـ ﷺ ـ هو أشقى الكفار إذ المؤمن به وبما جاء به هو أفضل ممن آمن برسول قبله ثم وصفه بما يؤول إليه حاله في الآخرة وهو صلي النار ووصفها بالكبرى . قال الحسن : (النار الكبرى) نار الآخرة والصغرى نار الدنيا . وقال الفراء : (الكبرى) السفلى من أطباق النار . وقيل : نار الآخرة تتفاضل فيها شيء أكبر من شيء (ثم لا يموت) فيستريح (ولا يحيى) حياة هنية ويجيء « ثم » للتعقيب للتراخي ، إيذاناً بتفاوت مراتب الشدة لأن التردد بين الحياة والموت أشد وأفظع من الصلي بالنار (قد أفلح) أي فاز وظفر بالبغية (من تزكى) تطهر ، قال ابن عباس : من الشرك وقال لا إله إلا الله . وقال الحسن : من كان عمله زاكياً . وقال أبو الأحوص وقتادة وجماعة : من رضخ من ماله وزكاه (وذكر اسم ربه) أي وحده لم يقرنه بشيء من الأنداد (فصلى) أي أتى بالصلاة المفروضة وما أمكنه من النوافل . والمعنى أنه لما تذكر آمن بالله ثم أخبر عنه تعالى أنه أفلح من أتى بهاتين العبادتين الصلاة والزكاة واحتج بقوله (وذكر اسم ربه) على وجوب تكبيرة الافتتاح وعلى أنه جائز بكل اسم من أسمائه تعالى وأنها ليست من الصلاة لأن الصلاة معطوفة على الذكر الذي هو تكبيرة الافتتاح وهو احتجاج ضعيف . وقال ابن عباس (وذكر اسم ربه) أي معاده وموقفه بين يدي ربه

---

(١) البيت من الوافر ذكره السمين في الدر المصون .

(فصلى) له . وقرأ الجمهور (بل تؤثرون) بتاء الخطاب للكفار . وقيل : خطاب للبر والفاجر ، يؤثرها البر ، لاقتناء الثواب والفاجر لرغبته فيها . وقرأ عبد الله وأبو رجاء والحسن والجحدري وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو عمرو والزعفراني وابن مقسم بياء الغيبة . (إن هذا) أي الإخبار بفلاح من تزكى وإيثار الناس للدنيا ، قاله ابن زيد وابن جرير ، ويرجح بقرب المشار إليه منه . وقال ابن عباس وعكرمة والسدي : إلى معنى السورة . وقال الضحاك : إلى القرآن . وقال قتادة : إلى قوله (والآخرة خير وأبقى) . (لفي الصحف الأولى) لم ينسخ إفلاح من تزكى والآخرة خير وأبقى في شرع من الشرائع فهو في الأولى وفي آخر الشرائع . وقرأ الجمهور (الصحُف) بضم الحاء كالحرف الثاني . والأعمش وهارون وعصمة كلاهما عن أبي عمرو بسكونها . وفي كتاب اللوامح العقيلي عن أبي عمرو (الصحْف صحْف) بإسكان الحاء فيهما لغة تميم . وقرأ الجمهور (إبراهيم) بألف وبياء والهاء مكسورة . وأبو رجاء بحذفهما والهاء مفتوحة مكسورة معاً . وأبو موسى الأشعري وابن الزبير (إبراهام) بألف في كل القرآن . ومالك بن دينار إبراهم بألف وفتح الهاء وبغير ياء . وعبد الرحمن بن أبي بكرة (إبراهِم) بكسر الهاء وبغير ياء في جميع القرآن . قال ابن خالويه : وقد جاء (إبراهُم) يعني بألف وضم الهاء . وتقدم في (والنجم) الكلام على (صحف إبراهيم وموسى) عليه الصلاة والسلام

سورة الغاشية مكية وهي ست وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

الضريع: قال أبو حنيفة - والله صاحب النبات -: الضريع الشبرق وهو مرعى سوء لا تعقد السائمة عليه شحماً ولا لحماً، ومنه قول أبي عزارة الهذلي:

وحُبِسْنَ في هَزْمِ الضريعِ فكلُّها ... حدباءُ داميةُ اليدينِ حَرودُ(1)

وقال أبو ذؤيب:

رعى الشِّبرقَ الريّانَ حتى إذا ذوى ... وصار ضريعاً بانَ عنه النحائصُ(2)

وقال بعض اللغويين: يبيس العرفج إذا تحطم. وقال الزجاج: هو نبت كالعوسج. وقال الخليل: نبت أخضر منتن الريح يرمي به البحر. النمارق: الوسائد واحدها نُمرُقة بضم النون والراء وبكسرهما.

وقال زهير:

---

(1) البيت من الكامل انظر ديوان الهذليين ٢/٧٣ الشاهد (ص).

(2) البيت من الطويل انظر الكشاف ٤/٢٤٣، فتح القدير ٥/٤٢٩.

كهولاً وشباناً حساناً وجوههم ... على سرر مصفوفة ونمارق(1)

الزرابي: البسط عراض فاخرة. وقال الفراء: هي الطنافس لها خمل واحدها زربية، بكسر الزاي وبفتحها. وسطحت الأرض: بسطت ووطئت.

﴿ هل أتاك حديث الغاشية، وجوه يومئذ خاشعة، عاملة ناصبة، تصلى ناراً حامية، تسقى من عين آنية، ليس لهم طعام إلا من ضريع، لا يسمن ولا يغني من جوع، وجوه يومئذ ناعمة، لسعيها راضية، في جنة عالية، لا تسمع فيها لاغية، فيها عين جارية، فيها سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت، فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر، إلا من تولى وكفر، فيعذبه الله العذاب الأكبر، إن إلينا إيابهم، ثم إن علينا حسابهم ﴾ هي مكية. ولما ذكر فيما قبلها التذكير وذكر النار والآخرة قال: (هل أتاك حديث الغاشية) والغاشية: الداهية التي تغشى الناس بشدائدها يوم القيامة، قاله سفيان والجمهور. وقال ابن جبير ومحمد بن كعب: النار، كما قال تعالى ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ [إبراهيم ٥٠]، وقال ﴿ ومن فوقهم غواش ﴾ [الأعراف ٤١] فهي تغشى سكانها. وهذا الاستفهام توقيف، وفائدته: تحريك نفس السامع إلى تلقي الخبر. وقيل: المعنى: هل كان هذا من علمك لولا ما علمناك، وفي هذا تعديد النعمة. وقيل: بمعنى قد. (وجوه يومئذ) أي يوم إذ غشيت، والتنوين عوض من الجملة، ولم تتقدم جملة تصلح أن يكون التنوين عوضاً منها لكن لما تقدم لفظ الغاشية وأل موصولة باسم الفاعل فتنحل للتي غشيت، أي للداهية التي غشيت فالتنوين عوض من هذه الجملة التي انحل لفظ الغاشية إليها وإلى الموصول الذي هو التي. (خاشعة) ذليلة. (عاملة ناصبة) قال ابن عباس والحسن وابن جبير وقتادة: عاملة في النار، ناصبة تعبة فيها، لأنها تكبرت عن العمل في الدنيا. قيل: وعملها في النار جر السلاسل والأغلال وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل وارتقاؤها دائبة في صعود نار وهبوطها في حدور منها. وقال ابن عباس أيضاً وزيد بن أسلم وابن جبير: (عاملة) في الدنيا (ناصبة) فيها لأنها على غير هدى فلا ثمرة لها إلا النصب وخاتمته النار، والآية في القسيسين وعباد الأوثان وكل مجتهد في كفره. وقال عكرمة والسدي: (عاملة ناصبة) بالنصب على الذم والجمهور برفعهما. وقرأ (تصلى) بفتح التاء وأبو رجاء وابن محيصن والأبوان بضمها وخارجة بضم التاء وفتح الصاد مشدد اللام وقد حكاها أبو عمرو بن العلاء. (حامية): مسعرة آنية قد انتهى حرها كقوله ﴿ وبين حميم آن ﴾ [الرحمن ٤٤] قاله ابن عباس والحسن ومجاهد. وقال ابن زيد: حاضرة لهم من قولهم أنى الشيء حضر. والضريع: قال ابن عباس: شجر من نار. وقال الحسن وجماعة: الزقوم. وقال ابن جبير: حجارة من نار. وقال ابن عباس أيضاً وقتادة وعكرمة ومجاهد: شبرق النار. وقيل: العشرق. وقيل: رطب العرفج، وتقدم ما قيل به في المفردات. وقيل: واد في جهنم. والضريع إن كان الغسلين، والزقوم فظاهر، ولا يتعارض الحصر في ﴿ إلا من غسلين ﴾ [الحاقة ٣٦] و (إلا من ضريع) وإن كانت أغيار مختلفة والجمع بأن الزقوم لطائفة والغسلين لطائفة والضريع لطائفة. وقال الزمخشري: (لا يسمن) مرفوع المحل أو مجروره على وصف (طعام) أو (ضريع) يعني أن طعامهم من شيء ليس من مطاعم الإنس وإنما هو شوك والشوك مما ترعاه الإبل وتتولع به، وهذا نوع منه تنفر عنه ولا تقربه، ومنفعتا الغذاء منتفيتان عنه وهما إماطة الجوع وإفادة القوة والسمن في البدن انتهى. فقوله: مرفوع

(1) البيت من الطويل انظر الديوان (١٠٣) برواية:
[illegible]

فتح القدير ٥/٤٣٠

النصب أو مجروره على وصف لطعام أو ضريع ، أما جره على وصفه لـ (ضريع) فيصح ، لأنه مثبت منفي عنه السمن والإغناء من الجوع . وأما رفعه على وصفه لـ (طعام) فلا يصح ، لأن الطعام منفي ولا يسمن منفي فلا يصح تركيبه إذ يصير التقدير : ليس لهم طعام لا يسمن ولا يغني من جوع إلا من ضريع ، فيصير المعنى أن لهم طعاماً يسمن ويغني من جوع من غير ضريع كما تقول ليس لزيد مال لا ينتفع به إلا من مال عمرو ، فمعناه أن له مالاً ينتفع به من غير مال عمرو . ولو قيل : الجملة في موضع رفع صفة للمحذوف المقدر في (إلا من ضريع) كان صحيحاً ، لأنه في موضع رفع على أنه بدل من اسم ليس أي ليس لهم طعام إلا كائن من ضريع إذ لا طعام من ضريع غير مسمن ولا مغن من جوع . وهذا تركيب صحيح ومعنى واضح . وقال الزمخشري : أو أريد أن لا طعام لهم أصلاً ، لأن الضريع ليس بطعام للبهائم ، فضلاً عن الإنس ، لأن الطعام ما أشبع وأسمن ، وهو منهما بمعزل ، كما تقول ليس لفلان ظل إلا الشمس تريد نفي الظل على التوكيد انتهى . فعلى هذا يكون الاستثناء منقطعاً إذ لم يندرج الكائن من الضريع تحت لفظة طعام إذ ليس بطعام ، والظاهر الاتصال فيه وفي قوله ﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾ [الحاقة ٣٦] لأن الطعام هو ما يتطعمه الإنسان وهذا قدر مشترك بين المستلذ والمكروه وما لا يستلذ ولا يستكره . (وجوه يومئذ ناعمة) صح الابتداء في هذا وفي قوله (وجوه يومئذ خاشعة) بالنكرة لوجود مسوغ ذلك ، وهو التفصيل (ناعمة) حسنة ونضارتها أو متنعمة ، (لسعيها راضية) أي لعملها في الدنيا بالطاعة (راضية) إذا كان ذلك العمل جزاؤه الجنة (في جنة عالية) : أي مكاناً ومكانة . وقرأ الأعرج وأهل مكة والمدينة ونافع وابن كثير وأبو عمرو بخلاف عنهم (لا تُسمع) مبنياً للمفعول (لاغية) رفع أي كلمة لاغية أو جماعة لاغية أو لغو . فيكون مصدراً كالعاقبة ، ثلاثة أقوال الثالث : لأبي عبيدة وابن محيصن وعيسى وابن كثير وأبو عمرو كذلك إلا أنهم قرأوا بالياء لمجاز التأنيث والفضل والجحدري كذلك إلا أنه نصب (لاغية) على معنى لا يسمع فيها أي أحد ، من قولك : أسمعت زيداً والحسن وأبو رجاء وأبو جعفر وقتادة وابن سيرين ونافع في رواية خارجة وأبو عمرو بخلاف عنه وباقي السبعة (لا تسمع) بتاء الخطاب عموماً ، أو للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو الفاعل الوجوه . (لاغية) بالنصب (فيها عين جارية) عين : اسم جنس أي عيون أو مخصوصة ذكرت تشريفاً لها . (فيها سرر مرفوعة) من رفعة المنزلة أو رفعة المكان ليرى ما خوله ربه من الملك والنعيم أو مخبوءة من رفعت لك هذا أي خبأته . (وأكواب موضوعة) أي بأشربتها معدة لا تحتاج إلى ملء ، أو موضوعة بين أيديهم أو موضوعة على حافات العيون . (ونمارق مصفوفة) أي وسائد صف بعضها إلى جنب بعض للاستناد إليها والاتكاء عليها (وزرابي مبثوثة) متفرقة هنا وهنالك في المجالس . ولما ذكر تعالى أمر القيامة وانقسام أهلها إلى أشقياء وسعداء ، وعلم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك إلا بواسطة الصانع الحكيم ، أتبع ذلك بذكر هذه الدلائل وذكر ما العرب مشاهدوه وملابسوه دائماً فقال (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) وهي الجمال فإنه اجتمع فيها ما تفرق من المنافع في غيرها من أكل لحمها وشرب لبنها والحمل عليها والتنقل عليها إلى البلاد الشاسعة وعيشها بأي نبات أكلته وصبرها على العطش حتى أن فيها ما يرد الماء لعشر وطواعيتها لمن يقودها ونهضتها وهي باركة بالأحمال الثقال وكثرة حنينها وتأثرها بالصوت الحسن على غلظ أكبادها ، وهي لا شيء من الحيوان جمع هذه الخصال غيرها . وقد أبان تعالى امتنانه عليهم بقوله ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً﴾ [يس ٧١ الآيات] ولكونها أفضل ما عند العرب جعلوها دية القتل ووهبوا المائة منها من يقصدهم ومن أرادوا إكرامه وذكرها الشعراء في مدح من وهبها كما قال :

أعطوا هُنَيْدَةَ تحدوها ثمانية

وقال آخر :

الواهب المائة الهجان برمتها

وناسب التنبيه بالنظر إليها وإلى ما حوت من عجائب الصفات ما ذكر معها من السماء والجبال والأرض لانتظام هذه الأشياء في نظر العرب في أوديتهم وبواديهم وليدل على الاستدلال على إثبات الصانع وأنه ليس مختصاً بنوع دون نوع بل هو عام في كل موجوداته كما قيل :

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

وقال أبو العباس المبرد : الإبل هنا السحاب ، لأن العرب قد تسميها بذلك إذ تأتي أرسالاً كالإبل وترجى كما ترجى الإبل ، وهي في هيئتها أحياناً تشبه الإبل والنعام ، ومنه قوله :

كأن السحاب فويق السما   نعام تعلق بالأرجل

وقال الزمخشري : ولم يدع من زعم أن الإبل السحاب إلى قوله إلا طلب المناسبة ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب كالغمام والمزن والرباب والغيم وغير ذلك وإنما رأى السحاب مشبهاً بالإبل كثيراً في أشعارهم ، فجوز أن يراد بها السحاب على طريقة التشبيه والمجاز . انتهى . وقرأ الجمهور (الإبل) بكسر الباء وتخفيف اللام . والأصمعي عن أبي عمرو بإسكان الباء وعلي وابن عباس بشد اللام ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي . وقالوا : إنها السحاب عن قوم من أهل اللغة . وقال الحسن . خص الإبل بالذكر ، لأنها تأكل النوى والقت ، وتخرج اللبن ، وقيل له الفيل أعظم في الأعجوبة ، وقال : العرب بعيدة العهد بالفيل ثم هو خنزير لا يؤكل لحمه ولا يركب ظهره ولا يحلب دره ، والإبل لا واحد له من لفظه ، وهو مؤنث ، ولذلك إذا صغر دخلته التاء فقالوا أبيلة ، وقالوا في الجمع آبال وقد اشتقوا من لفظه فقالوا : تأبل الرجل . وتعجبوا من هذا الفعل على غير قياس فقالوا ما أبل زيداً وإبل اسم جاء على فعل ولم يحفظ سيبويه مما جاء على هذا الوزن غيره و (كيف خلقت) جملة استفهامية في موضع البدل من الإبل و (ينظرون) تعدى إلى الإبل بواسطة إلى وإلى (كيف خلقت) على سبيل التعليق ، وقد تبدل الجملة وفيها الاستفهام من الاسم الذي قبلها كقولهم : عرفت زيداً أبو من هو على أصح الأقوال على أن العرب قد أدخلت إلى على (كيف) فحكي أنهم قالوا . انظر إلى كيف يصنع ؟ و (كيف) سؤال عن حال ، والعامل فيها (خلقت) وإذا علق الفعل عن ما فيه الاستفهام لم يبق الاستفهام على حقيقته . وقد بينا ذلك في كتابنا المسمى بالتذكرة وفي غيره . وقرأ الجمهور (خلقت) (رفعت) (نصبت) (سطحت) مبنياً للمفعول وعلي وأبو حيوة وابن أبي عبلة بتاء المتكلم مبنياً للفاعل والمفعول محذوف ، أي خلقتها رفعتها نصبتها سطحتها بمعنى المعنى بلا عمد نصبت نصباً ثابتاً لا تميل ولا تزول سطحت سطحاً حتى صارت كالمهاد المتقلب عليها . وقرأ الجمهور (سطحت) خفيفة الطاء والحسن وهارون شدّها ولما حضهم على النظر أمر رسوله ﷺ بتذكيرهم فقال (فذكر) ولا يهمنك كونهم لا ينظرون (إنما أنت مذكر) كقوله تعالى ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ [الشورى ٤٨] (لست عليهم بمسيطر) أي بمسلط كقوله ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ [ق ٤٥] وقرأ الجمهور بالصاد وكسر الطاء ، وابن عامر في رواية ونطيق عن قنبل ، وزرعان عن حفص بالسين ، وحمزة في رواية بإشمام الزاي ، وهارون بفتح الطاء وهي لغة تميم ، ومسيطر متعد عندهم ، ويدل عليه فعل المطاوعة ، وهو تسيطر وليس في الكلام على هذا الوزن إلا مسيطر ومهيمن ومبيطر ومبيقر ، وهي أسماء فاعلين من سيطر وهيمن وبيطر ، وجاء مجيمر اسم واد ومديبر ويمكن أن يكون أصلهما مدبر ومجمر فصغرا . وقرأ الجمهور (إلا) حرف استثناء ، فقيل : متصل ، أي فأنت مسيطر عليه . وقيل : متصل من (فذكر) أي فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر وما بينهما اعتراض . وقيل : منقطع وهي آية موادعة نسخت بآية

---

(١) لفهم .

السيف. وقرأ ابن عباس وزيد بن علي وقتادة وزيد بن أسلم: ألا، حرف تنبيه واستفتاح. والعذاب الأكبر: هو عذاب جهنم. وقرأ الجمهور: ﴿إيابهم﴾ بتخفيف الياء مصدر آب. وأبو جعفر وشيبة: بشدها مصدراً لفيعل من آب على وزن فيعال، أو مصدراً كفوعل كحوقل على وزن فيعال أيضاً كحيقال، أو مصدر لفعول كجهور على وزن فعوال كجهوار، فأصله أوواب فقلبت الواو الأولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، واجتمع في هذا البناء والبناءين قبله واو وياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وادغم، ولم يمنع الإدغام من القلب لأن الواو والياء ليستا عينين من الفعل بل الياء في فيعل والواو في فعول زائدتان. وقال صاحب اللوامح، وتبعه الزمخشري: يكون أصله إوّاباً مصدر أوّب نحو كذّب كذّاباً، ثم قيل إيواباً فقلبت الواو الأولى ياء لانكسار ما قبلها. قال الزمخشري: كديوان في دوّان، ثم فعل به ما فعل بسيد، يعني أنه اجتمع ياء وواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الواو. أما كونه مصدر أوّب فإنه لا يجوز لأنهم نصوا على أن الواو الأولى إذا كانت موضوعة على الإدغام وجاء ما قبلها مكسوراً فلا تقلب الواو الأولى ياء لأجل الكسرة، ومثلوا بخروّط مصدر اخروّط، ومثلوا أيضاً بمصدر اوّب نحو أوّب إوّاباً، فهذه وضعت على الإدغام فحصنها من الإبدال ولم تتأثر للكسرة. وأما تشبيه الزمخشري بديوان فليس بجيد، لأنهم لم ينطقوا بها في الوضع مدغمة فلم يقولوا دوّان، ولولا الجمع على دواوين لم يعلم أن أصل هذه الياء واو، وأيضاً فنصوا على شذوذ ديوان فلا يقاس عليه غيره. وقال ابن عطية: ويصح أن يكون من أوب فيجيء إيواباً سهلت الهمزة، وكان اللازم في الإدغام يردها إوّاباً، لكن استحسنت فيه الياء على غير قياس. انتهى. فقوله: وكان اللازم في الإدغام يردها إوّاباً ليس بصحيح، بل اللازم إذا اعتبر الإدغام أن يكون إيّاباً، لأنه قد اجتمعت ياء وهي المبدلة من الهمزة بالتسهيل وواو وهي عين الكلمة وإحداهما ساكنة فتقلب الواو ياء وتدغم فيها الياء فيصير إيّاباً. ولما كان من مذهب الزمخشري أن تقديم المعمول يفيد الحصر قال معناه: أن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام، وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه تعالى، وهو الذي يحاسب على النقير والقطمير، ومعنى الوجوب الوجوب في الحكمة. والله أعلم.

سورة الفجر مكية وهي ثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ۝ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ۝ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَادْخُلِي جَنَّتِي ۝

الحجر: العقل، ومن الفوائد: العرب تقول إنه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه، حافظاً لها، كأنه من حجرت على الرجل. إرم: أمة قديمة، وقيل: اسم أبي عاد كلها وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح - عليه السلام - وقيل: مدينة وعلى أنه اسم قبيلة، قال زهير:

وآخرين ترى الماذيّ عدتهم ... من نسج داود أو ما أورثت إرم[1]

وقال الرقيات:

مجداً تليداً بناه أوله ... أدرك عاداً وقبله إرما[2]

(١) البيت من البسيط، انظر شرح ديوانه ١٥٨.
(٢) البيت من مجزوء المنسرح لابن قيس الرقيات، انظر الكشاف ٤/٢٥٦.

جابي خرق وقطع تقول جبت البلاد أجوبها إذا قطعتها وجاوزتها، قال:

ولا رأيت قلوصاً قبلها حملت ... ستين وسقاً ولا جابت به بلداً (١)

السوط: آلة للضرب معروفة. قال بعض اللغويين: وهو مصدر من ساط يسوط إذا اختلط، وقال الليث: ساطه إذا خلطه بالسوط. ومنه قول الشاعر:

أحارث إنا لو تساط دماؤنا ... تزايلن حتى لا يمس دم دما (٢)

وقال أبو زيد: يقال أموالهم سويطة بينهم: أي مختلطة. اللم: الجمع واللف. قال أبو عبيدة: لممت ما على الخوان إذا أكلت جميع ما عليه بأسره. وقال الحطيئة:

إذا كان لماً يتبع الذم ربه ... فلا قدس الرحمن تلك الطواحنا (٣)

ومنه: لم الشعث، قال النابغة:

ولست بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعث أي الرجال المهذب (٤)

الجم: الكثير. ﴿ والفجر، وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر، هل في ذلك قسم لذي حجر، ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد، فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه، فيقول ربي أكرمن، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن، كلا بل لا تكرمون اليتيم، ولا تحاضون على طعام المسكين، وتأكلون التراث أكلاً لماً، وتحبون المال حباً جماً، كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً، وجاء ربك والملك صفاً صفاً، وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى، يقول يا ليتني قدمت لحياتي، فيومئذ لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي ﴾ هذه السورة مكية في قول الجمهور. وقال علي بن أبي طلحة: مدنية. ولما ذكر فيما قبلها ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ [الغاشية ٢] ﴿ ووجوه يومئذ ناعمة ﴾ [الغاشية ٨] أتبعه بذكر الطوائف المكذبين المتجبرين الذين وجوههم خاشعة، وأشار إلى الصنف الآخر الذين وجوههم ناعمة بقوله ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ [الفجر ٢٧] وأيضاً لما قال ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ [الغاشية ٢٣] وقال هنا ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ [الفجر ١٤] تهديداً لمن كفر وتولى. وقرأ أبو الدينار الأعرابي ﴿ والفجر ﴾ ﴿ والوتر ﴾ ﴿ ويسر ﴾ بالتنوين في الثلاثة. قال ابن خالويه: هذا كما روي عن بعض العرب أنه وقف على آخر القوافي بالتنوين وإن كان فعلاً وإن كان فيه ألف ولام، قال الشاعر:

أقلي اللوم عاذل والعتابا ... وقولي إن أصبت لقد أصابا

---

(١) البيت من البسيط لأبي وجزة، وانظر الكامل ١/١٠٩.
(٢) البيت من الطويل للمتلمس، انظر اللسان (سوط).
(٣) البيت من الوافر انظر الكشاف ٤/٢٤٩
(٤) البيت من الطويل انظر ديوانه (١٨) اللسان (شعث).

انتهى. وهذا ذكره النحويون في القوافي المطلقة إذا لم يترنم الشاعر وهو أحد الوجهين للذين للعرب إذا وقفوا على الكلم في الكلام لا في الشعر وهذا الأعرابي أجرى الفواصل مجرى القوافي. وقرأ الجمهور ﴿ وليال عشر ﴾ بالتنوين، وابن عباس بالإضافة، فضبطه بعضهم ﴿ وليالِ عشرٍ ﴾ بلام دون ياء وبعضهم ﴿ وليالي عشر ﴾ بالياء وهو جمع وليالي أيام عشر، ولما حذف الموصوف المعدود وهو مذكر جاء في عدده حذف التاء من عشر. والجمهور ﴿ والوَتْر ﴾ بفتح الواو وسكون التاء، وهي لغة قريش وأهل الحجاز. والأغر عن ابن عباس وأبو رجاء وابن وثاب وقتادة وطلحة والأعمش والحسن بخلاف عنه والأخوان بكسر الواو، وهي لغة تميم، واللغتان في الفرد، فأما في الرحل فبالكسر لا غير. وحكى الأصمعي فيه اللغتين. ويونس عن أبي عمرو بفتح الواو وكسر التاء. والجمهور ﴿ يسر ﴾ بحذف الياء وصلاً ووقفاً، وابن كثير بإثباتها فيهما، ونافع وأبو عمرو بخلاف عنه بياء في الوصل وبحذفها في الوقف والقاسم، وقرأ الجمهور بحسم علي وابن عياش وابن الزبير: أن ﴿ الفجر ﴾ هو المشهور أقسم به كما أقسم بالصبح ويراد به الجنس لا فجر يوم مخصوص. وقال ابن عباس ومجاهد: من يوم النحر. وعكرمة من يوم الجمعة. والضحاك: من ذي الحجة. ومقاتل: من ليلة جمع. وابن عباس وقتادة: من أول يوم من المحرم. وعن ابن عباس أيضاً: الفجر النهار كله. وعنه أيضاً وعن زيد بن أسلم ﴿ الفجر ﴾ هو صلاة الصبح، وقراءتها هو قرآن الفجر. وقيل: فجر العيون من الصخور وغيرها. وقال ابن الزبير والكلبي وقتادة ومجاهد والضحاك والسدي وعطية العوفي: هي عشر ذي الحجة. وابن عباس والضحاك: العشر الأواخر من رمضان. وقال ابن جريج: الأول منه، ويمان وجماعة: الأول من المحرم. ومنه يوم عاشوراء. ومسروق ومجاهد: وعشر موسى عليه السلام التي أتمها الله تعالى. قيل: والأظهر قول ابن عباس للحديث المتفق على صحته في شأنه عائشة رضي الله تعالى عنها كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله [1]. قال التبريزي: اتفقوا على أنه العشر الأواخر يعني من رمضان لم يخالف فيه أحد فتعظيمه تناسب لتعظيم القسم. وقال الزمخشري: وأراد بالليالي العشر ذي الحجة. ﴿ فإن قلت: ﴾ فما بالها منكرة من بين ما أقسم به؟ ﴿ قلت: ﴾ لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالي العشر بعض منها أو مخصوصة بفضيلة ليس لغيرها. ﴿ فإن قلت: ﴾ فهلا عرفت بلام العهد لأنها ليال معلومة معهودة؟ ﴿ قلت: ﴾ لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير، ولأن الأحسن أن تكون اللامات متجانسة، ليكون الكلام أبعد من الألغاز والتعمية انتهى. أما السؤالان فظاهران وأما الجواب عنها فلفظ ملفق لا يعقل منه معنى. ﴿ والشفع والوتر ﴾ ذكر في كتاب التحرير والتحبير: فيهما ستة وثلاثين قولاً ضجرنا من قراءتها فضلاً عن كتابتها في كتابنا هذا. وعن عمران بن حصين عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: هي الصلوات منها الشفع ومنها الوتر [2]. وروى أبو أيوب عنه ـ ﷺ ـ الشفع يوم عرفة ويوم الأضحى والوتر ليلة النحر [3]. وروى جابر عنه ـ ﷺ ـ الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة، وفي هذا الحديث تفسيره عليه الصلاة والسلام الفجر بالصبح، والليالي العشر بعشر النحر، وهو قول ابن عباس وعكرمة واختاره النحاس، وقال: حديث أبي الزبير عن جابر هو الذي صح عن النبي ـ ﷺ ـ وهو أصح إسناداً من حديث عمران بن حصين. فيوم عرفة وتر لأنه تاسعها، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها [4]. وذكر ابن عطية في ﴿ الشفع والوتر ﴾ أربعة عشر قولاً. والزمخشري ثلاثة أقوال، ثم قال: وقد أكثروا في الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناس ما يقعان

---

(١) البخاري ٤/٢٦٩ في فضل ليلة القدر (٢٠٢٤) ومسلم ٢/٨٣٢ في الاعتكاف باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (٧/١١٧٤).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/٤٣٨، وانظر تفسير القرطبي ٢٠/٣٩.

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع ٧/١٤٢ في باب سورة الفجر، وعزاه للطبراني من حديث طويل. وفيه واصل بن السائب وهو متروك.

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع ٧/١٤١، وعزاه للبزار وأحمد ورجالهما رجال الصحيح، غير عياش بن عقبة وهو ثقة.

فالمعاملة . والأول أوضح لقوله ﴿ لا يعذب ولا يوثق ﴾ ولاتفاق من القاصي إلا بتحاد بعيد ، ما موضوع ﴿ لا ﴾ إذا دخلت على المضارع أن تكون مستقبلاً ، ويجوز أن يكون الضمير عليها عائداً على الكافر ، أي لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه . وقيل : إلى الله أي لا يعذب أحد في الدنيا مثل عذاب الله للكافر ، ويضعف هذا لأن لا يعذب في ﴿ يومئذ ﴾ وهو ظرف مستقبل . وقرأ ابن سيرين وابن أبي إسحاق وسوار القاضي وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو بحرية والأعمش والكسائي ويعقوب وسهل وخارجة عن أبي عمرو بفتح الذال والثاء مبنيين للمفعول ، فيجوز أن يكون الضمير فيهما مضافاً للمفعول ، وهو الأظهر أي لا يعذب أحد مثل عذابه ، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه ، أو لا يحمل أحد عذاب الإنسان لقوله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الإسراء ١٥] و ﴿ عذاب ﴾ وضع موضع تعذيب ، وفي القياس مثل هذا خلاف وهو أن يعمل ما وضع لغير المصدر كالعطاء والثواب والعذاب والكلام ، فالبصريون لا يجيزونه ويقيسونه . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بخلاف عنهم وثاقه بكسر الواو والجمهور بفتحها والمعذب ، هو الكافر على العموم ، وقيل : هو أمية بن خلف ، وقيل : أبي بن خلف . وقيل : المراد به إبليس ، ويدل الدليل على أنه أشد من الناس عذاباً ويدفع القول هذا قوله ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان ﴾ والضمائر كلها مسوقة له . ولما ذكر تعالى شيئاً من أحوال من يعذب ذكر شيئاً من أحوال المؤمن فقال ﴿ يا أيتها النفس ﴾ وهذا النداء الظاهر أنه على لسان ملك . وقرأ الجمهور يا أيتها بالتاء . وقرأ زيد بن علي ﴿ يا أيها ﴾ بغير تاء ، ولا أعلم أحداً ذكر أنها تذكر وإن كان المنادى مؤنثاً إلا صاحب البديع . وهذه القراءة شاهدة بذلك ، ولذلك وجه من القياس وذلك أنه لم يثن ولم يجمع في نداء المثنى والمجموع فكذلك لم يؤنث في نداء المؤنث . و﴿ المطمئنة ﴾ الآمنة التي لا يلحقها خوف ولا حزن أو التي كانت مطمئنة إلى الحق لم يخالطها شك . قال ابن زيد : يقال لها ذلك عند الموت وخروجها من جسد المؤمن في الدنيا . وقيل : عند البعث ، وقيل : عند دخول الجنة . ﴿ إلى ربك ﴾ أي إلى موعد ربك . وقيل الرب هنا الإنسان دون النفس ، أي ادخلي في الأجساد ، والنفس اسم جنس . وقيل : هذا النداء هو الآن للمؤمنين . لما ذكر حال الكفار قال يا مؤمنون دوموا وجدوا حتى ترجعوا راضين مرضيين ﴿ راضية ﴾ بما أوتيته ﴿ مرضية ﴾ عند الله ، فادخلي في عبادي أي في جملة عبادي الصالحين ﴿ وادخلي جنتي ﴾ معهم ، وقيل النفس والروح ، والمعنى فادخلي في أجساد عبادي . وقرأ الجمهور ﴿ في عبادي ﴾ جمعاً . وابن عباس وعكرمة والضحاك ومجاهد وأبو جعفر وأبو صالح والكلبي وأبو شيخ الهنائي واليماني ﴿ في عبدي ﴾ على الإفراد ، والأظهر أنه أريد به اسم الجنس فمدلوله ومدلول الجمع واحد . وقيل : هو من حذف مضاف النفس مفرده ، فقال : ﴿ فادخلي في عبدي ﴾ أي في جسد عبدي وتعدى فادخلي أولاً بـ ﴿ في ﴾ وثانياً بغير في ، وذلك أنه إذا كان المدخول فيه غير ظرف حقيقي تعدت إليه بـ ﴿ في ﴾ دخلت في الأمر ودخلت في غمار الناس . ومنه ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ وإذا كان المدخول فيه ظرفاً حقيقياً تعدت إليه في الغالب بغير وساطة في . قيل في عثمان بن عفان ، وقيل : في حمزة ، وقيل : في خبيب بن عدي ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

سورة البلد مكية وهي عشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾

الكبد: الشدة والمشقة، وأصله من كبد الرجل كبداً فهو أكبد إذا وجعه كبده وانتفخت فاستعمل في كل تعب ومشقة ومنه المكابدة. وقال لبيد:

يا عين هلا بكيت أربد إذ ... قمنا وقام الخصوم في كبد[1]

وقال ذو الإصبع:

لي ابن عم لو ان الناس في كبد ... لظل محتجرا بالنبل يرميني[2]

الشفة: معروفة وأصلها شفهة، حذفت منه الهاء، ويدل عليه شُفَيْهَة وشفاه وشافهت، وهي مما لا يجوز جمعه بالألف والتاء، وإن كانت تاؤه للتأنيث. النجد: العنق، وجمعه نجود، وبه سميت نجد، لارتفاعها عن انخفاض تهامة. والنجد: الطريق العالي، قال امرؤ القيس:

فريقان منهم سالك بطن نخلة ... وآخر منهم قاطع نجد كبكب

الفك: تخليص الشيء من الشيء، قال الشاعر:

---

(1) البيت من عروض البسيط، انظر اللسان (كبد)، والكشاف ٤/٢٠٦.

(2) البيت من البسيط، انظر ديوانه، المفضليات (٣١٦).

وما طحاها ، ونفس وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها ، كذّبت ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ، فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها ، ولا يخاف عقباها ﴾ هذه السورة مكية . ولما تقدّم القسم ببعض المواضع الشريفة وما بعدها أقسم هنا بشيء من العالم العلوي ، والعالم السفلي ، وبما هو آلة التفكر في ذلك وهو النفس ، وكان آخر ما قبلها مختتماً بشيء من أحوال الكفار في الآخرة ، فاختتم هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا ، وفي ذلك ما آلهم في الآخرة إلى النار ، وفي الدنيا إلى الهلاك المستأصل . وتقدّم الكلام على ضحى في سورة طه عند قوله ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ [طه ٥٩] . وقال مجاهد : هو ارتفاع الضوء وكماله . وقال مقاتل : حرها لقوله ﴿ ولا تضحى ﴾ [طه ١١٩] . وقال قتادة : هو النهار كله ، وهذا ليس بجيد ، لأنه قد أقسم بالنهار . والمعروف في اللغة أن الضحى هو بعيد طلوع الشمس قليلاً ، فإذا زال عنه قيل : ضحاء بالمد وفتح الضاد إلى الزوال . وقول مقاتل : تفسير باللازم . وما نقل عن المبرد من أن الضحى مشتق من الضح ، وهو نور الشمس والألف مقلوبة من الحاء الثانية ، وكذلك الواو في ضحوة مقلوبة عن الحاء الثانية ، نجده مختلفاً عليه ، لأن المبرد أجلّ من أن يذهب إلى هذا ، وهاتان مادتان مختلفتان لا تشتق إحداهما من الأخرى . ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ قال الحسن والفراء : ﴿ تلاها ﴾ معناه تبعها دأباً في كل وقت لأنه يستضيء منها فهو يتلوها لذلك . وقال ابن زيد : يتلوها في الشهر كله ، يتلوها في النصف الأول من الشهر بالطلوع ، وفي الآخر بالغروب . وقال ابن سلام : في النصف الأول من الشهر ، وذلك لأنه يأخذ موضعها ويسير خلفها إذا غابت يتبعها القمر طالعاً . وقال قتادة : إنما ذلك البدر تغيب هي فيطلع هو . وقال الزجاج وغيره : ﴿ تلاها ﴾ معناه امتلأ واستدار ، وكان لها تابعاً للمنزل من الضياء والقدر ، لأنه ليس في الكواكب شيء يتلو الشمس في هذا المعنى غير القمر . وقيل : من أول الشهر إلى نصفه في الغروب تغرب هي ثم يغرب هو ، وفي النصف الآخر يتحاوران وهو أن تغرب هي فيطلع هو . وقال الزمخشري : ﴿ تلاها ﴾ طالعاً عند غروبها آخذاً من نورها ، وذلك في النصف الأول من الشهر . ﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ الظاهر أن مفعول ﴿ جلاها ﴾ هو الضمير عائد على الشمس ، لأنه عند انبساط النهار تنجلي الشمس في ذلك الوقت تمام الانجلاء . وقيل : يعود على الظلمة . وقيل : على الأرض . وقيل : على الدنيا ، والذي يجلي الظلمة هو الشمس أو النهار ، فإنه وإن لم تطلع الشمس لا تبقى الظلمة . والفاعل بـ ﴿ جلاها ﴾ ضمير النهار . قيل : ويحتمل أن يكون عائداً على الله تعالى ، كأنه قال : والنهار إذا جلى الله الشمس ، فأقسم بالنهار في أكمل حالاته . ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ أي يغشى الشمس فيدخلها فتغيب وتظلم الآفاق . ونسبة ذلك إلى الليل مجاز . وقيل : الضمير عائد على الأرض . والذي تقتضيه الفصاحة أن الضمائر كلها إلى قوله ﴿ يغشاها ﴾ عائدة على الشمس ، وكما أن النهار جلاها كان الليل هو الذي يغشاها . ولما كانت الفواصل ترتبت على ألف وهاء مؤنث أتى ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ بالمضارع ، لأنه الذي ترتب فيه ، ولو أتى بالماضي كالذي قبله وبعده كان يكون التركيب إذا غشيها ، فتفوت الفاصلة وهي مقصودة . وقال القفال ما ملخصه : هذه الأقسام بالشمس في الحقيقة بحسب أوصاف أربعة : ضوؤها عند ارتفاع النهار وقت انتشار الحيوان وطلب المعاش . وتلو القمر لها بأخذه الضوء ، وتكامل طلوعها وبروزها . وغيبوبتها بمجيء الليل . و ﴿ ما ﴾ في قوله ﴿ وما بناها ﴾ و ﴿ ما طحاها ﴾ و ﴿ ما سواها ﴾ بمعنى الذي ، قاله الحسن ومجاهد وأبو عبيدة واختاره الطبري . قالوا : لأن ﴿ ما ﴾ تقع على أولي العلم وغيرهم . وقيل : مصدرية قاله قتادة والمبرد والزجاج . وهذا قول من ذهب إلى أن ﴿ ما ﴾ لا تقع على آحاد أولي العلم . وقال الزمخشري : جعلت مصدرية وليس بالوجه ، لقوله ﴿ فألهمها ﴾ وما يؤدي إليه من فساد النظم ، والوجه أن تكون موصولة وإنما أوثرت على ﴿ من ﴾ لإرادة معنى الوصفية كأنه قيل : والسماء والقادر العظيم الذي بناها ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها ، وفي كلامهم : سبحان ما سخركن لنا . انتهى . أما قوله : وليس بالوجه ، لقوله ﴿ فألهمها ﴾ ، يعني من عود الضمير في ﴿ فألهمها ﴾ على الله تعالى ، فيكون قد عاد على مذكور ، وهو ما المراد به

والتوحيد تسويتك في أفعل التفضيل إذا أضفته بين الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث . وكان يجوز أن يقال أشقوها
[illegible] فأطلق الإضافة . وكان ينبغي أن تفرد إذ معرفة لأن إضافته إلى نكرة لا يجوز به ذلك إلا أن يكون مفرداً مذكراً
كحاله إذا كان بـ (من) . والظاهر أن الضمير في (لهم) عائد على أقرب مذكور وهو (أشقاها) إذا أريد به الجماعة . ويجوز
أن يعود على (ثمود) . (رسول الله) هو صالح عليه السلام . وقرأ الجمهور (ناقة الله) بنصب الناقة ، وهو منصوب على
التحذير مما يجب إضمار عامله ، لأنه قد عطف عليه فصار حكمه بالعطف حكم المكرر ، كقولك : الأسد الأسد ، أي :
احذروا ناقة الله (وسقياها) فلا تتعرضوا لها . (فكذبوه) الجمهور على أنهم كانوا كافرين [illegible] لأنهم كانوا قد أسلموا
قبل ذلك وتابعوا صالحاً مدة ثم كذبوا وعقروا . وأسند العقر للجماعة لكونهم راضين به ومتمالئين عليه . وقرأ الجمهور
(فدمدم) بميم بعد دالين ، وابن الزبير (فدهدم) بهاء بينهما ، أي أطبق عليهم العذاب مكرراً ذلك عليهم (بذنبهم) في
تكذيبهم من عقرهم الناقة (فسواها) قيل : فسوى القبيلة في الهلاك ، فعاد ضميرها بالتأنيث كما عاد في (بطغواها) . وقيل :
الدمدمة ، أي سواها بينهم فلم يفلت منهم صغير ولا كبير . وقرأ أبي والأعرج ونافع وابن عامر : (فلا يخاف) بالفاء ، وباقي
السبعة (ولا) بالواو ، والضمير في (يخاف) الظاهر عوده إلى أقرب مذكور وهو (ربهم) أي لا درك على الله تعالى في فعله بهم
﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ [الأنبياء ٢٣] قاله ابن عباس والحسن ، وفيه ذم لهم وتعقبة لآثارهم . وقيل : يحتمل أن يعود على
صالح أي لا يخاف عقبى هذه الفعلة بهم إذ كان قد أنذرهم وحذرهم . ومن قرأ (ولا يخاف) [illegible] وقال
السدي والضحاك ومقاتل والزجاج وأبو علي : الواو واو الحال ، والضمير في (يخاف) عائد على (أشقاها) أي انبعث
لعقرها وهو لا يخاف عقبى فعله لكفره وطغيانه ، والعقبى : خاتمة الشيء ، وما يجيء من الأمور بعقبه . وهذا فيه بعد لطول
الفصل بين الحال وصاحبها .

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)

هذه السورة مكية. وقال علي بن أبي طلحة: مدنية. وقيل: فيها مدني. ولما ذكر فيما قبلها ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ [الشمس: ٩، ١٠] ذكر هنا من الأوصاف ما يحصل به الفلاح وما يحصل به الخيبة، ثم حذر النار وذكر من يصلاها ومن يتجنبها. ومفعول (يغشى) محذوف فاحتمل أن يكون (النهار) كقوله ﴿يغشي الليل النهار﴾ [الأعراف: ٥٤] وأن يكون الشمس كقوله (والليل إذا يغشاها)، وقيل: الأرض وجميع ما فيها بظلامه. و(تجلى) انكشف وظهر إما بزوال ظلمة الليل، وإما بنور الشمس. أقسم بالليل الذي فيه كل حيوان يأوي إلى مأواه، وبالنهار الذي تنتشر فيه. وقال الشاعر:

يُجَلِّي السُّرى من وجهه عن صفيحةٍ ... على السير مِشْراقٍ كثيرٍ شُحوبُها

وقرأ الجمهور (تجلّى) فعلاً ماضياً وفاعله ضمير (النهار). وقرأ عبد الله بن عبيد بن عمير (تتجلّى) بتاءين يعني الشمس. وقرئ (تُجْلِي) بضم التاء وسكون الجيم، أي الشمس. (وما خلق) (ما) مصدرية أو بمعنى الذي، والظاهر عموم الذكر والأنثى. وقيل: من بني آدم فقط لاختصاصهم بولاية الله تعالى وطاعته. وقال ابن عباس والكلبي والحسن: هما آدم وحواء. والثابت في مصاحف الأمصار والمتواتر: (وما خلق الذكر والأنثى) وما ثبت في الحديث من قراءة (والذكر والأنثى) نقل آحاد مخالف للسواد فلا يعد قرآناً. وذكر ثعلب: أن من السلف من قرأ (وما خلق الذكرِ) بجر الذكر. وذكرها الزمخشري عن الكسائي، وخرجوه على البدل من (ما) على تقدير: والذي خلق الله. وقد يخرج على توهم المصدر، أي وخلق الذكر والأنثى، كما قال الشاعر:

تَطُوفُ العُفَاةُ بأبوابه ... كما طافَ بالبيعةِ الراهبُ(1)

(1) البيت من المتقارب، ولم ينسب في الدر المصون.

والتوديع مبالغة في الودع، لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ في تركك. ﴿وما قلى﴾ ما أبغضك. واللغة الشهيرة في مضارع ﴿قلى يقلي﴾، وطيء تقول بفتح العين. وحذف المفعول اختصاراً في ﴿قلى﴾ وفي ﴿فآوى﴾ وفي ﴿فهدى﴾ وفي ﴿فأغنى﴾، إذ يعلم أنه ضمير المخاطب وهو الرسول - ﷺ -. قال ابن عباس وغيره: «أبطأ الوحي مرة على الرسول - ﷺ - وهو بمكة حتى شق ذلك عليه فقالت أم جميل امرأة أبي لهب: يا محمد ما أرى شيطانك إلا تركك، فنزلت». وقال زيد بن أسلم: إنما احتبس عنه جبريل عليه السلام لجرو كلب كان في بيته. ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ يريد الدارين. قاله ابن إسحاق وغيره. ويحتمل أن يريد حالتيه قبل نزول السورة وبعدها وعده تعالى بالنصر والظفر قاله ابن عطية احتمالاً. وقال الزمخشري: (فإن قلت) كيف اتصل قوله ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ بما قبله؟ (قلت) لما كان في ضمن نفي التوديع والقلى أن الله مواصلك بالوحي إليك وأنك حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله، وشهادة أمته على سائر الأمم، ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته. ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ قال الجمهور: ذلك في الآخرة. وقال ابن عباس: رضاه أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار، وقال أيضاً: رضاه أنه وعده بألف قصر في الجنة بما تحتاج إليه من النعم والخدم. وقيل: في الدنيا بفتح مكة وغيره. والأولى أن هذا موعد شامل لما أعطاه في الدنيا من الظفر، ولما ادخر له من الثواب. واللام في ﴿وللآخرة﴾ لام ابتداء أكدت مضمون الجملة، وكذا في ﴿ولسوف﴾ على إضمار مبتدأ، أي ولأنت سوف يعطيك. ولما وعده هذا الموعد الجليل ذكره بنعمه عليه في حال نشأته. ﴿ألم يجدك﴾ يعلمك ﴿يتيماً﴾ توفي أبوه - عليه الصلاة والسلام - وهو جنين أتت عليه ستة أشهر، وماتت أمه - عليه الصلاة والسلام - وهو ابن ثماني سنين فكفله عمه أبو طالب فأحسن تربيته، وقيل: لجعفر الصادق: لم يتم النبي - ﷺ - من أبويه؟ فقال: لئلا يكون عليه حق لمخلوق، قال الزمخشري: ومن بدع التفاسير أنه من قولهم درة يتيمة وأن المعنى ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير فآواك. انتهى. وقرأ الجمهور ﴿فآوى﴾ رباعياً. وأبو الأشهب العقيلي ﴿فأوى﴾ ثلاثياً بمعنى رحم تقول أويت لفلان أي رحمته. ومنه قول الشاعر:

أراني ولا كفران لله أية ... لنفسي قد طالبت غير منيل[1]

﴿ووجدك ضالاً﴾ لا يمكن حمله على الضلال الذي يقابله الهدى، لأن الأنبياء معصومون من ذلك. قال ابن عباس: هو ضلاله وهو في صغره في شعاب مكة ثم رده الله إلى جده عبد المطلب. وقيل: ضلاله من حليمة مرضعته، وقيل: ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب. ولبعض المفسرين أقوال فيها بعض ما لا يجوز نسبته إلى الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -. ولقد رأيت في النوم أني أفكر في هذه الجملة فأقول على الفور ﴿ووجدك﴾ أي وجد رهطك ضالاً فهداه بك. ثم أقول على حذف مضاف نحو ﴿واسأل القرية﴾ [يوسف ٨٢]. وقرأ الجمهور ﴿عائلاً﴾ أي فقيراً. قال جرير:

الله أنزل في الكتاب فريضة ... لابن السبيل وللفقير العائل[2]

كرر لاختلاف اللفظ. وقرأ اليماني ﴿عيّلاً﴾ كسيد بتشديد الياء المكسورة ومنه قول أحيحة بن الجلاح:

---

(1) البيت من الطويل انظر حاشية الدسوقي على المغني ٢/ ٤٠.

(2) البيت من الكامل انظر ديوانه ٢/ ٧٣٧.

وما يدري الفقير متى غناه ... وما يدري الغني متى يعيل (١)

عال: افتقر، وأعال: كثر عياله. قال مقاتل: فأغنى رضاك بما أعطاك من الرزق. وقيل: أغناك بالقناعة والصبر، وقيل: بالكفاف. ولما عدد عليه هذه النعم الثلاث وصاه بثلاث كأنها مقابلة لها: ﴿فلا تقهر﴾ قال مجاهد: لا تحتقره. وقال ابن سلام: لا تستذله. وقال سفيان: لا تظلمه بتضييع ماله. وقال الفراء: لا تمنعه حقه. والقهر: هو التسلط بما يؤذي. وقرأ الجمهور ﴿تقهر﴾ بالقاف، وابن مسعود وإبراهيم التيمي بالكاف بدل القاف، وهي لغة بمعنى قراءة الجمهور. ﴿وأما السائل﴾ ظاهره السائل المستجدي ﴿فلا تنهر﴾ أي تزجره لكن أعطه أو رده رداً جميلاً. وقال قتادة: لا تغلظ عليه، وهذه في مقابلة ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ والسائل كما قلنا المستجدي، وقاله الفراء وجماعة. وقال أبو الدرداء والحسن وغيرهما: السائل هنا: السائل عن العلم والدين لا سائل المال فيكون بإزاء ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾. ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ قال مجاهد والكلبي: معناه: بث القرآن وبلغ ما أرسلت به. وقال محمد بن إسحاق: هي النبوة. وقال آخرون: هي عموم في جميع النعم. وقال الزمخشري: التحديث بالنعم شكرها وإشاعتها، يريد ما ذكره من نعمة الإيواء والهداية والإغناء وما عدا ذلك. انتهى. ويظهر أنه لما تقدم ذكر الامتنان عليه بذكر الثلاثة، أمره بثلاثة فذكر اليتيم أولاً، وهي البداءة، ثم ذكر السائل ثانياً وهو العائل، وكانت أشرف ما امتن به عليه هي الهداية فترقى من هذين إلى الأشرف وجعله مقطع السورة وإنما وسط ذلك عند ذكر الثلاثة، لأنه بعد اليتم هو زمان التكليف وهو عليه الصلاة والسلام معصوم من اقتراف ما لا يرضي الله عز وجل في القول والفعل والعقيدة، فكان ذكر الامتنان بذلك على حسب الواقع بعد اليتم، وحالة التكليف. وفي الآخر ترقى إلى الأشرف فهما مقصدان في الخطاب.

---

(١) البيت من الوافر انظر اللسان (عيل) وفتح القدير ٤٥٨/٥.

سورة الانشراح مكية وهي ثماني آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (7) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب (8)﴾

هذه السورة مكية. ومناسبتها لما قبلها ظاهرة. وشرح الصدر: تنويره بالحكمة، وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه، قاله الجمهور. والأولى العموم لهذا ولغيره من مقاساة الدعاء إلى الله تعالى وحده واحتمال المكاره من إذاية الكفار. وقال ابن عباس وجماعة: إشارة إلى شق جبريل ـ عليه السلام ـ صدره في وقت صغره. ودخلت همزة الاستفهام على النفي فأفاد التقرير على هذه النعمة وصار المعنى: قد شرحنا لك صدرك، ولذلك عطف عليه الماضي وهو (ووضعنا) وهذا نظير قوله ﴿ألم نربك فينا وليداً ولبثت﴾ [الشعراء: 18]. وقرأ الجمهور (نشرح) بجزم الحاء لدخول الجازم. وقرأ أبو جعفر بفتحها. وخرجه ابن عطية في كتابه على أنه ألم نشرحن فأبدل من النون ألفاً ثم حذفها تخفيفاً فيكون مثل ما أنشده أبو زيد في نوادره من قول الراجز:

من أي يومي من الموت أفر أيوم لم يقدر أم يوم قدر[1]

وقال الشاعر:

اضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس[2]

وهذه قراءة مرذولة. وقال الزمخشري: وقد ذكرها عن أبي جعفر المنصور وقالوا لعله بين الحاء وأشبعها في مخرجها فظن السامع أنه فتحها. انتهى. ولهذه القراءة تخريج أحسن من هذا كله، وهو أنه لغة لبعض العرب، حكاها اللحياني في نوادره، وهي الجزم بـ (لن) والنصب بـ (لم) عكس المعروف عند الناس. وأنشد قول عائشة بنت الأعجم تمدح المختار بن أبي عبيد وهو القائم بثأر الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما:

قد كان سمك الهدى ينهد قائمه حتى أتيح له المختار فانعمدا
في كل ما هم أمضى رأيه قدماً ولم يشاور في إقدامه أحدا[3]

---

(1) البيت من الرجز انظر النوادر (حرم اللام) 1/ 409 المحتسب 2/ 366 الخصائص 3/ 95.

(2) البيت من المنسرح لطرفة، انظر ديوانه 190 الخصائص 2/ 166 المحتسب 2/ 367.

(3) البيتان من البسيط ذكرهما السمين في الدر المصون.

لم يعلم ، كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى ، أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ، أرأيت إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى ، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانية ، كلا لا تطعه واسجد واقترب ﴾ هذه السورة مكية . وصدرها أول ما نزل من القرآن وذلك في غار حراء على ما ثبت في صحيح البخاري وغيره ، وقول جابر أول ما نزل المدثر ، وقول أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أول ما نزل الفاتحة لا يصح . وقال الزمخشري . عن ابن عباس ومجاهد : هي أول سورة نزلت ، وأكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم . انتهى . ولما ذكر فيما قبلها خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم ذكر ما عرض له بعد ذلك ذكره هنا منبهاً على شيء من أطواره وذكر نعمته عليه ثم ذكر طغيانه بعد ذلك وما يؤول إليه حاله في الآخرة . وقرأ الجمهور ﴿ اقرأ ﴾ بهمزة ساكنة ، والأعشى عن أبي بكر عن عاصم بحذفها كأنه على قول من يبدل الهمزة بمناسب حركتها فيقول قرا يقرا كسعى يسعى فلما أمر منه قيل ﴿ اقر ﴾ بحذف الألف ، كما تقول : اسع ، والظاهر تعلق الباء بـ ﴿ اقرأ ﴾ وتكون للاستعانة ، ومفعول ﴿ اقرأ ﴾ محذوف ، أي : اقرأ ما يوحى إليك ، وقيل . ﴿ باسم ربك ﴾ هو المفعول وهو المأمور بقراءته ، كما تقول : اقرأ الحمد لله . وقيل : المعنى اقرأ في أول كل سورة وقراءة بسم الله الرحمن الرحيم . وقال الأخفش : الباء بمعنى على أي : اقرأ على اسم الله ، كما قالوا في قوله ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله ﴾ [هود ٤١] أي على اسم الله . وقيل : المعنى اقرأ القرآن مبتدئاً باسم ربك . وقال الزمخشري : محل ﴿ باسم ربك ﴾ النصب على الحال ، أي : اقرأ مفتتحاً باسم ربك قل بسم الله ثم اقرأ انتهى . وهذا قاله قتادة ، المعنى : اقرأ ما أنزل عليك من القرآن مفتتحاً باسم ربك . وقال أبو عبيدة : الباء صلة والمعنى : اذكر ربك . وقال أيضاً : الاسم صلة ، والمعنى اقرأ بعون ربك وتوفيقه ، وجاء ﴿ باسم ربك ﴾ ولم يأت بلفظ الجلالة ، لما في لفظ الرب من معنى الذي رباك ونظر في مصلحتك . وجاء الخطاب ليدل على الاختصاص والتأنيس . أي ليس لك رب غيره . ثم جاء بصفة الخالق ، وهو المنشئ للعالم ، لما كانت العرب تسمي الأصنام أرباباً أتى بالصفة التي لا يمكن شركة الأصنام فيها ، ولم يذكر متعلق الخلق أولاً فالمعنى أنه قصد إلى استبداده بالخلق فاقتصر أو حذف إذ معناه خلق كل شيء ، ثم ذكر خلق الإنسان وخصه من بين المخلوقات ، لكونه هو المنزل إليه ، وهو أشرف . قال الزمخشري : أشرف ما على الأرض ، وفيه دسيسة أن الملك أشرف . وقال . ويجوز أن يراد الذي خلق الإنسان كما قال ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان ﴾ [الرحمن ١ ، ٢ ، ٣] فقيل : الذي خلق مبهماً ثم فسره بقوله ﴿ خلق ﴾ تفخيماً لخلق الإنسان ودلالة على عجيب فطرته انتهى . و ﴿ الإنسان ﴾ هنا اسم جنس . و ﴿ العلق ﴾ جمع علقة فلذلك جاء ﴿ من علق ﴾ وإنما ذكر من ﴿ خلق ﴾ ﴿ من علق ﴾ لأنهم مقرون به ولم يذكر أصلهم آدم ، لأنه ليس متقرراً عند الكفار فيسبق الفرع . وترك أصل الخلقة ، تقريباً لأفهامهم . ثم جاء الأمر ثانياً تأنيساً كأنه قيل امض لما أمرت به وربك ليس مثل هذه الأرباب بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص . و ﴿ الأكرم ﴾ صفة تدل على المبالغة في الكرم إذ كرمه يزيد على كل كرم ينعم بالنعم التي لا تحصى ، ويحلم على الجاني ويقبل التوبة ، ويتجاوز عن السيئة ، وليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال ﴿ الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ولا مقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله تعالى ولطيف تدبيره دليل إلا أمر الخط والقلم لكفى به . ولبعضهم في الأقلام :

وَرَوَاقِمٌ رُقْشٌ كَمِثْلِ أَرَاقِمٍ ... قُطْفُ الخُطَا نَيَّالَةٌ أَقْصَى المَدَى

سُودُ القَوَائِمِ مَا يَجِدُّ مَسِيرُهَا ... إِلَّا إِذَا لَعِبَتْ بِهَا بِيضُ المُدَى

انتهى من كلام الزمخشري. ومن غريب ما رأينا تسمية النصارى بهذه الصفة التي هي صفة لله تعالى الأكرم، والرشيد، وفخر السعداء، وسعيد السعداء، والشيخ الرشيد، فيا لها غربة في من يدعوهم بها يجدون عقابه يوم عرض الأقوال والأفعال ومصيراً (علّم) مفعولاه محذوفان، إذ المقصود إسناد التعليم إلى الله تعالى وقدّر بعضهم (الذي علّم) الخط (بالقلم) وهي قراءة تعزى لابن الزبير، وهي عندي على سبيل التفسير لا على أنها قرآن لمخالفتها سواد المصحف، والظاهر أن المعلّم كل من كتب بالقلم. وقال الضحاك: إدريس. وقيل: آدم لأنه أول من كتب. (والإنسان) في قوله (علّم الإنسان) الظاهر أنه اسم الجنس عدّد عليه اكتساب العلوم بعد الجهل بها. وقيل: الرسول عليه الصلاة والسلام. (كلا إن الإنسان ليطغى) نزلت بعد مدة في أبي جهل ناصب رسول الله ﷺ العداوة ونهاه عن الصلاة في المسجد فروي أنه قال لئن رأيت محمداً يسجد عند الكعبة لأطأن على عنقه، فيروى: أن رسول الله ﷺ رد عليه وانتهره وتوعده فقال أبو جهل أيتوعدني محمد والله ما بالوادي أعظم نادياً مني، ويروى أنه همّ أن يمنعه من الصلاة فكفّ عنه. (كلا) ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه وإن لم يتقدم ذكره، لدلالة الكلام عليه (إن الإنسان ليطغى) أي يجاوز الحد (أن رآه استغنى) الفاعل ضمير الإنسان وضمير المفعول عائد عليه و(رأى) هنا من رؤية القلب يجوز أن يتحد فيها الضميران متصلين فتقول رأيتني صديقك، وفقد وعدم بخلاف غيرها. فلا يجوز زيد ضربه وهما ضميرا زيد. وقرأ الجمهور (أن رآه) بألف بعد الهمزة وهي لام الفعل. وقنبل بخلاف عنه بحذف الألف، وهي رواية ابن مجاهد عنه، قال: وهو غلط لا يجوز وينبغي أن لا يغلطه، بل يتطلب له وجهاً، وقد حذفت الألف في نحو من هذا، قال:

وصَّانِ العجَّاجُ فيما وصَّني

يريد وصاني، فحذف الألف وهي لام الفعل وقد حذفت في مضارع (رأى) في قولهم أصاب الناس جهد ولو تر أهل مكة، وهو حذف لا ينقاس لكن إذا صحت الرواية به وجب قبوله والقراءات جاءت على لغة العرب فصيحها وشاذها. (إن إلى ربك الرجعى) أي الرجوع مصدر على وزن فُعْلى، والألف فيه للتأنيث، وفيه وعيد للطاغي المستغني، وتحقير لما هو فيه من حيث ماله إلى البعث والحساب والجزاء على طغيانه. (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى) تقدم أنه أبو جهل، قال ابن عطية: ولم يختلف أحد من المفسرين أن الناهي أبو جهل وأن العبد المصلي هو محمد رسول الله ﷺ انتهى. وفي الكشاف: وقال الحسن هو أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة. وقال التبريزي: المراد بالصلاة هنا صلاة الظهر. قيل: هي أول جماعة أقيمت في الإسلام، كان معه أبو بكر وعلي وجماعة من السابقين فمرّ به أبو طالب ومعه ابنه جعفر فقال له صل جناح ابن عمك وانصرف مسروراً، وأنشأ أبو طالب يقول:

إنَّ عليًّا وجعفراً ثقتي ... عند مُلِمِّ الزمانِ والكُرَبِ
والله لا أخذلُ النبيَّ ولا ... يخذلُهُ من بنيَّ ذو حَسَبِ
لا تخذُلا وانصُرا ابنَ عمِّكما ... أخي لأمّي من بينهم وأبي

ففرح رسول الله ﷺ بذلك. والخطاب في (أرأيت) الظاهر أنه للرسول ﷺ، وكذا (أرأيت) الثاني، والملتفت في الضمير هو الذي يقتضيه النظم، وقيل (أرأيت) خطاب للكافر التفت إلى الكافر فقال (أرأيت) يا كافر إن كانت صلاته هدى، ودعاؤه إلى الله، وأمره بالتقوى، أتنهاه مع ذلك. والضمير في (إن كان) وفي (إن كذب) عائد على الناهي. قال الزمخشري: ومعناه أخبرني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله وكان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد وكذلك إن كان على التكذيب

للحق والتولي عن الدين الصحيح كما تقول نحن (ألم يعلم بأن الله يرى) ويطلع على أحواله من هداه وضلاله فيجازيه على حسب ذلك وهذا وعيد . انتهى . وقال ابن عطية : والضمير في (إن كان على الهدى) عائد على المصلي . وقاله الفراء وغيره . قال الفراء : المعنى أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى وهو على الهدى وآمر بالتقوى والناهي مكذب متول عن الذكر أي فما أعجب هذا . ألم يعلم أبو جهل بأن الله تعالى يراه ويعلم فعله فهذا تقرير وتوبيخ . انتهى . وقيل : من جعل الضمير في (إن كان) عائداً على المصلي فإنه قسم إلى فعل الصلاة والأمر بالتقوى لأن أبا جهل كان يشق عليه من رسول الله ﷺ أمران : الصلاة والدعاء إلى الله تعالى . ولأنه كان ﷺ لا يوجد إلا في أمرين : إصلاح نفسه بفعل الصلاة ، وإصلاح غيره بالأمر بالتقوى . وقال ابن عطية : (ألم يعلم بأن الله يرى) إكمال التوبيخ والوعيد بحسب التوقيفات الثلاثة يصلح مع كل واحد منها جاء بها في نسق ثم جاء بالوعيد الكافي بجميعها اختصاراً واقتضاباً ، ومع كل تقرير تكملة مقدرة تتسع العبارات فيها و (ألم يعلم) دال عليها مغن . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ما متعلق (أرأيت) ؟ (قلت :) (الذي ينهى) مع الجملة الشرطية ، وهما في موضع المفعولين . (فإن قلت :) فأين جواب الشرط (قلت :) هو محذوف تقديره إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ألم يعلم بأن الله يرى وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني (فإن قلت :) فكيف صح أن يكون (ألم يعلم) جواباً للشرط ؟ (قلت :) كما صح في قولك : إن أكرمتك أتكرمني وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه (فإن قلت :) فما (أرأيت) الثانية وتوسطها بين مفعولي (أرأيت) ؟ (قلت :) هي زائدة مكررة للتوكيد . انتهى . وقد تكلمنا على أحكام (أرأيت) بمعنى أخبرني في غير موضع منها التي في سورة الأنعام وأشبعنا الكلام عليها في شرح التسهيل . وما قرره الزمخشري هنا ليس بجار على ما قررناه فمن ذلك أنه ادعى أن جملة الشرط في موضع المفعول الواحد والموصول هو الآخر ، وعندنا أن المفعول الثاني لا يكون إلا جملة استفهامية كقوله ﴿ أفرأيت الذي تولى ﴾ [النجم ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥] ﴿ وأعطى قليلاً وأكدى أعنده علم الغيب ﴾ ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً أطلع الغيب ﴾ [مريم ٧٧ ، ٧٨] ﴿ أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه ﴾ [الواقعة ٥٨ ، ٥٩] وهو كثير في القرآن فتخرج هذه الآية على ذلك القانون ويجعل مفعول (أرأيت) الأولى هو الموصول وجاء بعده (أرأيت) وهي تطلب مفعولين و (أرأيت) الثانية كذلك ، فمفعول (أرأيت) الثانية والثالثة محذوف يعود على (الذي ينهى) فيهما أو على (عبداً) في الثانية ، وعلى (الذي ينهى) في الثالثة على الاختلاف السابق في عود الضمير . والجملة الاستفهامية توالى عليها ثلاثة طوالب فنقول : حذف المفعول الثاني لـ (أرأيت) وهو جملة الاستفهام الدال عليه الاستفهام المتأخر لدلالته عليه حذف مفعول (أرأيت) الأخير لدلالة مفعول (أرأيت) الأولى عليه وحذفا معاً لـ (أرأيت) الثانية لدلالة الأولى على مفعولها الأول ولدلالة الآخر لـ (أرأيت) الثالثة على مفعولها الآخر وهؤلاء الطوالب ليس طلبها على طريق التنازع ، لأن الجمل لا يصح إضمارها وإنما ذلك من باب الحذف في غير التنازع ، وأما تجويز الزمخشري وقوع جملة الاستفهام جواباً للشرط بغير فاء فلا أعلم أحداً أجازه بل نصوا على وجوب الفاء في كل ما اقتضى طلباً بوجه ما ولا يجوز حذفها إلا إن كان في ضرورة شعر . (كلا) ردع لأبي جهل ومن في طبقته عن نهي عباد الله عن عبادة الله . (لئن لم ينته) عن ما هو فيه وعيد شديد (لنسفعا) أي لنأخذن (بالناصية) وعبر بها عن جميع الشخص أي سحباً إلى النار لقوله ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ [الرحمن ٤١] واكتفى بتعريف العهد عن الإضافة إذ علم أنها ناصية الناهي . وقرأ الجمهور بالنون الخفيفة وكتبت بالألف باعتبار الوقف إذ الوقف عليها بإبدالها ألفاً وكثر ذلك حتى صارت روياً فكتبت ألفاً كقوله :

ومهما تشأ منه فزارة تمنعا

وقال آخر :

يحسبه الجاهل ما لم يعلما

وعصوب وهارون كلاهما عن أبي عمرو بالنون الشديدة ، وقيل : هو مأخوذ من سفعته النار والشمس : إذا غيرت وجهه إلى حال شديد . وقال التبريزي . قيل : أراد لنسودن وجهه من السفعة وهي السواد ، ويكتفى من الوجه لأنها في مقدمه . وقرأ الجمهور (ناصية خاطئة) بجر الثلاثة على أن (ناصية) بدل نكرة من معرفة . قال الزمخشري : لأنها وصفت فاستقلت بفائدة . انتهى . وليس شرطاً في إبدال النكرة من المعرفة أن توصف عند البصريين خلافاً لمن شرط ذلك من غيرهم ولا أن يكون من لفظ الأول أيضاً خلافاً لزاعمه . وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة وزيد بن علي بنصب الثلاثة على الشتم . والكسائي في رواية بعض رفعها أي هي ناصية كاذبة خاطئة . ووصفها بالكذب والخطأ مجازاً والحقيقة صاحبها ، وذلك أحرى من أن يضاف فيقال : ناصية كاذب خاطئ ، لأنها هي المحدث عنها في قوله (لنسفعا بالناصية) ، (فليدع ناديه) إشارة إلى قول أبي جهل : وما (بالوادي أكبر نادياً مني) والمراد أهل النادي . وقال جرير .

لهم مجلس صهب السبال أذلة

أي : أهل مجلس ، ولذلك وصف بقوله صهب السبال أذلة وهو أمر تعجيز أي لا يقدر الله على ذلك . « ولو دعا ناديه لأخذته الملائكة عياناً » وقرأ الجمهور (سَنَدْعُ) بالنون مبنياً للفاعل . وكتبت بغير واو لأنها تسقط في الوصل لالتقاء الساكنين . وقرأ ابن أبي عبلة (سيُدْعَى) مبنياً للمفعول (الزبانية) رفع . (كلاّ) ردع لأبي جهل ورد عليه في (لا تطعه) أي . لا تلتفت إلى نهيه وكلامه . (واسجد) أمر له بالسجود والمعنى : دم على صلاتك وعبر عن الصلاة بأفضل الأوصاف التي يكون العبد فيها أقرب إلى الله تعالى (واقترب) وتقرب إلى ربك ، وثبت في الصحيحين : سجود رسول الله ـ ﷺ ـ في إذا السماء انشقت ، وفي هذه السورة ، وهي من العزائم عند علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكان مالك يسجد فيها في خاصة نفسه .

سورة القدر مكية وهي خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝﴾

هذه السورة مدنية في قول الأكثر ، وحكى الماوردي عكسه ، وذكر الواحدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة وفي الحديث : أن أربعة عبدوا الله تعالى ثمانين سنة لم يعصوه طرفة عين ، أيوب وزكريا وحزقيل ويوشع فعجب الصحابة من ذلك فقرأ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ السورة فسروا بذلك[1] . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة ، لما قال : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فكأنه قال : اقرأ ما أنزلناه عليك من كلامنا ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ والضمير عائد على ما دل عليه المعنى ، وهو ضمير القرآن قال ابن عباس وغيره : أنزله الله تعالى ليلة القدر إلى سماء الدنيا جملة ثم نجمه على محمد ـ ﷺ ـ في عشرين سنة . وقال الشعبي وغيره : إنا ابتدأنا إنزال هذا القرآن إليك في ليلة القدر . وروي « أن نزول الملك في حراء كان في العشر الأواخر من رمضان » . وقيل : المعنى إنا أنزلنا هذه السورة في شأن ليلة القدر وفضلها ، ولما كانت السورة من القرآن جاء الضمير للقرآن ، تفخيماً وتحسيناً فليست ليلة القدر ظرفاً للنزول بل على نحو قول عمر رضي الله تعالى عنه لقد خشيت أن ينزل فيّ قرآن . وقول عائشة : لأنا أحقر في نفسي من أن ينزل فيّ قرآن . وقال الزمخشري : عظم من القرآن من إسناد إنزاله إليه مختصاً به ، ومن مجيئه بضميره دون اسمه الظاهر ، شهادة له بالنباهة ، والاستغناء عن التنبيه عليه ، وبالرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه . انتهى . وفيه بعض تلخيص . وسميت ليلة القدر ، لأنه تقدر فيها الآجال والأرزاق وحوادث العالم كلها ، وتدفع إلى الملائكة لتمتثله ، قاله ابن عباس وقتادة وغيرهما . وقال الزهري : معناه ليلة القدر العظيم والشرف وعظم الشأن من قولك رجل له قدر ، وقال أبو بكر الوراق : سميت بذلك ، لأنها تكسب من أحياها قدراً عظيماً لم يكن له قبل وترده عظيماً عند الله تعالى . وقيل : سميت بذلك ، لأن كل العمل فيها له قدر وخطر . وقيل : لأنه أنزل فيها كتاباً ذا قدر على رسول ذي قدر لأمة ذات قدر ، لأنه ينزل فيها ملائكة ذات قدر وخطر . وقيل : لأنه قدر فيها الرحمة على المؤمنين ، وقال الخليل : لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة ، كقوله ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق ٧] أي ضيق وقد اختلف السلف والخلف في تعيين وقتها اختلافاً متعارضاً جداً ، وبعضهم قال : رفعت والذي يدل عليه الحديث أنها لم ترفع وأن العشر الأخير تكون فيه وأنها في أوتاره كما قال عليه الصلاة والسلام « التمسوها في الثالثة والخامسة والسابعة والتاسعة » وفي الصحيح « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » . ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ تفخيم لشأنها ، أي

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٦/٣٧١ وعزاه لابن أبي حاتم عن علي بن عروة

لم تبلغ درايتك غاية فضلها ، ثم بين له ذلك ، قال سفيان بن عيينة : ما كان في القرآن ﴿ وما أدراك ﴾ فقد أعلمه وما قال ﴿ وما يدريك ﴾ فإنه لم يعلمه . قيل : وأخفاها الله تعالى عن عباده ، ليجدوا في العمل ولا يتكلوا على فضلها ويقصروا في غيرها . والظاهر أن ألف شهر يراد به حقيقة العدد وهي ثمانون سنة وثلاثة أعوام وأشهر . قيل : في ليلة القدر أفضل من العمل في هذه الشهور . والمراد خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر وعلى هذا أكثر المفسرين ، وقال أبو العالية : خير من ألف شهر رمضان لا يكون فيها ليلة القدر . وقيل : المعنى خير من الدهر كله لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء كلها قال تعالى ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ [البقرة ٩٦] يعني جميع الدهر وعوتب الحسن بن علي على تسليمه الأمر لمعاوية فقال : إن الله تعالى أري في المنام نبيه ـ ﷺ ـ بني أمية ينزون على منبره نزو القردة فاهتم لذلك فأعطاه الله تعالى ليلة القدر وهي خير من مدة ملوك بني أمية وأعلمه أنهم يملكون هذا القدر من الزمان . قال القاسم بن الفضل الحداني : فعددنا ذلك فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً وخرج قريباً من معناه الترمذي وقال حديث غريب انتهى . وقيل : آخر ملوكهم مروان الجعدي في آخر القدر من الزمان ولا يعارض هذا تملك بني أمية في جزيرة الأندلس مدة غير هذه لأنهم إنما كانوا في بعض أطراف الأرض وآخر عمارة العرب بحيث كان في إقليم العرب إذ ذاك ملوك كثيرون غيرهم وذكر أيضاً في تخصيص هذه المدة أن رسول الله ـ ﷺ ـ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر فعجب المؤمنون من ذلك وتقاصرت أعمالهم فأعطوا ليلة هي خير من مدة ذلك الغازي ، وقيل : إن الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله تعالى ألف شهر فأعطوا ليلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد . وقال أبو بكر الوراق : ملك كل من سليمان وذي القرنين خمسمائة سنة فصار ألف شهر فجعل الله العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيراً من ملكهما . ﴿ تنزل الملائكة والروح ﴾ تقدم الخلاف في الروح أهو جبريل أم رحمة ينزل بها أم ملك غيره ؟ أم أشراف الملائكة ؟ أم جند من غيرهم ؟ أم حفظة على غيرهم من الملائكة والتنزيل إما إلى الأرض وإما إلى سماء الدنيا ، ﴿ بإذن ربهم ﴾ متعلق بـ ﴿ تنزل ﴾ ﴿ من كل أمر ﴾ متعلق بـ ﴿ تنزل ﴾ و ﴿ من ﴾ للسبب أي تنزل من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى قابل ، و ﴿ سلام ﴾ مستأنف خبر للمبتدأ الذي هو ﴿ هي ﴾ أي هي سلام إلى أول يومها ، قاله أبو العالية ونافع المقري والفراء وهذا على قول من قال : إن تنزلهم لتقدير الأمور لهم ، وقال أبو حاتم ﴿ من ﴾ بمعنى الباء ، أي : بكل أمر وابن عباس وعكرمة والكلبي ـ من كل امرىء أي من أجل كل إنسان . وقيل : يراد بكل امرىء الملائكة ، أي من كل ملك تحية على المؤمنين العاملين بالعبادة . وأنكر هذا القول أبو حاتم سلام هي أي هي سلام جعلها سلاماً لكثرة السلام فيها . قيل : لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلموا عليه في تلك الليلة وقال منصور والشعبي : سلام بمعنى التحية أي تسلم الملائكة على المؤمنين ، ومن قال تنزلهم ليس لتقدير الأمور في تلك السنة جعل الكلام تاماً عند قوله ﴿ بإذن ربهم ﴾ ، وقال ﴿ من كل ﴾ أمر متعلق بقوله ﴿ سلام هي ﴾ أي من كل أمر مخوف ينبغي أن يسلم منه هي سلام ، وقال مجاهد : لا يصيب أحداً فيها داء . وقال صاحب اللوامح : وقيل معناه هي سلام من كل أمر أي سالمة أو مسلمة منه ولا يجوز أن يكون ﴿ سلام ﴾ بهذه اللفظة الظاهرة التي هي المصدر عاملاً فيما قبله لامتناع تقدم معمول المصدر على المصدر كما أن الصلة كذلك لا يجوز تقديمها على الموصول انتهى . وعن ابن عباس : تم الكلام عند قوله ﴿ سلام ﴾ ولفظة ﴿ هي ﴾ إشارة إلى أنها ليلة سبع وعشرين من الشهر إذ هذه الكلمة هي السابعة والعشرون من كلمات هذه السورة انتهى . ولا يصح مثل هذا عن ابن عباس وإنما هذا من باب اللغز المنزه عنه كلام الله تعالى وقرأ الجمهور ﴿ مَطْلَع ﴾ بفتح اللام . وأبو رجاء والأعمش وابن وثاب وطلحة وابن محيصن والكسائي وأبو عمرو بخلاف عنه بكسرها . فقيل : هما مصدران في لغة بني تميم . وقيل : المصدر بالفتح وموضع الطلوع بالكسر عند أهل الحجاز .

واجتمعت كلمتهم إلى أن أتتهم البينة ، وقيل معنى (منفكين) هالكين ، من قولهم : انفك صلا المرأة عند الولادة ، أن ينفصل فلا يلتئم والمعنى لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب . انتهى . و (منفكين) اسم فاعل من انفك وهي التامة ، وليست الناقصة على الأشهر . وقال بعض النحاة : هي الناقصة ، ويقدر (منفكين) عارفين أمر محمد ـ ﷺ ـ أو نحو هذا ، وهو فاسد ؛ لأن خبر كان وأخواتها لا يجوز حذفه لا اقتصاراً ولا اختصاراً ، نص على ذلك أصحابنا ولهم علة في منع ذلك ذكروها في علم النحو ، وقالوا في قوله حين ليس مجير أي في الدنيا ، فحذف الخبر أنه ضرورة والبينة الحجة الظاهرة . وقرأ الجمهور (رسول) بالرفع بدلاً من (البينة) ، وأبي وعبد الله بالنصب حالاً من (البينة) (يتلو صحفاً) أي قراطيس مطهرة من الباطل فيها كتب مكتوبات فيها مستقيمة ناطقة بالحق (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب) أي من المشركين وتفصيل بعضهم من بعض ، قال كل ما يدل عنده على صحة قوله (إلا من بعد ما جاءتهم البينة) وكان يقتضي مجيء البينة أن يجتمعوا على اتباعها ، وقال الزمخشري : كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول ـ ﷺ ـ . وقال أيضاً : أفرد أهل الكتاب يعني في قوله (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب) بعد جمعهم (والمشركين) قبل ؛ لأنهم كانوا على علم به لوجوده في كتبهم فإذا وصفوا بالتفرق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف . والمراد بتفرقهم : تفرقهم عن الحق أو تفرقهم فرقاً فمنهم من آمن ومنهم من أنكر . وقال ليس به ومنهم من عرف وعاند . وقال ابن عطية : ذكر تعالى مذمة من لم يؤمن من أهل الكتاب من أنهم لم يتفرقوا في أمر محمد ـ ﷺ ـ إلا من بعد ما رأوا الآيات الواضحة وكانوا من قبل متفقين على نبوته وصفته فلما جاء من العرب حسدوه انتهى . وقرأ الجمهور (مخلصين) بكسر اللام و (الدين) منصوب به ، والحسن بفتحها أي : يخلصون هم أنفسهم في نياتهم ، وانتصب (الدين) إما على المصدر من (ليعبدوا) أي : ليدينوا الله بالعبادة الدين ، وإما على إسقاط في أي : في الدين والمعنى : وما أمروا أي في كتابيهما بما أمروا به إلا ليعبدوا (حنفاء) أي مستقيمي الطريقة . وقال محمد بن الأشعث الطالقاني (القيمة) هنا الكتب التي جرى ذكرها لما تقدم لفظ قيمة نكرة كانت الألف واللام في القيمة للعهد كقوله تعالى ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول ﴾ [المزمل ١٥ ـ ١٦] . وقرأ عبد الله (وذلك الدين القيمة) فالهاء في هذه القراءة للمبالغة ، أو أنث على أن عنى بالدين الملة ، كقوله : ما هذه الصوت يريد ما هذه الصيحة . وذكر تعالى مقر الأشقياء وجزاء السعداء و (البرية) جميع الخلق . وقرأ الأعرج وابن عامر ونافع (البريئة) بالهمز من برأ بمعنى خلق . والجمهور بشد الياء . فاحتمل أن يكون أصله الهمز ثم سهل بالإبدال وأدغم . واحتمل أن يكون من البراء وهو التراب . قال ابن عطية : وهذا الاشتقاق يجعل الهمز خطأ ، وهو اشتقاق غير مرضي ويعني اشتقاق البرية بلا همز من البرى وهو التراب فلا يجعله خطأ بل قراءة الهمز مشتقة من برأ وغير الهمز من البرى والقراءتان قد تختلفان في الاشتقاق نحو أو ننساها ﴿ أو ننسها ﴾ [البقرة ١٠٦] فهو اشتقاق مرضي وحكم على الكفار من الفريقين بالخلود في النار وبكونهم شر البرية . وبدأ بأهل الكتاب ؛ لأنهم كانوا يطعنون في نبوته وجنايتهم أعظم ، لأنهم أنكروه مع العلم به و (شر البرية) ظاهره العموم ، وقيل : (شر البرية) الذين عاصروا الرسول ـ ﷺ ـ إذ لا يبعد أن يكون في كفار الأمم من هو شر من هؤلاء كفرعون وعاقر ناقة صالح . وقرأ الجمهور (خير البرية) مقابل (شر البرية) وحميد وعامر بن عبد الواحد (خيار البرية) جمع خير كجيد وجياد وطبقة [illegible] وتقدم شرح ذلك إفراداً وتركيباً

وقال أبو عبيدة : « النقع : رفع الصوت » ، ومنه قول لبيد :

فَمَتَى يَنْقَعْ صُرَاخٌ صَادِقٌ ... يُحْلِبُوهَا ذَاتَ جَرْسٍ وَزَجَلْ[1]

الكنود : الكفور للنعمة . قال الشاعر :

كَنُودٌ لِنَعْمَاءِ الرِّجَالِ وَمَنْ يَكُنْ ... كَنُوداً لِنَعْمَاءِ الرِّجَالِ يُبَعَّدِ[2]

وعن ابن عباس : « الكنود : بلسان كندة وحضرموت العاصي ، وبلسان ربيعة ومضر الكفور وبلسان كنانة البخيل السيء الملكة » ، وبه قال مقاتل . وقال الكلبي مثله إلا أنه قال : « وبلسان بني مالك » البخيل ، ولم يذكر حضرموت . ويقال كند النعمة كنوداً ، وقال أبو زبيد في البخيل .

إِنْ نَفْسِي فَلَمْ أَطِبْ عَنْكَ نَفْساً ... غَيْرَ أَنِّي أُمْنَى بِدَهْرٍ كَنُودِ[3]

حصل الشيء : جمعه ، وقيل : ميزه من غيره . ومنه قيل للمنخل المحصل . وحصل الشيء : ظهر واستبان ﴿ والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحاً ، فالمغيرات صبحاً ، فأثرن به نقعاً ، فوسطن به جمعاً ، إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد ، أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ، وحصل ما في الصدور ، إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ هذه السورة مكية في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء ، مدنية في قول ابن عباس وأنس وقتادة . لما ذكر فيما قبلها ما يقتضي تهديداً ووعيداً بيوم القيامة تعقبه بمن لا يستعد لذلك اليوم ، ومن آثر أمر دنياه على أمر آخرته . والجمهور من أهل التفسير واللغة على أن العاديات هنا : الخيل تعدو في سبيل الله وتضبح حالة عدوها ، وقال عنترة :

وَالْخَيْلُ تَكْدَحُ حِينَ تَضْبَحُ ... فِي حِيَاضِ الْمَوْتِ ضَبْحَا[4]

وقال أبو عبد الله وعلي وإبراهيم والسدي ومحمد بن كعب وعبيد بن عمير (العاديات) الإبل ، أقسم بها حين تعدو من عرفة ومن المزدلفة إذا دفع الحاج . وبأهل غزوة بدر لم يكن فيها غير فرسين فرس للزبير وفرس للمقداد ، وبهذا حج علي رضي الله عنه ابن عباس حين تماريا فرجع ابن عباس إلى قول علي رضي الله تعالى عنهما . وقالت صفية بنت عبد المطلب .

فَلا وَالْعَادِيَاتِ غَدَاةَ جَمْعٍ ... بِأَيْدِيهَا إِذَا سَطَعَ الْغُبَارُ[5]

وانتصب (ضبحاً) على إضمار فعل ، أي : يضبحن ضبحاً ، أو على أنه في موضع الحال ، أي : ضابحات ، أو على المصدر على قول أبي عبيدة أن معناه : العدو الشديد فهو منصوب بـ (العاديات) وقال الزمخشري : « أو بـ (العاديات) كأنه قيل : والضابحات ، لأن الضبح يكون مع العدو » انتهى . وإذا كان الضبح مع العدو فلا يكون معنى (والعاديات) معنى الضابحات فلا ينبغي أن يفسر به . (فالموريات قدحاً) والإيراء : إخراج النار ، أي : تقدح

---

(١) البيت من الرمل انظر الكامل ١/٣٣٢ اللسان (نقع) .
(٢) البيت من الطويل انظر فتح القدير ٥/٤٨٣ .
(٣) البيت من الخفيف انظر فتح القدير ٥/٤٨٣ .
(٤) البيت من مجزوء الكامل انظر الكشاف ٤/٧٩٢ ، فتح القدير ٥/٤٨١ ، اللسان (ضبح) .
(٥) البيت من الوافر انظر فتح القدير ٥/٤٨١

سورة القارعة مكية وهي إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

الفراش : قال الفراء : هو الهمج الطائر من بعوض وغيره ومنه الجراد . ويقال : هو أطيش من فراشة . قال : وقد كان أقوام ربدت قلوبهم عليهم وكانوا كالفراش من الجهل . العهن : الصوف والمنفوش : مفرق ما كان ملبداً من أجزائه

﴿ القارعة . ما القارعة . وما أدراك ما القارعة . يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش . فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية . وأما من خفت موازينه فأمه هاوية . وما أدراك ما هيه . نار حامية ﴾ هذه السورة مكية . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة ، لأنه ذكر وقت بعثرة القبور ، وذلك هو وقت الساعة . وقال الجمهور : القارعة : القيامة نفسها ، لأنها تقرع القلوب بهولها . وقيل : صيحة النفخة في الصور ، لأنها تقرع الأسماع وفي ضمن ذلك القلوب . وقال الضحاك : هي النار ذات التغيظ والزفير . وقرأ الجمهور : (القارعةُ ما القارعة) بالرفع ، فـ (ما) استفهام ، فيه معنى الاستعظام والتعجب ، وهي مبتدأ و (القارعة) خبره . وتقدم تقرير ذلك في (الحاقة ما الحاقة) وقيل : ذلك في قوله ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾ [الواقعة : ٨] وقال الزجاج : هو تحذير والعرب تحذر وتغري بالرفع كالنصب . قال الشاعر :

لأخو النجدة السلاح السلاح(1)

وقرأ عيسى بالنصب ، وتخريجه على أنه منصوب بإضمار فعل ، أي : اذكروا القارعة ، و (ما) زائدة للتوكيد

---

(1) شطر بيت من الخفيف ولم يعرف قائله

انظر شواهد الأشموني ١٩٣/٣

سورة العصر مكية وهي ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3) ﴾

هذه السورة مكية في قول ابن عباس وابن الزبير ، والجمهور . ومدنية في قول مجاهد وقتادة ومقاتل . لما قال فيما قبلها (ألهاكم التكاثر) ، ووقع التهديد بتكرار (كلا سوف تعلمون) بين حال المؤمن والكافر . (والعصر) قال ابن عباس : العصر الدهر يقال فيه عصر وعصر وعصر . أقسم به تعالى ، لما في مروره من أصناف العجائب . وقال قتادة : (العصر) العشي أقسم به كما أقسم بالضحى ، لما فيهما من دلائل القدرة . وقيل : العصران : اليوم والليلة . ومنه قول حميد بن ثور :

ولن يلبث العصران يوم وليلة ... إذا طلبا أن يدركا ما تيمما[1]

وقيل : العصر بكرة ، والعصر عشية ، وهما الأبردان . فعلى هذا والقول قبله ، يكون القسم بواحد منهما غير معين . وقال مقاتل : العصر الصلاة الوسطى ، أقسم بها . وبهذا القول بدأ الزمخشري قال : لفضلها بدليل قوله تعالى ﴿ والصلاة الوسطى صلاة العصر ﴾ [البقرة ٢٣٨] في مصحف حفصة . وقوله ﷺ : « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » ، ولأن التكليف في أدائها أشق ، لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار ، واشتغالهم بمعايشهم . انتهى . وقرأ سلام : (والعصر) بكسر الصاد والصبر بكسر الباء . قال ابن عطية : وهذا لا يجوز إلا في الوقف على نقل الحركة . وروي عن أبي عمرو (بالصبر) بكسر الباء إشماماً . وهذا لا يكون إلا في الوقف . انتهى . وفي الكامل للهذلي (والعصر) (بالصبر) ﴿ والفجر ﴾ [الفجر ١] ﴿ والوتر ﴾ [الفجر ٣] بكسر ما قبل الساكن في هذه كلها ، هارون وابن موسى عن أبي عمرو ، والباقون بالإسكان كالجماعة . انتهى . وقال ابن خالويه : (وتواصوا بالصبر) بنقل الحركة عن أبي عمرو . وقال صاحب اللوامح : عيسى البصرة (بالصبر) بنقل حركة الراء إلى الباء ، لئلا يحتاج أن يأتي ببعض الحركة في الوقف ، ولا إلى أن يسكن فيجمع بين ساكنين ، وذلك لغة شائعة ، وليست بشاذة ، بل مستفيضة وذلك دلالة على الإعراب وانفصال عن التقاء الساكنين وتأدية حق الموقوف عليه من السكون . انتهى . وقد أنشدنا في الدلالة على ذلك في شرح التسهيل عدة أبيات كقول الراجز :

أنا جرير كنيتي أبو عمر ... أضرب بالسيف وسعد في القصر[2]

---

(1) البيت من الطويل انظر الكامل ٢/١٢٨٠ ، اللسان (عصر) .

(2) البيت من الرجز ذكره السمين في الدر المصون .

وقرأ الجمهور بفتح الميم فيهما، والباقون بسكونها، وهو المسخرة الذي يأتي بالأضاحيك منه ويشتم ويهمز ويلمز. (الذي) بدل أو نصب على الذم. وقرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر والأخوان (جمّع) مشدد الميم، وباقي السبعة بالتخفيف. والجمهور (وعدّده) بشد الدال الأولى أي: أحصاه وحافظ عليه وقيل: جعله عدة لطوارق الدهر. والحسن والكلبي بتخفيفها. أي: جمع المال وضبط عدده. وقيل: وعَدداً من عشيرته. وقيل: (وعدده) على ترك الإدغام كقوله:

إني أجود لأقوام وإن ضننوا

(أخلده) أي: أبقاه حياً إذ به قوام حياته، وحفظه مدة عمره. وقال الزمخشري: أي طوّل المال أمله ومنّاه الأماني البعيدة حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمله يحسب أن المال تركه خالداً في الدنيا لا يموت. قيل: وكان للأخنس أربعة آلاف دينار، وقيل: عشرة آلاف دينار. (كلا) ردع له عن حسبانه. وقرأ الجمهور (لينبذنّ) فيه ضمير الواحد. وعلي والحسن بخلاف عنه وابن محيصن وحميد وهارون عن أبي عمرو (لينبذانّ) بألف ضمير اثنين. الهُمَزة وماله. وعن الحسن أيضاً (لينبذُنّ) بضم الذال، أي: هو وأنصاره. وعن أبي عمرو (لينبذنه) وقرأ الجمهور في الحطمة (وما أدراك ما الحطمة) وزيد بن عليّ (في الحاطمة) (وما أدراك ما الحاطمة) وهي النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها. قال الضحاك: الحطمة الدرك الرابع من النار. وقال الكلبي: الطبقة السادسة من جهنم. وحكى عنه القشيري أنها الدركة الثانية. وعنه أيضاً: الباب الثاني. وقال الواحدي: باب من أبواب جهنم انتهى. و (نار الله) أي هي أي الحطمة. (التي تطلع على الأفئدة) ذكرت الأفئدة، لأنها ألطف ما في البدن وأشده تألماً بأدنى شيء من الأذى. واطلاع النار عليها هو أنها تعلوها وتشتمل عليها. وهي تعلو الكفار في جميع أبدانهم لكن نبه على الأشرف، لأنها مقر العقائد. وقرأ الأخوان وأبو بكر (في عُمُد) بضمتين جمع عمود. وهارون عن أبي عمرو بضم العين وسكون الميم. وباقي السبعة بفتحهما وهو اسم جمع، الواحد عمود. وقال الفراء: جمع عمود كما قالوا: أديم وأُدُم. وقال أبو عبيدة: جمع عماد. قال ابن زيد: (في عمد) حديد مغلولين بها. وقال أبو صالح: هذه النار هي في قبورهم. والظاهر: أنها نار الآخرة، إذ يئسوا من الخروج بإطباق الأبواب عليهم، وتمدد العمد كل ذلك إيذاناً بالخلود إلى غير نهاية. وقال قتادة: كنا نحدّث أنها عمد يعذبون بها في النار. وقال أبو صالح: هي القيود. والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝﴾

الفيل: أكبر ما رأيناه من وحوش البر، يجلب إلى ملك مصر، ولم نره بالأندلس بلادنا. ويجمع في القلة على أفيال، وفي الكثرة على فيول وفيلة. الأبابيل: الجماعات تجيء شيئاً بعد شيء، قال الشاعر:

كادت تهد من الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل[1]

وقال الأعشى:

طريق وجبار رواء أصوله ... عليه أبابيل من الطير تنعب[2]

قال أبو عبيدة والفراء: لا واحد له من لفظه، فيكون مثل عباديد وشماطيط. وقيل: واحده إبول مثل عجول، وقيل: إبيل مثل سكين، وقيل: إبال. وذكر الرقاشي، وكان ثقة، أنه سمع في واحده إبالة. وحكى الفراء إبالة مخففاً. ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول﴾ هذه السورة مكية. ولما ذكر فيما قبلها عذاب الكفار في الآخرة أخبر هنا بعذاب ناس منهم في الدنيا. والظاهر أن الخطاب للرسول ـ ﷺ ـ يذكر نعمته عليه إذ كان صرف ذلك العدو العظيم عام مولده السعيد ـ عليه السلام ـ وإرهاصاً بنبوته، إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومعنى (ألم تر) ألم تعلم قدره على وجود علمه بذلك، إذ هو أمر منقول نقل التواتر، فكأنه قيل: قد علمت فعل الله ربك بهؤلاء الذين قصدوا حرمه، ضلل كيدهم، وأهلكهم بأضعف جنوده، وهي الطير التي ليست من عادتها أنها تقتل. وقصة الفيل ذكرها أهل السير والتفسير مطولة ومختصرة، وتطالع في كتبهم. وأصحاب الفيل: أبرهة بن الصباح الحبشي ومن كان معه من جنوده. والظاهر أنه فيل واحد، وهو قول الأكثرين. وقال الضحاك: ثمانية فيلة. وقيل: اثنا عشر فيلاً. وقيل: ألف فيل. وهذه أقوال متكاذبة. وكان العسكر ستين ألفاً لم يرجع

---

(1) البيت من البسيط ذكره حسين في [illegible].

(2) البيت من الطويل انظر ديوانه ([illegible]).

أحد منهم إلا أبرهة في شرذمة قليلة ، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا ، وكان الفيل يوجهونه نحو مكة لما كان قريباً منها فيبرك ، ويوجهونه نحو اليمن والشام فيسرع . وقال الواقدي : أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمن الرسول ـ ﷺ ـ وقرأ السلمي (ألم ترْ) بسكون ، وهو جزم بعد جزم ، ونقل عن صاحب اللوامح (ترْ) بهمزة مفتوحة مع سكون الراء على الأصل ، وهي لغة لتيم و (تر) معلقة والجملة التي فيها الاستفهام في موضع نصب به و (كيف) معمول لفعل . وفي خطابه تعالى للنبي ـ ﷺ ـ بقوله (فعل ربك) تشريف له ـ ﷺ ـ وإشادة من ذكره كأنه قال ربك معبودك هو الذي فعل ذلك لا أصنام قريش أساف ونائلة وغيرهما . (ألم يجعل كيدهم في تضليل) وإبطال ، يقال : ضلل كيدهم إذا جعله ضلالاً ضائعاً ، وقيل لامرئ القيس الضليل ، لأنه ضلل ملك أبيه ، أي ضيعه وتضييع كيدهم هو بأن أحرق الله تعالى البيت الذي بنوه قاصدين أن يرجع حج العرب إليه وبأن أهلكهم لما قصدوا هدم بيت الله الكعبة بأن أرسل عليهم طيراً جاءت من جهة البحر ، ليست نجدية ، ولا تهامية ، ولا حجازية سوداء ، وقيل خضراء على قدر الخطاف ، وقرأ الجمهور (ترميهم) بالتاء والطير : اسم جمع يذكر ويؤنث ، وقوله :

كالطير ينجو من الشؤبوب ذي البرد

وتذكر كقراءة أبي حنيفة وابن يعمر وعيسى وطلحة في رواية عنه (يرميهم) ، وقيل : الضمير عائد على (ربك) (بحجارة) كان كل طائر في منقاره حجر وفي رجليه حجران ، كل حجر فوق حبة العدس ودون حبة الحمص مكتوب في كل حجر اسم مرميه ، ينزل على رأسه ويخرج من دبره . ومرض أبرهة فتقطع أنملة أنملة ، ومامات حتى انصدع صدره عن قلبه ، وانفلت أبو مكسوم وزيره وطائر يتبعه حتى وصل إلى النجاشي وأخبره بما جرى للقوم فرماه الطائر بحجره فمات بين يدي الملك ، وتقدم شرح (سجيل) في سورة هود و (العصف) في سورة الرحمن ، شبهوا بالعصف ورق الزرع الذي أكل أي ، وقع فيه الأكال وهو أن يأكله الدود ، والتبن الذي أكلته الدواب وراثته ، وجاء على آداب القرآن نحو قوله ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ [المائدة ٧٥] أو الذي أكل حبه فبقي فارغاً فنسبه أنه أكل مجاز إذ المأكول حبه لا هو . وقرأ الجمهور (مأكول) بسكون الهمزة وهو الأصل ، لأن صيغة مفعول من فعل ، وقرأ أبو الدرداء فيما نقل ابن خالويه بفتح الهمزة ، إتباعاً لحركة الميم ، وهو شاذ وهذا كما أتبعوا في قولهم (محموم) بفتح الحاء لحركة الميم . قال ابن إسحاق لما رد الله الحبشة عن مكة عظمت العرب قريشاً ، وقالوا : أهل الله ، قاتل عنهم ، وكفاهم مؤونة عدوهم ، فكان ذلك نعمة من الله تعالى عليهم . وقيل هو إجابة لدعوة الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

زعمتم أنّ إخوتكم قريشاً   لهم إلفٌ وليس لكم إلافُ(١)

جمع بين مصدري ألف الثلاثي . وعن أبي جعفر وابن عامر (إلافهم) على وزن فعال ، وعن أبي جعفر وابن كثير (إلفهم) على وزن فعل . وبذلك قرأ عكرمة . وعن أبي جعفر أيضاً (ليلاف) بياء ساكنة بعد اللام اتبع لما أبدل الثانية ياء حذف الأولى حذفاً على غير قياس . وعن عكرمة (ليألف قريش) وعنه أيضاً (لتألف قريش) على الأمر وعنه وعن هلال بن فتيان بفتح لام الأمر . وأجمعوا هنا على صرف (قريش) راعوا فيه معنى الحي ويجوز منع صرفه ملحوظاً فيه معنى القبيلة للتأنيث والعلمية . قال الشاعر :

وكفى قريشَ المعضلاتِ وسادها

جعله اسماً للقبيلة سيبويه في نحو معد وقريش وثقيف . وكينونة هذه للأحياء أكثر ، وإن جعلتها اسماً للقبائل فجائز حسن . وقرأ الجمهور (رِحْلة) بكسر الراء . وأبو السمال بضمها . فبالكسر مصدر ، وبالضم الجهة التي يرحل إليها والجمهور على أنهما رحلتان . فقيل : إلى الشام في التجارة ونيل الأرباح ، ومنه قول الشاعر :

سفرين بينهما له ولغيره   سفرُ الشتاء ورحلةُ الأصيافِ

وقال ابن عباس : رحلة إلى اليمن ورحلة إلى بصرى . وقال : يرحلون في الصيف إلى الطائف حيث الماء والظل ، ويرحلون في الشتاء إلى مكة للتجارة وسائر أغراضهم . وقال الزمخشري : وأراد رحلتي الشتاء والصيف فأفرد لأمن الإلباس ، كقوله :

كلوا في بعض بطنكم تعفّوا   فإنّ زمانكم زمنٌ خميصُ(٢)

انتهى . وهذا عند سيبويه لا يجوز إلا في الضرورة(٣) ومثله :

حمامة بطن الواديين ترنمي(٤)

يريد بطني الواديين . أنشده أصحابنا على الضرورة . وقال النقاش : كانت لهم أربع رحل . قال ابن عطية : وهذا قول مردود . انتهى . ولا ينبغي أن يرد فإن أصحاب الإيلاف كانوا أربعة إخوة وهم بنو عبد مناف ، هاشم كان يؤلف ملك الشام أخذ منه حبلاً فأمن به في تجارته إلى الشام ، وعبد شمس يؤلف إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس . فكان هؤلاء يسمون المجيرين . فتختلف تجر قريش إلى الأمصار بحبل هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم ، قال الأزهري : الإيلاف شبه الإجارة بالخفارة فإذا كان كذلك جاز أن يكون لهم رحل أربع باعتبار هذه الأماكن التي كانت التجار في خفارة هؤلاء الأربعة فيها ، وفيهم قول الشاعر يمدحهم :

يا أيها الرجل المحوّل رحله   هلّا نزلت بآل عبد مناف

---

(١) البيت من [illegible] لمساور بن هند . انظر [illegible] ٦٢٩ .
(٢) انظر الكتاب ١/١٠٨ ، الخزانة ٧/٥٥٩ ، المقتضب ٢/١٧٠ .
(٣) يريد المصنف رحمه الله استعمال المفرد في معنى الجموع ، ففي قوله بطنكم قال سيبويه : وليس بمستنكر في كلامهم أن يكون اللفظ واحداً والمعنى جمع حتى قال بعضهم في الشعر من ذلك ما لا يستعمل في الكلام . الكتاب ١/١٠٧ .
(٤) شطر بيت للشماخ انظر الأشموني ٣/٩١ .

سورة الكافرون مكية وهي ست آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

هذه مكية في قول الجمهور. وروي عن قتادة أنها مدنية. وذكروا من أسباب نزولها أنهم قالوا له عليه الصلاة والسلام ـ دَعْ ما أنت فيه ونحن نمولك ونزوجك من شئت من كرائمنا، ونملكك علينا، وإن لم تفعل هذا فلتعبد آلهتنا ونحن نعبد إلهك حتى نشترك فحيث كان الخير نلناه جميعاً، وكان أكثر قائله قريشاً وطمعوا منه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، فأنزل الله تعالى هذه السورة، تبرياً منهم وإخباراً لا شك فيه أن ذلك لا يكون. وفي قوله (قل) دليل على أنه مأمور بذلك من عند الله، وخطابه لهم بـ (يا أيها الكافرون) في ناديهم ومكان بسطة أيديهم مع ما في هذا الوصف من الأرذال بهم، دليل على أنه محروس من عند الله تعالى لا يبالي بهم. و (الكافرون) ناس مخصوصون وهم الذين قالوا له تلك المقالة الوليد بن المغيرة، والعاصي بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمية، وأبي ابنا خلف، وأبو جهل، وابنا الحجاج. ونظراؤهم ممن لم يسلم ووافى على الكفر تصديقاً للإخبار في قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد). وللمفسرين في هذه الجمل أقوال. أحدها: أنها للتوكيد. فقوله (ولا أنا عابد ما عبدتم) توكيد لقوله (لا أعبد ما تعبدون) وقوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) ثانياً تأكيد لقوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أولاً. والتوكيد في لسان العرب كثير جداً، وحكوا من ذلك نظماً ونثراً ما لا يكاد يحصر. وفائدة هذا التوكيد قطع أطماع الكفار وتحقيق الإخبار بموافاتهم على الكفر وأنهم لا يسلمون أبداً. والثاني أنه ليس للتوكيد. واختلفوا، فقال الأخفش: المعنى لا أعبد الساعة ما تعبدون، ولا أنتم عابدون السنة ما أعبد، ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد. فزال التوكيد إذ قد تقيدت كل جملة بزمان مغاير. وقال أبو مسلم: (ما) في الأوليين بمعنى الذي، والمقصود المعبود، و (ما) في الأخريين مصدرية، أي: لا أعبد عبادتكم المبنية على الشك وترك النظر، ولا أنتم مثل عبادتي المبنية على اليقين. وقال ابن عطية: لما كان قوله لا أعبد محتملاً أن يراد به الآن ويبقى المستأنف منتظراً ما يكون فيه جاء البيان بقوله (ولا أنا عابد ما عبدتم) أبداً وما حييت. ثم جاء قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) الثاني حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون به أبداً كالذي كشف الغيب فهذا كما قيل لنوح ـ عليه السلام ـ ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ [هود ٣٦] أما أن هذا في معينين وقوم نوح عموا بذلك فهذا معنى الترديد الذي في السورة وهو بارع الفصاحة وليس بتكرار فقط بل فيه ما ذكرته. انتهى. وقال الزمخشري: (لا أعبد) أريدت به العبادة فيما يستقبل لأن (لا) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال كما أن (ما) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال. والمعنى لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون فيه

سورة النصر مدنية وهي ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)

هذه مدنية ، نزلت منصرفه ـ ﷺ ـ من غزوة خيبر وعاش بعد نزولها سنتين . وقال ابن عمر : نزلت في أوسط أيام التشريق بمنى في حجة الوداع وعاش بعدها ثمانين يوماً أو نحوها ـ ﷺ ـ ولما كان في قوله ﴿ لكم دينكم ﴾ موادعة جاء في هذه بما يدل على تخويفهم وتهديدهم وأنه أتى نصر الله وفتح مكة ، واضمحلال ملة الأصنام ، وظهور دين الله تعالى. قال الزمخشري : (إذا) منصوب بـ (سبح) وهو لما يستقبل ، والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة . انتهى . وكذا قال الحوفي ، ولا يصح إعمال (فسبح) في (إذا) لأجل الفاء لأن الفاء في جواب الشرط لا يتسلط الفعل الذي بعدها على اسم الشرط فلا تعمل فيه بل العامل في (إذا) الفعل الذي بعدها على الصحيح المنصور في علم العربية ، وقد استدللنا على ذلك في شرح التسهيل وغيره وإن كان المشهور غيره(١) . قال ابن عطية : النصر : الإعانة والإظهار على العدو ، والفتح : فتح البلاد . ومتعلق النصر والفتح محذوف . فالظاهر أنه نصر رسوله ـ ﷺ ـ والمؤمنين على أعدائهم وفتح مكة وغيرها عليهم ، كالطائف ومدن الحجاز وكثير من اليمن ، وقيل : نصره ـ ﷺ ـ على قريش ، وفتح مكة ، وكان فتحها لعشر مضين من رمضان سنة ثمان ومعه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار . وقرأ الجمهور (يدخلون) مبنياً للفاعل ، وابن كثير في رواية مبنياً للمفعول (في دين الله) في ملة الإسلام التي لا دين له يضاف غيرها (أفواجاً) أي : جماعات كثيرة ، كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعدما كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً واثنين اثنين . قال الحسن : لما فتح ـ عليه الصلاة والسلام ـ مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا : أما إذا ظفر بأهل الحرم فليس به يدان ، وقد كان الله تعالى أجارهم من أصحاب الفيل . وقال أبو عمر بن عبد البر : لم يمت رسول الله ـ ﷺ ـ وفي العرب رجل كافر بل دخل الكل في الإسلام بعد حنين منهم من قدم ومنهم من قدم وفده . قال ابن عطية : والمراد والله أعلم العرب عبدة الأوثان ، وأما نصارى بني تغلب فما أراهم أسلموا قط في حياة الرسول ـ ﷺ ـ لكن أعطوا الجزية . وقال مقاتل وعكرمة : المراد بالناس أهل اليمن وفد منهم سبعمائة رجل . وقال الجمهور : وفود العرب ، وكان دخولهم بين فتح مكة وموته ـ ﷺ ـ و (أفواجاً) جمع فوج ، قال الحوفي : وقياس جمعه أفوج ولكن استثقلت الضمة على الواو فعدل إلى أفواج . كأنه يعني أنه كان ينبغي أن يكون مثل ثوب وأثوب كالصحيح فكأنه لم تجر فيه ضمة فحملها أن تجمع على أفعال لا على أفعل ، فكذلك هذا . والأمر في هذا الفعل ...

---

(١) يريد المصنف رحمه الله أن [illegible] المشهور [illegible] (فسبح) [illegible] الشرطية [illegible] الفعل الذي يليها

سورة المسد مكية وهي خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥)﴾

الحطب معروف، ويقال: فلان يحطب على فلان إذا وشى عليه. الجيد: العنق. المسد: الحبل من ليف. وقال أبو الفتح: ليف المقل. وقال ابن زيد: هو شجر باليمن يسمى المسد. انتهى. وقد يكون من جلود الإبل ومن أوبارها. قال الراجز:

ومسد أمر من أيانق

ورجل ممسود الخلق: أي مجدوله شديده. ﴿تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيصلى ناراً ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب. في جيدها حبل من مسد﴾ هذه السورة مكية. ولما ذكر فيما قبلها دخول الناس في دين الله تعالى أتبع بذكر من لم يدخل في الدين وخسر ولم يدخل فيما دخل فيه أهل مكة من الإيمان. وتقدم الكلام على التباب في سورة غافر. وهنا قال ابن عباس: خابت. وقتادة: خسرت. وابن جبير: هلكت. وعطاء: ضلت. ويمان بن رئاب: صفرت من كل خير. وهذه الأقوال متقاربة في المعنى. وقالوا فيما حكي: أشابة أم تابة. أي هالكة من الهرم والتعجيز. وإسناد الهلاك إلى اليدين، لأن العمل أكثر ما يكون بهما وهو في الحقيقة للنفس كقوله ﴿ذلك بما قدمت يداك﴾ [الحج: ١٠]. وقيل: أخذ بيديه حجراً ليرمي به الرسول ـ ﷺ ـ فأسند التب إليهما. والظاهر أن التب: دعاء، (وتب) إخبار بحصول ذلك. كما قال الشاعر:

جزاني جزاه الله شرّ جزائه ... جزاء الكلاب العاويات وقد فعل[1]

ويدل عليه قراءة عبد الله (وقد تب). روي: أنه لما نزل ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [الشعراء: ٢١٤] قال: يا صفية بنت عبد المطلب يا فاطمة بنت محمد لا أغني لكم من الله شيئاً سلوني من مالي ما شئتم. ثم صعد الصفا فنادى بطون قريش: يا بني فلان يا بني فلان. وروي: أنه صاح بأعلى صوته يا صباحاه. فاجتمعوا إليه من كل وجه فقال لهم: أرأيتم لو قلت لكم إني أنذرتكم خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟ قالوا: نعم. قال فإني نذير لكم بين يدي

---

(١) بيت من الطويل نسب لأبي الأسود الدؤلي، وقيل للنابغة الذبياني، انظر الكشاف ٢٩٤/٤، اللسان (عوى)، الأشموني ٥٩/٢، ملحقات ديوان أبي الأسود (١٢١) وديوان النابغة (١٩١)، همع ١٦/١.

سورة الإخلاص مكية وهي أربع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾

الصمد : فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده وهو السيد المصمود إليه في الحوائج ويستقل بها . قال :

ألا بكر الناعي بخير بني أسد ... بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد[1]

وقال آخر :

علوته بحسام ثم قلت له ... خذها حذيف فأنت السيد الصمد[2]

التفسير ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ﴾ هذه السورة مكية في قول عبد الله والحسن وعكرمة وعطاء ومجاهد وقتادة ، مدنية في قول ابن عباس ومحمد بن كعب وأبي العالية والضحاك ، ولما تقدم فيما قبلها عداوة أقرب الناس إلى الرسول ﷺ ، وهو عمه أبو لهب ، وما كان يقاسي من عباد الأصنام الذين اتخذوا مع الله آلهة جاءت هذه السورة مصرحة بالتوحيد رادة على عباد الأوثان والقائلين بالثنوية وبالتثليث وبغير ذلك من المذاهب المخالفة للتوحيد ، وعن ابن عباس : « أن اليهود قالوا يا محمد صف لنا ربك وانسبه ؟ فنزلت » ، وعن أبي العالية ، قال قادة الأحزاب انسب لنا ربك فنزلت . فإن صح هذا السبب كان (هو) ضميراً عائداً على الرب ، أي (قل هو الله) . أي ربي الله ويكون مبتدأ وخبراً و (أحد) خبر ثان . وقال الزمخشري : و (أحد) بدل من قوله (الله) أو على هو أحد انتهى . وإن لم يصح السبب فهو ضمير الأمر والشأن مبتدأ والجملة بعده مبتدأ وخبر في موضع خبر (هو) و (أحد) بمعنى واحد ، أي فرد من جميع جهات الوحدانية ، أي في ذاته وصفاته ، لا يتجزأ ، وهمزة أحد هذا بدل من واو وإبدال الهمزة مفتوحة من الواو قليل من ذلك امرأة أناة يريدون وناة لأنه من الونى وهو الفتور كما أن أحداً من الوحدة . وقال ثعلب : بين واحد وأحد فرق ، الواحد يدخله العدد والجمع والاثنان ، والأحد لا يدخله ، يقال : الله أحد ، ولا يقال زيد أحد ، لأن الله خصوصية له الأحد وزيد تكون منه حالات انتهى . وما ذكر من أن أحداً لا يدخله ما ذكر منقوض بالعدد . وقرأ أبان بن عثمان وزيد بن علي ونصر بن عاصم وابن سيرين والحسن وابن أبي إسحاق وأبو السمال وأبو عمرو في رواية يونس ومحبوب

---

(١) البيت من الطويل انظر فتح القدير ٥/٦١٦ .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره ٢٠/٢٤٦ .

والأصمعي واللؤلؤي وعبيد وهارون عنه (أحدُ الله) بحذف التنوين لالتقائه مع لام التعريف، وهو موجود في كلام العرب وأكثر ما يوجد في الشعر نحو قوله :

ولا ذاكرَ اللهَ إلا قليلاً

ونحو قوله :

عمرُو الذي هشَمَ الثريدَ لقومِه

(الله الصمد) مبتدأ وخبر، والأصح أن تكون هذه جملة مستقلة بالإخبار على سبيل الاستئناف كما تقول زيد العالم زيد الشجاع. وقيل : الصمد صفة والخبر في الجملة بعده، وتقدم شرح الصمد في المرويات وقال الشعبي ويمان بن رئاب : هو الذي لا يأكل ولا يشرب. وقال أبيّ بن كعب : يفسره ما بعده وهو قوله (لم يلد ولم يولد). وقال الحسن (الصمد) المصمت الذي لا جوف له. ومنه قوله :

شِهابُ حُروبٍ لا تَزالُ جِيادُهُ عَوابِسَ يَعْلُكْنَ الشَّكيمَ المُصَمَّدا[1]

وفي كتاب التحرير أقوال غير هذه لا تساعد عليها اللغة. وقال ابن الأنباري : لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد : هو السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في أمورهم وحوائجهم. قال الزمخشري : (لم يلد) لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا. ودل على هذا المعنى بقوله ﴿ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾ [الأنعام : ١٠١]. (ولم يولد) لأن كل مولود محدث وجسم وهو قديم لا أول لوجوده وليس بجسم ولم يكافئه أحد يقال له كُفُو بضم الكاف وكسرها وفتحها مع سكون الفاء وبضم الكاف مع ضم الفاء. وقرأ حمزة وحفص بضم الكاف وإسكان الفاء، وهمز حمزة، وأبدلها حفص واواً. وباقي السبعة بضمها والهمز، وسهل الهمزة الأعرج وأبو جعفر وشيبة ونافع في رواية عن نافع أيضاً كفا من غير همز نقل حركة الهمزة إلى الفاء وحذف الهمزة. وقرأ سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس كفاء بكسر الكاف وفتح الفاء والمد كما قال النابغة :

لا تقذفنّي بركنٍ لا كفاءَ له[2]

الأعلم : لا كفاء له لا مثل له. وقال مكي : سيبويه يختار أن يكون الظرف خبراً إذا قدمه، وقد خطأه المبرد بهذه الآية، لأنه قدم الظرف ولم يجعله خبراً والجواب أن سيبويه لم يمنع إلغاء الظرف إذا تقدم إنما أجاز أن يكون خبراً وأن لا يكون خبراً. ويجوز أن يكون حالاً من النكرة وهي (أحد) لما تقدم نعتها عليها نصب على الحال فيكون (له) الخبر على مذهب سيبويه واختياره، ولا يكون للمبرد حجة على هذا القول. انتهى. وخرجه ابن عطية أيضاً على الحال. وقال الزمخشري : (فإن قلت :) الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه فما باله مقدماً في أفصح الكلام وأعربه ؟ (قلت :) هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه وتعالى، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف فكان لذلك أهم شيء وأعناه وأحقه بالتقديم وأحراه. انتهى. وهذه الجملة ليست من هذا الباب، وذلك أن قوله : (ولم يكن له كفواً أحد) ليس الجار والمجرور فيه تاماً إنما هو ناقص لا يصلح أن يكون خبراً لـ (كان) بل هو متعلق بكفواً وقدم عليه فالتقدير ولم يكن أحد كفواً له أي مكافئه فهو في معنى المفعول متعلق بـ (كفواً) وتقدم على (كفواً) للاهتمام به إذ فيه ضمير الباري تعالى. وتوسط الخبر وإن كان الأصل

(1) البيت من الطويل انظر فتح القدير ٥/٦٦٦.

(2) صدر بيت من البسيط انظر ديوانه (٣٦) اللسان (ركن) فتح القدير ٥/٦٦٧.

وقال الشاعر يصف الثور الوحشي :

حتى إذا ما انجلى عن وجهه فلق ... هاديه في أخريات الليل منتصب[١]

وقيل (الفلق) كلما يفلقه الله تعالى كالأرض والنبات والجبال عن العيون والسحاب عن المطر والأرحام عن الأولاد والحب والنوى وغير ذلك . وقال ابن عباس أيضاً وجماعة من الصحابة والتابعين : الفلق : جب في جهنم ، ورواه أبو هريرة عن رسول الله ـ ﷺ ـ وقالوا لما اطمأن من الأرض الفلق وجمعه فلقان . وقيل : واد في جهنم . وقال بعض الصحابة : بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره . وقرأ الجمهور (من شرِّ ما خلق) بإضافة (شر) إلى (ما) و (ما) عام يدخل فيه جميع من يوجد منه الشر من حيوان مكلف وغير مكلف وجماد كالإحراق بالنار والإغراق بالبحر والقتل بالسم . وقرأ عمرو بن فائد (من شرٍّ) بالتنوين ، وقال ابن عطية : وقرأ عمرو بن عبيد وبعض المعتزلة القائلين بأن الله تعالى لم يخلق الشر (من شرٍّ) بالتنوين (ما خلق) على النفي وهي قراءة مردودة مبنية على مذهب باطل ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ [الزمر ٦٢] ولهذه القراءة وجه غير النفي فلا ينبغي أن ترد وهو أن يكون (ما خلق) بدلاً (من شر) على تقدير محذوف ، أي من شرِّ ما خلق ، فحذف لدلالة (شر) الأول عليه ، أطلق أولاً ثم عمّ ثانياً . والغاسق : الليل . و (وقب) أظلم ودخل على الناس قاله ابن عباس . والحسن ومجاهد وتمسك الزمخشري على عادته ، فقال : والغاسق : الليل إذا اعتكر ظلامه من قوله تعالى ﴿ إلى غسق الليل ﴾ [الإسراء ٧٨] ومنه : غسقت العين امتلأت دمعاً ، وغسقت الجراحة . امتلأت دماً ووقوبه دخول ظلامه في كل شيء . انتهى . وقال الزجاج : هو الليل لأنه أبرد من النهار والغاسق : البارد استعيذ من شره . لأنه فيه تنبث الشياطين والهوام والحشرات وأهل الفتك . قال الشاعر :

يا طيف هند لقد أبقيت لي أرقاً ... إذ جئتنا طارقاً والليل قد غسقا[٢]

وقال محمد بن كعب : النهار دخل في الليل . وقال ابن شهاب : المراد بالغاسق الشمس إذا غربت وقال القتبي وغيره : هو القمر إذا دخل في ساهوره فخسف وفي الحديث . نظر ـ ﷺ ـ إلى القمر فقال يا عائشة : تعوذي بالله من هذا فإنه الغاسق إذا وقب . وعنه ـ ﷺ ـ : « الغاسق النجم » . وقال ابن زيد عن العرب : الغاسق الثريا إذا سقطت ، وكانت الأسقام والطواعين تهيج عند ذلك . وقيل : الحية إذا لدغت ، والغاسق سم نابها لأنه يسيل منه . و (النفاثات) النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها ويرقين . وقرأ الجمهور (النَّفّاثات) والحسن بضم النون وابن عمر والحسن أيضاً وعبد الله بن القاسم ويعقوب في رواية (النافثات) والحسن أيضاً وأبو الربيع (النَّفِثات) بغير ألف نحو الحذرات . والاستعاذة من شرهن : هو ما يصيب الله تعالى به من الشر عند فعلهن ذلك . وسبب نزول هاتين المعوذتين ينفي ما تأوله الزمخشري من قوله : ويجوز أن يراد به النساء ذات الكيادات من قوله ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ [يوسف ٢٨] تشبيهاً لكيدهن بالسحر والنفث في العقد . أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن كأنهن يسحرنهم بذلك . انتهى . وقال ابن عطية : وهذا النفث هو على عقد تعقد في خيوط ونحوها على اسم المسحور فيؤذى بذلك ، وهذا الشأن في زماننا موجود شائع في صحراء المغرب ، وحدثني ثقة أنه رأى عند بعضهم خيطاً أحمر قد عقدت فيه عقد على فصلان فمنعت من رضاع أمهاتها بذلك فكان إذا حل عقدة جرى ذلك الفصيل إلى أمه في الحين فرضع انتهى . وقيل : الغاسق والحاسد بالتعريف ، لأنه إذا لم يدخل الليل لا يكون منسوباً إليه . وكذا كل ما فسر به

---

(١) البيت من البسيط لذي الرمة انظر ديوانه ٣٠ فتح القدير ٥/٦١٩

(٢) البيت من البسيط ذكره السمين في الدر المصون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤
الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦

تقدم أنها نزلت مع التي قبلها . والخلاف في كونها مدنية أو مكية . وأضيف الرب إلى الناس ، لأن الاستعاذة من شر الوسواس في صدورهم استعاذوا بربهم مالكهم وإلههم كما يستعيذ العبد بمولاه إذا دهمه أمر . والظاهر أن (ملك الناس ، إله الناس) صفتان . وقال الزمخشري : هما عطف بيان كقولك : سيرة أبي حفص عمر الفاروق ، بيّن بـ (ملك الناس) ثم زيد بياناً بـ (إله الناس) ؛ لأنه قد يقال لغيره : رب الناس كقوله : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ [التوبة ٣١] وقد يقال : ملك الناس . وأما إله الناس فخاص لا شركة فيه فجعل غاية للبيان . انتهى . وعطف البيان المشهور أنه يكون بالجوامد . وظاهر قوله : إنهما عطفا بيان لواحد ولا أخلو من المناقشة ، وفي عطف البيان هل يجوز أن يتكرر للمعطوف عليه واحد أم لا يجوز . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) فهلا اكتفي بإظهار المضاف إليه الذي هو الناس مرة واحدة ؟ (قلت :) لأن عطف البيان للبيان ، فكان مظنة للإظهار دون الإضمار . انتهى . و (الوسواس) قالوا : اسم من أسماء الشيطان . والوسواس أيضاً ما يوسوس به شهوات النفس ، وهو الهوى المنهي عنه . و (الخناس) الراجع على عقبه المستتر أحياناً ، وذلك في الشيطان متمكن إذا ذكر العبد الله تعالى تأخر ، وأما الشهوات فتحصن بالإيمان وبلجم التقى وبالحياء . فهذان المعنيان يدخلان في الوسواس ، ويكون معنى (من الجنة والناس) من الشياطين ونفوس الناس . أو يكون (الوسواس) أريد به الشيطان ، والمغوي المزين من قرناء السوء فيكون (من الجنة والناس) تبييناً لذلك الوسواس . كما قال تعالى ﴿ عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ [الأنعام ١١٢] وقال قتادة : إن من الإنس شياطين ومن الجن شياطين فنعوذ بالله منهم . وقال أبو ذر لرجل : هل تعوذت من شياطين الإنس . وقال الزمخشري : (الوسواس) اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة ، وأما المصدر فوسواس بالكسر كزلزال . والمراد به الشيطان سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه لأنها صنعته وشغله الذي هو عاكف عليه أو أريد ذو الوسواس . وقد تكلمنا معه في دعواه أن الزلزال بالفتح اسم وبالكسر مصدر . في (إذا زلزلت) . ويجوز في (الذي) الجر على الصفة ، والرفع والنصب على الشتم . و (من) في (من الجنة والناس) للتبعيض ، أي كائناً من الجنة والناس فهو في موضع الحال ، أي ذلك الوسواس هو بعض الجن وبعض الناس . وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون (من) متعلقاً بـ (يوسوس) ومعناه : ابتداء الغاية . أي يوسوس في صدورهم من جهة الجن ومن جهة الناس . انتهى . ولما كانت مضرة الدين وهي آفة الوسوسة أعظم من مضرة الدنيا وإن عظمت جاء البناء في الاستعاذة منها بصفات ثلاث . الرب والملك والإله وإن اتحد المطلوب . وفي

الاستعاذة من ثلاث الغاسق والنفاثات والحاسد بصفة واحدة وهي الرب وإن تكثر الذي يستعاذ منه . « كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ونفث فيهما وقرأ (قل هو الله أحد) والمعوذتين ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ برأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاثاً » .

تم هذا التفسير بعونه تعالى .

فهرس الجزء الثامن

من البحر المحيط